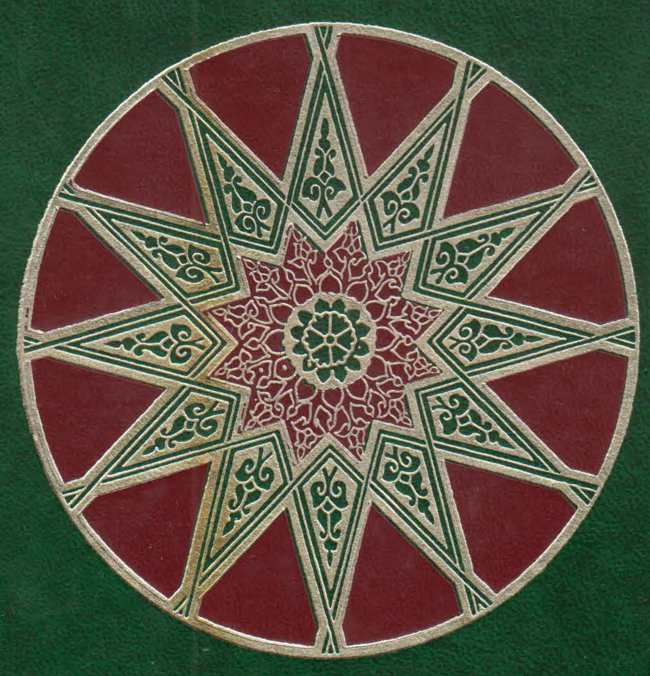
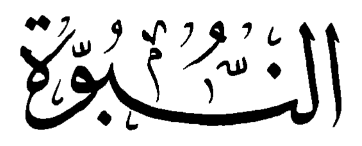
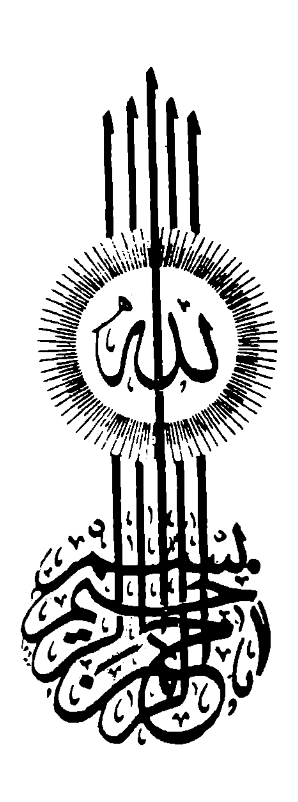
السيّد عبد الحسين دستغيب

النبوة
المعاد
الإمامة



الدار الإسلامية




الله
بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة أصول الدين
(٣)



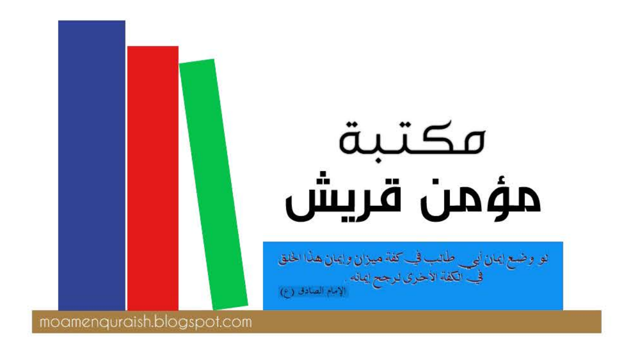
النبوة

شهيد المحراب
آية الله عبد الحسين دستغيب

ترجمة

محمد صادق الحسيني

الدار الإسلامية



الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ - غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

كلمة الناشــر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ .

تلخص هذه الآية الكريمة مسألة الرسالة بكل مضامينها ومعانيها ، كما تلخص الغرض من إرسال الرسل والأنبياء إلى الناس ، وتبرز حاجة الخلق إلى الأنبياء .

﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ . فهو سبحانه بعث نبيه إلى الناس ، بشراً مثلهم ، يعرفهم ويعرفونه ، يحدثهم بلسانهم ، يأكل مأكلهم ويشرب مشربهم ، إنما يمتاز عنهم بخلقه وطهارة سيرته . فهو عندهم المحترم الموقّر ، من خبروا استقامته وعصمته ، وعرفوا منه حسن الخلق والرحمة . ثم فرض الله عليهم طاعته ، وألزمهم الاستجابة إلى توجيهه ، كما ألزم ـ هو نفسه بالعمل بما جاء به من عند ربّ العالمين ، فهو لهم قدوة ، يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويدعوهم إلى ما يدعو إليه نفسه ، فهو بهذا حجة عليهم ، ولن يكون لهم إذ ذاك حجةٌ على الله ، بجهلهم وعدم معرفتهم ، فقد أرسله ﴿ بالهدى ودين الحق ﴾ ، ليعرفهم بكل شيء ويبين لهم كل ما خفي عليهم ، ويلزمهم

ـ بعدها ـ بالطاعة كما ألزم نفسه ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ . فإن أطاعوه فهو لهم إذ ذاك البشير بالسعادة ، وإن عصوه ، فهو لهم النذير بالعذاب ، ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين** ﴾ .

والرسول إذ أدى مهمته كما أمر الله ، وبلّغ الرسالة ، فهو الشاهد على الناس يوم الحساب ، الشاهد على من سمع فأطاع ففاز ، والشاهد على من سمع فعصى فهوى إلى العذاب .

والعذاب لن يأتي إلاّ بعد أن يكون الرسول قد استنفد السبل في النصح والإرشاد . وكان في دعوته وسيرته وثباته خير أسوة . فمن لم يستجب بعد كل ذلك فحجته داحضة ، واستحق العذاب :

﴿ **وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ .

وكتاب النبوّة الذي بين أيديكم أيها القراء الكرام ، يتناول في أسلوبه الفريد الممتع ، هذه النواحي وغيرها من مسألة النبوة ، بعبارات سهلة المتناول ، ولسان قريب إلى القلب والعقل ، نسأل الله أن يكون خطوة على طريق الرشاد ، وأن يلقى القبول في رضاه سبحانه ، فرضاه هو المأمول والمرتجى .

الدار الإسـلامية

(١)

حاجة البشر إلى الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ مِن شيء ﴾
(سورة الأنعام : الآية ٩١)

نعم إنهم لم يُقدّروا الله حق تقديره عندما قالوا إنَّ الله لم يُنزل من شيء على البشر. هذا هو مضمون الآية الشريفة، أي أن الذين يُنكرون نبوّة أنبياء الله لم يعرفوا الله معرفةً تدل على حكمته وكماله ، وفي الحقيقة فإن إنكـار الأنبياء يرجع إلى إنكار وجود الله . فالذي عرف الله وعَلِم أن كافـة أعمالـه لا تحصل إلاّ لمصلحة وحكمة ، يصبح يقيناً لديه بأن الله العادل ؛ إنما يقتضي عدلهُ بأن لا يترك الإنسان ضائعاً وتائهاً ، بل لا بدّ وأن يرسل إليـه الأدّلاء والهُداة الـذين يدعونه إلى الهدف الذي خُلِق من أجله البشر ، ألا وهو اكتساب معرفة التـوحيد ووحـدانية العبـادة والأخلاق الفـاضلة والأعمال الصـالحة والامتنـاع عن الكفر والشرك ونبذ الأخلاق السيئة والأعمال القبيحة .

ولو لم يأت الأنبياء لتبيان طـريق الجنة والنـار إلى البشر لكـان ذلك عين الظلم وخلافاً للحكمة الإلهية .

العلاقة مع العوالم الأخرى

إنَّ كـل من يُريـد أن يعرف ربَّـه وينجو من انحـرافات العقيـدة ليس لـه طريق إلاَّ الوحي وإن معرفة العـوالم الأخرى لا تتم للبشـر بغير الـوحي الإلهي للأنبياء .

وعليه فإن الحكمة الإلهية تقضي بـأنه إذا أُريـدت هدايـة البشر فـإن من خيرهم وصلاحهم أن يبعث الله الأنبياء لهم .

نضلاً عن أن وجود الأنبياء هذا ضـروري حتى من أجل الحيـاة الماديـة الدنيوية وعدم وجوده خلاف للحكمة ، وإليك الدليل :

الحيوانات ليست بحاجة إلى مجتمع

لا شك بأن حياة البشر إنما هي حياة اجتماعية ، وأن البشر في النهاية لا يمكنهم العيش عيشة انفراديـة . في حين أن كثيراً من الحيـوانات تعيش حيـاة انفرادية إذ إن حاجاتها محدودة ، فهي لا تحتاج إلى اللباس مثـلاً حيث تكتفي بالجلد أو الصوف أو الـريش أو الوبـر غطاءً لهـا ، ومسكنها هـو الآخر إمّـا أن يكون فوق الأشجار أو في أوكارٍ لها تجدها في جوف الأرض أو وسط الغـابات أو بين الوديان والجبال .

كذلك طعامها ، فإن الله قد هيّـأه لهـا بشكـل طبيعي فهي تخرج جـائعةً من بيوتها في الصباح وتعود شبعانةً إليها في المساء ، دونما حاجـة إلى مجتمع أو جماعة .

تمـاماً على عكس الإنسـان ، ذلك المـوجود الاجتمـاعي الـذي يحتـاج لبعضه البعض في لباسه ومسكنه وطعامه .

حاجات البشر المتبادلة

هل يعرف الواحد منا كم يحتاج لتهيئة اللباس مثلاً ؟ في الحقيقة نحن نحتاج إلى الإنسان الذي يبذر بذور القطن كما نحتاج إلى صاحب معمل الحياكة والخياطة فضلاً عن جميع المراحل الأخرى فيما بينهما ، بالإضافة إلى الخيَّاط والإبرة والخيط إلى غير ذلك من الأدوات ؛ وكل ذلك من أجل لباس سرعان ما نحتاج إلى تغييره وإبداله بلباسٍ غيره .

نفس الشيء هو الأمر مع المسكن ، إذ لا بد من الحجارة والترابة والحديد والخشب ، كما لا بدّ من النجّار والحدَّاد والبنَّاء وغيرهم .

وكذلك الأمر مع الطعام ، فنحن بحاجةٍ إلى الزارع والحصَّاد وإلى المطحنة وصاحب المطحنة ، إلى أن نصل إلى الخبَّاز . وهكذا هي الحالة مع سائر الأطعمة ، فإنها جميعاً إنما تقوم على الحاجة والاحتياج المتبادل المستمر والدائم .

وعليه فإن كافة شؤون البشر تتلخص في الحاجة والاحتياج المتبادل، ولا بد للأفراد من أن يكونوا معاً حتى يسدّوا حاجة بعضهم البعض ويُلبّوا احتياجات الجميع ، وإلاّ فمن غير الممكن أن يصبح الجميع زُراعاً ، وخياطين ونجّارين وبناءين في آن واحد .

ضرورة وجود الأنبياء

والآن فإن نظام المجتمع هذا لا بدّ له من قانون ، إذ أن وجود كل أولئك مجتمعين في آن معاً يمكن أن يؤدي إلى تصادم في مصالح بعضهم مع البعض الآخر، الأمر الذي يستدعي وجود قانون يفض النزاعات الناتجة، وذلك حفظاً للحدود وضماناً للأموال والنفوس ؛ وإذا ما أضفنا الحس الشهواني الموجود لدى البشر مثل سائر الجيوانات، فإن عدم وجود القانون في هذه الحالة

سيؤدي حتماً إلى تعدّيات جنسية ونزاعات لا حدّ لها ولا حصر .

لهذا فإن ربّ العالمين ـ فضلاً عن الجوانب المعنوية الأخرى لتنظيم شؤون هذه الدنيا الفانية ـ لا بد وأن يَسنّ لنا قانوناً للمعاشرة والحياة الاجتماعية نُدير بواسطته شؤون المعاملات المتبادلة والمصالح المشتركة ويقوم على أسس معينة ثابتة .

هل يكفي القانون الوضعي ؟

قد يقول قائل بأنه صحيح أن البشر لا تقوم قائمة حياتهم الاجتماعية بغير القانون وأنه لا بدّ من وجود المُشرِّعين ؛ لكنه ليس من الضروري أن يكون المُشرِّع هذا نبياً ، بل يكفي أن يجتمع عقلاء القوم في مكان ما ويضعوا قانوناً يتناسب ومصلحة وصلاح المجتمع البشري ، كأن يضعوا قانوناً للربا مثلاً يقضي بأن يُستدعى الدائن المسكين الذي لا يتمكن من دفع الفوائد المترتبة عليه إلى المحكمة وبالتالي توقيفه أو سجنه . وعقلاء القوم هؤلاء يتم انتخابهم بواسطة الناس .

لكننا رداً على ذلك نقول :

الإحاطة بالمصالح والمفاسد شرط ملازم للمشرِّع

أي أنه لا بدَّ أن يتوفر شرطان مهمّان وأساسيان للمُشرِّع وذلك بحكم العقل .

الشرط الأول : هو ضرورة أن يكون المشرِّع محيطاً إحاطة تامة بجميع مصالح ومفاسد الأمور من الأزل حتى قيام الساعة . إن الذي يُريد أنْ يضع القانون لا بدّ له أن يعرف كافّة الجوانب الإيجابية له ، وكذلك كافة الجوانب السلبية المترتبة عليه . فالذي يأتي ليقول للناس تعالوا واعملوا كذا وكذا عليه

أن يعرف بأن الأوضاع متغيّرة ومتقلّبة بين لحظة وأخرى ، ولذلك فإن واضع القانون وصاحب التشريع لا بدّ أن يضع قانوناً يصلحُ لكل الأزمنة وكل الأماكن .

مثال على نقص قانون الزواج الوضعي

من المعروف أن عدداً من الجهّال قد اجتمعوا يوماً وقرروا عدم صلاحية زواج البنت قبل بلوغها سن الثامنة عشرة ، ثم أتوا بعد فترةٍ وقالوا بسن السادسة عشرة . ثم توالت الأيام . . وبعد أن واجههم عدد من المصاعب والإشكالات العملية والتي كانت من ضمنها الانحرافات الحاصلة بين أوساط البنات ، اضطروا مجبرين إلى تخفيض السن المفترضة إلى ثلاثة عشر عاماً وذلك بعد استئذان القاضي . وقد رأينا كيف أن هذا القانون قد تعرَّض للهزَّات والتحولات خلال فترة وجيزة من الزمن ، وبالتالي فإنه لم تحصل النتائج التي كانت مرجوّة من وضعه .

سن الرشد والبلوغ هو المعيار

في المقابل فإن القانون الإلهي جاء ليفصل في هذا المجال عندما جعل سن الرشد هو المعيار والميزان ، فإذا كانت البنت قد بلغت سن الرشد لا بدّ من تزويجها سواء كانت في العاشرة من عمرها أو في الخامسة عشرة . ويا لهُ من ميزان ومعيار حكيم ينطبق على الفطرة والعقل السليم ، ولا يترك أي ثغرة أو مجال للتعليق . فقد يحصل الرشد والبلوغ الجسمي والفكري لإحدى البنات في سن التاسعة بينما تفتقر إليه بنت أخرى في سن الثالثة عشرة .

فأي القانونين أجدر بالاتّباع ؟

بماذا يمتاز أصحاب القانون الوضعي

إن واضعي القوانين من البشر ـ ليس فقط في منطقة معينة بل في كافة أنحاء العالم ـ لا يمتازون عن غيرهم من البشر بشيء . فمن أين لهم أن يعرفوا ماذا سيحصل للعالم بعد عدة سنوات ؟ في حين أن واضع القانون ينبغي أن يكون ناظراً وعارفاً بمجرى الأمور حتى قيام الساعة ، حتى يتمكن من وضع قانون محكم ومتين يصلح لكافة العصور والمراحل البشرية .

الربا آفة المجتمع البشري

مثال آخر على القوانين الاجتماعية هو مثال تحريم الربا ﴿ وحرَّم الرِّبا ﴾[1] إنه الحكم الإلهي الذي سيظل خالداً حتى قيام الساعة .

إن الربا آفة هدَّامة للبيوت وأمرٌ يؤدي للقضاء على الاقتصاد الصحيح للمجتمع . إنه يوجب العداوة والحقد ، فكم هي كثيرة العداوات وانعدام الثقة الناشئة عن العلاقة الربوية بين المدين والمرابي . وكم من عداوة نشأت بين أخوين مسلمين بسبب الفائدة الربوية .

في عصر الانحطاط الجاهلي قبل الإسلام كان وضع الكثيرين قد وصل إلى حد البؤس والشقاء المطلق بسبب المعاملات الربوية ، حيث كان البعض يقترض مقداراً من المال مثلاً مقابل فائدة معينة تحسب عليه ؛ وعند التأخر عن الدفع يبدأ المرابي بحساب فائدة على الفائدة ، تماماً كما هو الوضع مع بنوك عصرنا الراهن .

ربّما كان على المدين في بعض الأحيان بيع بيته حتى يدفع الفائدة المترتبة عليه . وإذا لم يكن لديه بيت ربّما اضطر إلى عرض ابنته للبيع أو

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

عرض ابنه ليكون في عداد الغلمان عند المرابي ، وإذا لم يكن عنده أولاد ربما اضطر إلى أن يعرض نفسه غلاماً عند المرابي بدلاً عن الفائدة .

بينما جاء الإسلام ليحرِّم الربا بأي شكل من أشكاله ، قليلا كان او كثيراً ، بالعين أو بالوصف أو بأي شكل آخر فكل ذلك حرام قطعاً .

على كل حال لا بدّ للمُشرِّع وواضع القانون من أن يكون ناظراً وعالماً بمصالح ومفاسد الأمور . والبشر من جهتهم عاجزون لا يفقهون شيئاً من هذا . والأفراد الذين يتم انتخابهم على أنهم نوّاب وممثلون هم بدورهم لا يفقهون شيئاً ولا هم أكثر فهماً أو وعياً من سائر البشر الآخرين .

إن التشريع (وضع القوانين) من حقّ الله وحده ؛ وهو الوحيد القادر على الإحاطة بمصالح ومفاسد شؤون عباده في كل الأماكن ومختلف الأزمنة .

عدم التحيز شرط ثان للمُشرِّع

وأمّا الشرط الثاني للمُشرِّع فهو ضرورة ثبوت عدم تحيزه التام ، أي أنه لا يجوز ملاحظة أي نفع شخصي له أو للمقرَّبين منه من أهل أو أصدقاء ، بل يجب أن تحكمه ضرورة النظر إلى مصلحة الشعب ووضعها أمام عينيه ، وليس ملء الجيب وإرضاء الأقرباء و نعشيرة لا سمح الله ، ومن ثم فليكن ما يكون من بعدي ! .

باختصار ، لا يجوز للمُشرِّع أن يكون من الطامعين في السلطان أو جامعي المال والثروة والكانزين لها .

حاجة التشريع القانوني إلى قوة تنفيذية

إضافة إلى ذلك فإن المشرِّع العالم والمسؤول بحاجة إلى مُنفِّذ للقانون بعد وضعه إياه ، وإنه لا بدّ من أن يراه العقل واجب الإطاعة أي أن يقول العقل بضرورة إطاعة البشر له .

إنَّ القانون هو ذلك الأمر المطاع والمُنفَّذ من قبل الناس بدون أي تهديد أو خوف من أحدٍ من البشر إطلاقاً ، حتى داخل البيت، بل وحتى أثناء العزلة المطلقة للإنسان .

عندما يقع مال بين يديك ولا أحد يراك تقول : إن الله حاضر وشاهد عليّ . أو عندما يقع مال أحدٍ معين بين يديك ولا يوجد أي مستند يثبت مالكية المال لصاحبه ، فالمطلوب أن يكون هناك قانون يحمي صاحب هذا المال ، ولا بدّ أن يكون موجوداً بالفعل ذلك القانون القابل للتنفيذ والإجراء .

عندما يكون صاحب القانون حاضراً وشاهداً على الدوام . فإذا ارتكب الذنب ، أي عندما يحصل السلوك المخالف للقانون الإلهي فعندها ترى المذنب يقول : إن الله حاضر معي وإني واقف بين يديه . وما أكثر الأشخاص الذين تقع الثروات بين أيديهم دون أن يعلم بها ورثتها ، ولكنهم رغم ذلك تراهم قد حافظوا عليها وأوصلوها إلى أصحابها ومالكيها الشرعيين .

فهل هذا هو القانون المطلوب أوِ أنّ تلك القوانين الاعتباطية هي القوانين ؟

إن القانون المطلوب هو القانون الذي لا تتم عرقلته كلما تحركت الشهوات وازداد هيجانها .

حق المحاسبة لله وحده

وفي هذه الحالة فإن الله وحده هو الذي يحق له أن يحاسب على عدم إطاعة الأفراد لقانونه ، وليست مجالس الشورى أو غيرها من المؤسسات . ولو قال الله تعالى : لماذا خالفت يا عبدي وعملت خلافاً لحكمي ؟ فإنه حريٌّ بالإنسان عند ذاك بأن يطأطىء رأسه خجلاً ، بل إنه سيكون متأثراً بالتأكيد

حتى وإن لم تتم محاسبته أو توجيه اللوم إليه أو تأنيبه .

ولو حصل أنه استولى في أيام طفولته على مال أحدٍ من الناس، وبالرغم من أنه لم يكن مُكلَّفاً فإن مُجرَّد تذكُّره لهذا الأمر يعني غرقه في بحر من الخجل ، ويرى أنه لا بدّ له من الالتزام بالتعهد المطلوب ، لأن حق الناس المطلوب كفالته والتعهد تجاهه لا بد من أدائه سواء كان كبيراً أو صغيراً ، ولا بدّ للمرء أن يخاف الله ويرتجف من هول المحاسبة وإمكانية العقاب .

للقلوب طريق مفتوحة إلى الله

إن أكثر أفراد البشر تمرداً حتى الفاجرون والفاسقون تراهم لا بد وأن يخجلوا بينهم وبين أنفسهم أحياناً ، وذلك لأن القلوب لها طريقها المفتوح إلى الله . فارتباط القلوب ببارئها أمر حتمي وأكيد ، وإن كان الغضب والشهوة يغلبان أحياناً ، ولكن حتى الإنسان الشارب للخمرة فإنه عندما يمرض وهو في تلك الحالة من الانكسار تراه يتذكر ربّه ، ويتذكر كيف أنه قد خالف أمر ربّه ، كذلك هو الأمر مع من خسر ماله وخسر تجارته ، تراه يستفيق فجأةً من هول الصدمة ويتذكر ربّه ويبدأ يناجيه ويقول : يا رب ، كم أهلكت أناساً في حياتي الماضية ! وكم أسأتُ معاملة الناس وإلى غير ذلك من السلوك المنحرف ، الأمر الذي أوصلني إلى الحالة التي أنا فيها من الخسران والإفلاس . وعندها يذكره الله أيضاً وقد يحميه فعلاً ويفتح له الطريق للعودة إلى جادّة الصواب كما يقول تعالى : ﴿ فاذكروني أذكرْكم ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٢ .

(٢)

النبوّة والعصمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة ﴾

(سورة الأنعام : الآية ٨٩)

العصمة شرط للنبوّة

إن الذي يدّعي النبوّة أي أنه يقول بأنه قد جاء مبعوثاً من الله ورسولاً لـه لا بدّ وأن يكون حائزاً على عدد من الشروط التي إن افتقـر إلى أحدهـا يصبح العقل في حِلٍّ من وجوب إطاعته .

والشرط الأول من شروط النبـوّة هو العصمـة ، أي أن يكون رسـول الله معصوماً عن ارتكاب كافّة الذنوب الصغير منها والكبير؛ وسواء ما قبل عهد نبوّته أو ما بعدها . وذلك لأن هذا الرجل جاء ليقول للناس : لا تـذنبوا ، فـإن كان هو من مرتكبي الذنوب أو أنّ له سابقـة في ارتكاب الـذنوب فـإن عقلاء القـوم سوف لن يرضخوا لسلطانه . فالنبي لا بدّ وأن يكون طاهراً ومزكى حتى يستطيع تطهير وتزكية الآخرين . إنه يجب أن لا يكون قد شوهد منـه أي ذنب من أول عمره إلى آخره .

محمد الأمين قبل البعثة

كما جاء في أحوال رسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك عندما اعترفت له قريش كلها بالأمانة والصدق قبل إعلانه الدعوة النبوية؛ فلمّا سألهم رسول الله : لقد كنت أربعين عاماً بينكم فكيف عرفتموني ؟ قالوا إننا لم نعرف عنك سوى الصدق والأمانة ، لقد كان مشهوراً بالأمين إذ كانت الأمانات تودع عنده .

فلو كانوا قد رأوا أي خطيئةٍ منه لكانوا قد قالوا له فور إعلان الدعوة بأنك أنت هو ذلك الشخص المعروف بهذا العمل القبيح أو ذاك ، وما شأنك بدعوتنا إلى التقوى وترك الذنوب .

ولذلك تراهم توسّلوا باتّهامات من نوع آخر ضده كقولهم له : شاعر وساحر ومجنون إلى غير ذلك من الاتّهامات البذيئة .

لقد قال لهم : يا أهل مكة ما رأيكم لو قلت لكم إنَّ بلاءً مُحدقاً بكم وهو على أبواب مكة (أن يكون العدو على الأبواب مثلاً) فهل تقبلون ذلك منّي وتصدقونني ؟

فقالوا له جميعاً : نعم ، وكيف لا ونحن نعتبرك الصادق الأمين الذي تريد خيرنا .

فقال لهم : إذن قولوا لا إله إلّا الله تُفلحوا . فما كان منهم إلّا أن واجهوه بالحجارة ، لأنهم رأوا أنه ليس ممكناً لهم التخلي عن ٣٦٠ صنماً ودكاناً من دكاكين الارتزاق مقابل إله واحد[1] .

---

(١) ﴿ أجعلَ الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عُجاب ﴾ سورة ص : الآية ٥ .

النبي أفضل خلق الله في الأمة

الشرط الثاني من شروط النبوّة هو أن يكون النبي المرسل أفضل من جميع أفراد الأمة المبعوث إليها ، أن يكون الأعلم والأفضل بينهم ، لأنه إذا ما وجد معادل ومساوٍ له فإن نبوّته تصبح عبثاً ، حيث إن المرسل إلى جماعة من الناس ليكون هادياً لهم لا بد وأن يكون دليلهم ومرشدهم ولا نظير له في عمله هذا ، وإلاّ فإنّ النظير أيضاً سيكون جديراً بالنبوّة، ناهيك عن وجود من هو أفضل منه ، إذ أنه عند ذلك يكون قد حصل ترجيح الراجح على الأرجح وهذا خطأ بحكم العقل ولا يجوز ، فكيف يمكن انتخاب صاحب الفضيلة ليكون دليلاً وهادياً لمن هو أكثر فضلاً منه ، إنه عمل قبيح وغير ممكن .

أعمال النبي وأقواله مطابقة للعقل

الشرط الثالث للنبوّة هو أن لا تكون أعمال وأقوال مُدّعي النبوة مخالفةً لضرورة العقل ، أي أن يكون كلامه مقبولاً من العقل السليم ، لأنه إذا ما كان خلافاً لحكم الضرورة العقلية فإن العقلاء سوف لن يرضخوا له ، ونورد هنا إحدى العقائد الخرافية والمخالفة للعقل لدى اليهود والنصارى ، والتي نحن على يقين بأن سيدنا موسى وسيدنا عيسى (عليهما السلام) لم يقولا بها أبداً :

وحدة الأقانيم الثلاثة

يقول النصارى بأن الله عبارة عن ثلاثة كيانات عيسى ومريم وروح القدس[1] وأحياناً أخرى يقولون بأن الأقانيم الثلاثة هذه صارت واحداً . وهل يمكن جمع الضدين فالثلاثة لا يمكن أن تجتمع مع الواحد ، فإما أن يكون

---

(١) ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ سورة المائدة : الآية ٧٣ .

الله واحداً أو ثلاثة ، ولا يمكن أن يكون ثلاثة وواحداً في آن معاً . وقد سبق أن بيَّنا بالتفصيل في بحثنا عن التوحيد بأن الله واحد لا شريك له على الإطلاق .

فأي رابطة تربط عيسى ذلك الإنسان الذي يأكل ويشرب وينام بمقام الألوهية ؟ ومريم تلك الإنسانة العادية التي عاشت وماتت ، ما هي علاقتها بمقام الرب ؟ إن فكرة التثليث مخالفة تماماً لضرورة حكم العقل ؛ وإن موقع المسيح عيسى هو موقع النبوّة الشامخ الذي يتمتع به[1] ، ولا يأبى أن يكون عبداً لله[2] . وما عيسى إلاّ مخلوق ومرزوق من الله ، مثله مثل سائر الأنبياء . فكلهم عباد الله وليسوا في مستوى الربّ أبداً .

على كل حالٍ لا بد أن تكون الأقوال الصادرة عن النبي لا تخالف الضرورة العقلية بتاتاً .

النبوة بعد محمد (ص) أمر مستحيل

لو جاء أحدهم في زمن ما بعد وفاة سيدنا خاتم الأنبياء محمّد (صلى الله عليه وآله) وادّعى النبوّة مثلاً ، فهل لدينا له جواب غير الإنكار والاستنكار ؟ ذلك أن ادّعاء النبوّة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمرٌ يحصل خلافاً للضرورة ، والضرورة تعني البديهة . فمن يدَّعي مثلاً الآن ونحن في وسط النهار بأن الوقت إنما هو وقت المساء ، فهل نطلب منه دليلاً على هذا الادِّعاء أم أن قوله سيُحمل على الحماقة أو السفاهة أو الجنون ؟

إن محمداً (صلى الله عليه وآله) هو خاتم الأنبياء ، وقد خُتمت النبوّة

---

(١) ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول ﴾سورة المائدة : الآية ٧٥ .

(٢) ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾سورة النساء : الآية ١٧٢ .

به ، ونص القرآن صريح في هذا المجال تماماً[1] .

وفي الحديث الشريف المشهور بحديث المنزلة وهو من الأحاديث المتواترة ، يقول الرسول (صلى الله عليه وآله) نفسه مخاطباً أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) بأنه لا نبي بعده[2] وفي حديث آخر أن النبي (صلى الله عليه وآله) وضع إصبع الشهادة إلى جانب الإصبع الوسطى وقال : « أنا والساعة كهاتين » أي أن دين محمد والساعة لا يفترقان ، وهو باق إلى قيام الساعة .

وهناك أحاديث تُنقل عن أهل البيت (عليهم السلام) فيها : « إن حلال محمد حلالٌ إلى يوم القيامة وحرام محمد حرامٌ إلى يوم القيامة » .

ولا بأس هنا من الإشارة إلى قصة أحد مُدَّعي النبوّة المذكورة في كتاب (رياض الحكايات) إذ ننقلها لكم على سبيل الاطّلاع :

سحر ابن المقنع وانتحاره

ابن المقنع هذا كان واحداً من أولئك الرجال الذين ادّعوا النبوّة . وقد كان رجلًا قبيحاً وذا وجه مليء بالبثور الناتجة عن مرض الجدري ، مما جعله يضع قناعاً من الذهب على وجهه ليُخفي صورته البشعة .

لقد كان ساحراً عجيباً ، يقوم يومياً بإخراج قطعة نورانية صغيرة من المعدن من إحدى الآبار القريبة من موقع سُكنى عشيرته ، وذلك عند الغروب ، ثم يقوم بمحو آثارها بعد فترة بسيطة .

---

(١) ﴿ ما كان محمداً أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

(٢) « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي » ـ الغدير وكثير من كتب السنة المعتبرة .

وفي ذات يـومٍ قام بـالسيطرة على القلعـة القريبـة منه بشكـلٍ كامـل ، والتفّ حوله جمع من السذج أو المكَـرة من الناس أمثاله، وأخـذ عمله وسلوكه آنذاك يأخذ حجماً كبيراً حتى أن حكومة ذلك الزمان عجزت عن أن تعمل معه شيئاً .

واستمـر الوضـع معه كـذلك إلى أن قـرر الخليفـة في بغـداد أن يُجهِّـز الجيوش ضدّه ويُصمّم بشكل جدّي للقضاء عليه فأمر بمحـاصرة القلعـة ، وقد كان أمر محاصرة المدن معمولاً به حينذاك ، فما كان من ذلك الملعون ـ وبعد أن أحسّ بعدم فائدة المقاومـة وأنه لا سبيـل له سـوى الاستسلام ـ إلاّ أن قـام بتسميم مياه الشرب في تلك الناحية فقتل جميع سكان المنطقة ثم ألقى بنفسه في بركة خمر مليئة وقضى منتحراً .

ولمّا جاء جند الخليفة رأوا أن جميع أنصاره قد ماتوا ولكن لا أثر لـذلك النبي الكذاب نفسه ، لكنهم لمّا شاهدوا تلك البركة رأوا شعر رأسـه وقد طفـا على السطح ،وقد أخبرتهم إحدى العجـائز المتبقيـات على قيد الحيـاة أن ابن المقنع هذا قد مات منتحراً .

الفرقة الضالّة

لقـد سبق وذكرنـا بعض الآيات والأحـاديث الواردة بشـأن خاتميـة النبي الأكـرم (صلى الله عليه وآلـه) وهو مـوضوع أصبح من المسلَّمـات الـدينيـة والتـاريخيـة . فمحمـد (صلى الله عليـه وآلـه) اختتمت بـه النبـوّة بـالكمـال والتمام .

ولكن عدداً من الضالين ظهـروا يومـاً وحاولـوا الترويـج والادّعاء بـالنبوّة لابن رضـا الشيرازي وهـو الرجـل الذي اتّهمـه البعض بالجنـون ، ثم ظهـرت

مجموعات فاسدة فيما بعد وحاولت السير على خطاه أيضاً لكنها باءت بـالفشل جميعاً .

وهؤلاء الناس كانوا قد بنـوا أساس وبنيـان عقيدتهم على العـدد (١٩) وربما كان ذلك بسبب عدد زبانية جهنم الذين ذكر أنهم تسعة عشر[١] .

لقد حصل كل هذا في الوقت الذي لم يعـد فيه أدنى شـك بأنـه لا نبي بعد محمد (صلى الله عليه وآله) كما أبلغ جبرائيـل الذي نـزل أثناء احتضـار رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما قال بأن نزوله هذا هو النزول الأخير له إلى الأرض .

خاتمة الوحي والنبوة

ولكن هذا لا ينافي القول بأن جبرائيل قد نزل إلى الأرض مـرة أخرى ، كما جاء في المقاتل الحسينية بأنه قد نزل في يوم عـاشوراء ، وأنـه جلس عند الرمح التي وضع فوقها رأس الحسين المذبوح ، وأنه أخذ يبكي عليه ، ولكنـه لم ينـزل بعد النـزول على النبي (صلى الله عليـه وآلـه) ولن ينـزل أبـداً إلى الأرض بهدف الإتيان بالوحي،على الرغم من ثبوت سند الأحاديث التي تقول بأنه ومعه سائر الملائكة كثيراً ما يأتون لزيارة قبر الحسين (عليه السلام) .

وكمـا تذكـر الأحاديث الثـابتة والأكيـدة فإن سيـدنا المسيـح سيعـود إلى الأرض مرة أخرى ويصلّي خلف المهدي (عليه السـلام) ولكنه لن يكون نبياً . فالوحي انقطع بوفاة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) تماماً ، وكذلـك الأمر بالنسبة إلى سائر الرُسل والأنبياء .

---

(١)﴿ عليها تسعة عشر ﴾سورة المدثر : الآية ٣٠ .

(٣)

الأنبياء والمعجزات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وجئتكم بآية من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون ﴾

(سورة آل عمران : الآية ٥٠)

لا سهو ولا خطأ لدى الأنبياء

إلى جانب الشروط السابقة فإن بُعد الأنبياء عن السهو والخطأ يعتبر من الشروط الأخرى لنبوّتهم . فلو كان النبي وكذلك الأئمة المعصومون في أعمالهم يخطئون وفي السهو هم يقعون، فكيف كان الناس سيثقون بتعليماتهم؟ لأنه عندها سيضعون احتمال السهو في كل قول يقولون ، ومن ثم يترددون في اتّباع تعاليمهم وإرشاداتهم . وعليه فإن حكم العقل يقضي بأن السهو والخطأ يتنافيان مع مقام النبوّة والإمامة .

أن يكون الإنسان معصوماً معناه أن يكون محفوظا من الوقوع في مثل هذه الأمور ، أي أنه علاوةً على عدم ارتكابه للكبائر والصغائر بتاتاً فإنه في مأمن من الوقوع في السهو والخطأ أيضاً .

المعجزة من الأمارات على صدق النبي

حين يرسل أحد في مهمة خطيرة فإنه يتم إرسال العلامة التي تدل على مهمته معه بالتأكيد ، وهذا عرف معروف منذ القدم ولا يزال . فعندما يرسل السلطان مثلاً حاكماً معيناً إلى ناحية ما فإنه عادة يرسله مصحوباً برسالة منه ، مضافاً إلى ختم السلطان وتوقيعه ، حتى يعلم الجميع بأنه فعلاً رسول السلطان ، وإلاَّ فإن الناس ربما لن تقبل به كذلك ، ويقولون له : بأي دليل أنت مبعوث للسلطان ؟

كذلك الأمر مع من يدَّعي بأنه ممثل ربّ العالمين ، وخليفة الله ورسوله ووليّه في الأرضين .

تعامل العقلاء مع مدّعي النبوّة

إن كل من يدعي الرسالة فإن العقلاء ينظرون أول ما ينظرون إلى وضعه ويسألون : هل هو أهل لهذا الادّعاء أم لا ؟

فقد يكون مثله مثل غيره من المُخادعين الكثيرين ؛ فأمر الرسالة أمر لا يحرز من خلال الخداع والغش ، أو بواسطة جمع المال وحب الشهوات ، إنَّ من يدّعي النبوّة لا بدّ وأن يكون من أهل الروحانية ، ولكنه إذا ما عرف بعبادته للمال فإن أحداً لن يهتمّ بأمره بعد ذلك . ولكنه إذا ما أحسن الناس الظن به ورأوا أنه ليس طالباً للرئاسة ، ولا باحثاً عن المال جامعاً له ، ولا عابداً للشهوة سألوه عند ذلك بقولهم : أنت تقول بأنك رسول الله فما هو شاهدك على ذلك ، وبأي شيء نطمئن إلى أنك رسول لربّ العالمين ؟ .

الظاهرة الخارقة شكل من أشكال قدرة الحق

إن الله يبعث مع النبي جانباً من جوانب قدرته حتى تكون شهادة صدقٍ

له في ادّعائـه ، ومن أجل أن يتمكن بـواسطة هـذا الجانب من خـرق القوانين العادية المقررة من قبل الله ، وهو ما يعرف بمعجزات الأنبياء ، كمسألـة إحياء المـوتى وإعادة البصـر إلى المكفوفين، كمـا في حالـة السيـد المسيـح ، وهي الأعمـال التي يعجز عنهـا الآخرون . أو شقّ القمـر إلى نصفين بإشـارة واحدة كما في حالة خاتم الأنبياء ، وهو ما جاء في نص القرآن المجيد[1] .

أيّ بشـر عادي يستـطيع أن يُنـطِق الحصى التي بيده ؟ وأي بشـر عادي يستطيع تحريك الشجر ؟ أو يتمكن من إسالة الماء من إصبعه أو إرضاع الطفل من لسانه ؟

إنهـا أحاديث السيـرة النبوّيـة التي تؤكّد هـذا الموضـوع . حيث تـذكـر الأحاديث بأنه عندمـا ولد الحسين (عليـه السلام) كـان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يمد لسانه داخل فمه فيمص الحسين (عليه السلام) الغذاء من فم جده ويشبع .

المعجزة ما عجز الآخرون عن إتيانه

المعجـزة تعني خلاف العـادة ، وهي الأمـور التي يعجـز الآخـرون عن القيام بمثلها . إنها جزء من قـدرة الحق معه وليست مـوجودة عنـد الآخرين ، وهو الأمر الذي يُجبر الآخرين على قبوله .

والمعجزة ، على أقسام : فإمّا أن تكون مختصةً بـزمان ذلـك النبي ، أو أنها باقية إلى ما بعده أيضاً .

لقد كان لكافة الأنبياء معاجز وصلت إلينا بالتواتـر ، ومنها مـا هو مـذكور

---

(١) ﴿ اقتربت السـاعة وانشق القمر ﴾سورة القمر : الآية ١ .

في تفسير « سورة القمر » للمؤلف تم توضيح هذا الأمـر بالتفصيـل . على الراغبين العـودة إلى كتابات المؤلف بهذا الخصوص .

بنص القرآن الكريم : مثل تحوّل عصـا موسى إلى حيّـة تسعى ، وبياض كف يده عندما كان يـدخلها إلى جيبـه فتُشرق إشـراقاً كـالنور السـاطع المنبعث من السماء .

ولكن لمّا توفّي موسى ذهبت معجزاتـه معه ، ولـم تكن البشـرية بحـاجة إليها بعد رحيله ، فقد أثبتت نبوّته وانتهى الأمر ، عيسى (عليه السلام) الـذي أحيا الموتى وأرجـع البصر إلى الأعمى وإلى غيـر ذلك من الأمـور التي أثبتت نبوّته هو الآخر أيضـاً ، قد انتهت تـأثيرات معجـزاته مـع انتهاء عصـر نبوّتـه . وحده خاتم الأنبياء بقيت معجزته خالدةً بعد مماته .

الدين الخالد معجزته خالدة أيضاً

من المعلوم أن حصول المعجزة هو شرط من شروط النبوّة ، ولكن ليس من شروطها بقاء المعجزة حتى بعد انتهاء عصر النبوّة . لكن هذا الأمر يختلف مـع نبـوّة خـاتم الأنبيـاء محمـد (صلى الله عليـه وآلــه) . فبـالإضــافـة إلى المعجزات الخاصة بعصره كسائر معجزات الأنبياء ـ حيث يذكر أن أربعة آلاف معجزة (غير القرآن المجيد) قد ظهرت على يـده المقدسـة ووصلت أخبارهـا إلينا ـ فإن الله سبحانه وتعالى قد خصصه بمعجزة خـاصة لم يحظَ بهـا أي نبي آخر سواه ، وهي المعجزة الخالدة والباقية حتى قيام الساعة .

فـالمعجزات الأخـرى حصل أن رآهـا بعض النـاس وانتهى مفعـولهـا ، ولكن هذه المعجزة باقية منقـوشة في الألسن وفي القلوب ، ألا وهي (القـرآن العظيم) حيث أراد الله به أن يظهر شـرف هذا النبي العـظيم ، ولمَّا كـان دينه باقياً حتى قيـام الساعـة فإنـه خلق له هـذه المعجزة البـاقية التي اسمهـا القرآن وذلك حتى يشهدهـا وينظر إليهـا ويراهـا كل من يـريد مشـاهدة صـدق محمد (صلى الله عليه وآله) في ادّعائه للنبوّة .

فأتوا بسورة من مثله

فالقرآن المجيد ظاهرة إعجازية من جهات مختلفة ، فهو قد تحدّى بنفسه أولاً بأن يؤتى من مثله .

ثم إن ناقله رجل أمّي وقد نقله إلى الناس ابتداءً من سورة « الحمد » وانتهاءً حتى آخره سورةٍ منه وهي سورة « الناس » ، دون أن يذهب إلى أي مدرسة أو يدرس عند أي إنسان ، سوى أن الله قد أدخله في أعماق قلبه .

في تفسيرهم للآية الشريفة ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله** ﴾ يقول بعض المفسرين بأن الضمير في (من مثله) إنما يرجع إلى محمد (صلى الله عليه وآله) أي : أين لكم من مثل محمد ذلك الرجل الذي لم يذهب إلى مدرسة ولم يقرأ درساً ولا سمع أستاذاً أو حصل على وثيقة ، وهو في وسط تلك البداوة ، وإذا به يأتي بسورة مثل سور ذلك الكتاب العظيم .

ذلك الكتاب الشريف الذي لا يتضمن من أوله إلى آخره سوى الحق والحقيقة[1] إنه القرآن المجيد الذي يحوي كل العلوم بشكل عام ، وكل ما يخطر على بال الإنسان من الشؤون[2] .

جواب الإمام الصادق (ع) لأحد الأطباء الهنود

حصل ذات يوم أن سأل أحد الأطباء الهنود الإمام الصادق (عليه السلام) قائلاً بأن قرآنكم الذي يتكلم عن كل شيء وأنه لا يغفل عن رطب ولا يابس وما إلى ذلك فهل فيه شيء عن الطب أيضاً ؟

---

(١) ﴿ إنه لقول فصل * وما هو بالهزل ﴾سورة الطارق : الآيتان ١٣ ـ ١٤ .

(٢) ﴿ ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

فأجاب الإمام قائلاً : ألم تسمع القرآن يقول : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا ﴾[1] .

إنه يختصر طريق السلامة بهذه الجملة القصيرة .

المعنى الواسع لكلمة الإسراف

وهنا لا بدّ لنا من معرفة معنى كلمة الإسراف كمّاً ونوعاً حتى يتبين لنا معنى الآية الشريفة . فمن جملة معاني الإسراف مثلاً : بلع الطعام غير المهضوم جيّداً ودفعه بسرعة إلى داخل المعدة ، أو إدخال الطعام الساخن أو البارد جداً إليها ، وكل ذلك خلافاً لقوانين الطب وتعليماته .

وخلاصة القول فإن الطبيب عاد وسأل عمّا إذا كان نبيّنا قد قال شيئاً بهذا الخصوص ؟ فأجابه الإمام الصادق (عليه السلام) : بلى فإن النبي (صلى الله عليه وآله) قد تفضل أيضاً بالحديث في هذا المجال قائلاً : « المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء » .

سلامة البدن من بركة الصيام

إنه فعلاً كذلك ؛ وهذا ما أثبته الطب في عصرنا الراهن ، فكم هو تأثير الصيام على سلامة البدن والصحة العامة حتى يقول الله في القرآن الكريم : ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾[2] وكما جاء في الحديث الشريف أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) قال : « صوموا تصحّوا » .

طبعاً لا يجوز لنا الصوم بهدف رعاية الصحة البدنية ، وإلّا فإن هدف التقرّب إلى الله لن يحصل وبالتالي فإن صومنا سيصبح باطلاً ، ولكننا أردنا

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٤ .

بهذا أن نبيّن أهمية الصوم لسلامة البدن وحفظ الصحة العامة .

فبالإضافة إلى طهارة الروح الحاصلة ببركة الصوم فإن البدن بدوره يستعيد سلامته ونشاطه .

إن أساس أغلب الأمراض يكمن في المعدة . ودواؤها يكمن في تركها خفيفةً لبعض الوقت حتى تستريح قليلاً من الحركة والنشاط .

« وأعط كل نفس ما عوّدتها »

ثم قرأ الإمام الصادق (عليه السلام) هذه الجملة على الطبيب الهندي مضافاً إلى ما سبق باعتبارها حديثاً مُسنداً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي : « وأعط كلّ نفس ما عوّدتها » . ويبدو أن المثل القائل بأن « ترك العادة يوجب المرض » مأخوذ أيضاً من هذه النصيحة الدينية .

فأجابه الطبيب الهندي بعد سماعه لهذا الحديث مخاطباً الصادق (عليه السلام) بأنه لا وجود لطب غير طبّكم ، أي أن لب الطبّ وجوهره هو في هذه الجُمل التي ذكرت ، وهي الآية القرآنية والحديث الشريف لرسول الله (صلى الله عليه وآله) .

كواكب الأرض والسماء كانت ملتحمة

إن الهدف من التعرّض لمثل هذه المواضيع هو ذكر بعض الأمثلة التي تبيّن وجوه إعجاز القرآن ، والتي تثبت أن مختلف العلوم قد تمت الإشارة إليها في القرآن الكريم من باب الإجمال .

فقد كتب المرحوم السيد فخر الإسلام عدداً من الكتب في هذا المجال منها (بيان الحق) و (أنيس الأعلام) وقد جاء في الجزء الرابع من كتابه (بيان الحق) حول هذا الموضوع بأنه قد أصبح أمراً مؤكداً في عصرنا الراهن

بأن هذه الكواكب السماوية كانت متصلة بالأرض ثم انفصلت فيما بعد . وهو ما بينه لنا الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد في قوله : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾[1] .

كل الكواكب متحركة

لقد أصبح أمراً ثابتاً ومؤكداً في علم الهيئة الحديث بأنه لا وجود لكوكب ساكن في الكون . وأنه لا صحة لموضوعة تقسيم السيارات والكواكب إلى ثابتة ومتحركة كما كان يقول القدماء ، بل إنه لا وجود حتى لكوكب واحد ساكن في هذا العالم اللامتناهي . وحتى سنين خلت كانت السيارات تعدّ بحدود الـ ٣٠٠ مليون بينما صاروا يعجزون اليوم عن عدّها وإحصائها .

وقد ورد في القرآن الكريم بصراحة قول الله تعالى إذ يقول : ﴿ وكلٌّ في فلكٍ يسبحون ﴾[2] . أي أنه لا وجود للكوكب الثابت بل إن كل واحد منها يسبح ويتحرك في المدار الذي حُدِّد له من قبل الله ، في حين أن بطليموس كان يقول بأن الفلك الثامن ما هو إلا عبارة عن فلك ثابت وأن الكواكب الموجودة فيه كواكب ساكنة ، لكن القرآن يرفض ذلك ويؤكّد بأن الجميع في حالة حركة مستمرة .

حركة المنظومة الشمسية نحو (الوغا)

من جملة الاكتشافات الجديدة هو الاكتشاف القائل بأن الشمس بمنظومتها الكاملة إنما تتحرك باتجاه كوكب عظيم يُطلق عليه في علم الهيئة الجديد اسم (وغا) ، في الوقت الذي يؤكّد فيه القرآن المجيد هذا المعنى

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

(٢) سورة يس : الآية ٤٠ .

بكل صراحة كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[1] .

وحتى الأمس القريب كان بعض الجهلاء لا يزال يُشكل على الإسلام اعتباره الشمس متحركة بينما كان العلم يكتشف أن الأرض تدور حول الشمس إلى أن تمّ للعلم مؤخراً اكتشاف حركة الشمس أيضاً بل حركة الكواكب كلها كما ذكرنا ، وبذلك ازدادت حقّانيّة قول القرآن وبُطلان قول معانديه .

الأرض وحركة المهد

من ضمن الاكتشافات الجديدة ما أثبته العلم من أن الأرض متحركة ولم يعد أي تردد اليوم حول هذا الموضوع ، بينما كان الناس في السابق يتصورون واستناداً إلى حواسهم بأن الأرض ثابتة والشمس متحركة تدور حولها .

جاء في القرآن المجيد حول حركة الأرض قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً** ﴾[2] فالأرض تحت قدمينا بمثابة مهدٍ يهتز بحركة منظمة ودقيقة تنمو بين جنبيه وتكبر وتتربّى كافّة الموجودات ![3] .

الجبال هي المسامير المُثبّتة للأرض

لقد أصبح من الأمور الثابتة اليوم موضوع كون الجبال الواقعة فوق الأرض والممتدة جذورها عميقاً في عمق الكرة الأرضية بأنها هي السبب في استقرار الأرض . فلولا وجود هذه الجبال فإن هذه الكرة الأرضية التي تقطع

---

(١) سورة يس : الآية ٣٨ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٣ .

(٣) لقد فسّر البعض تعبير المهد على أنه تهيئة شروط الحياة بينما فسّر البعض ذلك على أنه حركة الأرض من الشمال إلى الجنوب وبالعكس وللشهيد تفسيرات مشابهة في هذا الاتجاه .

أربعة فراسخ في حركتها الانتقالية في كل دقيقة وأربعة فراسخ أخرى في حركتها الموضعية في كل ثانية و ٢٤٠فرسخاً في حركتها الدورانية حول نفسها كانت في طريقها إلى الزوال والتلاشي ، لكن هذه الجبال هي التي تمنع تلاشيها ، وهذا الأمر سبق أن أشار إليه القرآن المجيد وأكّده قبل ألف وأربعمائة سنة مضت حيث قال تعالى : ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ كما جاء في سورة النبأ الآية ٧ .

وكما يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في إحدى خطبه الغراء : « فطر الخلائق بقدرته ووتد بالصخور مَيَدان أرضه » (نهج البلاغة) .

لقد كان هذا بمثابة إشارة إجمالية للموضوع ، ومن أراد التفصيل في هذا المجال عليه أن يرجع إلى الكتاب الذي سبق أن أشرنا إليه أو سائر الكتب الأخرى حول الموضوع .

علم الفقه من القرآن المجيد

أي حكم من أحكام الفقه غير موجود في القرآن المجيد ؟ !

يقول الشيخ الأنصاري ـ عليه الرحمة ـ في باب حُجّية الخبر الواحد في رسائله : أنه ذكر أنَّ عبد الأعلى الذي كان قد جرح أحد أصابع قدميه وذهب إلى الإمام الصادق (عليه السلام) وقد لفَّ إصبعه بقطعة قماش وسأله عن تكليفه الشرعي بشأن الوضوء في مثل هذه الحالة ؟ أي ما هو التكليف الشرعي المفروض في حالة عدم التمكن من مسح ظهر القدم ، هل هو التيمّم ؟ فأجابه الإمام : « إنَّ هذا وأمثاله يُعرف من كتاب الله تعالى » أي أنه حتى مسألة مسح ظاهر القدم تجد لها حلاً في القرآن الكريم . فالصلاة فيها أكثر من أربعة آلاف مسألة وهذه واحدة منها .

لا حرج في الإسلام

فقال عبد الأعلى وفي أي مكان من القرآن ؟ فأجابه الصادق (عليه السلام) : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرجٍ ﴾[1] (امسح على المرارة) .

فلا وجود للحرج في الدين الإسلامي العظيم ؛وحيثما وجد الحرج والمشقة فوق العادة يسقط التكليف الشرعي ، فهذا الصوم مثلاً يسقط وجوبه متى ما ترافق مع المشقة فوق العادة ، فالعسر والحرج مرفوعان في الدين الإسلامي الحنيف. فإذا ما صادف مثلاً أن أحدهم لا يتمكن من تعريض نفسه للبرد ، ولا يتمكن من جهة أخرى من تسخين الماء لعدم توفر الوسائل ، أو أنه وسط الصحراء ومُعرَّض للتيار الهوائي وبالتالي لا يستطيع القيام بالوضوء بدون التعرُّض للبرد ، ففي هذه الحالة يسقط عنه وجوب الوضوء ويصبح تكليفه في هذه الحالة هو التيمم بدلاً عن ذلك الوضوء .

المقصود من حديثنا القول بأنك ستجد كل ما تطلبه من أحكام الفقه موجوداً بشكل عام وإجمالي في القرآن ، حتى حكم أقسام البيع والنكاح وما شابه ذلك .

خذ مثلاً لو أنّ أحداً جاءك ليستقرضك مقداراً من المال وأردتَ أن تعطيه فعلاً ، سترى أن هناك عدداً من التوصيات والأحكام التي لا بدّ من رعايتها بهذا الخصوص قد تمّ ذكرها في آخر سورة البقرة ، مثل وجوب كتابة هذا الدين وأن يكون ذلك بحضور الشهود ، وإذا لم يكن ذلك ميسوراً فأخذ ضمانة أو رهن معين من المقترض ، ولا يجوز لك أن تكتفي بالقول : إن الدائن المذكور هو موضع ثقتنا وانتهى ، فقد يتعرض للنسيان أو يتحول عن

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

دَيْنه لا سمح الله يـوماً ، نـاهيك عن إمكـانية مـوته ، فمن أين لـك أن تطالب الورثة بالدَيْنِ عندما لا تملك وثيقة مكتوبة أو شاهداً معلوماً ؟! .

لذلك ترى ربّ العالمين قد لاحظ هذه الأمـور ، وكما أشـرنا إلى ذلـك من قبل أيضاً ، فإن وضع القوانين وتشريعها يتطلب الرؤية الشمـولية من حيث الزمان والمكـان ، وهذا الأمـر ينطبق على أحكـام القرآن فقط ، فهي صـالحة للجميع وفي كل مكان ، وقابلة للتطبيق حتى قيام الساعة .

آيـات الإرث بكل فـروعه المختلفـة وتشعباتـه الكثيـرة يُلخّصهـا القـرآن الكـريم في ثلاث آيات مجملات في سورة النساء ؛ وهي الآيـات التي تتشعب منها وتستنبط مئات الأحكام والقضايا[1] .

علم الأخلاق وسفر الآخرة

وأمّا بشأن موضوع علم الأخلاق وجهاد النفس فإن القرآن لم يترك فرصةً إلاَّ واغتنمها ليذكّر الإنسان بعدم أهمية الـدنيا وضـرورة السعي للآخـرة والبذل الدائم من أجل تحصيل الإيمان والعمل الصالح .

إنني لم أقرأ التوراة كثيراً ، لكن المرحوم فخر الإسـلام يذكـر في كتابـه (أنيس الأعلام) أنه كما يبدو لم يأت في التوراة ذكر عالم مـا بعد المـوت إلا القليل ، وكتاب التوراة الموجود فعلياً وهو كتاب التـوراة المُحرَّف فـإنه يشـوِّق أكثر ما يشوِّق اليهود إلى عالم المادة وضرورة جمع المال والثروة ، وإلى عـدم تحملهم للبؤس ورضوخهم للفقر المـادي ، وهو بحـد ذاته دليـل على أن هذه التوراة ليست هي الكتاب الأصلي النازل من عند الله .

---

(١) سورة النساء : الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٧٦ .

نماذج من آيات القرآن حول الآخرة

يقول الله في كتابه الحكيم : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون** ﴾[1] .

ويقول : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾[2] .

ويقول كذلك : ﴿ **ربّنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾[3] .

كما يقول تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غُدواً وعَشيّاً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب** ﴾[4] .

بالإضافة إلى الحديث عن مشاهد القيامة وأخبار الساعة في ما يقرب من ألف آية .

كل هذه العلوم على لسان رجل أمي

إن هـذا القرآن المجيـد الذي يحـوي كل هـذه العلوم والمعارف ، وفي كافة الحقول والفروع ، وكما جاء في قوله تعـالى : ﴿ **ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين** ﴾[5] تراه قد أنزله الله على مَن ؟ أنزله على لسان رجل أمّي من مثل محمد (صلى الله عليه وآله) ، ذلك الرجل الذي لم يحضـر درس أستاذ ولا ذهب لمـدرسة أو شـارك في دورةٍ أو معهـد للتـدريس ، وإنـه لأمـر مُحيِّـر فعلاً ، كيف أن اليهود والنصـارى في ريب من رسالـة محمد (صلى الله عليـه

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٤ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .

(٣) سورة غافر (المؤمن) : الآية ١١ .

(٤) سورة غافر (المؤمن) : الآية ٤٦ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

وآله) بالرغم من معرفتهم به ، وبكونه لم يذهب يوماً لمـدرسة أو أمسـك يومـاً بقلمٍ ، وكما يقول الله في كتابه الحكيم : ﴿ ومـا كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخـطّه بيمينك إذاً لارتـاب المبطلون ﴾[٢] . فهـل يبقى بعد ذلـك مجـال للشك والريبة ؟!

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨ .

(٤)

القرآن الكريم معجزة خالدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾

(سورة الحجر : الآية ٩)

معجزة النبي محمد (ص) لكل العصور

لقد بيّنا في الحديث السابق وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وقلنا إن من مميزات سيدنا خاتم الأنبياء (ص) وخصوصياته معجزته الباقية الخالدة . إذ أن سائر الأنبياء لم يعرضوا سوى معجزات مؤقته تخص زمانهم وعصرهم الذي عاشوه ، وانتهت بانتهاء حياتهم ، وإثباتها لا يتمّ إلاّ بالنقل المتواتر ، ولم يحصل أن بقيت معجزة لنبي بعد وفاته إلاّ معجزة خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله) ، حيث رحمه الله ربّ العالمين بمعجزةٍ خالدة تبقى أبد الدهر وفي جميع العصور والأزمان وعلى رؤوس الأشهاد ، ويكفي لمن يرُيد أن يعرف حقّانية محمد (صلى الله عليه وآله) أن ينظر إلى معجزته هذه .

وكذلك تم استعراض موضوعة (من مثله) المذكورة في وجوه إعجاز القرآن بأن المقصود منها هو نزول هذا القرآن العظيم وانتقاله إلى البشر عن

طريق رجل أمّي لم يـذهب لمدرسـة ولم يحضر درس أستـاذ ، وهو بحـد ذاته إعجاز عظيم .

لا نظير للأخبار الغيبية في القرآن

ومن وجـوه إعجاز القـرآن الكريم الأخـرى حديثـه عن أنبـاء الغيب التي أخبر عنها ، والتي حصلت في العـالم الخارجي بعـد تناول القـرآن لها ، ممـا يثبت صدق ذلك التنبؤ ويؤكّده .

المرحوم فخر الإسلام يذكر في كتبه بأن هذا القسم من معجزات القرآن كـان له وقـع عجيب لدى أتبـاع الإنجيل في أوروبـا ، ذلك أنَّ سـائر الـوجـوه الأخرى يمكن تفسيرها وربطها بأسباب طبيعية ، كما حاول بعض علماء المادة بالفعل ، لكن التنبؤ بأمور مستقبلية والحديث عن وقوعها قبـل حلول زمانهـا ، ثم مـطابقة الـواقع لـذلك التنبؤ بعـد مضي الـزمـان لا يمكن إسنـاده لأيٍ من الأسباب المادية .

الأخبار الغيبية والمستقبل

تنقسم أخبار الغيب الواردة في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول منها هو الأمور التي تنَّبأ بوقوعهـا القرآن قبـل حلول زمانهـا وقد وقعت بالفعل .

يذكر المرحوم فخر الإسلام ثلاثين خبراً من هذا النوع من الأخبار الغيبية التي تعرض لها القرآن في ثلاثين آية منه ، وأنا من جهتي أذكر لكم بعضاً منها هنا للتبرك ، مع شرح مختصر لمعاني تلك الآيات الكريمة .

استحالة الإتيان بمثل القرآن

إنَّ أحد الأخبار الغيبية الواردة في القرآن والمذكورة في سورة البقرة : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ إنما هي تنبؤه باستحالة تمكن البشر من الإتيان بمثل هذا القرآن . وهو ما يشير إليه معنى الآية الشريفة هنا حيث خطاب الله الموجّه إلى البشر الذين كانوا يُشككون في حقّانية القرآن النازل على محمد (صلى الله عليه وآله) وأنه من كلام الله عزّ وجلّ ، ويطلب منهم إذا ما كان باستطاعتهم أن يأتوا بسورة من مثله : إن من حيث الفصاحة والبلاغة أو من حيث اشتماله على كل تلك العلوم ، ناهيك عن كون الرسول المذكور في هذا القرآن وحامل وحي الله ليس سوى رجل أمّي لم يعرف القراءة أو الكتابة من قبل .

ومن ثم يتحدّاهم في الإتيان بشهدائهم وشهودهم من البشر إن استطاعوا ولن يستطيعوا[1] ثم يجزم بأنهم لن يفعلوا ، وبالتالي فإنه لا بدّ لهم من الإذعان إلى أن محمداً (صلى الله عليه وآله) على حق ، وأن القرآن كلام الله .

وهنا لا بدّ من ذكر بعض الإيضاحات حتى يتمّ استيعاب الموضوع جيداً .

القرآن في متناول اليد على الدوام

لقد كان هذا القرآن معروضاً على الدوام أمام أعين الجميع ولم يتمّ إخفاؤه يوماً على الإطلاق . فقد أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنشر القرآن ابتداءً منذ الأيام الأولى لصدر الإسلام ، بل إنه كان مفروضاً على كل

---

(١) ﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة البقرة : الآية ٢٣ .

مسلم أن يحفظ بعضاً منه عن ظهر الغيب ، ولمّا كانت وسائل الكتابة والطباعة المتوفرة في عصرنا الراهن غير موجودة آنذاك فقد كانت الأولوية للحفظ ومن تم النقش على الجلود أو الأخشاب أو الألواح الحجرية ، في المرتبة الثانية ، حيث كان يستنسخ المسلمون ذلك من النسخة المصححة من قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتي كانت موجودة في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) .

وعليه فإنه لا يحقّنّ لأحدٍ التصوّر بأن المسلمين قد قاموا بإخفاء القرآن ـ كما حصل بالتوراة اليهودية المزّورة التي يتم إخفاؤها في صندوق خاص حتى لا يراها أحد أو تصل إليها اليد ـ وفي مثل هذه الحالة جاءت الدعوة الرّبانية بالإتيان بسورة من مثله بعد ذلك .

فأتوا بسورة من مثله بدل نفث السموم

يقول المرحوم فخر الإسلام في كتبه مخاطباً الأوربيين المعاندين : أيها الأوروبيون ، ويا قساوسة النصارى ويا من تجمعون كل هذه الأموال من أجل التبشير بالمسيحية ، وتُشيِّدون المستشفيات بهدف تشجيع الناس وتشويقهم لاعتناق النصرانية (بالطبع يرجع هذا الكلام إلى عهد الدولة القاجارية أيام ناصر الدين شاه) ويا من تصرفون حوالي خمسمائة « كرور » سنوياً للترويج للدين المسيحي في إيران (ما يُعادل مائتين وخمسين مليون تومان في ذلك الوقت) . أيها النصارى ، إذا ما كنتم صادقين حقاً ومخلصين في دعواكم هذه فلا حاجة لكل هذه المشقه ولكل هذا السيل من الأموال ، التي تتدفق من قبلكم إلى البلاد الإيرانية وغيرها من البلدان بهدف الترويج لدينكم ، ولمّا كانت لديكم كل هذه القدرة وكل تلك الوسائل وذلك الحشد من الكُتّاب فلماذا تجهدون أنفسكم بكتابة كتاب الهداية والميزان وغيره من الكتب الداعية إلى

النصرانية ، إنكم - وبدلاً عن كل تلك الكتب والأموال - كان بإمكانكم لو استطعتم الإتيان بسورة واحدة من مثل سور القرآن ، ولا نقول لكم مثل سورة البقرة بل يكفي أن تكون مثل سورة التوحيد أو الكوثر ، وعندها سترون كيف أن المسلمين سيخضعون لكم ويستسلمون .

لكن هيهات لهم مثل ذلك، فقد تنبأ ربّ العالمين باستحالة ذلك لهم أو لغيرهم إذ قال تعالى : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ حتى قيام الساعة . إنه لأمر محال أن يتمكن أحد من الإتيان بمثل هذا القرآن العظيم .

لكنه حصل ذلك بالفعل في كل قرن من القرون الماضية عندما حاول أعداء الإسلام من هنا وهناك أن يقفوا بوجه القرآن ورسالة السماء، وبذلوا المستحيل من أجل خلق أي شيء مشابه له ، لكنهم غلبوا جميعاً وأعلنوا عجزهم .

عجز عن ذلك أفصح العرب

لقد كتبوا أن عبد الله بن المقفّع مثلاً ، والذي كان أفصح من امرىء القيس في زمانه ، قد استدعى اثنين من أصحابه وضمّهم إليه طالباً منهم العمل معه من أجل الإتيان بسورة من مثل سور القرآن الكريم ، حيث يقال إنهم ذهبوا واعتصموا في أحد البيوت لمدة ستة أشهر ، وهم يحاولون صناعة آية واحدة مثل آية : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾[1] ومعلوم أن مضمون الآية يتعلق بحادثة سفينة نوح (عليه السلام) ، وكلما حاولوا تركيب جملة من هذا النوع توازي مفهوم الآية الشريفة الآنفة الذكر لم يقدروا أبداً إلى أن فشلوا

---

(١) سورة هود : الآية ٤٤ .

تماماً وأظهروا عجزهم التام ، وأعلنوا تخليهم عن المحاولة .

وفي صدر الإسلام حيث كان فصحاء العرب يُعلِّقون أشعارهم على جدران الكعبة ، والتي كانت تُعبر من مفاخر الصناعة الأدبية عند العرب آنذاك ، والتي عرفت (بالمُعلقات) فقد توجه أصحابها بأنفسهم لإنزالها بعد نزول القرآن الكريم ، وهذا يعني الاعتراف بأنه لم يعد هناك من كلام فصيح .عند العرب مع نزول القرآن ؛ وأي كلام يمكن ادّعاء الفصاحة والبلاغة فيه أمام القرآن المجيد ؟ .

إذن يمكن القول إن أحد الأخبار الغيبية التي وردت في القرآن هي النبوءة باستحالة الإتيان بمثله من قبل أحد بل وأكثر من ذلك : لو اجتمع الجن والإنس أجمعون ، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً** ﴾[1] .

هزيمة الجيوش المواجهة

ومن جملة الأخبار الغيبية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي تلك البشائر التي أعطيت للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) في صدر الإسلام ، وذلك بهدف تطييب خاطره ؛ ففي تلك الأيام التي كان فيها وحيداً غريباً ومن دون نصير أو صديق وهو يعيش وسط مجموعة من الوحوش السفاكين للدماء من جهلة قريش ، تأتيه البشائر الإلهية لتقول له : ﴿ **جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب** ﴾[2] أي أن كل تلك القوى التي اجتمعت لمحاربتك والمؤلفة من تحالفات الأحزاب المكية جميعاً مندحرة لا محالة ومنهزمة . نعم فهذه البشارة

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢) سورة (ص) : الآية ١١ .

جاءتهُ في الوقت الذي كان لا يزال فيه وحيداً ويتخفى بعيداً عن أعين المشركين في بعض الأحيان .

تبشير النبي بعودته إلى مسقط رأسه

ومن أخبار القرآن الغيبية الأخرى قضية عودة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من المدينة إلى مكة مجدداً ، بعدما فُرضت الهجرة عليه ، وذلك عندما اجتمع أربعون رجلاً من القبائل المختلفة وهمّوا بقتله ، مما اضطره لترك مكة المعظمة والتوّجه إلى المدينة المنوّرة ، الحدث الذي عرف بالهجرة ، ولكنه ترك مكّة حينها مُرغماً وقلبه مملوء بالهم والغم لتركه ذلك المكان القدسي الشريف ، حيث مكان البيت الذي بناه جده إبراهيم وإسماعيل . فما كان منه يومها إلاّ أنّ توجّه نحو بيت الله وهو يقول : يا بيت الله الحرام إنني تاركك رغماً عني . وإذا بالوحي ينزل عليه نوراً مخاطباً إياه :

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾[1] .

نعم ، فمن حالة الخوف والرعب التي ترك فيها مكة إلى حالة العزة والسلطان التي عاد بها إليها كان حكم الغيب ، حيث كسّر كافة الأصنام، ولوى رقاب ساسة قريش وأشرافها الحانقين المعاندين .

الله يعصمك من الأعداء

من الأخبار الغيبية الأخرى الواردة في القرآن وعد الله لنبيه وحبيبه (صلى الله عليه وآله) أن يحفظه ويعصمه من الأعداء . إذ أبلغه ومن لحظة المواجهة الأولى بأنهم لن يستطيعوا إيذاءك[2]، ولا قتلك ، ثم عاد وأكد عليه

---

(١) سورة القصص : الآية ٨٥ .

(٢) **﴿ وما يضرّونك من شيء ﴾** سورة النساء : الآية ١١٣ .

ذلك في أواخر عمره بعد أن انتهى من إبلاغ أمر ولاية علي (عليه السلام) عندما وعده ربّه بصراحة بأنه سيعصمه من الناس[1] .

ومن أجل استيعاب أهمية الموضوع لا بدّ لنا من رسم صورة للوضع الذي كان يعيشه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في أوائل بعثته وأواخرها أمامنا جيداً .

مكة المكرمة وهي مليئة بالقبائل المتوحشة ، وقانون الغاب ومنطق القوة هو الحاكم ، فلا حكومة ولا مجتمع ولا أعراف ولا قانون أو دين يمنع قتل الآخرين والتخلّص منهم ، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بشخص لا حامي له ولا ظهير أو سند ظاهراً له مثل محمد (صلى الله عليه وآله) اللهم إلّا مَنْ كانت له قبيلة أو قوم أو مال أو ثروة تحميه ! .

محمد (ص) وحيد وفقير

نعم فلو كان رئيساً لقبيلة أو كانت لديه القوة الكافية عدداً وعدةً لكانوا يخشونه ويحترزون منه ؛ ولكنه لمّا كان يفتقر إلى الثروة وقوّة دعم القبيلة فإنه أصبح غير ذي هيبة ، وخاصةً حين ما أعلن مخالفته ومعارضته لهم فإنه عرّض نفسه بذلك للقتل .

فمحمد (صلى الله عليه وآله) لم يكن يملك شيئاً من عنده ، وكل ما ورثه من أمه (آمنة) هو جارية اسمها (أم أيمن) وهي التي أعتقها في سبيل الله .

وأما من طرف القبيلة فإن قريشاً قد وقفت في مواجهته كلها، ولم يكن أحد معه حتى من أقربائه المقربين من بني هاشم سوى عمه أبو طالب

(١) ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ سورة المائدة : الآية ٦٧ .

وأبنائه . حتى عمه ـ أبو لهب ـ لم يسلم منه ، فقد كان على رأس المعادين المحاربين له ، إذ كان يرميه بالحجارة حتى كان الدم يسيل من قدميه .

وعليه فإن الصورة المُجسَّمة لوضعه تدل على أنه لم يكن يملك أحداً معه من قبيلته المتوحشة تلك .

محمد (ص) يسفّه آلهة المشركين

ومع ذلك كله فإنه كان يفضح مقدّسات المشركين كلّها ، ولا يألو جهداً في الاستهزاء بأصنامهم والسخرية منها ، ويقول لهم : كيف لكم بعبادة أشياء أنتم صنعتموها بأيديكم ؟! ويطالبهم بتوحيد الخالق ، ويدعوهم لرسالة التوحيد ، وهو الأمر الذي كان يخالف مذاقهم ، ولذلك فإنهم لم يتركوا وسيلةً لقتله إلاّ واستخدموها ولكن ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ هو الذي كان يحميه من شرهم بالفعل ، فقد جاؤوه فرادى وجماعات ليقتلوه ولكنهم فشلوا في كل مرة .

رحمته شملت حتى الأعداء

يقال إن أبا جهل قد توجه ذات مرةٍ في الليل ليقتل محمداً (صلى الله عليه وآله) وأخذ حجراً كبيراً وأراد رميه على رأس النبي (صلى الله عليه وآله) بهدف القضاء عليه .

وقد كان النبي في حالة السجود عندما اقترب أبو جهل بمحاذاة الرسول (صلى الله عليه وآله) وقد وضع ذلك الحجر الكبير فوق رأسه، وما أن هَمَّ بتنفيذ فعلته حتى رآه جبرائيل فأشار إلى الحجر فإذا به يثقب من وسطه ويدَخل الحجر في رقبة أبي جهل . لقد كان لأبي جهل رقبة ورأس كرقبة الثور ورأسه وما إن طوّق الحجر رقبته حتى ضاق ذرعاً به وصار يبحث عمن يُخلِّصه منه ،

فما كان منه إلاّ أن توسّل بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله) فجاءهُ وهو ينادي أنقذني يا محمد .

ونهض سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله) من سجوده ورفع الحجر بيده المباركة عن رقبة أبي جهل . ما أرحمك وأرقّ قلبك وأكثر لطفك وعفوك ، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله .

حمَّالة الحطب وعجزها عن رؤية النبي

لم يكن أبو جهل الشخص الوحيد الذي أراد قتل النبي (صلى الله عليه وآله) ، بل إن زوجة أبي لهب تلك المرأة الشريرة هي الأخرى راودتها فكرة قتل النبي (صلى الله عليه وآله) ، فقد كانت تراقب مسير تحركه على الدوام لعلها تحظى به وحيداً حتى تُنفذ فعلتها القبيحة .

علمت يوماً أن محمداً (صلى الله عليه وآله) موجود لوحده في بيت أبي بكر ، فحملت حربتها وذهبت نحو بيت أبي بكر ودخلته دون استئذان ، ولكنها بحثت عنه في المنزل فلم تجده ، والواقع أنها لم تكن لتراه ، بالرغم من أنها كانت تمر أمامه وتحوم حوله داخل البيت ؛ إلاّ أن الله سبحانه وتعالى كان قد أسدل عليها حجاباً منعها من رؤيته[١]

فما كان منها إلاّ أن توجهت إلى أبي بكر تسأله : وهل هناك من أحدٍ في البيت سواك ؟ فأجابها أبو بكر : لو كان هناك من أحدٍ لرأيته .

---

(١) ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ سورة الإسراء : الآية ٤٥

فشل مؤامرة دار الندوة

وفي مجال آخر من مجالات تحقق الوعود القرآنية وتأثيرات الألطاف الإلهية في الأحداث يمكن الحديث عن فشل المؤامرة التي أعدت في دار الندوة .

فقد اجتمع كبار المشركين في دار الندوة ، وكانت خلاصة مناقشاتهم تتركّز حول نفاد صبرهم من محمد (صلى الله عليه وآله) وأنه لا بدّ من قتله والتخلّص منه ، فانبرى أحدهم ليقول بأنه لا بدّ من قتله دون أن يعلم بنو هاشم بذلك ، حتى لا تحصل مواجهة لنا معهم ، أو أن يخرج من بينهم من يريد الانتقام لمحمد .

واقترح آخر بأن يُحبس في غرفة من الغُرف ثم يتم بناء جدار مرتفع يسد عليه مداخل الغرفة ومخارجها .

ولمّا كان الشيطان حاضراً تلك الجلسة على هيئة شيخ نجديّ فقد كان رأيه بأن هذا الاقتراح ليس سليماً لأن ذلك يسمح لبني هاشم أن يهجموا ويُخرجوه من تلك الغرفة بالقوة .

فاقترح آخر بأن يتم أخذ محمد (صلى الله عليه وآله) إلى خارج مكة ، ومن ثم ربط يديه ورجليه بالبعير وترك البعير بعد ذلك يجره إلى أن يموت من الجوع والعطش[1] .

فاعترض عليه الشيطان ، أي ذلك الشيخ النجدي نفسه ، بأن هذا أمر غير مستحسن أيضاً لأنه قد يخرج أحدهم في الصحراء خلفه وينجذب إلى

---

(١) ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ سورة الأنفال : الآية ٣٠ .

حديث محمد (صلى الله عليه وآله) وبيانه الساحر وحلاوة لسانه ويُخدع به فتفشل الخطة .

النبي (ص) يهاجر من مكة

وأخيراً كان رأي الشيطان في أن يجتمع أربعون شخصاً من بطون قريش المختلفة ويكون فيهم أبو لهب ممثلاً لبني هاشم فيقتلون محمداً معاً ، وبذلك يتفرّق دمه بين القبائل .

فما كان من الجميع إلاّ أن وافقوا على الفكرة الشيطانية هذه وباركوها ، واتفقوا على تنفيذها . وذهبوا فعلاً إلى بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تلك الليلة ، وتمركزوا حول داره لمراقبة الوضع جيداً . وكانت الخطة أن يدخلوا عليه في تلك الليلة ويقطّعوه إرباً ، لكن أبا لهب رفض ذلك الاقتراح قائلاً : اصبروا حتى يطلع الصباح فنهجم عليه ونقتله .

(إنها إرادة الله وقد تحوّلت إلى ذلك الكلام الخارج من عند أبي لهب) .

وهكذا ظلوا يحاصرون البيت حتى يطلع الصباح ، فكان أن نزل جبرائيل (عليه السلام) في هذه الأثناء على محمد (صلى الله عليه وآله) وأمره بترك المكان قائلاً له : إنه حكم الله وقد أراد لك هذه الهجرة ، وما عليكَ سوى أن تضع علياً (عليه السلام) بدلاً منك في الفراش وتُسلّم أمر ابنتك فاطمة إليه ، وتوكل إليه كذلك أعمالك والمهام المُلقاة على عاتقك .

وهكذا فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما صعد بالفعل على أكتاف أبي ذر الغفاري ، وترك البيت أمام أعين الجميع .

وقد جاء في الحديث الشريف : إنه وما أن فتحت الباب حتى نهض

الجميع ورأوا أبا ذرّ، فسألوه عمّا يوجد فوق كتفه ؟ فقال لهم : محمد (صلى الله عليه وآله) ، لكنهم لم يُصدِّقوه فتركوه وشأنه . وهكذا نجا محمد .

وهنا تبدو الحماية الإلهية واضحة جداً حيث تظهر واضحةً إرادة الله في إنقاذ نبيّه من بين أربعين سيّافاً ، تماماً كما فعل بعد ذلك إذ حافظ على حياته حتى وصوله سالماً إلى المدينة .

علي (ع) في فراش النبي (ص)

ولمّا أصبحت قريش وأضاء الصبح على من حول الدار وثبوا إلى حجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فوثب إليهم علي (ع) فصُدموا من هول ما رأوا ، فسألوا علياً عن محمد (صلى الله عليه وآله) فقال لهم : أو جعلتموني عليه رقيباً ؟ فبرز أحدهم شاهراً سيفه وهو يقول لنقتل هذا بدلاً عن ابن عمه . ولكن علياً عاجلهُ بأخذ السيف منه ، وسقط الرجل أرضاً . وعندها قال الآخرون : لا شغل لنا مع علي ، فقد جئنا لقتل محمد ، فقل لنا يا علي أين ذهب محمد ؟ فرَّد عليهم بأن الله قد بعث به إلى مكان آخر لا يعلمه إلاَّ هو .

وعندها خرج الجميع يقتفون أثر رسول الله (صلى الله عليه وآله) . وجاؤوا بأحد الأدلاّء من العرب ليتعقبوا آثار محمد (صلى الله عليه وآله) واتّجاه سيره ! وانطلقوا بالفعل نحو البادية وتفرقوا بالجبال ، فما كان من الدليل إلاَّ أن اكتشف آثار قدم خليل الرحمن ، وبعدها آثار قدم أبي بكر أيضاً ، الذي كان قد التقى به النبي في الطريق وذهبا سوية إلى غارٍ في جبل ثور . وبالفعل فإن الدليل الذي تتبع آثار أقدامهما وصل في النهاية حتى باب الغار ، وفجأة اختفت الآثار ؛ فصعدوا إلى الجبل يبحثون عن محمد ومن معه .

في هذه الأثناء كان النبي (صلى الله عليه وآله) قد دخل مع أبي بكر

إلى غار ثور ، حتى يقضيا ليلتهما هناك ، وينتظرا طلوع الصباح ليأتي إليهما علي (عليه السلام) ببعض الزاد حسب الاتفاق .

وعندما أراد الدليل ومعه رجال القبائل من المشركين التقدم نحو الغار فزع أبو بكر وقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) : إنهم قد جاؤوا فماذا نحن صانعان ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : لا تحزن إن الله معنا[1] .

فماذا كان أمر الله وقتها ؟ لقد أمر الله العنكبوت أن تنسج خيوطها على باب الغار ، وكذلك أمر بعض الطيور أن تضع بيوضها في عش عند مدخل الغار ، وذُهل المشركون ودليلهم لمَّا رأو ما رأوا وقال لهم الدليل : محمد وصل إلى هذا المكان ولم يجزه ، فإما أن يكون قد صعد إلى السماء أو أنه دخل إلى باطن الأرض ؟! لأنه لو كان قد دخل الغار لتقَّطع نسيج العنكبوت ولتكسرت بيوض الحمام . وأمام هذا الدليل القاطع يئسوا من العثور عليه وعادوا من حيث أتوا خائبين .

وهكذا كان . . ووصلت الراحلة والزاد إلى رسول الله وأبي بكر ، وانطلقا بعد ذلك نحو المدينة مهاجرين .

يرفع الرمح ويداه ترتعشان

في هذه الأثناء نقل أحد الجواسيس للمشركين أن محمداً (صلى الله عليه وآله) هو فعلاً في طريقه إلى المدينة ؛ مما دفع بهم إلى إرسال عشرة مسلحين للحاق به وإعتقاله في وسط الطريق . وقد انطلقوا بالفعل وانتشروا

---

(١) ﴿ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ سورة التوبة : الآية ٤٠ .

للبحث عنه في الصحراء إلى أن عثر عليه أحدهم وحمل عليه برمحه ، وما إن رفع يده بالرمح حتى عرته رجفة شديدة ، وغلب عليه الفزع فأخذ يصرخ قائلاً : يا محمد أنا لن أتعرّض إليك بسوء فأنقذني يا محمد . فأجابه بأنه سيدعو له إذا ما تعهد بالكتمان ، فقبل ، وهكذا كان ، ونجا سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله) من كيد المشركين ووصل سالماً إلى المدينة وأما ذلك الرجل فقد أسلم فيما بعد والتحق بجماعة النبي (صلى الله عليه وآله) .

وبَطُل سحرهم أيضاً

بعد ذلك وصل الأمر بالمشركين إلى أن يسخّروا عدداً من السحرة ليسحروا محمداً (صلى الله عليه وآله) وقد فعلوا ذلك مراراً ، لكن سحرهم لم ينفع أيضاً ، إذ أن جبرائيل قام بإبطاله ببركة سورتي التعويذ المعروفتين ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ .

« عين الحسود » مسألة واقعية

ولمّا رأوا أن السحر لم ينفع أيضاً جاؤوا برجل معروف « بعينه الصائبة » بهدف إصابة محمد (صلى الله عليه وآله) بالعين هذه المرة .

وكما ورد في سيرة الأوائل فإن قضية « عين الحسود » مسألة واقعية . فبعض العيون تنفث سمومها بمجرد وقوعها على ذلك الشخص الذي تريد إيذاءه كما جاء في بعض الأقوال : « العين تدخل الرجل في القبر والإبل في القدر » وهذه من عجائب النفوس على كل حال. فتأثير العين هذا يشبه أثر سم الأفعى والعقرب .

نعم فالخبث واللؤم يرشحان من العينين . وحفظ النفس من هذه الآفات إنما يتم بالصدقات وحمل القرآن وقراءة آية الكرسي .

وأخيراً فشلوا

جاء المشركون بصاحب « العين الصائبة » التي لا تخطىء وأعطوه مبلغاً من المال ، حتى إذا ما صعد محمد (صلى الله عليه وآله) على المنبر يرميه الرجل بنظرة ويتم التخلص منه .

ونفّذ ذلك الرجل بالفعل ما أرادوا منه، وبث سموم عينيه فلم يفلح باستثناء ما ذُكر في بعض الروايات من إصابة النبي (صلى الله عليه وآله) بالحُمّى لمدة قصيرةٍ لكنه خرج منها بسلام ؛ وذلك بحفظ الله ورعايته كما جاء في القرآن الكريم[1] .

امرأة يهودية تسمّم النبي

وبعد فشل كل المحاولات المتكررة بتسميم رسول الله (صلى الله عليه وآله) من قبل المشركين والكفار والمنافقين واليهود والنصارى، استطاعت إحدى النساء اليهوديات في محاولة أخيرة أن تدس السم في فخذ خروف وتضعه على مائدة النبي (صلى الله عليه وآله) لمعرفتها بمحبته (صلى الله عليه وآله) لفخذ الخروف .

ويروى في هذا المجال أنه عندما شرع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بتناول الطعام ، وبعد أن وضع أول لقمة في فمه نطق الفخذ وقال : يا محمد أنا مسموم . فما كان من الرسول (صلى الله عليه وآله) إلا أن وضع الفحد جانباً. خافت المرأة اليهودية كثيراً وجعلت تُفكّر بما ينتظرها من الرسول (صلى الله عليه وآله) إذا ما أراد أن يُحاسبها على فعلتها هذه ، أو فيما سيفعله المسلمون لو علموا بالحادثة .

---

(١) ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليُزلقونك بابصارهم لمّا سمعوا الذكر ﴾ سورة القلم : الآية ٥١ .

النبي (ص) مظهر للرأفة الرّبانية

لكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) واجه الأمر بكل هدوء وتصرف تجاهها بكل رأفة ممكنة وقال لها : لماذا فعلت ذلك أيتها المرأة ؟ وما الذي فعلتهُ لك حتى أردتِ الوقيعة بي ؟

فأجابته المرأة اليهودية متوسلةً بالخديعة والمكر قائلة : اعذرني يا محمد صلى الله عليك وسلم ، فقد أردت اختبارك فقط ، وهل أنت نبيٌّ بالفعل! وقلتُ في نفسي : إن كان نبيّاً حقاً فسيعرف بالأمر لا محالة ، وإن لم يكن فسيأكل الفخذ ويموت .

لكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تركها وشأنها ولم يقل لها شيئاً . إنها الرأفة الرحمانيّة بعينها .

ومع ذلك فإن الروايات تذكر في هذا الصدد بأن تلك اللقمة قد عملت أثرها في بدن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأدّت إلى تورّمه. لكنّ لحكمة الله وإرادته القول الفصل؛ فلم يكن بعدُ قد حان وقت رحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

الحرّاس يحرسون بيت الرسول (ص)

نعم، لقد فشلت كل الطرق والأساليب الهادفة إلى قتل النبي (صلى الله عليه وآله) واستمرت بعثته ثلاثاً وعشرين سنة كما أراد الله لها ذلك، حتى حان موعد لقاء الله .

ولمّا كانت محاولات الفتك بالنبي (صلى الله عليه وآله) قد تكررت فقد صار عدد من الأصحاب يتناوبون ليلاً على حراسته من كيد المنافقين والكفار والأعداء الآخرين . ولكن سرعان ما نزلت الآية الشريفة : ﴿ والله يعصمك

من الناس ﴾ أي : إن الله هو الذي يحرسك يا محمد من شر الأعداء . فأمر حضرته حينها برفع الحراسة الليلية ، فالله هو الحافظ وهو الحارس .

مؤامرة لقتل النبي (ص) ليلة العقبة

ويروى أن أربعة عشر نفراً من المنافقين اجتمعوا في ليلة العقبة وتعاهدوا على قتل النبي (صلى الله عليه وآله) فجاؤوا بأوعية كبيرة من النحاس وملأوها بالحصى وقرروا أن يدفعوا بها من سفح الجبل باتجاه ناقة النبي (صلى الله عليه وآله) فتجفل الناقة من صوت ارتطام الأوعية النحاسية وترمي الرسول (صلى الله عليه وآله) من فوقها وتقضي عليه . فهم لم يوفّروا وسيلة لقتله (صلى الله عليه وآله) ؟! ولكن الله هو الحافظ ، إذ لم تتحرك تلك الأوعية من مكانها بالرغم من كونها وضعت على السفح حيث كان من المفروض أن تنحدر بقوّة . وفي هذه اللحظة لمع برق في السماء فأضاء المنطقة ، فرأى النبي (صلى الله عليه وآله) هؤلاء المنافقين الكامنين له ، فاستدعاهم ووبخهم على فعلتهم وعاتبهم بقوله : ماذا فعلت لكم حتى أردتم إيذائي ؟! .

الهدف مما تقدم هو أن نقول : **إن الوعود القرآنية والأخبار الغيبية النازلة بحق الرسول (صلى الله عليه وآله) وحفظ حياته قد تحققت بالفعل وبذلك تكون النبوءات القرآنية قد تحققت .** وهذا من دلائل إعجاز القرآن الكريم .

(٥)

أنباء الغيب في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نورِه ولو كره الكـافرون * هو الذي أرسـل رسولـه بالهـدى ودين الحق ليُظهـره على الدين كلّه ولـو كره المشركون ﴾

(سورة الصف : الآيتان ٨ و٩)

كلام الله واحد لم يتغير

لا زلنا في الحديث عن وجوه الإعجاز في معجـزة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الدائمة ، أي القرآن الكريم الذي لم يزل بين أيدي الناس .

جاء في الآية الشريفة : **﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾**[1] .

نعم فالقرآن قد استمر نـزوله طـوال مدة ثـلاث وعشرين سنـة ، فلو كان كلاماً من صنـع البشر لاختلف أولـه مع آخـره ، إذ أن من يخطب لمـدة ثلاثـة وعشرين عاماً وهو بصدد ممارسة هذه المهنة ، ويعمل باستمرار في هذا المجال لا بد وأن يصبح كلامه في النهاية أبلغ وأكثر فصاحةً من ذي قبل .

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

ولكن لمّا كان القرآن كلام الله فإن أول سورةٍ منه كآخر سورة نزلت لا تختلفان في شيء . فكما جاء في إحدى الروايات أن أول سورةٍ نزلت من القرآن هي سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . ﴾ وأن آخر سورةٍ هي سورة النصر ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح . . ﴾ حيث لا يبدو للسامع أي فارق يُذكر بين السورتين ، إن من حيث البلاغة أو الفصاحة أو الصناعة البيانية ، فكلتاهما في نسق واحد ، وهذا هو شأن القرآن من أمور الزجر إلى الأمر والنهي إلى القصص إلى كافة الشؤون ، الواردة كلها على منوال واحد وفي سياق واحد ، حتى وإنْ رفض ذلك بعض أعداء الإسلام وادّعوا وجود بعض التناقضات ، لكن الردّ قد جاءهم صريحاً ومُفنِّداً كل الادعاءات وداحضاً لكافة الأباطيل .

الجيوش المتحالفة تنهزم

لقد سبق وذكرنا أن عدداً من الموارد التي حصل أن تنبأ القرآن المجيد بوقوعها قد وقعت بالفعل وكما توقّعها القرآن بالدقة . والآن نود العودة من جديد للحديث عن هذا الموضوع ، فنشير هنا إلى الحالات التي أخبر فيها الوحي عن تشتت جمع المشركين وتفرقهم وانكسار جيوشهم التي تحالفت ضد محمد (صلى الله عليه وآله) ، وبالمقابل بروز عظمة النبي (صلى الله عليه وآله) وإعلاء كلمة التوحيد . وهي من الأخبار المهمة التي تكرر الحديث عنها وتوقعها الوحي الإلهي قبل حصولها .

ومن جملة ما ورد في هذا الشأن في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[١] .

---

(١) سورة القمر : الآية ٤٥ .

وكذلك الأمر في مجال الحديث عن معركة الأحزاب عندما جاءت النبوءة الإلهية بهزيمتهم في سورة الأنفال ، على الرغم من تظافر جهود أثرياء الكفار والمشركين .

الإنفاق بالباطل والحسرة الأكيدة

فكما قال تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون** ﴾[1] فقد حصل ذلك بالفعل ، حيث اجتمع كبار أثرياء مكة قبل معركة الأحزاب وقرروا في حينه الإعداد لجيش عظيم للإغارة على المدينة المنورة وقتل أهلها ونهب ثرواتها ، وكان أن أعدت كل قبيلة من القبائل المتحالفة العُدة والمؤونة والعدد اللازم ، وكما تذكر الروايات فإن القبائل كانت قد أعدت اثني عشر ألف رجل للمشاركة في غزوة الأحزاب ، وهو عدد كبير بالنسبة لوقته وظروفه .

ولمّا تمّ الإعداد لذلك الجيش تقرر أن يتعهد كل رئيس عشيرة بالإنفاق على مؤونة أولئك الجُند لمدة يوم ، إذ لم تكن هناك سلطة مركزية أو دولة واحدة تجمع تلك القبائل حتى تتولى أمر ميزانية الحرب كما هي الحال في وقتنا الراهن،وعليه فقد حصل أن تناوب على ميزانية الحرب كل من أبي جهل وأبي سفيان وغيرهم من وجهاء مكة وأغنيائها . ولذلك نزلت الآية الشريفة لتقول كلمة الفصل في أمر تلك المعركة قبل وقوعها . إذ جاءت حاسمةً وواضحةً لا لبس فيها ، ولتعلن للملأ بأن ما سيُنفقه هؤلاء القادة المشركون في طريق صد الناس عن محمد (صلى الله عليه وآله) لن يعود عليهم بغير الحسرة والندم . وهو الأمر الذي وقع بالفعل فيما بعد ، إذ لحقت الهزيمة بجند الأحزاب وكان النصر حليف أمة محمد (صلى الله عليه وآله) بالمقابل .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٦ .

الريح من جنود الحق

إن غزوة الأحزاب المسماة بمعركة الخندق . معركة عجيبة بالفعل ، فبعد أن أعدَّ المشركون ذلك الجيش الكبير الذي قُدِّر باثني عشر ألفاً، وهو عدد كبير آنذاك ، وبينما كانت كل الموازين المادية تُشير إلى غلبة المشركين على المؤمنين ، وإذا بالإمداد الغيبي يأتي على المسلمين فيُرسل إعصاراً شديداً على جنود الشرك فيقلع خيمهم من أماكنها ، ويقلب أدوات طبخهم الكبيرة ، وتلتهم النيران ما تبقى من تلك الخيم ، ويهرب الجُند خوفاً من الهلاك ، ويكفي الله المؤمنين شر القتال[١] .

وهكذا يندم التُعساء من قادة المشركين وأثرياء مكة ، ولا يبقى لديهم سوى الندم والخسارة والحسرة على ما أنفقوه من الأموال الطائلة دون جدوى .

بشائر الغيب القرآني للرسول (ص)

مقابل ذلك كان الله سبحانه وتعالى يَعد رسوله الكريم وحبيبه الأمين بالنصر الأكيد ويُبشِّره بأنه سيدخل مكة فاتحاً مُنتصراً ، وأن مكة التي كانت لا تزال مليئةً بالمشركين وعدد من الأصنام المرَّصعة بالجواهر وأنواع الزينة ، سيتم فتحها على يد حبيب ربّ العالمين محمد (صلى الله عليه وآله) .

وقال تعالى : ﴿ **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾[٢] .

إنها البشارة الكبرى للنبي وجماعته بالفتح المظفر لمكة ودخولها وأداء مناسك الحج والعمرة فيها بحرية كاملة وفي جو تام من الطمأنينة والاستقرار ، إنه وعد الله الذي لا يخلف وعده .

---

(١) ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ سورة الأحزاب : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٧ .

تحطيم أصنام الشـرك

وعندما دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى مكة فاتحـاً منتصراً ، دخل معه جيش كبير لم يسبق له مثيل ، ولم يُبقِ حينئذٍ على أي صنم في مكة أبداً ، إذ حطمها جميعاً . ولا بد أنكم سمعتم بذلـك الصنم الكبير الـذي كان المشـركون قـد علقّوه على جـدار الكعبة ، والذي لم يكن الوصـول إليه ممكنـاً بالوضع العادي ، مما حمل رسول الله (صلى الله عليه وآلـه) على أن يطلب من علي (عليـه السلام) الصعـود على كتفه وإنـزاله وتكسيـره . ويومهـا قال علي (عليـه السلام) : إنـه لمَّا صعـد على كتف رسول الله (صلى الله عليـه وآله) شعر وكأنه يستطيع لو أراد حتى الوصول إلى عرش السماء .

وهكـذا تحـطمت تلك الأصنـام التي كـان المشـركـون قـد أنفقـوا على صناعتها ونصبهـا في الكعبة كثيـراً من المال والجهـد ، والتي تكسرت بـالتالي على يـد علي (عليه السـلام) وتبعه بـلال الحبشي بالتكبيـر والأذان ، بعد أن أمره رسول الله أن يصعد إلى سطح الكعبـة ويُنادي : لا إلـه إلاَّ الله ، نعم لقد هُزم المشركون واستسلموا . وارتفعت كلمة لا إله إلاَّ الله عالياً ، كما هو وعـد الله ، إنه لا يخلف وعده .

الفتح المبين

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾[2].

في الـواقع كـان الانتصار الـذي حققه النبي (صلَى الله عليـه وآله) في

---

(1) سورة الفتح : الآية ١ .

(2) سورة النصر : الآية ١ .

فتح مكة ذا أهمية فائقة في تاريخ الإسلام ، ولذلك فقد تم ذكره مراراً في القرآن الكريم حيث جاء في طليعة الانتصارات الرَّبانية ، والمقدمة الضرورية للنصر الكامل والسيادة والملك الظاهري للإسلام والمسلمين . وهو الانتصار الذي عبّر عنه القرآن الكريم بالفتح المبين ، أي الفتح الواضح الذي لا لبس فيه ، أو « الفتح » بالمطلق . نعم إنه فتح مطلق وشامل . لأنه كان المقدمة الحقيقية لفتح بلاد فارس والروم واليمن ، والذي أخبر عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بواسطة الوحي الإلهي .

حفر الخندق

﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخذونها** ﴾[1] . كما سبق وأشرنا فقد اجتمعت الأحزاب على النبي (صلى الله عليه وآله) وتوجهت لغزو المدينة ، ولمَّا اقتربت منها وكانت بقيادة عمرو بن عبد ودّ العامري أرعبت كثيراً من المسلمين بعدّتها وعددها ، فما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلاَّ أن دعا أصحابه للتشاور ، وتقدم آنذاك سلمان الفارسي ليقول : بأن من عادة الفرس إذا ما هوجمت إحدى مدنهم أن يُحيطوا المدينة بسياج من الخنادق لإعاقة تقدم العدو ومنع هجماته وغاراته ، فاستحسن الرسول (صلى الله عليه وآله) هذا الرأي ، وأمر بالفعل يومها بحفر الخنادق على طول حدود المدينة ، حيث أوكل حفر كل أربعين متراً إلى عشرة من أصحابه، وحفروا الخنادق فعلاً وهم صيام ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحفر معهم ، وبينما كان سلمان يحفر وإذا به يصطدم بإحدى الصخور الكبيرة ، وحاول تفريغ أطرافها من أجل قلعها فلم يستطع . فعرض الأمر على النبي (صلى الله عليه وآله) الذي جاء إليها وبدأ يضرب بمعوله حولها .

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٠ .

قصور الأمم العظمى تحت سلطة الإسلام

وما إن ضرب أول ضربة بمعوله حتى أصاب الصخرة بطرفها وانطلقت منها شرارة لمعت قوياً ، فصاح رسول الله (صلى الله عليه وآله) : الله أكبر لقد أراني الله قصور الحيرة ومنها إيوان المدائن .

وفي المرة الثانية انطلقت شرارة أخرى فكبّر النبي (صلى الله عليه وآله) كذلك وقال : بأن الله قد أراه قصور إمبراطور روما الحمراء ، أي أنها ستكون تحت سلطة المسلمين كذلك . وفي الضربة الثالثة نادى الرسول (صلى الله عليه وآله) وكبّر وقال : بأن الله قد أراه صنعاء (عاصمة اليمن) هذه المرة ، وأن جبرائيل قد أخبره بأن هذه البلدان الثلاثة ستصبح تحت سلطة المسلمين .

لمّا كان النبي (صلى الله عليه وآله) يُخبر بهذه النبوءات كان الوقت أبعد ما يكون فيه المسلمون من النصر، ولم يكن هناك أية علامات لمثل هذا التقدم أو النمو ، ولذلك فإن المنافقين سرعان ما تدافعوا للاستهزاء وللسخرية من النبي (صلى الله عليه وآله) ، والادّعاء بأن محمداً (صلى الله عليه وآله) لم يكن مستعداً للتفوّه بمثل هذه الأقاويل ـ لولا أنه تحت ضغط جيشٍ قوامه اثنا عشر ألفاً من الرجال ، بالإضافة إلى حكومات العجم وإمبراطورية الروم آنذاك . إمبراطورية فارس التي كانت قوتها تُعادل أضعاف قوة إيران الحالية . وقد كانت المدائن الواقعة حالياً قرب بغداد هي العاصمة ، بالإضافة إلى القفقاز وبلخ وبخارى وأفغانستان ومعها مناطق أخرى واسعة كانت جميعاً تحت سلطة تلك الامبراطورية الواسعة .

وباختصار كان على الإسلام أن يواجه قوتين عظيمتين ممثلتين بالإمبراطوريتين الكبيرتين فارس والروم ، والتي أخبر الوحي الإلهي عن هزيمتهما على أيدي المسلمين ، وذلك كما جاء على لسان حبيب الله محمد

(صلى الله عليه وآله) : وهو أمر ليس بالعجب فإنه هو المالك وبيده ملك كل شيء[1] .

نعم ، ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ . إنه ربّ العالمين وهو يعد المسلمين قبل وقوع المعارك بأنهم سيحصلون على الغنائم ويأتي بالخبر اليقين بفتح خيبر ﴿ **فعجّل لكم هذه** ﴾[2] ثم تتبعها بقية الغنائم والانتصارات لاحقاً حيث غنائم طاق كسرى وقصر إمبراطور الروم . إنها الوعود الإلهية وأنباء الغيب التي جاء ذكرها في القرآن المجيد .

الأمن والحرية وعد الله لعباده المؤمنين

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً** ﴾[3] .

نعم ، فكما جُعلت مصر وبيت المقدس وأرض كنعان محلاً لخلافة بني إسرائيل وحكومتها ، فإن الله سبحانه وتعالى يَعِدْ أتباع خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) بوراثتهم للحكم وحصولهم على الأمن لتطبيق تعاليمهم الدينية بحرية تامة . ولتوضيح هذه البشرى الغيبية لا بدّ من العودة قليلاً إلى تاريخ البعثة الأولى .

---

(١) ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء** ﴾ سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٠ .

(٣) سورة النور : الآية ٥٥ .

بلال المؤذن وألوان التعذيب الوحشي

إن بلالاً هذا الذي أمره النبي (صلى الله عليه وآله) بالصعود إلى سطح الكعبة ليرفع نداء التوحيد بكل حرية ويؤذن بالناس كما سبق، لم يكن سوى غلام لدى أمية . وهو من أوائل الذين أسلموا والتحقوا بأمة محمد (صلى الله عليه وآله) في بدايات البعثة المحمدية . ولكنه عانى الأمرّين نتيجة ذلك ؛ فقد أخذه سيده أمية وصار يهدده ويقول له : سأريك ألوان التعذيب حتى تترك محمداً (صلى الله عليه وآله) وتعود إلى عبادة الأصنام ! وبالفعل ـ وكما تذكر الروايات فقد قام عدد من فُجَّار شباب مكة بربط سلسلة بعنق بلال وصاروا يدورون به في الأزقة والوديان حتى يعود عن محمد (صلى الله عليه وآله) ودينه .

ولكن التاريخ يقول : إن الأراذل كانوا يجرونه بالسلاسل وهو يقول أحدٌ أحد .

أَحَد أَحَد

وفي مرة أخرى يأتي أمية بنفسه ويأخذ بلالاً في أحد أيام الصيف الحارة ويرمي به عند سفح الجبل بعد أن ينزع عنه لباسه ، ويلقي به على صخرة حامية ، ثم يأتي بلوح صخري يغلي من شدة اللظى ويضعه فوق صدر بلال لعله يتراجع ويعود عن دين محمد ، لكن بلالاً ينادي بالرغم من كل ذلك وبإصرار: أحد أحد .

كان هذا مثالاً واضحاً لفقدان الأمن الديني بالمطلق للمسلمين. وفي تلك اللحظة بالذات يأتي الوعد الإلهي بحتمية تحقق الأمن التام .

مؤذن رسميّ للرسول رغم أنف الأعداء

إنّ بلالاً هذا وعلى الرغم من إرادة الأعداء ، وخلافاً لمشيئة أعداء

محمد (صلى الله عليه وآله) يصعد فوق سطح الكعبة ويؤذن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله . ولم يكن باستطاعته تلفظ « الشين »إذ كان يقول: أسهد أن محمداً، الأمر الذي دفع بالمنافقين الذين اغتاظوا بشدة من الأمر إلى أن يدّعوا على محمد (صلى الله عليه وآله) بأنه إنما يرسل غراباً ليؤذن في جماعته ، أو يسخرون من صوته ، وذلك لأنهم لا يتحملون رؤية بلال آمناً مطمئناً وناطقاً باسم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وهو العبد الحبشيّ .

أرض كنعان ومصر مقرّ أهل الإيمان

وهنا أود أن أنقل إليكم قولاً للمرحوم فخر الإسلام ، حيث يقول في إشارة له إلى الآية الشريفة ﴿ ليستخلفنّهم في الأرض ﴾ بأنه قد جاء في التوراة والإنجيل أكثر من خمسمائة مرة ذكر وعد الله لإبراهيم بأنه سيجعل من كنعان ومصر مقراً لحكومة أهل الإيمان، وهو التكرار الذي مرَّ ذكره في العهد العتيق كما في العهد الجديد .

ويذكر ذلك المرحوم الذي كان هو من المسيحيين يوماً : بأن ذلك الوعد الإلهي قد احتاج إلى أربعمائة وثلاثين سنة حتى يتحقق عملياً ، ومع ذلك فإنه لم يتحقق بشكل أبدي، بل استقر الأمر لفترةٍ ثم انقلبت موازين الأمور وسقطت حكومة المؤمنين في مصر، ومع ذلك وكما يذكر صاحبنا هذا فإن هذا النبأ الغيبي قد ورد ذكره في أكثر من خمسمائة مناسبة في العهد العتيق والعهد الجديد على أنه معجزة من المعاجز الإلهية .

وصدق الله وعده

يجب أن يفخر المسلمون بأن مَنَّ الله عليهم وشرَّفهم بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله)، ذلك النبي الذي وعد الله أمّته باستخلاف الحكم والإمامة .

وفي الواقع فإنه لم يمض أكثر من عشرين سنة على بعثته ، وقبل أن ينتقل إلى لقاء ربّه كانت اليمن قد أصبحت من ولايات المسلمين ، واختار النجاشي ملك الحبشة دين الإسلام .

ولم يمض قرن من الزمان على رحيل رسول الإسلام عن هذا العالم حين انتشر نور الإسلام غرباً حتى أقاصي الأندلس وشرقاً حتى سور الصين العظيم، ورفرف علم لا إله إلا الله من أقصى البلاد إلى أقصاها. وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد أنزل رحمته على أمة الإسلام من خلال استخلافهم هذا ، وتحقيق ذلك الأمن والأمان والاستقرار لهم .

حجة الإسلام فوق حجج سائر الأديان

لقد أرادوا أن يُطفئوا نور الله لكن الله أبى إلاَّ أن يُتمَّ نوره ، وأن يغلب دينه المقدس هذا بحجته وبرهانه سائر الأديان الأخرى ، وهكذا ظل على الدوام لا يقبل الهزيمة مطلقاً في أية مواجهة تعتمد على الدليل والبرهان . إذ أن تعاليمه كانت ولا تزال نابعةً من فطرة الإنسان ومتوافقة معها، ولهذا تراها والفوز من نصيبها دائماً .

التأييد الإلهي

يقول المرحوم فخر الإسلام : إن نصارى أمريكا وأوروبا يكتبون الكتب في مهاجمة الإسلام، وها هم قد ألفّوا أربعة كتب مؤخراً يتهجمون فيها على رسول الإسلام والقرآن ، لكن الله سبحانه وتعالى يُظهر لهم واحداً من مثلي بالمقابل ليواجههم ويدحض أباطيلهم بكتاباته .

نعم ، أن يتمكن عشرون جزءاً ممتعاً من كتب الدفاع عن الإسلام ، من الوقوف بوجه سيل الأموال والمُبشرين والجهود الغربية المعادية ، إنه لا شك

أمر رَّباني وتأييد إلهي لنصرة الإسلام ، إذ يتمكن رجل واحد مثل المرحوم فخر الإسلام من هزيمة أولئك المُبشرين بذلك الشكل المعروف .

إنه ينقل بنفسه تلك القصة المعجزة في الواقع . معجزة إسلامه .

مسيحي يعتنق الإسلام

إنه يكتب قصته كما يلي :

إن وطني هو أمريكا . أبي وجدي كانا من الكهنة ورجال الدين المسيحيين . وأمَّا أنا فقد كنت منذ نعومة أظفاري أهوى العلوم الدينية وأتشوق لدراستها، إلى أن التحقتَ بركب أجدادي وطويت مراحل التقدم الدراسي حتى وصلت بالفعلِ إلى مرحلة حضور دروس البابا الأعظم .

لقد كان يحضر درس البابا حوالي أربعمائة شخص ، وقد كنت الأوفر حظاً والأكثر نشاطاً والأذكى من بين الجميع ، ولذلك تراني قد حصلت على عطف البابا ورعايته أكثر من سائر زملائي ؛ وحتى صرتُ الوحيد الذي كان له حق الدخول على البابا في خلواته .

وفي ذات يوم مرض البابا ولم يحضر للتدريس . وعندما ذهبنا إلى قاعة الدرس قيل لنا إن البابا لن يأتي اليوم . وهكذا أخذ الحاضرون بالتدارس فيما بينهم وقد تطرق الحديث يومها إلى كلمة ـ فارقليط ـ التي ورد ذكرها في العهد الجديد ، والتي كان كل واحد منهم يُعَّبر عنها ويُفسِّرها تفسيراً معيناً

« فارقليط » بمعنى المُسَلّي

ويومها قررتُ زيارة البابا وعيادته في مقر إقامته ، وقد دخلت عليه بالفعل فرأيته على فراش المرض حقاً ، فقلت له : جئت أحضر درسك اليوم

فقيل لي بأنك مريض ، فقررتُ عيادتك . قال : وهـل تمّ التباحث والتـدارس بشيء في غيابي ؟ فقلت : نعم لقد تم التباحث حول كلمة ـ فارقليط ـ ومعناها المشهور الذي يقال إنه المُسَلّي ؛ وهو ما قاله السيـد المسيح (عليـه السلام) بأنه ذاهب وسيأتي بعده فارقليط .

فردَّ عليَّ البابا : هيهات أن يعـرف أحد المعنى الحقيقي لهـذه الكلمة ! وما أن نطق بهذه العبارة حتى انتفضتُ من مكـاني وتعلّقتُ بأذيـاله وأنـا أطلب منـه أن أعرف المعنى الحقيقي لهـذه الكلمة ؛ وذلك لأنني كنت أسعى للكمال على الـدوام . ولمّا قـال لي بأنـه ليس من الصلاح أن أعـرف معنـاهـا ، وأنـه موجب لضرره وضرري أن يشرح لي حقيقة هذه الكلمة ، فقد ازددتُ إصـراراً عليـه ، ولمّا لم يـرَ بدّاً من البـوح بحقيقة معنـاها ، وبعـد أنْ حَلَّفته بـالأيمـان الغليظة أن يُفشي لي سرّ هذه الكلمة ، فقد وافق في النهايـة شرط أن لا أُفشي بسرّها لأحد ما دام البابا على قيد الحياة .

« فارقليط » بشير بظهور محمد (ص)

وهكذا كان . حيث طلب مني أن آتيه بالمفتاح الخاص بصندوقه ، ولمَّا أتيتهُ به قال لي : افتح هذا الصندوق فستجـد صندوقـاً آخر بـداخله ، ويوجـد بداخله كتاب مكتوب بالسّـريانيّـة وقد كتب قبـل ظهور الإسـلام ، ولمَّا فتحت الكتـاب قال لي : افتـح الصفحة الفـلانية ، فـرأيتُ كلمة فـارقليط وقرأت في حاشية الكلمة فوجدت بأنها تعني محمداً (صلى الله عليه وآله) .

فسألته : وأي محمدٍ هذا ؟ فقال : هوذا محمـد الذي يعتقـد المسلمون بنبوّته .

فقلت : إذن فالمسلمون على حق ؟ قالِ : نعم ، هم كذلك .

فقلت له : ولماذا لا تُظهر ذلك أيها البـابا ؟ فقال لي : للأسف فـإني قد اكتشفت هـذا الأمر في أواخـر عمري بعـد أن أصبحت رجلاً عجوزاً . وإذا مـا أعلنت إسلامي الآن فإنهم سيقتلونني ، وإلى أين بـإمكاني أن أذهب في هـذه السن ؟ وهل يستطيع المسلمون حمايتي حقاً حتى أقصـد بلادهم ؟ أعتقـد أن الدول المسيحية ستطالب بي أينما ذهبت . ولذلك أرى بأني لا أستطيع إفشاء هذا الأمر ، وأرى الصلاح في سكوتي عنه ، ولكنك أنت رجل شاب تستـطيع الهروب والتوّجه حيث تُريد .

نحو الشام والعراق

فقمتُ على الفور وقبَّلت يديه وقررت الرحيل فوراً والتوّجه نحو الشام . وبعد أن وصلت الشام وسـألتُ عن أحوال المسلمين وعلمائهم، جاءت رحمـة الله لتدلّني على أحد علماء الشيعة هناك حيث أسلمت على يديـه . ثم درست النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان على يديه ، إلى أن استقرّ بي المقام في النجف الأشـرف ، فتتلمذت على أيـدي كـل من المـرحـوم السيـد كـاظم اليزدي والسيد آخوند خـراساني ونلت درجـة الاجتهاد ، وذهبت بعـدها لـزيارة الإمـام الـرضـا (عليـه السـلام) في إيـران ، وهنـاك في طهـران سمعت بـأن النصارى قد كتبـوا أربعة كتب تهـاجم الإسلام ، فجلست وقتهـا وانشغلت في الردّ على أباطيلهم .

القلم السيَّال والنعمة الرّبانية

إنَّ الله قـد أنعم عليه نعمـةً كبرى بـأن وهبه ذلـك القلم السيَّال ، وكمـا يقول هو : فإنه القلم الذي وهبني الله إياه حتى أنصر به حبيبـه محمداً (صلى الله عليـه وآله) . نعم يبـدأ بالكتـابة فـوراً ويكتب كتابين في الـردّ على اليهود والنصارى ، ويُظهر الحجة الإلهية ، ويُحق الحق ويُبطل البـاطل ، ويـردّ على

تهم بعض القساوسة الوقحين الذين تـطاولوا على نبي الإسـلام دون رادعٍ من حياء أو خجل ، وبذلك يقفُ منتصراً للإسلام حقاً وحقيقةً .

خاتم الأنبياء (ص) وتهمة الشهوانية

إن إحـدى تهممهم وأباطيلهم بحق النبي (صلى الله عليـه وآلـه) كـانت القول بشهوانيته؛ وذلك من باب أنه قد قال بتعدد الزوجات، وأنه بينمـا يفرض على أتباعه الاكتفاء بأربع زوجات تراه قد تزوج تسع زوجات .

لكن الردّ جاء واضحاً وصريحـاً للغايـة ، إذ كيف يتم التوفيق بين تهمـة الشهوانية لمثل محمد (صلى الله عليه وآله) وهو الذي لم يتـزوج حتى بلوغه سن الخامسة والعشرين من عمره .، وهي مرحلة القمة في شهـوانية الـرجل في مثـل هذا العمـر ؟ ثم إنه لمَّـا تزوج في ذلـك العام تـراه يتزوج من امـرأة تبلغ الأربعين من العمر ، وقد سبق لها أن عاشت مع زوجين سابقين ؟ .

خديجة الثيّب وأمّ الأربعين

إنَّ هـذه المخدَّرة وأمّ المؤمنين خـديجة الكبـرى ووالدة فـاطمة الـزهراء الصديقة الكبرى (عليهما السـلام) ،عندما أرادت الزواج من النبي (صلى الله عليه وآله) فقد كانت طلبات الزواج منها كثيرة ، لكنهـا هي التي أتت لتعرض الـزواج على محمد (صلى الله عليـه وآله) ، وتقـول لـه : بـأن التي تعـرض الزواج عليك لها من العيوب عيبان اثنان : أولهما بأنها أكبر منـك سناً (خمسـة عشر عاماً) وثانيها بأنها امرأة متزوجة من قبل ولها أولاد .

النبي (ص) يريد روحانيّة خديجة

إن محمـداً (صلى الله عليه وآلـه) عبارة عن روح مُجسَّـدة ، وروحاني

في لباس البشر ، إنه كان ينظر إلى مقام خديجة الروحاني ولم يكن ينظر إلى سنها أو مالها وثروتها . كل ما كان يهمه منها هو قلبها الطاهر وعينها البصيرة المنيرة .

إن خديجة لم تسجد لصنم ، وهي أول من رأى نور النبوّة ، نبوّة محمد (صلى الله عليه وآله) ، ولمّا سألت ما هذا النور ؟ وأجابها النبي (صلى الله عليه وآله) : نور النبوّة ، وأن قولي لا إله إلاّ الله ، قالت له : إنني قد آمنت بك منذ سنوات .

إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقول : كلّما كان ينزل عليَّ جبرائيل كان يقول : أقرىء خديجة مني السلام .

إيمان خديجة

يُروى أنه عندما قالت عائشة يوماً للرسول (صلى الله عليه وآله) : ما أكثر ذكرك لخديجة ، وهل هي أكثر من امرأة عجوز ؟ فقد تأثر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشدة وقال : إنها أول من آمن بي وذلك قبل أن يؤمن بي أحد من الناس ؛وإنها قد دعمتني ونصرتني ونصرت دين الله قبل أن ينصره أحد .

إنه ليطول الحديث عن هذه المُخدَّرة الطاهرة وليس هنا مجاله ، ولكن لا بأس من ذكر بعض مآثرها للتبرك بذكراها .

الدفاع عن النبي بالنفس والمال

عندما حاول المشركون يوماً مهاجمة النبي (صلى الله عليه وآله) في البيت وأرادوا قتله ، وقفت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بوجههم وأغلقت باب

بيتها بإحكـام ، وصارت تتلقى الحجـارة بصدرهـا دفاعـاً عن النبي (صلى الله عليه وآله) ، وصارت تصرخ بهم : ماذا تُريدون من بيت امرأة ؟! ولمَّـا توارى رسول الله (صلى الله عليه وآلـه) عن الأنظار بعيـداً عن تعذيب المشـركين له وقد توّجه يومها إلى جبل حراء ، فإن خديجة ومعها علي (عليه السـلام) كانـا قد هيّـآ في حينها جرة مـاء وكسرة خبز وانطلقـا يبحثان عن النبي (صلى الله عليه وآله) لنصرته ومساعدته .

وعنـدما تكـاثرت جـروح النبي (صلى الله عليه وآلـه) من أثر ضـربات الحجارة التي كان يرميها عليه المشركون فإن خديجة وعليـاً (عليهما السـلام) همـا اللذان جاءا وغسَّـلا جسمه (صلى الله عليـه وآلـه) من الـدمـاء وضمَّـدا جروحه وذهبا به إلى مكة .

تعدد الزوجات في سن الكهولة ومصالح الإسلام

حينما توفيت خديجة كـان النبي (صلى الله عليه وآلـه) قد جـاوز عمره الشريـف الخمسين عاماً ، ولم يكن قد تزوج من امرأة أخرى أيام حياة خديجة الكبرى . فلو كان رجلاً شهوانياً بالفعـل ، فلماذا لـم يتـزوج من إحدى النسـاء الأخريات طوال الأعوام الخمسة والعشرين التي عاشها مع خديجة ؟! .

في حين ترى أن حالات زواجه المتعددة إنمـا حصلت بعد هجـرته إلى المدينة وتقدم الإسلام ، وذلـك كله من أجل مصـالح الإسـلام ، والضرورات التي كانت تتطلب ذلك ، وقد غلب عليها حالات الزواج من الأرامل وأمّهـات الأطفال اليتامى .

الاهتمام بالأرامل وتقريب القلوب

إنَّ إحـدى نتائج الحروب التي حصلت بعـد الهجـرة هي بقـاء عـوائـل

الشهـداء دون مُعيل أو ولي أمـر ، وقد كـانت وظيفة المسلمين رعـاية هؤلاء . ولـذلك فقـد كان العـرف أن يتـزوج بعض المسلمين من زوجـات الشهـداء ، وبذلك يصبحون أولياء أمور أبناء الشهداء،وهو الأمر الذي شارك فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) مثل سائر المسلمين من أتباعه وصحبه .

بـالإضـافـة إلى ذلـك فـإن من إحـدى نتـائج المعـارك التي نشبت بين المسلمين والمشـركين والكفار ،كانت حالة الاقتتال الحـاصل بين الأب وابنـه والأخ وأخيـه ، ومـا كـان يُسببـه ذلـك من خلق جـو العـداء العميق في قلوب المسلمين الجُدد ، الذين لم يصلب عودهم بعد في الإسلام ، لكنه ومع زواج النبي (صلى الله عليه وآله) من بعض نسـاء المشركين،كالزواج من ابنـة أبي سفيـان أم حبيبة ، فـإن الأمر يصبـح أقل حـدّةً وأكثر لينـاً ، حيث يصبح النبي صهراً لهم ، وتكون النتيجة حماية للإسلام والمسلمين ، بدلاً عن سيادة حالـة العـداء المـطلق لـدى الـطرف المقـابـل ، وإن كـان السبب في ذلـك مـاديـاً وصورياً .

المساعدة في نشر أحكام الإسلام

إضافة إلى ذلك فقد قال البعض بمصالح أخرى ضرورية كانت وراء تعدد الزوجات عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ أن المـطلوب نشر الأحكـام الخاصة بالنساء ، وذلك لم يكن ممكناً إلاّ من النبي (صلى الله عليـه وآله) ، ولمّـا كـان حيـاء النبي (صلى الله عليـه وآلـه) من جهـة ، وحيـاء المؤمنـات أنفسهن سبباً عائقاً في انتشار تلك الأحكام ، فقد ارتئي أن تكـون الوسيلة هي زوجـات النبي (صلى الله عليه وآلـه) ، حيث يتم عن طـريقهن نشـر أحكـام الحيض والنفـاس والاستحـاضـة والـولادة والعدة، إلى غيـر ذلــك من أحكـام النسـاء .

بيت النبي من افقر بيوت المسلمين

أين محمد (صلى الله عليه وآله) وأين منه الدنيا ؟ إنه روحاني محض . فقد وصل عدد زوجاته في آخر عمره تسع نساء ، والإسلام بدأ يتوسّع ، والغنائم كانت قد بدأت تتقاطر على المسلمين .

وصارت نساء النبي (صلى الله عليه وآله) تطالبنه بالمسكن والترتيبات المتعلقة بهن ، ولا سيما وأنهن زوجات النبي (صلى الله عليه وآله) ، وإذا به يَرُد عليهن (مضمون الحديث) بأنه ينبغي أن يكون بيتي كمثل بيت أفقر أفراد الأمة .

نعم ، لقد كان يمر أحياناً أربعون يوماً لا يُرى خلالها نار طبخ في بيت النبي (صلى الله عليه وآله) ، وحينما صارت نساؤه تزاحمنه وتطالبنه بتأمين أسباب الحياة الدنيوية ، نزلت الآيات القرآنية المعروفة بهذا الخصوص في سورة الأحزاب .

الحياة الدنيا أم الله ورسوله

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمتّعكنّ وأُسرّحكنّ سراحاً جميلاً * وإن كنتنّ تُردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً** ﴾[1] .

نعم ، فإن كنتن من طالبات البيوت الجميلة والعيش الرغيد والخدم والحشم فإن ذلك لن تجدنه في بيت النبي (صلى الله عليه وآله) وإن كنتنّ من أهل الآخرة فعلى الرحب والسعة .

---

(١) سورة الأحزاب : الأيتان ٢٨ ـ ٢٩ .

ويروى أنه بعد نزول هذه الآيات فقد تبن إلى الله واخترن الآخرة .

ويروى على لسان عائشة أنها قد قالت بأنه قد جاءنا الفرج بعد موت النبي (صلى الله عليه وآله) ، حيث صار الخليفة يُخصص مقداراً من المال بمثابة مصروف لزوجات النبي .

العدل بين الزوجات

ينقل بعض المحققين أنه ربما يكون أحد أسرار قضية تعدد زوجات النبي (صلى الله عليه وآله) في تبيان عظمته وقدرته الفائقة .

فمن هو الذي يستطيع أن يعيش مع امرأتين دون مشاكل ؟ لكن محمداً (صلى الله عليه وآله) كان يعيش مع تسع نساء بالعدل .

إنه كان يعاملهن جميعاً على السواء ، ولم يكن يُفرّق بين إحداهن والأخرى ، وعندما كان يرغب في بعض الليالي أن تتركه الزوجة للعبادة كان يطلب الإجازة لذلك . فمثلاً كان يقول لأم سلمة : يا أمّ سلمة ، أنا أعلم بأن اليوم هو يومك ، فهل تسمحين لمحمد (صلى الله عليه وآله) أن يبقى مشغولاً بنفسه ، أي بعبادته ودعائه . نعم ، إلى هذا الحد كان يواظب على عدم إضاعة حقوق المرأة .

العدالة حتى عند الوفاة

عندما اقترب أجل رحيله من الدار الدنيا كان في حجرة أم سلمة ، وصادف أن جاءت عائشة ورأت حال النبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك المرض ، ويبدو أنها تيقنت بأنه مرض الموت ، فأرادت أن تأخذ النبي إلى حجرتها بهدف رعايته ، فكان أن طلب موافقة سائر الزوجات حتى يتنازلن عن حقهن لعائشة ، وتمّ ذلك حفاظاً على راحة النبي (صلى الله عليه وآله) .

لقد كانت روحانية النبي (صلى الله عليه وآله) وعظمة قدرته في منتهى درجات الكمال ، وهي المرتبة التي لا يمكن للبشر أن يصل لها . فما بال النبي (صلى الله عليه وآله) وأمر الشهوانية ؟! لقد عاش تعدد الزوجات حتى آخر يوم من عمره ، لكنه ظل على الرغم من ذلك كلما ذكر اسم خديجة تأوه لذكرها .

وصية خديجة حول الزهراء

حينما كانت خديجة على فراش الموت كان سن فاطمة الزهراء حوالي خمس سنوات . ولمّا كانت خديجة تعرف أن الزهراء ستصبح يتيمة الأم ، وتعرف ماذا يعني فقدان الأم بالنسبة للبنت ، قالت لأم أيمن : أعطني وعداً يا أم أيمن بأنك لن تتركي فاطمة وحيدةً يوم زفافها (لأن البنت تحتاج إلى أمها يوم الزفاف) .

وبالفعل فإن أم أيمن لم تترك فاطمة (عليها السلام) يوم زفافها ولم تترك باب حجرتها حتى ليلة زفافها ، مما اضطر النبي (صلى الله عليه وآله) أن يقول لها بأنه ليس بالأمر الحسن ما تفعلين يا أم أيمن؛ فقالت له : إنها وصية أمها خديجة : فبكى الرسول (صلى الله عليه وآله) .

خديجة تخاف عري يوم القيامة

لشدة حياء خديجة فقد طلبت من ابنتها الزهراء (عليها السلام) أن تطلب من أبيها بأن يدفن أمها بردائها ، لأن خديجة تخاف عري يوم القيامة ، وهكذا كان بالفعل ، فقد لبّى لها النبي (صلى الله عليه وآله) رجاءها ، وجعل من ردائها الذي ما أكثر ما صلّت به كفناً لها ، ودفنها به .

الزهراء (ع) أيضاً لم تطلب من علي (ع) شيئاً

الزهراء فاطمة (عليها السلام) أيضاً لم تكن لتستطيع أن تطلب شيئاً من علي (عليه السلام) لشدة حيائها ، ولم يحصل أنها قالت لعلي (عليه السلام) بأنها تحتاج كيت أو كيت ، سوى ما ذكر عن شرح وصيتها له في أثناء وفاتها ، وهي مضطرة لذلك . وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أنها سبق لها أن كتبت وصاياها قبل حلول ميعاد رحلتها حتى لا تضطر لتبيانها شفهياً .

نعم فإحدى وصاياها كانت رعاية أولادها ، ولا سيما الحبيب الحسين (عليه السلام) :

ابك لي وابك لليتامى ولا تنس قتيل العدا بطف العراق

(٦)

صدق أنباء الغيب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا ﴾

(سورة الإسراء : الآية ٨٢)

أبو لهب لا يمكن أن يؤمن

ما زلنا في الحديث عن وجوه الإعجاز في القرآن وكيف أنه مليء بالأنباء الغيبية وأنه يُخبر عن خفايا الأمور وبواطن الأشياء التي لا يعلمها أحد إلاّ الله .

ومن بين تلك الأنباء نتطرق الآن إلى السورة المباركة المسماة بسورة ﴿ تبَّت ﴾ وهي السورة التي تتحدث عن نبأين غيبين تحقق حدوثهما تماماً . وهي من أوجه الإعجاز التي يمكن إضافتها في هذا المجال .

النبأ الأول هو تأكيد السورة على أن أبا لهب وزوجته ـ حمالة الحطب ـ لا يمكن لهما أن يصبحا من أهل الإيمان ، وأنهما سيبقيان حتى آخر العمر كافرين ويموتان كذلك ، وأنهما سيحترقان في نارٍ لاهبة[١] .

---

(١) ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ سورة اللهب : الآية ٣ .

لن يُغنيه ماله في شيء.

وأما النبأ الثاني فهو التأكيد على أن هذا التعيس سوف لن يُفيده ماله الذي جمعه في شيء من أمور حياته ، وأنه ستذهب كل تلك الثروة التي جمعها سدىً[1] .

وهذا ما حصل بالفعل . إذ روي أن جنازة أبي لهب بقيت مرمية على الأرض ثلاثة أيام وقد أصابها العفن إلى أن اضطروا إلى رميها في إحدى الحفر رمياً ، وذلك بعد أن كان قد ابتلي بمرض عجيب استمر معه حتى أوقعه صريع الموت .

الملائكة تدعم المسلمين في بدر

قبل سبعة أيام من موت أبي لهب ، وبينما هو جالس في المسجد الحرام وإلى جانبه كل من أبي رافع وأم الفضل ، وإذا بأبي جهل قادمٌ من بعيد ، وكان وقتها عائداً لتوه من مغركة بدر . فنهض أبو لهب وضمّه إلى صدره وقال له : ماذا يا أبا جهل ، هل قضيت على محمد أم لا ؟

فيرد عليه أبو جهل قائلاً : لقد ظهر علينا في بداية نشوب المعركة أشباح في أردية بيضاء وهي تمتطي الخيول وبيدها الرماح وتُشير إلينا بأصابعها فإذا بنا عاجزون عن الحركة .

شجار بين أبي لهب وكلٍ من أبي رافع وأم الفضل

وهنا انبرى أبو رافع وقال : إنهم الملائكة . وما أن سمع أبو لهب هذه الجملة حتى اشتعل غيظاً ووثب على أبي رافع المسكين ذلك الغلام الهادىء

---

(١) ﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ سورة اللهب : الآية ٢ .

وأخذ يضربه على رأسه وسائر أنحاء جسمه ، ويرمي به إلى الأرض ، وكل ذلك بسبب قوله بوقوف الملائكة إلى جانب محمد (صلى الله عليه وآله) .

أم الفضل التي كانت بدورها امرأة شجاعة لم تستطع الوقوف متفرجةً ، بل حملت العصا على الفور وصارت تدافع عن أبي رافع .

أما أبو لهب فقد فشل في المواجهة وخجل من نفسه ، وتوَّجه فوراً إلى منزله، وقيل إنه سرعان ما ابتلي بمرض خطير أوقعه طريح الفراش؛ ولم تنفعه كل تلك الأموال التي كانت بحوزته . ويُقال إن مقعده كان قد تورَّم إلى درجة أنه كان يئِنُ ليل نهار من شدة الوجع ، إلى أن ولّى صريع الموت دون أن يرحمه أحد ، ولم ينفعه مال ولا ولد .

مرض مُعدٍ وجثة متعفّنة

وأمَّا بعد موته فيقال إن أولاده رفضوا الاقتراب من جثته، وظلت في غرفة مغلقة دون أن يجرؤ أحد على حملها ، وذلك خوفاً من سراية المرض المعدي الذي قيل إنه كان مصاباً به . ولكن وبعد انزعاج الجيران من رائحة العفونة التي انتشرت من جثته اضطروا لسحلها سحلاً ورميها في إحدى الحفر القريبة وإلقاء التراب فوقها .

نعم لم يُغن عنه ماله وما كسب ،لا من عذاب الدنيا ولا من عذاب الآخرة ، إذ أن الله تعالى قال : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ .

أقصر السور والمعجزات العديدة

من بين السور المائة والأربع عشرة الواردة في القرآن الكريم تعتبر سورة الكوثر الأقصر بينها جميعاً ، إن من حيث عدد الآيات أو من حيث عدد الكلمات، والتي يبلغ عدد آياتها مع بسم الله الرحمن الرحيم أربع آيات، وهي

السورة التي يتحدى بها القرآن الكريم المشركين والكفار والمعاندين أن يأتوا بمثلها إن استطاعوا[1] . ولو كانوا قد استطاعوا بالفعل أن يأتوا بسطرٍ واحد من مثل القرآن لما كانت كل تلك الحروب قد وقعت،ولكان الإسلام قد انطفأ نوره وخمد صوت الحق . لكن هيهات . .

ومع ذلك فإن هذه السورة القصيرة لوحدها تراها تحمل ثلاث معجزات ، كل آية منها تُخبرك بنبأ غيبي وتُحدِّثك عن معجزة . فالأولى تُنبئك عن إعطاء الكوثر الذي سبق أن أشرنا إليه، والذي سنتحدث عنه أكثر في المستقبل إن شاء الله . والثانية عن اكتفاء النبي (صلى الله عليه وآله) وترفعّه عن الحاجة ، والثالثة عن هزيمة أعدائه من الحاسدين والشامتين . فضلاً عن توفّر سائر وجوه الإعجاز الأخرى فيها من فصاحةٍ وبلاغةٍ وغيرها .

النبي (ص) والاكتفاء المادّي

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيّه محمداً (صلى الله عليه وآله) ويقول له :(وانحر) أي اشتر البعير من مالِكَ وانحرهُ قرباناً في سبيل الله . وواضحٌ المعنى الكنائي هنا في هذه الآية ، فالبعير باهظ الثمن ، وعليه فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا بدّ وأن يكون مكتفياً وميسوراً حتى يتمكن من شراء البعير والتضحية به .

ويقال إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يذبح مالا يقل عن بعيرين في كل عيد من أعياد الأضحى ، ويُفديها في سبيل الله ، واحداً عن نفسه والآخر عن فقراء أمته ممن كانوا غير قادرين على التضحية . وتذكر بعض الروايات أنه وصل الأمر برسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أن يُضحي في بعض السنين بستين بعيراً أو مائة بعير وتوزيع لحومها في منى .

---

(١) ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ سورة البقرة : الآية ٢٣ .

إن شانئك هو الأبتر

تقول الروايات الواردة بشأن نزول هذه السورة إنه لمَّا توفي إبراهيم بن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) فإن ذرية رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد انحصرت بفاطمة الزهراء (عليها السلام) . فصار الأعداء يشمتون بالنبي ، وقيل إن عدداً من المنافقين الذين كانوا مجتمعين في المسجد يومها نادوا النبي بالأبتر ، وعيَّروه بانقطاع نسله من الأبناء الذكور . وفي رواية أخرى أن العاص بن وائل كان قد أطال الحديث يوماً مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن بعدها توّجه إلى جمع من قريش ، وعندما سألوه مع من كان يتحدث ؟ قال لهم مع هذا الأبتر . في إشارة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) .

على كل حال فإن المنافقين كانوا يباركون لبعضهم البعض بهذه القضية ، ويتوقّعون خلوّ الميدان لهم بعد موت النبي ، إذ أنهم تصوروا أن نسله قد انقطع بموت ابنه إبراهيم ! ولمَّا كانت هذه الأحاديث قد أحزنت النبي بعض الشيء ، نزلت هذه السورة من الله سبحانه وتعالى الرحيم اللطيف حتى تُبرِّد قلب حبيبه الحزين .

حواريّو المسيح (ع) لم يتجاوزوا الاثني عشر

كما جئنا على ذكر ذلك آنفاً فإن الكوثر تعني العطاء والخير الكثير ، وإن أحد مصاديق ذلك الخير هو كثرة الأتباع والأمة .

إن عدد حواريّي عيسى بن مريم لم يتجاوز اثني عشر فرداً طوال مدة نبوّته التي ابتدأت منذ ولادته حسب ما نعتقد نحن المسلمون ، خلافاً لما جاء في الإنجيل المزوّر للنصارى ، والذي يقول بأنها لم تتجاوز السنوات الأربع[1] وحتى اليوم الذي رفع فيه إلى السماء[2] .

---

(١) ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ سورة مريم : الآية ٣٠ .

ومع ذلك فإنه حصل أن ظهر من بينهم من دخل إلى قلبه الشك ثم كفر بدين عيسى وبربّه، وذهب إلى حد إبلاغ اليهود عن مكان وجود نبي الله عيسى من أجل أن يقتلوه، وهو (يهوذا) الاسخريوطي .

كثرة أمة محمد (ص) عطية من عطايا الله

في حين أن عدد أتباع أمة أشرف الأنبياء محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله) لا سيما بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة كانوا في ازدياد مستمر ، وقد عاصر رسول الله نفسه هذه الكثرة حتى آخر عمره في عام حجة الوداع ، حينما أعلن للناس أن يأتوا للمشاركة في حج ذلك العام ، وقد أتى المسلمون بالفعل من كل فجّ عميق ، واجتمعوا عند مسجد الشجرة ليحرموا قبل الشروع في أداء مناسك الحج كما أمرهم النبي (صلى الله عليه وآله) . وكما يذكر المؤرخون فإن صوت الحجيج كان يملأ أجواء المنطقة الفاصلة بين مسجد الشجرة القريب من المدينة حتى مكة بشكل متصل ؛ وهي مسافة كانت تُقطع في تلك الأيام في مدة أربعة عشر يوماً على الجمال ، وتُقدر بثمانين فرسخاً .

مئة وعشرون ألفاً في حجة الوداع

وكما ورد في إحدى الروايات فإن مقدمة قافلة الحجيج كانت قد وصلت إلى باب المسجد الحرام، في حين أن نهاية القافلة في ذلك العام كانت لا تزال عند مسجد الشجرة ، وقد قدَّر البعض تعداد الحجيج لذلك العام بثمانين ألفاً في حين قدَّرهم البعض بمائة وعشرين ألفاً ، وهو تجمع ضخم لم يسبق له مثيل في ذلك العصر . فأي نبي استطاع أن يجمع كل هؤلاء الأتباع في زمان حياته ؟!

= (٢) ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ سورة النساء : الآيتان ١٥٧ - ١٥٨ .

أتباع الأنبياء قلة

فهذا نوح (عليه السلام) الذي استمرت دعوته تسعمائة وخمسين عاماً[1] لم يؤمن به في النهاية إلاَّ عدد قليل من الناس[2] حيث لم يتجاوز تعدادهم بالإضافة إلى زوجته وأولاده[3] وأحفاده أكثر من ثمانين شخصاً .

وذلك إبراهيم خليل الرحمن يأتي بكل تلك الآيات البيِّنات وإذا الذين آمنوا به في بابل لم يتجاوزوا الأصابع عدّاً .

وأمّا لوط فإن زوجته فقط[4] وبناته هنّ اللواتي آمنّ به في حين كفر بدعوته ووقف بوجهه أهل المؤتفكات الذين كانوا يشكِّلون عدداً لا بأس به من المدن المؤثرة آنذاك[5] .

وباختصار يمكننا القول بأن كافة الأنبياء لم يكن لديهم من الأتباع في زمان حياتهم إلاّ القليل ، ولكنه من نِعَم الله وعطاياه على نبي الإسلام محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) أنْ مَنَّ عليه بكثرة أتباعه في أمته في زمان حياته بالإضافة إلى ما بعد مماته . نعم إنهم كانوا يدخلون مكة أفواجاً أفواجاً وقد عَمَّ يومها طنين نداء الله أكبر أجواء مكة كلها ، ولم يبق أثر في ذلك اليوم لا لصنم ولا لعابد صنم .

---

(١) ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ﴾ سورة العنكبوت : الآية ١٤ .

(٢) ﴿ وما آمن معه إلاّ قليل ﴾ سورة هود : الآية ٤٠ .

(٣) لقد كان لنوح أولاد كثيرون كان بينهم كافر واحد هو كنعان والذي غرق وهو كافر عندما حصل الطوفان المعروف .

(٤) هنا تأتي الإشارة إلى زوجة لوط المؤمنة بينما يأتي القرآن على ذكر زوجته الكافرة في آخر سورة التحريم .

(٥) لقد تم شرح قصة المؤتفكات وكذلك مسألة طوفان نوح بشكل تفصيلي في كتاب للشهيد تحت عنوان (حقائق من القرآن) فعلى من يرغب مراجعة ذلك الكتاب .

هول المطلع وضيق اللحد

ولمّا كان الحديث عن حجة الوداع فقد خطر ببالي موضوع أردت الإشارة إليه ثم نعود مجدداً إلى موضوع الإعجاز في سورة الكوثر .

فبعد أن نزل جبرائيل على النبي (صلى الله عليه وآله) وأنبأه بقرب رحيله عن هذه الدنيا ، وأن هذا العام هو العام الأخير من العمر الشريف للحبيب محمد (صلى الله عليه وآله) ، صار النبي يجلس بعد كل صلاة ويستغفر ربّه قائلاً : « أستغفر الله ربي وأتوب إليه »[١] ولمّا سئل عمّا حصل له حتى صار يستغفر كل هذا الاستغفار ؟ أجاب النبي الأكرم بأن جبرائيل قد نزل عليه وأبلغه بأنه قد اقترب أجله وأنه في عامه الأخير . فقيل له إنك إنما أنت نبيٌّ مُطهّر ، وقد طهّرك ربّ العالمين إذ بعثك نبيّاً[٢] وتستغفر كل هذا الاستغفار فيقول : « أين هول المطلع أين ضيق اللحد » أنه يستعدّ للقاء ربّ العالمين ويُعدّ العدّة لحضور ذلك المشهد القدسي العظيم بين يدي الله سبحانه وتعالى في يوم الحساب .

ما أطول غفلتنا وأقل انتباهنا ! فإذا كان حبيب ربّ العالمين محمد (صلى الله عليه وآله) بطهارته التي تشهد لها الملائكة يستغفر كل ذلك الاستغفار ، وزين العابدين (عليه السلام) يردد ثلاثمائة مرة (العفو العفو) في كل سَحَر ، فكم هو عدد المرات التي ينبغي أن نرددها نحن الغافلين ؟!

لن يبقى على الأرض غير المسلمين

مرة أخرى نعود للحديث عن الكوثر ، وكما ذكرنا فإنها تعني الخير الكثير ، وإن من مصاديق ذلك الخير كثرة أمة محمد (صلى الله عليه وآله)

---

(١) ﴿ فسبّح بحمد ربّك واستغفره ﴾ سورة النصر : الآية ٣ .

(٢) ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ سورة الفتح : الآية ٢ .

سواء في حياته أو بعد مماته . وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الأمر يتعدّى الكثرة ما بعد الممات حتى يصل إلى انتفاء بقاء أحد على وجه الكرة الأرضية لا يقول بـ لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، وهو الأمر الذي سيحصل في عصر الظهور ، ظهور ولي العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف .

نسل النبي هو الباقي ونسل الشامتين هو الأبتر

من أنباء الغيب التي تكتنفها هذه السورة الصغيرة : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ والشانىء تعني الشامت ، ذلك الذي أشار إلى محمد (صلى الله عليه وآله) ونعتهُ بالأبتر ، فإنه هو الأبتر بالتأكيد . فأين نسل عمرو بن العاص وغيره ؟! إذ لا أثر لنسل هؤلاء أبداً ، في حين أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي انحصرت ذريته بفاطمة الزهراء (عليها السلام) ، ببنت واحدة ، وكل هذه البركة جاءت من هذه البنت الواحدة .

يقول الفخر الرازي المفسر السنّي الشهير في تفسيره الكبير: بأنه إذا ما أردت معرفة تفسير سورة الكوثر جيداً فما عليك إلاّ أن تحقق في بيت جعفر بن محمد (عليهم السلام) ومن ثم تطّلع على مباحث الإمام الرضا (عليه السلام) وعندها تفهم معنى بقاء النسل .

الحسن والحسين (ع) أبناء رسول الله

قال هارون يوماً لموسى بن جعفر (عليهما السلام) لماذا يدعونكم بأبناء رسول الله (صلى الله عليه وآله) بينما أنتم أبناء بنت محمد (صلى الله عليه وآله) ، أو أحفاد بنت محمد ، فكيف يسمونكم أبناء رسول الله والابن يرجع نسبه إلى الجد عن طريق الولد الذكر وليس عن طريق الأنثى ؟ وإذا صحّ هذا فنحن وأنتم (بني العباس وبني أبي طالب) سواء .

فاعتذر الإمام عن الجواب ، ولكن بعد إلحاح هارون وإصراره قال له : لو جاءك اليوم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وطلب منك ابنتك للزواج فهل أنت على استعداد لتزويجه إياها ؟ فأجاب هارون : نعم وبكل فخر ، فقال له الإمام : ولكنه لو أراد طلب ابنتي لما استطاع . فسلَّم له هارون وسكت .

استدلال الإمام الرضا (ع) بآيات القرآن

لقد استطاع الإمام الرضا (عليه السلام) أن يثبت في مجلس للمأمون ـ وذلك بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم ـ بأنه لا فرق بين أبناء الابن وأبناء البنت ، تماماً كما لم يُفرِّق الله العالم سبحانه وتعالى بين عيسى وزكريا ويحيى إذ أرجعهم جميعاً إلى نوح وذكرهم في سياق نسب واحد[1] .

بالإضافة إلى وجود الاتفاق التام بين كافة المفسرين الشيعة والسنّة على أن المقصود من كلمة (أبنائنا) الواردة في آية المباهلة هما الحسن والحسين (عليهما السلام)[2] .

كل هذا النسل من ولد واحد

انظر كيف بارك الله سبحانه وتعالى بذرية الولدين من أبناء رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحسن والحسين (عليهما السلام) وكيف أبقى على نسل النبي على الرغم من كل تلك الجرائم التاريخية التي أصابت ذريّته ؛ والتي جاء على ذكر قسم منها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه « مقاتل الطالبيين » .

---

(١) ﴿ ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . . ﴾ ﴿ . . وزكريا ويحيى وعيسى ﴾ سورة الأنعام : الايتان ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ سورة آل عمران : الآية ٦١ .

يُريد الله أن يُظهر قدرته وعظمته عندما يُبارك بذلك النسل ويُبقي عليه بعد أن بقي من أولاد الحسين الذكور (عليهم السلام) في عاشوراء ولد واحد فقط هو السجّاد علي بن الحسين (عليه السلام) . هكذا يبارك الله النسل عندما يريد . فالأعداء أرادوا القضاء على نسل النبي (صلى الله عليه وآله) ولكن الله أبى إلاّ أن يبقي عليه فرزق الله السجّاد أربعة أولاد من الذكور ومن بعدهم ذُرية كبيرة من كل واحد منهم سلسلة من الرجال والنساء .

إنها الحكمة الإلهية ، وفيها العبرة لمن اعتبر .

اثنا عشر ألف ذكر من نسل بني أمية فأين هم ؟

لقد كتب المؤرخون أن عدد الأولاد الذكور من بني أمية وبني مروان وذلك في العام الستين للهجرة ـ وهو عام فاجعة كربلاء ـ ممن كانوا يرضعون الحليب من صدور أمهاتهم قد بلغ اثني عشر ألفاً ، وأنه كان لكل واحد منهم سرير من ذهب أو فضة . فهل يمكن أن يتعرض قوم بهذه المواصفات يوماً للانقراض ؟!

في مقابل ذلك لم يبق من بني هاشم وأولاد الحسين (عليه السلام) يومذاك سوى ذلك الفتى المريض . وإذا بكل تلك البركة تأتي من هذا العليل ، في حين تم اختفاء الأخبار واندثار الآثار من ذاك الكثير .

البركة في الخراف لا في الكلاب

إن مثل بني أمية وبني مروان مع بني هاشم كمثل الكلاب مع الخراف . فالكلاب تتوالد مرتين في السنة وفي كل مرة تلد الواحدة منها سبعة أو ثمانية كلاب ولا تلد أقل من ثلاثة . في حين أن الخراف لا تتوالد إلاّ مرة واحدة في العام ولا تلد الواحدة منها سوى خروف واحد . ثم إن الناس لا

تقتل من الكلاب إلّا نادراً بينما يتم ذبح الخراف بالآلاف .

ولكن ، أليس من العجيب أن ترى كل تلك القطعان من الخراف وهي ترعى أينما ذهبت في الوديان والهضاب مع ذلك التوالد والتناسل القليل .

ولكن هل رأيت يوماً قطيعاً من الكلاب ؟!

كذلك الأمر مع بني أمية وبني مروان وأعداء أهل البيت ؛ فإنه لم يبق أي أثر منهم لا ظاهراً ولا باطناً .

وها هو يزيد بن معاوية لم يبق منه ولد يذكر، ولم يبق من ذكره سوى مزبلة في الشام يقال إنها قبر يزيد .

ولكن ذرّية الحسين (عليه السلام) صارت العُليا ، وكما يقول تعالى : ﴿ كلمة الله هي العليا ﴾[1] .

ألم يكن بقاء علي بن الحسين (عليهما السلام) في صحراء كربلاء ـ حياً بعد معركة الطف ـ معجزة حقّاً ؟! .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

(٧)

من وجوه الإعجاز في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾

(سورة القمر : الآية ١٧)

سهولة حفظ القرآن

لا زال الكلام في وجوه إعجاز القرآن الكريم . ومن وجوه ذلك الإعجاز ما ذكر في القرآن نفسه من إشارة إلى سهولة حفظه فإنك لا تجد كتاباً يسهل حفظه على المرء كما هو الحال مع القرآن الكريم ، وما أكثر حفّاظ القرآن الكريم في كل عصر من العصور .

يقول المرحوم فخر الإسلام في كتابه (أنيس الأعلام) : « في هذا الزمان الذي أعيش فيه الآن يبلغ عدد حفّاظ القرآن الكريم أكثر من مائة ألف نفر ، بينما لا يتجاوز عدد الذين حفظوا الإنجيل عُشر هذا العدد .

ولماذا يحفظونه وكيف يحفظونه وهو غير قابل للحفظ » .

أمّا القرآن الكريم ، فهناك عدد من الناس ممن لا يعرفون القراءة والكتابة ولكنهم يحفظون عدداً لا بأس به من سور القرآن ، وهي حلوة المذاق

لديهم بحيث إنهم يستأنسون بها ، وتراهم يحفظون المزيد منها كل يوم وهذا من معاجز هذا الكتاب السماوي ؛ وهو أمر خارق للعادة .

وعد الله بحفظ القرآن

أحد وجوه الإعجاز الأخرى هو وعد الله لعباده بأنه هو الذي سيحفظ هذا القرآن من تلاعب أيدي الباطل به[1] أو تحريفه أو إتلافه . وما أكثر الأموال التي صرفت وتُصرف كل يوم من أجل الترويج للباطل وإبطال الحق ، وكم هي أعداد الكتب الضالة التي يتم طباعتها وتوزيعها ، وما أكثر السياسات الشيطانية الأجنبية والمؤامرات العالمية ، وما أكثر قوى الباطل التي تستخدم القوة والمال والسلطان بهدف محو الإسلام والقضاء عليه . وما استطاعوا ، فكيف بتخريب القرآن ! .

ولو أردنا الدفاع عن الإسلام في مقابل كل تلك الجهود والأباطيل والقوى لكان علينا أن نبذل أضعاف تلك الجهود وأضعاف تلك الثروات حتى نتمكن من التغلب على تلك النشاطات والجهود الإعلامية وندحضها .

الله يفضح أمرهم

ولكن انظر إلى المعجزة ، وكيف أن الله يبعث لهم أحد المسيحيين ليخرج إليهم من صفوف تلاميذ البابا الأعظم ويهبه القلم والحكمة حتى يفضح مفاسدهم ويُبطل سحرهم مجاناً ! .

فخر الإسلام نفسه يكتب : عندما كنتُ في أوروبا كان لديّ من الملك والمال ما يعينني على قضاء حوائجي . لكنّني الآن في طهران تراني مديناً ،

---

(١) ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ سورة الحجر : الآية ٩ .

فضلاً عن أن البعض يزاحمني ويخلق لي المصاعب في عملي .

كيف استطاع ذلك العالم أن يوضح ويبين حقائق الدين ، ويرد على تهمهم التي أرادوا إلصاقها بالإسلام وبالنبي الأكرم في عشرين كتاباً من قلمه السيَّال ؟! إنه الوعد الإلهي في حفظ القرآن ولا شيء سواه .

أمّيّة محمد ودعوته بالقرآن

من وجوه الإعجاز القرآني الأخرى التي سبق أن أشرنا إليها والتي ينبغي الحديث عنها بتفصيل أكثر هو موضوع كون النبي محمد (صلى الله عليه وآله) رجلاً أمّيّاً لم يذهب إلى مدرسة من قبل ولا أمسك بقلمٍ قط[1] كما أنه لم يأت من فراغ بل إنه عاش أربعين عاماً وسط قومه وعشيرته ، وإنه باتفاق كافة المؤرخين لم يخرج من مكة طوال عمره من يوم ولادته حتى يوم بعثته سوى مرتين .

رحلتان للنبي إلى الشام في طفولته وشبابه

في كلتا رحلتيه إلى الشام لم يكن محمد (صلى الله عليه وآله) وحيداً بل كان في رحلة تجارية مع قافلة من التجار .

رحلته الأولى كانت وهو في سن الثامنة عندما ذهب مع عمه أبي طالب حيث اصطحبه معه في رحلة تجارية .

والرحلة الثانية له كانت عندما ذهب من قبل خديجة بعد بلوغه العشرين وذلك في قافلة من أقربائه .

---

(١) ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

باختصار يمكننا القول بأن محمداً (صلى الله عليه وآله) لم يبتعد عن قبيلته قطّ . وهم جميعاً مطّلعون على وضعه ويعلمون تماماً بأنه لم يذهب إلى مدرسة ولا استمع يوماً إلى أستاذ ، لكنه مع ذلك يأتي إليهم بقرآن يحوي في طياته علم الأولين والآخرين . وفي ذلك ما يكفي من الإعجاز .

القرآن منزّه عن الحاجة للإصلاح

الوجه الآخر لإعجازه هو كما أشرنا سابقاً ، وهو تنزّهه عن الحاجة للإصلاح . فكل كتاب مهما علا شأنه لا بدّ عندما تقع عليه عين صاحب قلم أن يرى فيه نقصاً مطلوباً إصلاحه ، سواء من حيث الكمّ أو النوع أو من كيفية الأداء والبيان .

لكن القرآن وحده من بين الكتب إطلاقاً لا توجد أية آية فيه تخالف أو تتناقض مع آية أخرى منه ، بل إن بعضها يُفسِّر بعضاً ، وإنه من أوله إلى آخره يقطر بلاغةً وفصاحةً منقطعة النظير ، وتتساوى جميع آياته في البلاغة والبيان[1] .

القرآن كتابٌ لا يُمل منه إطلاقاً

من جملة وجوه الإعجاز القرآني الأخرى هو أنس البشر الدائم به . فأي كتاب من تأليف البشر لا بدّ وأن يملُ الإنسان من العودة إليه من جديد بعد أن يكون قد قرأه مرةً أو مرتين أو ثلاثاً ، إلاّ القرآن الكريم فإنه كلّما قرأه الإنسان كلما تسامت روحانيته وازداد أُنسه به، ولا سيما في شهر رمضان المبارك ، حيث ترتفع روحانية الإنسان ويزداد أُنسه بالقرآن، فيختم القرآن مرةً ومرتين وأكثر .

---

(١) ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ سورة النساء : الآية ٨٢ .

إن التأمل في هـذا الموضـوع يظهـر لنا وجـه الإعجاز والحـالة الخـارقة للعادة ، والتي تشهد وتدل على أن كلام ربّ العالمين يختلف تمامـاً عن كلام البشر . إنه حلو وسهل لا يتأتى منه الملل. وكلما ازداد الإنسـان قراءةً لـه كلما ازداد روحانيةً وأُنساً .

والآن نعود من جديد إلى الحديث عن أنباء الغيب الواردة فيه .

النصر من بعد هزيمة الروم

من الآيـات التي تُخبرنـا بأنبـاء الغيب الآيات الأولى من سـورة الروم[1] ورد في شأن نزول هذه السورة أنه في أوائل بعثة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) حين لم يكن عدد الـذين اعتنقوا الإسـلام والتحقوا بمحمـد (صلى الله عليه وآله) في مكة المكرمة قد تجاوز أربعين نفراً وذلك في السنوات الثـلاث الأولى من الدعوة ، فضـلاً عن أن المشركين لم يتـوانوا عن إيـذائهم والإساءة إليهم بشتى أنواع وأشكال الإساءة .

في هــذه الأثنــاء كــانت الحــروب تــدور على جبهــة أخــرى بيـن الإمبـراطوريتين الكبيـرتين آنذاك الفـرس والروم في زمن الملك خسـروبرويـز وكان العرب يستضعفون من قبل الطرفين، ويلحقهم الأذى في كلتا الحالتين من النصر أو الهزيمة للقوتين العظميين .

الرياح تأتي بالكنوز إلى الملك برويز

في تلك الأيام ، وبينما كان الملك خسرو بـرويز يعـد العُدة بجيش جرَّار

(١) بسم الله الـرحمن الرحيم : ﴿ ألم * غلبت الـروم * في أدنى الأرض وهم من بعـد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ سورة الروم : الآيات ١ ـ ٤ .

يتوجه به لمحاربة الروم وإذا بحادثةٍ عجيبةٍ تقع له ، خلاصتها أن كنوز خصمه امبراطور الروم وقعت بين يديه .

ويبدو أن ملك الروم كان قد وضع كنوزه وجواهره في إحدى السفن ليحفظها من غارات الإيرانيين ، وأرسل بها إلى إيطاليا، لكن الرياح التي هبت عاصفةً في وسط البحر غيَّرت من اتجاه السفينة وساقتها لترسو عند الفرس على رغم إرادة بحارتها ، وقد بلغ مجموع تلك الكنوز ما يوازي ثمانمائة ـ كرور ـ من الذهب الخالص ، وهو رقم كبير للغاية آنذاك وقد سمي ـ بكنز الرياح ـ الأمر الذي أدّى إلى انقلاب ميزان القوى وانتصار الفرس على الروم ، وهزيمة الإمبراطورية الرومانية شرّ هزيمة .

المشركون والاستغلال الإعلامي لهزيمة الروم

عندما وصل نبأ هزيمة الروم إلى مكة المكرمة اتّخذ المشركون وعبدة الأوثان من ذلك الحادث وسيلةً لمصلحة نشاطهم الإعلامي المعادي للمسلمين ، وصاروا يخاطبون المسلمين قائلين: لمَّا كان الفرس من عبدة النار وليسوا من أهل الكتاب . وهم الأقرب لنا قد انتصروا بينما الروم وهم من أهل الكتاب وهم الأقرب إليكم قد انهزموا فإننا لا بدّ منتصرون عليكم .

أمّا المسلمون الذين سمعوا أقوال وتفسيرات المشركين للحدث فقد بدأوا يتأثرون بها ويحزنون . عند ذلك أنزل الله آيات سورة الروم . موجهةً للمشركين ولتقول لهم : اشمتوا ما شئتم فالأحوال لا تسير على منوال واحد ، فالروم سينتصرون على الفرس خلال بضع سنين ، نعم ، انتظروا بضع سنوات وسترون كيف أن الوضع سينقلب من جديد وينتصر الروم أهل الكتاب على الفرس عبدة النار ، وبالتالي فلا بد للمسلمين ـ وهم من أهل الكتاب ـ أن يتفاءلوا بالنصر على المشركين من قريش . وهكذا فرح المسلمون بعد نزول الآية بأخبار الغيب هذه .

أبو بكر والرهان على انتصار الـروم

جاء ذات يوم ـ عُبيد ـ وهو من أثرياء المشـركين إلى أبي بكر وقـال له : سمعتُ أن محمـداً يقول بـأن الروم سيغلبـون ، فقال لـه أبو بكـر : نعم وهـو كذلك . فقال له عبيد: وهل أنت على استعـداد للمراهنـة (للرهان) فيمـا بيننا على عشـرة رؤوس من الجمـال لمـدة ثـلاث سنـوات ؟ فـوافق أبـو بكـر على ذلك ، ثم ذهب إلى النبي (صلى الله عليه وآلـه) وشرح لـه موضـوع الرهـان فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله): ارجع وزد مدة الرهان ومقداره، أي أن السنين الثـلاث التي قـد اتفق عليهـا قليلة ، لأن المقصـود من (بضـع) التي وردت في القرآن الكريم هي المدة التي تتراوح بين الثلاث والتسع سنـوات ، فعاد أبو بكر إلى عبيد وقال له: جئتك راغباً في تعديل مدّة ومقدار الرهان، وأنا الآن على استعداد للمراهنـة معك على مـائة بعيـر ، ولكن إلى حوالي التسـع سنـوات القادمة، والروم ستغلب بـالتأكيـد ، ووافق عبيد على الشـرط الجديـد واتفق الاثنان . وعندما خرج أبو بكر مهاجراً إلى المدينة قيل إنه أخـذ ضمانـة من طرف عبيد بأنه لن يتراجع عن شرطه ورهانه ، وقبل عبيد يـومها بـأن يكون ولده هو الكفيل والضامن .

سبع سنوات ويتحقق وعد الله

ودارت الأيام وانقلبت الأوضاع. فبعد مضي سبع سنوات قام الروم بحملة شديدة على بلاد فارس واستعادوا منها كل ما أخذه الفرس في الحملة السـابقة من غنائم ، وانتصروا عليهم وغلبوهم .

ومع شيوع هذا النبأ فرح المسلمون، وذهـب أبو بكر إلى ورثة عُبيد وأخذ منهم المائة بعير، ثم ذهب إلى رسول الله (صلى الله عليـه وآله) ليسـأله عمـا يفعله بتلك الجمال فأمـره النبي (صلى الله عليه وآلـه) بأن يُنفقهـا جميعاً في سبيل الله ففعل .

أحكام الإسلام تتنزّل بالتدريج

في موضوع الرهان الذي سبق ذكره هناك من يقول بأن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يُعلّق بشيء عندما جاء أبو بكر ليُخبره بالأمر . وهنا لا بدّ لي من القول بأن أحكام الإسلام إنما كان يتّم بيانها للمسلمين بالتدريج ، وأن أحكام الحلال والحرام إنّما نزلت أغلب آياتها في المدينة،وعن موضوع الشرط والرهان بالذات فإنه لم يكن قد نزل بشأنه أي حكم في ذلك الوقت بعد ، ولم يُحرّم إلاّ في المدينة بعد الهجرة . ولذا فإننا مع افتراضنا صحة الرواية القائلة بتأييد الرسول (صلى الله عليه وآله) لرهان أبي بكر ومساعدته له ، لا نرى أية منافاةٍ مع التحريم الذي صدر بشأن الرهان في المدينة فيما بعد .

حرمة الرهان

إن القمار وكل عمليات السباق أو الرهان (حصول الرابح على المال من الطرف الخاسر أو من طرف ثالث) حرام بتاتاً؛عدا تلك المراهنات التي تجري على الرماية وركوب الخيل ، والتي يُراد بها مصلحة جيش الإسلام والمصلحة العامة للمسلمين ، حيث إنه ببركة هذه المسابقات في حقلي الرماية وركوب الخيل أصبح المسلمون رجال حرب أشداء ومقاتلين أقوياء .

وفي غير هذين الموردين الآنفي الذكر فإن أي رهان أو مراهنة تقوم بين جماعة من المسلمين ، سواء داخل العائلة أو على مستوى الأصدقاء أو أي مستوى آخر ، وفي أي مجال كان ، سواء في مجال رفع الأثقال أو الركض أو أي مورد متعارف عليه بين الناس ، ممّا ليس فيه أية فائدة عقلانية تذكر ، فإنه حرام قطعاً[1] .

---

(١) لقد قام الشهيد السعيد بعد هذه البيانات بعدة سنوات بالتعرّض لهذا الموضوع الأخلاقي الهام في كتابه القيّم والمعروف (بالذنوب الكبيرة) والذي ترجم إلى اللغة العربية أيضاً حيث تطرّق

القرآن يعدهم بالثروة في وقت الفاقة

من جملة أنباء الغيب التي جاء القرآن الكريم على ذكرها هي وعده للمسلمين بالثروة والرخاء في وقت كانوا فيه في أشد حالات الفاقة والحرمان[1] .

إن القراءة الدقيقة لتاريخ الإسلام تُبين لنا كيف أن المسلمين كانوا يعيشون في منتهى الفقر والحرمان في صدر الإسلام من حيث مستوى الحياة المادية العامة . فمن حيث الطعام والمواد الغذائية يذكر المؤرخون مثلاً بأنه لم يكن الواحد منهم ينال في اليوم إلاّ بضع تُميرات يسد جوعه بها ، وأمّا على صعيد اللباس فإن ابن مسعود يذكر في هذا الخصوص بأنه عندما كنا - أي المسلمون الأوائل - نجلس في المسجد كنا نشد أرجلنا ببعضها البعض ونأتي بقطعة قماش لنُغطي بها عوراتنا ، أي أنهم لم يكن لديهم حتى اللباس الذي يسترون به عوراتهم .

وأما بيوت المسلمين فيمكن التعرّف عليها من خلال معرفة بيت نبيّهم ، إذ كان بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد شُيّد من سعف النخيل وأرضه لم تكن سوى فراش وسيع من الرمل الناعم .

وأمّا من حيث تجهيز القوى المحاربة والتسليح العام للجند في مجالي الهجوم والدفاع فإنه يكفي أن نعرف بأن عدد السيوف التي كانت لدى المسلمين في معركة بدر قد بلغ ثلاثة عشر سيفاً مقابل تسعمائة وخمسين سيّافاً لدى العدو . ولم يكن لديهم من المال حتى ما يكفي لشراء سكين واحدة . وكل ما كان لديهم من الإبل كان سبعة جمال . وكما يذكر المؤرخون فإن

= فيه الكاتب بالتفصيل إلى آلات القمار وأنواع المراهنات المختلفة وشرح مضار كل تلك المفاسد المنتشرة في عصرنا الراهن ورأي الإسلام القاطع فيها . يمكن الرجوع إلى ذلك الكتاب لمن يريد الاستزادة والتفصيل .

(1) ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ﴾ سورة الفتح : الآية ٢٠ .

النبي (صلى الله عليه وآله) لم يأكل شيئاً لمدة ثلاثة أيام أثناء خوض المسلمين لمعركة الأحزاب ، أي أنه لم يكن هناك شيء ليأكله ، لا سيما وأن القحط كان قد عمَّ البلاد آنذاك .

في تلك الأحوال يأتي القرآن ليبشر المسلمين بقرب امتلاكهم للثروة والغنائم الفائقة الوصف ، وقد تحقق ذلك بالفعل، إذ حصل المسلمون على الغنائم المعجلة في معارك الأحزاب وخيبر وحنين ،كما حصلوا على الغنائم الأخرى المؤجلة في معارك الروم وإيران واليمن .

عاجزون عن إطفاء نور الله

يقول الله في محكم كتابه : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يُريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يُتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[1] .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[2] .

وفي آية ثالثة يقول تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون** ﴾[3] .

نعم ، هكذا وبكل بساطة يُريدون أن يُطفئوا نور الشمس المحمدية بنفخات من أفواههم ، ولكن هيهات لهم ذلك ، فالنور الإلهي قد خرج من المدينة المنورة ولاحت إشعاعاته في اليمن ، ولم يلبث أن عمّ جزيرة العرب كلها ، وارتفع نداء لا إله إلاّ الله في بلاد البحرين في زمان رسول الله (صلى

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الصف : الآية ٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

الله عليه وآله) نفسه ﴿ **والله متمُّ نوره** ﴾ ولم يمض قرن واحد من الزمان حتى عمّ هذا النور الشرق والغرب فوصل إلى القيروان وإسبانيا من جهة الغرب ، وامتدّ حتى جدار الصين شرقاً ، وسوف يستكمل امتداده ليشمل كافة أرجاء المعمورة بإذن الله يوم ظهور الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف .

إنه وعد الله ، والله لا يخلف وعده . لقد أرادوا ولا زالوا يُريدون إطفاء نور الله ، ولكن وعد الله لا بدّ آتٍ . وهذا النور لا بدّ له أن يبقى ويستمر ويتجّه نحو الكمال .

(٨)

معجزات محمد (ص)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾

(سورة الفتح : الآية ٢٩)

معرفة النبي عن طريق الحس

إن أحد طرق إثبات نبوّة نبي أو إمامة إمام هو الشهود والحضور ، وهو أن يحضر الإنسان في زمان ذلك النبي أو الإمام ويراه بنفسه ويتعرّف عليه ، ويطّلع على أوصافه ، ويصل من خلال المعاشرة المباشرة معه إلى أنه أطهر وأكمل الخلق ، وأكثرهم جمعاً للعلم والعمل ، وبالتالي رؤية معجزة النبوّة أو الإمامة عن طريق الحس المباشر .

ويطلق على هذا الطريق طريق الحضور والشهود ، وهو أفضل الطرق لإثبات النبوّة أو الإمامة .

إثبات النبوّة والإمامة بالتواتر

الطريق الآخر لإثبات نبوّة النبي أو إمامة الإمام هو حصول اليقين لدى

الإنسان عن طريق التواتر بأن النبي أو الإمام الفلاني إنما كان يحمل تلك الصفات وذلك العلم والعمل والمعجزات الفلانية والفلانية . وكل من تصل إليه هذه المعلومات بالتواتر يثبت له ذلك الأمر ويتأكد ، حتى وإن كان غير شاهد ولا حاضر ، إذ أنه ليس من الضروري دائماً أن يخصل إثبات الأمور وبرهانها بواسطة الحضور ، بل يكفي العلم بذلك ، وهو أمر لا يقل أهمية عن الرؤية والحضور .

معنى التواتر

إن معنى التواتر هو أن يأتي عدد من الناس فيخبرون عن موضوع ما ويرى العقل بأنه من المحال أن يكون هؤلاء الناس قد اجتمعوا على الكذب أو أنهم قد تواطأوا لاختلاق الموضوع . وعندما يصل إلى هذه النقطة يبلغ مرتبة العلم بالموضوع وكأنه قد رآه بنفسه . كما لو افترضنا الآن بأن يأتيك أحد ويشكك بوجود مكة المكرمة، فمع العلم بأنك لم تزر مكة بعد ، هل تقبل بادعائه هذا أم أنك ستسخر منه ؟ إنك ستسخر منه بالتأكيد ، وتقول عنه بأنه مجنون حتى ولو ردَّ عليك قائلاً : وهل زرت مكة ؟ أو هل رأيتها ؟ فإنك ستجيبه : صحيح بأنني لم أزرها ولكنني على يقين من وجودها . لأن أولئك الذين يذهبون لزيارتها جماعات جماعات في كل عام ليس من المعقول أن يكونوا قد اتفقوا جميعاً على الكذب .

هذا هو معنى التواتر ، وليس المعوّل على العدد والكمّ بالطبع ، بل إن المعيار والملاك يكمن في النوعية ، فقد يثبت التواتر بعشرة أشخاص أو عشرين ، وقد لا يتم اليقين حتى وإن كان العدد مائة . فالأمر يعتمد على نوعية الناس ونوع الخبر الذي ينقلون .

إثبات نبوّة محمد (ص) بالتواتر

لا يشكّ أحد على الإطلاق بأنه قد ظهر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان،

رجل محترم مثل خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله) في مكة المكرمة ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وأنه قد بُعث نبيّاً ورسولاً من الله[1] وأنه قال: إنما بُعثتُ لكافّة الناس[2] أي أنه لم يُبعث نبيّاً على العرب من أهالي مكة وجزيرة العرب بل لكل الناس حتى يوم القيامة[3] .

وهل يشك أحد بعد كل ذلك بأن محمداً (صلى الله عليه وآله) قد بُعث نبيّاً من الله ورسولاً للعالمين ، وأنه قد أمر برفع راية التوحيد وقول لا إله إلا الله ؟!

أوصاف محمد (ص) في كتب الأحاديث

وأما فيما يتعلّق بأوصاف النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وملكاته الشريفة ـ إن من حيث العلم أو من حيث العمل ـ فإنها بيِّنة وواضحة لكل من له اطلاع ولو كان جزئياً على كتب الأخبار والحديث التي اشتهرت بتواترها في هذا المجال . فاسمعوا ما جاء بشأن صفات رسول الله (صلى الله عليه وآله) على لسان زوجته .

روي أنَّ عدداً من أهل الكتاب سمعوا بدعوة محمد إلى الإسلام وأرادوا أن يأتوا للقائه في المدينة، لكنهم لمَّا وصلوا إليها كان النبي (صلى الله عليه وآله) قد فارق الحياة الدنيا . فقرروا أن يُكلِّموا إحدى زوجاته ، لأنها أقرب الناس إليه وأكثرهم التصاقاً به ، قالت لهم إحدى زوجاته (صلى الله عليه وآله) من وراء حجاب :

(١) ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٢) ﴿ وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس بشيراً ونذيراً ﴾ سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٣) ﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

القرآن برنامج عمل محمد وصورته

وأين لنا نحن من وصف محمد (صلى الله عليه وآله) ، فمن أراد أن يعرف محمداً ويعرف أسلوب حياته فليقرأ القرآن بدقة ، فكل ما جاء به القرآن هو برنامج محمد ، والقرآن يعني عمل محمد وصفاته .

ومثال ذلك ما قاله تعالى : ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذّكرون ﴾[1] .

إن الطريق الذي سار عليه محمد وسلوكه الذي عرف به هو سلوك العدل والإحسان وصلة الأرحام والبعد عن القبائح والظلم ، ونصح الناس بالابتعاد عنها .

الأعداء أيضاً يعترفون بحسن أخلاقه

لا يوجد أحد في الدنيا إلاّ ويعترف بحسن أخلاق محمد وجميل صفاته، حتى أعداؤه ومعارضوه كالنصارى مثلاً، يُقرّون جميعاً له بالطهارة والنبل والشرف والكمال . وإلى هنا فإن ميزتين أساسيتين قد تأكد ثبوتهما في شخص محمد (صلى الله عليه وآله) عن طريق التواتر ، وهما نبوّته وشخصيته الخارقة من حيث كمال صفاته .

معجزات محمد (ص) لا حصر لها

يبقى بعد ذلك المعجزة التي تدل على صدق ادعائه للنبوّة . وهذا الأمر لا يحتاج إلى العودة والبحث ؛فقد سبق وشرحنا بالتفصيل عن معجزة محمد (صلى الله عليه وآله) الخالدة ألا وهي القرآن المجيد . ولا حاجة لنا من بعد

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

لإثبات سائر المعجزات النبوّية عن طريق التواتر، مع العلم بأن الله تعالى قد بيّن في حينه عدداً هائلاً من المعاجز في حياة محمد (صلى الله عليه وآله) لإظهار عظمة شأن النبوّة وإكمال الحجة على عباده ، ممّا لا يدع أي مجال للريب أو الشك لأحدٍ من خلقه ، حتى قيل إن معجزاته لا يمكن حصرها أو عدّها . وما تمّ ذكره من قبل المؤرخين ليس سوى بعض نماذج من تلك المعجزات التي لا حصر لها ولا عدّ .

التاريخ يذكر أربعة آلاف معجزة

يذكر لنا صاحب كتاب (أنيس الأعلام) بأن ما يمكن عدّه من معجزات النبي يبلغ حدود أربعة آلاف معجزة ، وهذا لا يعني بالطبع بأن معجزاته (صلى الله عليه وآله) تنحصر في هذا العدد . أبداً ، فنبي الإسلام ورسول ربّ العالمين محمد (صلى الله عليه وآله) كانت تصدر منه المعاجز في كل حين . فعينه ولسانه ويداه ورجلاه كانت كلها تحدثنا عن معجزاته . وبعض هذه المعجزات قد تمّ إثباتها عن طريق التواتر أيضاً مثل معجزة شقّ القمر ، التي جاء القرآن الكريم على ذكرها بالنص، وتسبيح الحصى في يديه كما تذكر الروايات المتواترة .

معجزة لُعاب الرسول (ص)

بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وآله) الأخرى تمّ إثباتها بالتواتر أيضاً ، ولكن عن طريق اجتماع مجموعة من الحوادث التي يعني اجتماعها حصول التأكيد على وقوع أمر معين . ومثال ذلك قضية البركات الحاصلة من لعاب فم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) ، التي نقل المؤرخون مجموعة من الوقائع تفيد الإعجاز بوضوح ، وبالتالي فقد ثبت لدينا بالتواتر المعنوي بأن الله تعالى قد جعل آثاراً مباركةً خاصة وخارقةً للعادة في لُعاب سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله) .

ترميم ساق معاذ

في هذا المجال يمكننا نقل الحوادث التي يتفق في نقلها رواة الحديث من الشيعة والسنة ، والتي تؤكّد جميعها على أن العضو الذي كان يُبتر من بدن الصحابة والجند في معارك المسلمين الأولى ، كان يكفي أن يضع رسول الله (صلى الله عليه وآله) قليلاً من لعابه عليه حتى يعود من جديد سالماً ، ويأخذ موضعه دون أثر وكأنه لم يجرح من قبل .

ويروى أن معاذ بن جبل وأبو جهل تواجها في معركة بدر ، فسارع أبو جهل إلى مهاجمة معاذ فضربه بالسيف ضربةً بترت ساقه ، وذهب الصحابة يومها بمعاذ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومعهم ساقه المبتورة . فما كان من النبي (صلى الله عليه وآله) إلاّ أن وضع عليها قليلاً من لعاب فمه المبارك ، ثم ربطها وفكها وإذا بها قد تماثلت للشفاء تماماً .

علاج عين علي (ع)

ومن جملة الروايات التاريخية المشهورة والمؤكّدة أيضاً في هذا المجال قصة الرمد الذي أصيب به علي (ع) أثناء معركة خيبر ، وكان قد اشتد به الألم ليلة نشوب المعركة الحاسمة ، فمرحب قائد اليهود يطلب المبارزة ولا مبارز ، فبعض الصحابة قد اختفى وآخرون قد تراجعوا ، فما كان من النبي (صلى الله عليه وآله) يومها إلاَّ أن قال : « لأعطيّن الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرَّاراً غير فرار ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه » .

ولمَّا أصبح الصباح نادى علياً (عليه السلام) فقيل : هو يشتكي عينيه فقال : أرسلوا إليه . وما إن دخل عليه حتى مسح عينيه بلُعاب فمه المبارك فشفيتا على الفور ثم دعا له .

ومذ ذاك لم تصب عينا الإمام بأي مرض حتى آخر عمره .

إشباع الكثير بطعام قليل

من جملة المعجزات التي ورد ذكرها في كتب الحديث قصة إشباع الكثير من الأشخاص بمقدار قليل من الطعام .

في معركة الخندق والتي أمر فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أصحابه بحفر الخندق وشارك هو شخصياً في عملية الحفر، وكان قد وقع قحط عام في البلاد؛ ويذكر أن ثلاثة أيام مرت على النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه دون أن يأكلوا خلالها شيئاً يذكر من الطعام ، إذ ذاك دعا جابر رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى بيته ليذبح له نعجته التي كان يحتفظ بها . ولمّا سأله الرسول عن إمكانية حضوره إليه مع أصحابه وافق جابر تحت تأثير الخجل ، ظناً منه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) سوف يصحب معه بعض أصحابه المقربين. ولكن الذي حصل هو أنَّ النبي (صلى الله عليه وآله) طلب يومها أن ينادى في كافة أصحابه البالغ عددهم سبعمائة شخص ممن كانوا مشغولين في حفر الخندق ، ليحضروا جميعاً إلى مأدبة جابر .

وذهب جابر إلى الدار وأخبر زوجته بالأمر. فكان ردّ زوجته العاقلة أنْ سألته أولاً : وهل قلت للنبي (صلى الله عليه وآله) ماذا عندنا من الطعام ؟ قال : أجل. قالت : فلا تخف إذن ، فإنه أعرف مِنَّا بالذي يصنعه .

وبالفعل فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) توّجه فور وصوله إلى دار جابر إلى التنور ، وألقى بلُعاب فمه المبارك داخل التنور . ثم أشار على زوجة جابر بأن تخبز بعض الخبز ، ثم طلب إلى علي (عليه السلام) بأن يُقطِّع الخبز ويضعه في إناء، بينما وقف يناول الأصحاب حتى أكلوا وشبعوا جميعاً. وكانت القدر لا تزال مليئةً كأن لم تمتد إليها يد .

فاستناداً إلى الوقائع التي أوردنا أمثلة عنها يقع لدينا اليقين بأن لعاب الرسول المبارك فيه من البركات الخارقة ما يصنع المعجزات .

معجزات لسان النبي (ص)

المسألة الأخرى هي مسألة كون لسان النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) معجزة بحد ذاته . فلم يحصل يوماً أنه دعا بدعاء ولم يستجب كما لم يأت علىَ لسانه ذكر شيء إلا وقع وتحقق .

جاؤوه يوماً بكيس للدراهم فقال : أخرجوا ما في الكيس من الذهب، ولمّا أخرجوا الدراهم رأوها قد صارت ذهباً بالفعل. وما أكثر الأموات الذين طلب بلسانه المبارك من الله إحياءهم فتم إحياؤهم بالفعل . وهنا سأنقل لكم قصة واحدةً فقط على سبيل المثال لا الحصر .

إحياء أولاد صاحب الدار

يروى أن أحد أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) كان يود باستمرار بأن يتشرّف بحضور رسول الله إلى بيته ، فدعاهُ يوماً وأشار على زوجته بأن تطبخ له طعاماً من نعجة ذبحها إكراماً لقدوم النبي (صلى الله عليه وآله) . ثم غادر بعد ذلك الدار متوجهاً إلى حيث النبي ليرافقه . كان للرجل ولدان صغيران ، وقد حضر أحدهما ذبح النعجة ، فقال لأخيه : تعال لأريك كيف ذبح أبونا النعجة . ثم صعد معه إلى السطح ومدده أرضاً وأتى بالسكين وذبحه .

هرعت الأم وهي تصرخ ،فخاف ابنها وأطلق ساقيه للريح دون أن ينتبه لحافّة السطح ، فهوى ، ومات بدوره .

أسقط في يد الأم ، وشلّت المفاجأة تفكيرها . فلم تدر ماذا تصنع ، فكيف ستستقبل ضيفهم الكريم ، تلك الزيارة التي كانوا يتطلعون إليها من زمن .

وأخيراً حضر الرسول (صلى الله عليه وآله) برفقة ذلك الصحابي ، فبادرت الزوجة إلى إخبار زوجها بما حدث ، وطلبت إليه أن يكتم الأمر عن النبي (صلى الله عليه وآله) ، حتى لا يتأثر ويفسد الأمر عليه زيارته .

ثم لفت جسدي ولديها بثوب ، ووضعتهما جانباً ، كي يدفنا لاحقاً بعد أن يغادر الضيف الكريم الدار .

نزل الأمين جبرائيل حينذاك على محمد (صلى الله عليه وآله) وقال له : قل لهما بأنك لن تأكل حتى يحضر الولدان . وإذ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لهما ذلك أجاباه بأنه لا ضرورة لحضورهما ، لكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أصرّ وقال : ذلك أمرُ الله . فما كان منهما إلّا أن أخبراه بحقيقة ما جرى للولدين ، فطلب النبي أن يأتياه بالجسدين فأتياه بهما ، فدعا لهما دُعاءً استجابه الله وعادا حيّين كما كانا . وشاركا رسول الله طعامه على تلك المائدة .

كانت هذه إحدى معجزات النبي التي حصلت في زمانه بواسطة لسانه المبارك .

ثراء عبد الله بن جعفر ببركة الدعاء

هناك عدد آخر من المعجزات التي تمت بفضل لسان النبي المبارك ، وهي تلك التي جاءت بعد دعوات النبي (صلى الله عليه وآله) لبعض الأشخاص بالتوفيق واستجابة الله تعالى له ، وهي مجموعة من المعجزات التي ورد ذكرها في الجزء السادس من بحار الأنوار .

يقال إنّه (صلى الله عليه وآله) مرّ يوماً بعبد الله بن جعفر وهو طفل صغير فقال له : ماذا تفعل ؟ قال أبني بيتاً . فقال له : وماذا تفعل به ؟ قال

أبيعه وأشتري به تمراً ، فتبسم رسول الله وقال له : ألا بارك الله في معاملاتـك هذه .

ولمَّا استشهد أبوه جعفر الطيار في إحدى المعارك قام رسول الله (صلى الله عليه وآلـه) برعايتـه ، وشمله بلطفـه ومحبتـه وزوَّجـه من السيـدة زينب (عليها السلام) وشيئاً فشيئاً صار هذا الرجل من أثرى الأثريـاء وأسخى الناس عطاءً وإنفاقاً حتىٰ صار يضرب به المثل. وكل ذلـك بفضل دعـاء النبي له وهـو صغير .

أخبار الغيب على لسان النبي (ص)

المجال الآخر الذي تجلىٰ فيه الإعجـاز المحمدي هـو أنباء الغيب التي وردت على لســانـه والتي تحققت بعـد وفـاتـه ، أو أنهـا سـوف تتحقق في المستقبـل ، سواء ورد ذلـك منـه في القـرآن الكـريم نفسـه أم في الـروايـات والأحاديث ، إن محمداً (صلى الله عليه وآله) لم يقرأ كتابـاً ولا دخل مـدرسة ولا تعلم عنـد أستاذ، ومع ذلك تـراه يورد من أنبـاء الغيب ما يعجب لـه المـرء ويحـار ، وقد جـاء ذكر قسم من هـذه الأنباء في كتـاب (حياة القلوب) وقسم آخر ورد ذكره في مجلدات بحار الأنوار .

أنباء الغيب الواردة عن النبي (ص) في أهل بيته

وهنـا أكتفي بذكـر أنباء الغيب التي وردت في مصـائب أهل بيتـه . فقد أخبر (صلى الله عليه وآله) عنهم جميعاً ابتـداءً من علي (عليه السـلام) حتى الإمـام الحجة بن الحسن (عليهم السـلام) . فقد أنبـأ علياً وقـال له : بـأنك ستصبح جليس الدار ، وسيحاربك النـاكثون والقـاسطون والمـارقون (طلحـة والزبير وعائشة وكذلك معاوية والخوارج) .

وكـذلـك فقـد أنبـأ عـائشـة وحـذَّرهـا من الخـروج في حـرب علي (عليه السلام) وأنها ستكون على الباطل و.و. . . . ثم إنه أنبأ علياً أيضاً بـأنه سيستشهد في شهر رمضان ، وأنّ ذلـك سيكون بضـربه بـالسيف على مفرقـه ، وأخبر كذلك ابنته فاطمة بأنها ستغادر هذه الدنيا بسـرعة وأنهـا ستكون أول من سيلحق بـه من أهل بيتـه ، وأنهم سيؤذونها ويُصـادرون ملكهـا ويُسقـطون لهـا طفلها .

وعن الحسن (عليه السلام) قال : إنهم سيدسـون له السمّ . وأمَّـا أنباء الغيب عن كـربلاء الحسين (عليـه السـلام) فـإنهـا لا تخفى على أحـد وهي معروفة لدى الجميع .

وإلى جـابر بن عبـد الله الأنصاري قـال : بأنـك ستبقى حياً حتى تـدرك محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) فأقرئه مني السلام .

(٩)

مكانة الرسول وصفاته

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراًونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾

(سورة الأحزاب : الآيتان ٤٥ و٤٦)

ذكر اسم محمد (ص) يثير الوجد

إن علينا نحن المسلمين اليوم ـ وكما كان أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعملون ـ أن نحسّ بالوجد والشوق والإجلال إذا ذكر بيننا اسم محمد (صلى الله عليه وآله) أو ذكرت لنا صفاته الكمالية ، لقد كان الإمام الصادق (عليه السلام) ينزل رأسه حتى ركبتيه إجلالاً وتعظيماً كلما ذكر أمامه اسم محمد (صلى الله عليه وآله) .

على أي حال ـ ففي الآيتين المذكورتين آنفاً نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا خمساً من صفات محمد (صلى الله عليه وآله) : شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً .

محمد (ص) شاهد على الله

فالله سبحانه وتعالى يقول : بأنه قد أرسل لنا محمداً ليكون شاهداً عليه وعلى أسمائه وصفاته الإلهية . وأن محمداً ما هو إلَّا مرآة لآلاف الأسماء الإلهية ، وأنه سبحانه قد جعل أسماءه كلها في شخص محمد حتى يكون شاهداً على وجود الله وحقيقته ، وشاهداً أيضاً على عظمة الله .

وللمزيد من التوضيح نقول بأن علم محمد (صلى الله عليه وآله) شاهد على علم الله ، (هو السميع البصير) . إن سمع محمد وبصره شاهدان على كون الله سبحانه سميعاً وبصيراً .

كان محمد (صلى الله عليه وآله) يرى الأشياء التي تقع وراءه كما كان يرى الأشياء التي أمامه ، فالحجاب عنه مرفوع . لقد كانوا يأتون إليه من خلف الجدار فيقول عليه الصلاة والسلام لهم : يا من خلف الجدار سلام عليكم .

ويروى كذلك أنه يُنبِّه جماعته المصلين خلفه في صلاة الجماعة إلى وجود الانحراف في صفوفهم على الرغم من وجودهم خلفه .

لقد كان ينام لكن أذنه كانت تظل يقظة تسمع وعينه ترى وقلبه يظل بصيراً وواعياً لما يدور حوله . لقد كان سمعه وبصره شاهدين على سمع وبصر الله ، وبالتالي فإن الله يراكم ويسمعكم أيضاً .

علم محمد (ص) مُحيط بالماضي والمستقبل

ماذا أقول لكم عن إحاطته بالعلوم ؟ إنه مطّلع على الماضي السحيق الذي يمتد إلى آدم أبي البشر بل إلى الأزل حيث بدأت خلقة هذا الكون وأكثر من ذلك .

المستقبل أيضاً لديه مرئي حتى يوم القيامة بل وما بعد قيام الساعة كذلك . لقد قال بنفسه من على المنبر : « أيها الناس إنني أعرف أسماء أهل الجنة كما أعرف أسماء أهل النار » إن الإحاطة العلمية لمحمد (صلى الله عليه وآله) شهادة للإحاطة العلمية الربّانية .

قدرته شطر من قدرات الله

وأما من ناحية قدرته فأي قدرةٍ أقوى من قدرته القادرة على شق القمر بإشارة واحدةٍ منه ؟ أو أن تأتي إليه الأشجار وتعود بإشارة كذلك ، أو أن تمطر السماء أو أن تقف الغيوم أو تتحرك بإشارة منه أيضاً .

كان إذا أراد فإرادته نافذة ، وهذا دليل على أن قدرته أيضاً شاهدة على قدرة الله اللامحدودة واللامتناهية . إن عفوه وحلمه وكرمه أيضاً ما هي إلاّ نماذج من صفات الله . وأقول للذين يُريدون أن يعرفوا ربّهم جيداً بأن دقُقوا في صفات محمد (صلى الله عليه وآله) وانظروا إلى عفوه وحلمه وكرمه فستجدون أنها فيض من عفو ربّ العالمين وحلمه وكرمه ، وأنقل إليكم هنا قصةً عن عفوه .

عفوه عن قاتل عمه حمزة

لا بدّ أنكم سمعتم بالعبد « وحشي » غلام (هند) زوجة أبي سفيان ، وأنه هو الذي قتل سيد الشهداء حمزة (عليه السلام) عم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وأنه مثّل بجسده الطاهر وقطّع شفاهه وأنفه ثم شقّ صدره وأخرج كبده بخنجره وذهب به إلى هند التي أخذته منه وأرادت أكله ، إلاّ أنه ـ وكما تذكر بعض الروايات ـ قد تحوّل إلى حجر لا يمكن أكله بإذن الله ، وذلك من أجل أن لا يصبح كبد رجل نبيل وطاهر مثل حمزة جزءاً من بدن كافرة مشركة مثل هند .

وسمعتم أيضاً بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد أهدر دم « وحشي » بعد ذلك العمل ، أي أنه أصدر حكم الإعدام غيابياً بحقه ، وصار من حق كل مسلم تنفيذ هذا الحكم . ولكن عندما قرر « وحشي » التوبة وأعلن ندمه على فعلته، وأرسل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يسأله إن كان يقبل توبته ، أرسل خلفه وعفا عنه . وجاء « وحشي » إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وأشهر إسلامه وقرر أن يتوب عن كل أفعاله الماضية . وأما رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد تصرّف معه بعدها تصرفاً عادياً وعامله معاملة مَن لا سابقة له في السوء .

الكافر الذي واجه النبي وحيداً في الميدان

يُروى أيضاً أن أحد المشركين مرّ بالنبي (صلى الله عليه وآله) وهو ملقى على الأرض لوحده في الميدان في معركة أحد وسيفه بعيد عنه ، فلمّا اقترب من النبي قال في نفسه : لقد حانت الفرصة وسأقتل محمداً ، فليس له الآن من يدفع عنه . وأخذ السيف بالفعل ووقف فوق رأس النبي (صلى الله عليه وآله) وقال له : يا محمد من يُخلِّصك الآن مني وأنت الآن وحيد ؟ فردَّ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكل هدوء قائلاً : ربي ، فارتجفت يدا الأعرابي على الفور ووقع السيف من يده ، فنهض النبي (صلى الله عليه وآله) وأخذ السيف وقال للأعرابي : والآن من يُخلصّك مني ، فرّد الأعرابي بذكاء ومهارة قائلاً : عفوك وكرمك .

فقال رسول الله : اذهب فأنت حر، وانطلق الأعرابي لشأنه. نعم، الحياء والعفو والأدب والوقار والسكينة وكل واحدة من هذه الصفات الكمالية شاهد آخر على صفات الله العالم ، وهذا أحد وجوه معنى كلمة « شاهد » .

شاهد على أعمال الناس

المعنى الآخر لكلمة ـ شاهد ـ هو ذلك للمعنى الوارد في عبارة : « وشاهداً على أمتك وعلى سائر الأمم » أي أن الله بعث محمداً شاهداً على أعمال العباد ليمنني بها ويرعاها .

إنّ صلاتنا وصومنا وحجنا هي موضع عناية الله ورسوله ، لذلك فإن الله يُعظمها ويُجلها ويضع عليها شاهداً مثل محمد (صلى الله عليه وآله)[1] .

وغداً يوم القيامة أيضاً سيكون محمد (صلى الله عليه وآله) شاهداً على أفراد أمته فرداً فرداً . وهنيئاً لهم أولئك المؤمنين الذين يملكون شاهداً على عبادتهم كمحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة المطهَّرين من بعده أهل بيته ، الذين هم أيضاً شهود هذه الأمة وشهداؤها .

لا تؤذوا النبي بالأعمال القبيحة

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) ـ ما مضمونه ـ وهو يخاطب أهل زمانه : إياكم وإيذاء النبي (صلى الله عليه وآله) فقالوا له : وكيف ذاك والنبي قد رحل عنّا وليس بيننا حتى نؤذيه ؟ فقال إنه يرى أعمالكم ؛فإذا ما ارتكبتم عملاً قبيحاً فإنه سيحزن لذلك ، وبالتالي سيلحق به الأذى في هذه الحال .

البشير النذير

إنه مبشر ونذير لنا ، أي أنه يبعث إلينا بالبشرى ويحذرنا من العقاب وسوء العاقبة . إن التبشير والإنذار في الواقع عمل قام به كافة الأنبياء ، ولكن

---

(١) ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

أحداً منهم لم يمتلك هذه الصفات بالكمال كما حملها خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله) .

إنكم ومنذ سنين وأنتم تسمعون بشائر محمد (صلى الله عليه وآله): « ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عينٍ شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب » كما يقول الإمام علي (عليه السلام)[1]

نعم ، إنها بشائر محمد (صلى الله عليه وآله) لأهل التقوى وأهل الاستقامة والصمود بأن الملائكة ستتنزّل بالرحمة عليهم وتستقبلهم يوم القيامة بالورود والرياحين ولا خوف عليهم[2] .

ومن جهة أخرى فإن الظالم ، سواء ظلم نفسه أو غيره أو أشرك أو كفر أو ارتكب الذنوب الكبيرة ، فإن الملائكة ـ ملائكة العذاب ـ ستستقبله بحراب من نار لتقبض روحه وتجلده على وجهه وظهره، ولتنزع روحه الشيطانية نزعاً[3] .

ويروى هنا أن علياً (عليه السلام) سأل النبي بأنه هل يوجد من أمتنا من تزهق روحه هكذا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام ، نعم ثلاثة من أمتي : شاهد زور ، وآكل مال اليتيم ، والحاكم الظالم .

البشرى والإنذار بحق اليتامى

صعد عليه الصلاة والسلام المنبر ورفع إصبعيه وقال : « أنا وكافل اليتيم

---

(١) نهج البلاغة .

(٢) ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ سورة فصلت : الآية ٣٠ .

(٣) ﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ سورة محمد : الآية ٢٧ .

كهاتين » وبالطبع شرط أن لا يُقصِّر في حقه وأن يقف بجنبه مُربياً داعماً له حتى سن الرشد والبلوغ .

ومن جهة أخرى فقد أنذر أيضاً وقال : « إن الذين يأكلون مال اليتيم بغير الحق كأنما يشعلون في بطونهم ناراً » إنه البشير النذير محمد (صلى الله عليه وآله).

البشرى للكاسب المستقيم

إنه بالحق البشير محمد (صلى الله عليه وآله) يُبشر الكاسب والتاجر المؤمن إذ يقول : « التاجر الصدوق يحشر مع الأنبياء ووجهه كالقمر ليلة البدر » نعم ، ولكنه هو النذير بالحق أيضاً ؛ يروي الشيخ الأنصاري في المكاسب حول موضوعة (من غش فليس بمسلم) أن النبي (صلى الله عليه وآله) مرّ يوماً بسوق لبيع القمح فرأى [illegible] اً للقمح ، فمد (صلى الله عليه وآله) يده وأخرج قمحاً رطبا من الوسط ، في حين أن القمح المعروض على السطح كان جافاً ، فنهر ذلك التاجر وقال له : « من غش فليس بمسلم » .

البشرى والإنذار للنساء

ويروى أيضاً أن امرأةً ذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) تشكوه تخلّفها والنساء من بنات جنسها عن الرجال ، حيث إن للرجال دورهم في الجهاد وفي الاجتماعات و . . و . . ونحن ليس لنا من هذا من شيء ؟

قال عليه الصلاة والسلام : إنكن إذا ما واظبتن على الصلاة والصوم وذهبتن للحج وأعطيتن الزكاة وأطعتن أزواجكن فأنا أضمن لكن الجنة ، نعم، فالنساء تكليفهن وواجبهن أخف من الرجال .

أمّا غير المطيعات من النساء فإنه عليه الصلاة والسلام قد أنذرهن مرات عديدة. وتنقل بعض الروايات أنه حدَّث يوماً فاطمة (عليها السلام) بأنه رأى بالأمس عالم الملكوت وقد عُلِّقت إحدى النساء بشعرها ، لأنها كانت تبدي شعرها ولا تستره عن الغرباء . ويُنقل في الروايات أيضاً أنه قال عليه الصلاة والسلام : إن المرأة المطيعة لزوجها يُسجّل لها الله ثواب إطاعتها له ، أي أنها قد أطاعت الله عندما أطاعت زوجها ، وأما المرأة التي خرجت من بيتها بدون رضا زوجها (ولا سيما إذا تجملت وتعطَّرت وتزينت) فإن الملائكة تستقبلها باللعنة حين عودتها .

نهاية سعادة الدنيا فضلات

يذكر الديلمي صاحب كتاب (إرشاد القلوب) أن النبي (صلى الله عليه وآله) ومعه بعض أصحابه مرّوا يوماً بإحدى المزابل، فأشار النبي (صلى الله عليه وآله) إلى المزبلة وسألهم ما هذه ؟ فقالوا إنها كمية من القماش العتيق ومقدار من العظام المهترئة وشيء من الأوساخ والفضلات اليابسة .

فقال عليه الصلاة والسلام : هذه هي آخر الدنيا ، فهذه الأوساخ هي نهاية أكل الدينا ، وهذا القماش العتيق البالي هو ما تبقى من لباس الدنيا ، وهذه العظام المهترئة أيضاً هي نهاية الإنسان الشارب والآكل لتلك الأطعمة واللابس لذلك اللباس ، يقول ابن مسعود : وهنا تعالى نحيب أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) من أثر موعظته وانفجروا بالبكاء .

شيِّدوا قصراً في الجنة بأيديكم

لقد أخبرنا النبي (صلى الله عليه وآله) مراراً عن كيفية استعدادنا للآخرة ، وكيف نشدّ رحالنا إلى الجنة عندما قال : « إن الجنة قاع صفصف » إنها المكان المُهيأ للتشجير والعمارة والبناء ، وبناؤها بأيدينا نحن .

يقول عليه الصلاة والسلام إنه شاهد (في ليلة المعراج) الملائكة وهم مشغولون ببناء قصر ، فكانوا يضعون مرةً جبلةً من ذهب وأخرى من فضة ، ويقول (صلى الله عليه وآله) : كنت أحياناً أراهم يتوقفون عن العمل ، ولمَّا سألتهم عن السبب ، قالوا : طالما كان صاحب هذا القصر مشغولاً بذكر الله إذ يقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فنحن نعمل في البناء . نعم ، فغرس الشجرة يتم بأيديكم ، والحور والقصور أيضاً تحصلون عليها تُشيّدونها بالأعمال الصالحة ، وكما أن المعصية تهدّم كل ذلك .

لقاء علي (ع) بشير بدخول الجنة

يروى أن المؤمن الذي يرحل عن هذه الدنيا وهو مشبع بالإيمان يستقبله سبعون ألفاً من الملائكة ليحملوا روحه، وهم يحملون باقات الورود من الجنة بأيديهم حتى يصلون به إلى جنة البرزخ .

كما يروى أن المؤمن الذي يلتقي علياً ويرى جمال علي (عليه السلام) أثناء صعود روحه إلى السماء فهذا دليل على ذهابه الأكيد إلى الجنة . لأن هذا اللقاء هو مقدمة البشرى بوروده إلى الجنة . إنه لقاء الفرح، لقاء وجه محبوب المؤمنين علي (عليه السلام) بنوره المشرق . وعندها تذوب كل محبة من القلب ليدخل إليه حب علي لوحده ، ذلك الحب الذي هو جزء من حب المحبوب الأول ، حب المؤمن لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي جاء علي ليأخذ المؤمن إلى رحابه .

(١٠)

الأنبياء وسعادة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الـذين آمنوا استجيبـوا لله وللرسول إذا مـا دعاكم لمـا يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾

(سورة الأنفال : الآية ٢٤)

الهدف من بعث الأنبياء هو الحياة الإنسانية

في باب الحديث عن النبوّة والإمامة والنتيجة المترتبة عليهـا ومن خلال التدقيق في آيات القرآن المجيد نستنتج أن الهدف من بعثة الأنبياء يتمثل في تحقق الحياة الإنسانية للإنسان ، وسنتناول هذا الأمر بالتفصيل .

إن الهـدف من التشريـع الإلهي هو أن يصبـح الإنسان إنسـاناً ، وشرح ذلك مرتبط بمعنى الحياة وكيفيتها .

الحياة منشأ الحركة

إن الحياة قوة تنشأ منها الحـركة والعمـل وهي تنقسم إلى ثلاثـة أقسام : نباتية وحيوانية وإنسانية .

الحياة النباتية هي الحياة التى ينمو خلالها الجسم في الأبعاد الثـلاثة أي

أن يتحرك طولاً وعرضاً وعمقاً ، فالشجرة التي لم تمت تكون فيها حياة نباتية ولذلك تراها تعمل فروعاً جديدة وتصنع ورقاً جديداً وتعطي وروداً وثمراً ، وتتحول ثمرتها من حالة الحموضة إلى حالة الحلاوة ، فعريشة العنب منذ أن تبدأ بإعطاء الحصرم إلى أن يتبدل الحصرم إلى عنب حلو تكون في حالة حركة مستمرة ، وإلاّ فإنها تعتبر شجرة ميتةً ، وعندما تعجز الشجرة عن الحركة والنشاط وتفقد قدرتها على إعطاء الورق والثمر فإنها تتحول إلى جماد لا جدوى منه وتنتهي حطباً لإشعال النيران .

الحياة النباتية موجودة لدى كافة الحيوانات

تعتبر الحياة النباتية في الواقع البداية الطبيعية الأولى للحياة لدى كل واحد منّا ، فحياة البشر عادةً تبدأ بنقطة ماء ثم تشرع بالنمو طولاً وعرضاً وعمقاً ، بدنياً وعضوياً ، على أثر بعض التحوّلات التي تجري على نقطة الماء الأولى ، وهكذا يتقدّم البدن في التحوّل والتبدل نتيجة تحلل المواد الغذائية التي تخلق خلايا جديدة وهي بدورها تأخذ مواد غذائية جديدة وهكذا دواليك .

المرتبة الثانية للحياة الحيوانية والتي هي منشأ الحركة والحس وينطبق ذلك على دورة التراب التي تمتلك القوة اللامسة كما ينطبق على الإنسان . ودودة التراب هذه تمثل الخطوة الأولى في الحياة الحيوانية حيث يمكن اكتشافها من خلال تقريب قطعة خشب من الدودة فتراها تتجمع حول نفسها وتحس باقتراب جسم غريب منها عن طريق القوة اللامسة التي تمتلكها ، لكنها تعتبر في نفس الوقت فاقدة لسائر القوى الأخرى ولكن ما دام منشأ الحركة موجوداً فيها فهي حية . فعندما تذبح الخروف مثلاً ويظل رغم ذبحه يتحرك نقول إنه لا يزال حياً ، وعندما نأتي بالطبيب ليعالج المريض الذي

يحتضر على فراش الموت نقول عن المريض إنه ما زال حياً وذلك لأن قلبه ما يزال ينبض وانطلاقاً من هذه الزاوية فإنه ليس هناك فرق يذكر بين الإنسان وسائر الحيوانات ، فمنشأ الحركة لدى الاثنين واحد لا يختلف .

الحياة الإنسانية حصيلة نور المعرفة

وأما الحياة الإنسانية وهي المرتبة الثالثة للحياة ، وأساس البحث الذي نحن بصدده ، والتي يقابلها الموت الإنساني فهي عبارة عن تلك القوة الموجودة في نفس الإنسان والتي يعبّر عنها الشرع بتعبير النور ـ نور الإيمان ونور المعرفة ـ فإن وجودها لدى الإنسان يجعل منها منشأ لحدوث آثار خارقة للعادة تماماً كما كانت الحياة الحيوانية ، منشأً للحركة والحس . ففي الحياة الحيوانية يغضب الإنسان ويحرص على أي شيء ويجمع المال . لكنه ما أن يدخل مرتبة الحياة الإنسانية حتى يصبح إنساناً آخر يتوقع منه عمل من نوع آخر أرقى وأكثر إنسانية وهنا أضرب لكم مثلاً :

هل هو ابن الذئب أم هو من فصيلة الغزلان ؟

يحكى أن ذئباً وغزالةً اجتمعا وعاشا في حياة مشتركة ، وبعد مدة حملت الغزالة من الذئب ، ولمّا ولدت وكبر وليدها وأراد أصحابها أن يذبحوه ليأكلوه فاختلفوا فيه ، فهل يكون ابن الذئب لحمه حراماً أم هو من فصيلة الغزال ولحمه حلالاً .

وينقل صاحب كتاب (فيه ما فيه) أن المفتي الذي تم الرجوع إليه في هذا الأمر قد افتى فتوىً لطيفةً إذ قال : ما عليكم إلاّ أن ترموا بقطعة لحم لحيوان ميت في مكان ثم تضعوا مقداراً من المسك والرياحين في مكان آخر فإن ذهب المولود الجديد وراء الميتة المذكورة كان ابن أبيه ، وإن ذهب صوب العطر والرياحين كان غزالاً .

بروز آثار الحياة الآدمية

الهدف من حديثنا السابق هو أنَّ مَن يأخذ نصيبه من الحياة الإنسانية إنه فلا بد أن تظهر عليه آثار الآدمية . نعم ، إذ كيف يعقل أن تظهر آثار الحياة البقرية على البقر وآثار الحمرنة على الحمار ولا تظهر آثار الإنسانية على الإنسان ؟!

إن من يحصل على الحياة الإنسانية ترى ذلك في اثاره التي منها العفو والحلم والوقار ، والذي لا يملك هذه الصفات فإنه لا يزال دون شك في طور الحيوانية ، ومن لا يعفو ولا يسامح فهو بالتأكيد حيوان . وهذه هي حال كل أناني وكل مغرور .

ما أصعب أن يكون المرء إنساناً

عندما يحصل المرء على نصيبه من الحياة الإنسانية فذلك يعني أن روح الملائكة قد نُفخت فيه ، فيصبح إنساناً يحب النفع للغير ويتصف بالإيثار ، أي يصبح مستعداً للتخلي عن الأكل من أجل أن يأكل غيره . ولكن إذا ما ظل المرء يفكر كل الوقت بنفسه فإن شكله الظاهري يبقى كشكل الإنسان لكن ملكوته وباطنه يعلم الله ماذا يكون !

إنه ليس بالأمر الهيِّن والسهل أن يصبح المرء آدمياً ، ولا بالأمر الهزلي أيضاً . إنه لأمر جدي للغاية ، فالحياة الإنسانية لا بدّ وأن تظهر آثارها ، ومن جملة آثارها حب العطاء ، كأن يكون المرء مستعداً لرؤية ماله يذهب من يده من أجل تأمين راحة الغير . وفي هذه المناسبة أود أن أحكي لكم عن شأن نزول سورة (الليل) .

أبو الدحداح والرجل الأنصاري

ينقل المؤرخون بأن رجلاً أنصارياً من أهل المدينة كان له جار فقير ،

وكانت في بيته شجرة نخيل يمتد أحد فروعها إلى بيت ذلك الجار الفقير ، وكلما أثمرت شجرة النخيل تقع ثمرات ذلك الغصن في بيت الجار ، فكان أولاده يأكلونها فيأتي الرجل الأنصاري ويضرب الأولاد ويسترجع منهم ما تبقى لديهم من التمر ، مما كان يسبب الحزن والألم لجاره .

وذات يوم ذهب ذلك الجار الفقير إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وحدّثه بالأمر وبالمعاملة السيئة التي يلقاها أولاده من الرجل الأنصاري فما كان من النبي (صلى الله عليه وآله) إلاّ أن استدعى الأنصاري صاحب النخلة وقال له : هل تبيعني شجرة النخيل هذه مقابل شجرة نخيل في الجنة ؟ .

قال الأنصاري : لكن هذه الشجرة هي أفضل أشجار النخيل عندي ولا استطيع التخلي عنها .

علم أبو الدحداح بالأمر ، وهو رجل محبٌ للخير فذهب إلى صاحب النخلة وقال له : هل تبيعني نخلتك ؟ فقال : لا .

فقال له أبو الدحداح : ولكني على استعداد لإعطائك أربعين نخلةً على أن تعطي نخلتك لرسول الله (صلى الله عليه وآله) .

فقال له الأنصاري : لن اتخلى عن هذه النخلة إلا مقابل أفضل بستان نخيل في المدينة .

فقال أبو الدحداح : وأنا عندي مثل هذا البستان ، وسأعطيك إياه مقابل نخلتك .

وقبل الأنصاري الصفقة .

عندها ذهب أبو الدحداح إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال له : يا رسول الله ، لقد أصبحت النخلة لي ، وقد وهبتها لك .

فقال عليه الصلاة والسلام : وأنا وهبتها لهذا الفقير كي يكون لأطفاله منها نصيب .

فكان أن أنزل الله تعالى سورة قرآنية بشأن أبي الدحداح وهي سورة (الليل) تمجيداً لعمله النبيل الذي قام به ، وهو الإنفاق الحسن[1] .

اكسب القلوب ما استطعت

نعم ، تنزل بشأنه آية قرآنية لأنه تشبَّع بالحياة الآدمية ، ولم يعد أنانياً لا يعرف إلاَّ النظر إلى بستان نخيله والتمتع به ، بل إن لذته صارت تتلخص في كسبه لأحد القلوب وهو مستعد للتخلي عن خمسمائة نخلة نخلة مقابل نخلةٍ واحدة من أجل أن يسعد قلوب الآخرين . نعم إنه لأمر ممكن أن يصل المرء ـ الإنسان ـ إلى هذا المقام من الآدمية والحديث الشريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

فكما أن الحجر والطين والحديد والخشب مجتمعةً تقيم بنياناً متماسكاً فإن بني البشر أيضاً يبنون مجتمعاً مؤتلفاً متماسكاً بتعاونهم وتعاضدهم .

يشدّ رحله إلى الآخرة

إنَّ من آثار الإنسانية إذا ما توفرت لإنسان فإنه لا يهدأ حتى يتزود بما فيه الكفاية من زاد الآخرة ومتاعها ، أما الآخرون الذين يكتفون بالحياة الحيوانية فإن جلّ اهتمامهم وهمّتهم ينحصر في بناء القصور والحدائق في هذه الدنيا ، في حين يبقى من نوّر الله قلبه بالحياة الإنسانية يفكر باستمرار في عمارة الآخرة .

---

(١) ﴿ فأمّا من أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسّره لليسرى ﴾ سورة الليل : الآيات ٥، ٦، ٧ .

وها هم ابناء الحياة الدنيوية الحيوانية من بني آدم تراهم مشغولين صباح مساء ببناء القصور والعمارات والتنافس فيما بينهم حولها ، والتفنّن في إقامة آخر ما اكتشفه الإنسان من فن العمارة في هذه الدنيا ، بينما نسوا مهمة الإنفاق والعطاء وسعادة الفقراء التي تُقرِّبهم من الحياة الإنسانية وتُعينهم على كسب زاد الآخرة .

تحرير سبع أماء للنجاة من النار

هل هناك إنسان قلبه حي ولا يفكر في تدارك سفر الآخرة والتحضير له ؟

يروى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان منهمكاً في الصلاة بينما كانت إحدى النساء المحترمات تؤدي صلاة الجماعة خلف النبي (صلى الله عليه وآله) ، وفي إحدى الصلوات قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) هذه الآية : **﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾**[1] فلمّا سمعت المرأة آية العذاب هذه صرخت وتغيَّرت حالها وما أن انتهت من الصلاة حتى ذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقالت له : إني أملك سبع إماء أريد تحريرهن في سبيل الله ، حتى يُغلق الله أمامي تلك الأبواب السبعة ويُحررني من النار .

إنه لكذلك أمر المحسنين والأحرار ، فما أكثر الذين اكتسبوا الحياة من الحياة الإنسانية الطيبة لمحمد (صلى الله عليه وآله) بعد رحيله للقاء الله .

الاستئناس بذكر الله لازمة شرطية للحياة الإنسانية

ومن جملة آثار الحياة الإنسانية الأخرى التشوّق لذكر الله ، والأنس بالله

---

(١) سورة الحجر : الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

وذكر الآخرة . الشوق للقاء الله ، شوق الوصول إلى ثواب الله .

ومن جملة آثارها أيضاً عدم التحسـر على الدنيـا وأمورهـا ، فلا يتحسـر المـرء على أمسه ولا غـده . فالأمس قـد مضى خيراً كـان أو شراً ، وأمَّـا الغد فليس معلومـاً أيكون جـزءاً من العمر أو لا يكـون ؟ وعليه (اغتنم فـرصـة بين العدمين) .

كيف نعالج الموت ؟

يـروى عن الإمام الحسن المجتبى (عليـه السـلام) ـ ونحن الآن نعيش منـاسبة ١٥ رمضـان يوم وفـاة الحسن (عليه السـلام) ـ وكمـا جاء في المجلد العاشر من بحار الأنوار على لسـان جنادة بن أميـة أنه قـال : سمعت أن إمامي المجتبى (عليه السلام) قد دُسَّ لـه السم فقـررت عيادتـه فذهبت إليـه ولقيته نائماً في الفـراش وأمامـه وعاء (طشت) فيـه قطعـةً من كبده المبـارك سابحـة بالدم .

فقلت لـه : لماذا لا تعالج أمـرك ؟ قال إنـه المـوت ، وكيف تـريـدني أن أعالج الموت ؟

ومن المعلوم أنه سبق وأن دُسّ السم لسيدنا الحسن (عليه السلام) عدة مرات ، فكان يـذهب إلى قبر جـده رسول الله (صلى الله عليـه وآله) ويُمـرِّغ بطنه بالقبر فيشفى لكنه هذه المدة قال : لقد جاء الموت وهذا أمر يختلف عن المرات السابقة .

فقال جنادة : ولمَّـا فهمتُ أن الإمام أصبـح في عداد الـراحلين وأنه قـد يئس فعلاً من الشفاء قلتُ له عظني :

استعدّ للموت قبل قدومه

قال : « يا جُنادة استعدّ لسفرك وحصّل زادك قبل حلول أجلِك » ، ثم أضاف : « واعلم أنك تطلب الدُنيا والموت يطلبك » .

فلا تحزن أو تتحسر على غدك الذي لا تعرف هل سيكون جزءاً من العمر أم لا ، ولا تأكل ولا تلبس أكثر من الحاجة لأنك إذا ما جمعت منهما فستصبح خازناً للآخرين ، وستكون حمالاً للوارثين .

اعمل للدنيا وللآخرة

« واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

نعم ، فلا تحزن ولا تتحسر على الدنيا فأمرها أمامك وليكن شأن أمر الآخرة والاستعداد لها شاغلك ، فالوقت يضيق باستمرار ، ما الذي يعمله من يعرف أنه سيموت غداً ؟ يكتب وصيته ، ويدفع ديونه ويطلب براءة الذمة من أصحاب الحق عليه .

العزّة في طاعة الله

ثم يقول : وأما إذا ما أردت أن يهب الله لك العزّة دون أن يكون لك سلطان ، ويُعطيك الهيبة والجلال دون أن يكون لك عشيرة ولا قبيلة فما عليك إلّا أن تخرج من ذلة الذنوب وتعاستها ومن مخالفة الله ومعاندته ، والدخول في طاعة الله .

والحقيقة أنك لو ابتعدت عن الذنوب فاعلم اليقين أنك ستنال عزّة لا نظير لها وهيبة يحسدك عليها الآخرون ويُقدرونها خير تقدير . ويكفي أنهم سيمتنعون عن ارتكاب الذنوب بحضورك احتراماً لك وهيبةً منك .

مرض يعقوب ودعاء سهل بن عبد الله

يروى أن يعقوب الصفاري (مؤسس جماعة الصفاريين) مرض يوماً واجتمع الأطباء لمعالجته فلم يفلح أحد في شفائه .

فقال لهم يعقوب : إن كنتم تعرفون أحداً هنا أو هناك ممن له مكانةً عند الله فادعوه إليَّ به قالوا : سهل بن عبد الله الشوشري الزاهد المعروف هو كذلك .

ثم ذهبوا في طلب سهل فلم يأت معهم .

نعم ، فمن كان من أهل الآخرة لا يهتم بما يجري في بلاط السلاطين ولا يهمه ملك أو شاه .

وأخيراً جاؤوا به بعد ألف رجاء وتوّسل جلس سهل على مقربةٍ من فراش يعقوب وقال له :

أتريد من الله أن يشفيك ؟ في الوقت الذي يئن فيه العديد من المظلومين ويعلو صراخهم ؟! .

فقال يعقوب : وما هو المطلوب مني الآن ؟ فأجابه سهل : اطلق سراح المسجونين . فأمر يعقوب باطلاق سراح المعتقلين فوراً .

ثم قال له سهل : أنت تظلم عباد الله فكيف تأمل من الله أن يسامحك ويعفو عنك ؟ تعال وتب إلى الله من أعمالك الماضية .

تأثر يعقوب من حديث سهل وبادر إلى الاستغفار والتوبة بالفعل ، وعندها رفع سهل يديه إلى السماء داعياً ربّه وقال : إلهي يا من أنقذت يعقوب من ذلة الذنوب نجّه من المرض الذي هو فيه .

وكما ينقل المؤرخون فإن يعقوب شفي في الحال ، ونهض من فراش

مرضه في ذلك المجلس بالذات ، ثم أمر بأن يقدموا طبقاً من ذهب لسهل بن عبد الله .

فقال سهل : إن من يطمع بالذهب هو من ليس عنده ربّ يكفيه أمّا من عنده ربّ يكفيه ، فعنده كل شيء .

الذلّة في معصية الله

ما أرمي إليه هو ميزان العزّة والذلة فالعزّة تكمن في طاعة الله والذلّة في معصية الله . فأن أردت العزّة فلا تنح نحو المعصية ، ولا تمارس التدنيس وعندها ستفوز العزّة .

والأذلاء هم أهل المعاصي ، فكل عاصٍ هو ذليل أيضاً ، لكن كمال ظهور هذه المعصية سيتضح ساعة نزوله للقبر ، أنه سيواجه ربّه بوجه أسود عريان وسيكون سجل أعماله بشماله وستلبسه الذلة من رأسه حتى قدميه .

والله تعالى يشرح حال هؤلاء التعساء في القرآن بقوله : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربّهم** ﴾[1] وتذكر إحدى الروايات أن هذا الموقف يطول أربعين عاماً والمجرمون هكذا ناكسو رؤوسهم عند ربّهم .

يقول الإمام السجّاد زين العابدين (عليه السلام) في الدعاء المعروف بدعاء أبو حمزة الثمالي : « أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري أنظر مرةً عن يميني وأخرى عن شمالي . . » .

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٢ .

(١١)

النبي مصدر الحياة الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم ﴾

(سورة الأنفال : الآية ٢٤)

حديثنا عن الحياة والموت الإنساني لم ينته بعد ، وقد سبق لنا أن قسّمنا الحياة إلى ثلاثة أقسام ، وتقابلها ثلاثة أقسام للموت أيضاً .

وقلنا أن الحياة منشأ الفعل والحركة ، وأن انقسامها إلى أقسام ثلاثة هو باعتبار المعني من الكائنات بالحياة .

المرتبة الأولى: منها عبارة عن حركة الجسم وتوليد النوع والتكاثر والنمو في الأبعاد الثلاثة (طولاً وعرضاً وعمقاً) وهذا من آثار الحياة النباتية كأن تضيف شجرة البرتقال غصناً جديداً إلى أغصانها، يعني أنها تتوالد أو أن تتوالد الكائنات عن طريق البيض الذي يفقس عن كائن حي ليعطي ذلك الكائن البيض من جديد ، وهكذا دواليك ، والموت النباتي هو فقدان الكائن لهذه الخاصية (خاصية التوالد) كالعجوز التي وصلت سن اليأس ، أي فقدت القدرة على الإنجاب فيقال إنها لم تعد قادرة على التناسل، أي ماتت نباتياً .

لا حسرة على الموت الحيواني

المرتبة الثانية للحياة والموت هي : الحياة الحيوانية والموت الحيواني ، وهو ما عرضنا له عندما عرَّفنا الحياة الحيوانية بأنها القوة التي يمكن اعتبارها منشأ الشم أو الحركة بالإرادة ، وهي المرتبة الأقوى من المرتبة النباتية والأعلى منها ، حيث الإبصار والسمع وهما من الحواس الخاصة بالحيوانات والتي تفتقر إليها عامة النباتات (إلّا أن تظهر نباتات استثنائية) ثم هناك الصفات الحيوانية المعروفة لدى الحيوانات كالشهوة والغضب والحرص والتي يوجد مثيل لها عند الإنسان .

والموت الحيواني هو الموت الذي يعني تعطل كافة الحواس عن العمل ، وهو الموت المعروف العادي الذي يصيب الإنسان كما الحيوان .

والموت الحيواني هو ما يقابل الحياة الحيوانية ، وهو أمر غير مأسوف عليه ، لأن نهاية الحياة المادية هي الموت .

علامات من الحياة الإنسانية

وأما الحياة الإنسانية فهي عبارة عن تلك القوة الإلهية التي تم التعبير عنها بنور الإيمان والعلم ، وهي الحياة التي تتولد ويتم إنتاجها في القلوب .

والتي ينتج عنها آثار عظيمة . فالشخص الذي يتم إحياؤه بالحياة الإنسانية يصبح مشتاقاً إلى الموت وإلى لقاء الله ، ويصبح من أهل البذل والعطاء ، يتأثر بسرعة بأية موعظة ، ولكن ما أتعس ذلك الإنسان الذي يبتليه الله بالموت الإنساني ، فإنه يصبح عندها كصاحب القلب الميت أو الحجر الذي تضرب فيه المسمار دون أن ترى أثراً لعملك وتستوي عنده الحياة أكان يشتغل بالجبل أو يمارس عبادة الله أو يقضي وقته بالانشغال بابتلاءات الدنيا الأخرى فكلها عنده سواء .

لتنذر من كان حيّاً

إنها الحقيقة التي ورد ذكرها في القرآن المجيد وبعبارات مختلفة ، ففي سورة (يس) ورد قوله تعالى : ﴿ **لينذر من كان حيّاً** ﴾[1] ويقول في مكان آخر : ﴿ **إنك لا تُسمع الموتى** ﴾[2] فالذي صُمَّ قلبه عن السمع ومات ميتة الإنسانية ، فإنك مهما حاولت إسماعه فلن تقدر لأنه ميِّت موتاً إنسانياً ، وكما يقول القرآن ي موقع آخر : ﴿ **أموات غير أحياء** ﴾[3] .

لقد قلنا إن علامة الحياة هي الحركة ، وفي هذا القسم من الحياة سنرى أن إدراك الحياة من الموت وتمييزها يأتي من الحركة وعدمها أيضاً .

الإناء ينضح بما فيه

عندما ننظر حولنا سنرى كيف أن البعض اليوم يتوافد على المساجد والمعابد ويبحث عن زاد الآخرة وسبل تقوية العلاقة مع ربّه ، وكيف أن البعض الآخر بالمقابل يبحث عن مراكز الفساد ويمضي إليها دون رادع من ضمير ، نعم ، هكذا هي النماذج البشرية فكل إناء مما فيه ينضح .

فمن التدقيق في حركة الشخص تفهم نوعيته وحالته ، أهو حي أم ميت ؟ أهو حيوان أم إنسان ؟ تعرف ذلك من حركة لسانه ، فإذا انطلق اللسان بالشتائم والفحش وكلام السوء علمت أنه لا يزال حيواناً ، ولم يكتسب الحياة الإنسانية بعد .

بالمقابل ترى من لا يشغل لسانه سوى بذكر الله والصلوات ولا يتحرك

---

(١) سورة يس : الآية ٧٠ .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٠ .

(٣) سورة النحل : الآية ٢١ .

إلاّ في سبيل خير الناس فتعلم أنّ قلبه قد اكتسب الحياة ، وما هدف تلك التعاليم والإرشادات والمواعظ التي نسمعها يومياً سوى الوصول بنا إلى مرتبة من مراتب الحياة الإنسانية .

لنسع إلى حياة أقوى

مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى قد رحمنا ووهبنا الحياة الإنسانية ، وخير دليل على ذلك هو اشتراككم في المجالس الدينية ومنها هذه التي نقيمها من بعد ظهر كل يوم من أيام رمضان المبارك فهل سألتم أنفسكم ما هي القوة التي جذبتكم إلى هذه المجالس وجعلتكم تُطيلون الجلوس في مثلها ؟ ألم يكن النوم في مثل هذا الوقت ألذ لكم وأنتم صيام ، أو قل لا سمح الله الإفطار وعدم الالتزام بالصوم أصلاً لولا وجود الحياة الإنسانية فيكم ؟

لكنني أريد القول هنا بأن هذه الحياة الإنسانية التي لدينا رغم ذلك ضعيفة ومعرضة للآفات على الدوام .

وما علينا إلاّ الجد والنشاط وبذل الجهد من أجل أن تصبح أقوى حتى نرِد العالم الآخر أحياء ، وإلاّ فإن هذه الحياة الإنسانية الضعيفة التي نمتلكها ، والمعرضة للنقصان باستمرار قد تنتهي شيئاً فشيئاً ونرد ذلك العالم أمواتاً لا سمح الله .

ما هي أسباب الحياة الإنسانية

والآن تعالوا نبحث عن هذه الحياة ونر أين هي وما هو المدخل الذي يوصلنا إلى الإنسانية ؟

مما لا ريب فيه أن الله تعالى قد خلق الدنيا وجعلها داراً للأسباب وأن

كل شيء يحصل فيها إنما يحصل ضمن نظام العلة والمعلول ، وكما أن الحياة النباتية والحيوانية بحاجة إلى أسباب فإن الحياة الإنسانية أيضاً بحاجة إلى أسباب .

ففي الحياة النباتية إنما يتم اللقاح بالبيوض عن طريق حركة الرياح ، ويحصل اللقاح بين الذكر والأنثى من الشجر ، وذلك حتى يحصل التوالد وتوليد النوع .

وفي الحياة الحيوانية أيضاً لا بدّ من وجود الأب والأم حتى تحصل تلك الحياة ، عدا الحالات الاستثنائية بالطبع كمولد آدم أبي البشر وعيسى بن مريم . أما عامة البشر فإن مولدهم بحاجة إلى الوالدين وامتزاج نطفة الأب مع بيوض الأم[1] فيخرج المولود المركب من ذلك المزيج ، والذي يطوي بقية مراحل الخلق والولادة ، ثم تعقبها مراحل التربية الضرورية أيضاً .

بالارتباط بمحمد (ص) نكتسب الإنسانية

وأما فيما يتعلق بالحياة الإنسانية فإن الأمر أيضاً يحتاج إلى أسباب . والطريق إلى ذلك هو بالارتباط بالإنسان الكامل الحقيقي ، ألا وهو خاتم الرسل وهادي السبل محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله) فما لم ترتبط أرواحنا بروح محمد (صلى الله عليه وآله) فنحن محرومون من الحياة الإنسانية . وما لم ترتبط أرواح البشر بنفوس أهل البيت فأين منهم الحياة الإنسانية الطيبة ؟ إنه ذلك المفهوم الذ لا بدّ وأنكم سمعتم به وتردد كثيراً في المجالس ما جاء في الحديث الشريف الذي يروى عن علي (عليه السلام) قاله لصعصعة بعد ضربة السيف التي تلقاها من ابن ملجم اللعين .

---

(١) ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ سورة الطارق : الآية ٧ .

محمد وعلي أبوا إنسانية الإنسان

يــروى في كتب الأحــاديث أن عليــاً (عليــه الســلام) قــال في تلك المناسبة : إن ابن عمي محمد خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) أمرني بـأن أصعـد إلى المنبر وأقـول أن الله قد أوجب اللعنـة على ثلاث : أولاً على كـل عاقٍ لوالديه وكل من يدرك أبـاه وأمه ولا يُرضيهما وثانياً على كـل من لا يُعطي أجـر الأجير . وثـالثاً على كـل عبدٍ يعصي أوامـر مولاه . فصعـدتُ إلى المنبر وقلت ذلك ثم عدت إليه لأسأله عن تفصيل ذلـك وتوضيحـه فقال : « يـا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة » ألا لعنة الله على كل عاقٍ لنا .

وهذا العاق لوالديه الذي تسمعون به لا يشم رائحة الجنة أبداً ، لأنه في المـرتبة الأولى عـاق لمحمد وعلي وفي المـرتبة الثـانية هـو عاق لأبيـه وأمه . وذلك من حيث أنه يكتسب الحياة الإنسانية الأبدية من أبويه محمد وعلي بينما هو لا يكتسب سوى حياةً بدنية لا يتجاوز معدلها الستين عـاماً من أبـويه (أمـه وأبيه) .

حقوق الأب الروحي وحقوق الأب المادي

إنه لأمر طبيعي القول بأن حق آبائنا وأمهاتنا علينا كثير جداً ، فما أكثر ما تتعذب الأم من أجل أبنائها وما أكثر تلك الليالي التي سهرتها وهي ترعاهم حتى كبـروا وبلغوا سن الـرشد ومـا أكثر الجهـود التي بـذلهـا الأب من أجـل كسب العيش لأولاده وتهيئة ظروف التربية الصالحة لهم إلى أن أوصلهم إلى مـراحل الإستقلال ، لكن حق محمد وعلي أكثـر بدرجـات كثيرة ، ذلـك أنهما علمـانا تلك التعـاليم التي ببـركتهـا وبفضـل تـطبيقهـا حصلنـا على الحيـاة الخـالـدة والأبدية ، وهي الحياة التي تسمو بنا إلى صفوف الملائكة .

وإن من تمتزج روحه مع روح هذين الأبوين الروحيين فسيحشر معهما في الملأ الأعلى .

الولاية لا تقاس بنعم الدنيا

يـروى في الأحـاديث عن الأئمـة (عليهـم السـلام) أن يـونس بـن عبد الرحمن ذهب يوماً إلى الإمـام جعفر الصـادق (عليه السـلام) وقال لـه : قسمـاً بالله ، إن ولايتكم أحبّ إليّ من الـدنيـا ومـا فيهـا ، وإذا بـه يـرى آثـار الغضب قـد بانت في وجـه الإمام (عليـه السلام) فسـارع إلى القول : وهـل تراني نطقت بشيء غير لائق يا إمامي ؟ ومضمون الرواية يقول : بأن الإمام قد ردَّ عليه بأنك لم تقارن مقارنة صحيحة ، فأنت تقـول إنّ ولايتكم يا آل محمـد أحسن من الدنيا ، فما هي هذه الدنيا حتى تقارنها أساساً بالولاية ؟ هل تتجاوز هـذه الدنيـا إشباع البـطن من الغذاء وإلبـاسه اللبـاس وتلبية حـاجـات الجسم الجنسية المطلوب ؟ حتى تقول : إن ولايتكم أحسن من الدنيا ، في حين أنك تعرف بأن ولايتنا تعني الحياة الأبدية الخالدة لك ؟!

الفرد الحيّ هو الفرد المرتبط بالحيّ الحقيقي

إن الحي المطلق والحقيقي ، هو الحي بالذات (بذاته) وحياة الآخرين جميعاً مربوطةً بحياته ، وإن الله تعـالى هو الـذي وهب الحياة إلى محمـد وآل محمد ، وهو الذي جعل كل من يرتبط بهم ينتفع من حياتهم .

وفي الحقيقة فإن الإنسان الحقيقي والآدميين الحقيقيين هم آل محمد ، ومن ارتبط بهم ارتباطاً وثيقاً .

ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج

إن الفرد غير المرتبط بالإنسان الكامل لا يملك في الواقـع أي شيء من الإنسانية ، ولا يعدو كونه من الحيوانات التي تمشي على الأربع .

لقد سمعتم حتماً بقصة ذلك الراوي الذي جاء إلى الإمام وقال له : مـا

أكثر الحجيج هذه السنة ، فأشار الإمام بيده وإذا بستائر الملك تنزاح جانباً ويظهر الملكوت واضحاً فإذا بالكل خنازير وقردة . نعم ، « ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج » إنهم لم يصبحوا إنسانيين حقاً وعملاً فالضجيج والصراخ كثير ولكن الحجيج الحقيقي نادر الوجود ، والإنسان الحقيقي عبارة عن أربعة عشر نوراً طاهراً فمن أخذ من نورهم فهو ذلك الإنسان الذي انتفع من إنسانية علي وآل البيت وبذلك أصبحت روحه ونفسه من روح ونفس آل البيت . وقد تنوّر قلبه بنورهم وبالتالي أصبح بمثابة الابن الروحي لعلي (عليه السلام) ومن بقايا طينته المباركة[1].

اقرن كلامك بالعمل

من المعروف أن الابن إنما يرث بعض الصفات من أبيه أو أمه وبذلك فهو يحمل معه بعض الصفات في الشكل أو الحركات الظاهرية التي تشبه أباه أو أمه ، وكذلك قد يخرج الولد شبيهاً بعمه أو خاله ، وربما قد يشبههما في طريقة المشي أيضاً ، وهذا الأمر عادة يحصل في الحيوانات أيضاً .

كذلك لا بدّ وأن يكون أبناء محمد وعلي (شيعتهم) مشابهين لهما في حركاتهما وسكناتهما أيضاً . لأنه إذا ما كانت أقوال وأفعال أحدنا تشبه الأعداء فهل يمكنه عندئذٍ أن يدعي الإيمان والتشيع ؟!

شيعة علي (ع) والأخلاق الجميلة

إنها جملة حلوة ينقلها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة حيث يقول : (وهو ذلك السنّي المعتزلي مذهباً) بأنه ثبت بالتجربة بأن شيعة علي

---

(١) « شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا وعُجنوا بماء ولايتنا يفرحون بفرحنا ويحزنون بحزننا » .

(عليه السلام) يتميزون بأخلاقهم اللطيفة تماماً كما يكون الآخرون خشني التصرّف والطباع فكل يتبع مولاه .

نعم ، إنها من تأثيرات الروحانية ، فمن يدّعي أنه من أولاد محمد وعلي فلا بدّ وأن توجد آثار الوالد واضحة لديه .

لبّوا نداء محمد (ص)

ولذلك ترى القرآن المجيد يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم** ﴾ لأنه عندما يدعوكم يريد إحياءكم بالفعل يريد أن ينوّر قلوبكم ويملاءها بالمحبة ويهبها الحياة الأبدية .

لا تتركوا قلعة الولاية المتينة

إياكم والفرار من هذه القلعة ، بل اسعوا قدر الإمكان للاقتراب منها فبالمقدار الذي تفنون أنفسكم فيهم تكسبون الحياة الحقيقية ، وبالمقدار الذي تتنكرون فيه لمحمد وعلي بمقدار ما تقتربون من الموت الحقيقي .

إنه لا يمكن الجمع بين عشق الدنيا والتعلّق بملذاتها وبين عشق محمد (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) ، فإما أن تكون مع الله وأولياء الله وتطلب الآخرة أو أن تذهب مع شيطان النفس والهوى . فإن كنت تريد الحياة الحقيقية حقاً فتحصّن إذن بحصن الولاية المتين[1] ولكنك إذا لم تبتعد عن قلعة الشيطان الورقية فإنك لن تشعر بحلاوة ولاية أهل البيت ، مهما نوّهت بحلاوتها بلسانك فلا بدّ لك من أن تُثبت بالعمل أنك في قلعة الولاية الحقيقية ، ونحن نرى أن إدراك مقام النبوّة والإمامة لا يعني لأمثالنا إلا التعرّف والحصول على نور الإيمان والمعرفة .

---

(١) « ولاية علي بن أبي طالب حصني » .

العين الباطنة والعين الظاهرة

عندما نسمع أن شخصاً أعمى ذهب إلى قبر الإمام الرضا (عليه السلام) وشُفي من عماه وعاد بصيراً فإننا نولي الأمر أهمية كبرى ، وهو أمر مهم بلا ريب ، ولكن علينا أن لا ننسى أيضاً أن هذه العين ستدوم لذلك الشخص عدة سنوات وبعدها يموت صاحب العين وينتهي هو وعينه إلى التراب . وأن مدى رؤية العين لا يتجاوز عدة أمتار محدودة ، في حين أن الإمام الرضا (عليه السلام) قادر على أن يعطي ـ لمن يطلب من البشر ـ عيناً خالدة وأبدية تستطيع رؤية طريق الصراط لمسافة ثلاثة آلاف سنة ، وبالتالي أليست هذه العين أهم من تلك العين الظاهرة .

حوار الأعمش مع جارية عمياء

ينقل العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار عن الأعمش ـ وهو من مشاهير العلماء وكبار أهل الحديث ـ قصة عجيبة ، مفادها أنه وأثناء سفره لحج بيت الله الحرام ، صادف أن التقى بأمة كفيفة البصر تسير وهي تقول : « اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد إلاّ رددت بصري » . ويضيف الأعمش : ثم اقتربتُ منها وقلت لها : ما هذا الذي تقولينه ؟ أتقولين بحق محمد وهل هناك حق لمحمد عند الله ؟ لكن تلك الأمة العارفة والمحبة لأهل البيت قالت لي وبإصرار تام : ومن أين لك أن تعرف محمداً (صلى الله عليه وآله) ؟ إنه ذلك الحبيب الذي أقسم الله بحياته الكريمة . ويضيف الأعمش فقلت لها : عند ذلك وأين أقسم الله بحياة محمد (صلى الله عليه وآله) ؟ فقالت لي ألم تقرأ الآية التي يقول فيها تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾[1] فإن لم تكن حياة محمد (صلى الله عليه وآله) عزيزة عند الله تعالى ، فكيف يُقسم بها سبحانه ؟ .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٧٢ .

محبة علي تجلو ظاهر البصر وباطنه

يقـول الأعمش ولمَّا انهيتُ مناسك الحـج وبينما أنـا عائـد إلى مـوطني شاهدت هذه الجارية نفسها في نفس الطريق لكنّها هذه المرة بعينين بصيـرتين وقد تغيرت مناجاتها أيضاً ، إذ كـانت تردد هـذه المرة عبـارة : « عليكم بحب علي بن أبي طالب » فإنه يجلب لكم خير الدنيا والآخرة . ثم يضيف الأعمش فـاقتربت منهـا وسألتهـا ألستِ أنتِ نفسك تلك الأمـة الكفيفـة ؟ قـالت بلى ، فقلت لهـا ومن الـذي جعلك بصيـرةً ؟ قـالت حب علي (عليـه السـلام) . فسألتها أن تشـرح لي تفصيل مـا حدث لهـا قالت : كمـا سمعت ورأيت فإنني كنت أطلب من الله أن يـردد لي بصري بحق محمـد وبينما أنـا أناجي ربّي إذا بهاتف من السماء ينـاديني قائـلاً : إن كنت صادقـةً في ما تقـولين فضعي يدك على عينيك ثم افتحيهما ، وهكذا فعلت وعادَ لي بصري فنظرتُ حولي فلم أر أحداً . فقلت : يا ربّ ، أسألك بحق محمـد وآل محمد أن تُعـرِّفني على مَن كان الوسيلة في عودة البصر إليَّ . ثم قلتُ يا هاتف السماء أسألك بالله عليـكَ أن تعرِّفني بنفسك فقال : أنا الخضر خادم علي (عليـه السلام) عليـك بحب علي (عليه السلام) فحب علي يعود عليك بخير الدنيـا والآخرة ، بلّغي ـ من مكانك هذا ـ الحجاج العـائدين بهـذه الدعـوة : (عليكم بحب علي فإن فيـه خير الدنيا والآخرة) .

نعم ، فـالعين الباطنـة أيضاً تبصـر بحب علي وعين القلب هذه أهم من العين الظاهرة .

أحياء القلوب لا يموتون

إن إحياء الموتى الذين ماتـوا ميتة حيـوانية عمـل من المعجزات ، وهـو أمـرٌ لا شك مهم ، لكن ذلـك الكائن سيمـوت من جديـد ، فأجسـامنـا هـذه

ستموت لا محالة مهما تمّ إحياؤها مرات لكن حبّ علي (عليه السلام) يوصلك إلى الحياة الأبدية وعندها ستُعدُّ من الأحياء بعد الممات ، ستسبح روحك جنباً إلى جنب مع الملائكة ليرفعوها معهم ـ كباقةٍ من الورد ـ إلى الملأ الأعلى .

(١٢)

النبي نور للإنسانية

بسم الله الرّحمن الرحيم

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾

(سورة التغابن : الآية ٨ .)

علم الغيب لا يحصل إلاّ بالوحي

لا يمكن للبشر أن يطّلع على نظام الآخرة وأسرارها بدون الأنبياء ، فلو لم يهد الله البشر بواسطة الأنبياء لما عرف أحد أخبار ما بعد الموت وما هي خيراتها ، ولولا تعاليم الأنبياء من أين للبشر المعرفة بعالم الروح ؟ ولو بذل المرء عمره كله في البحث عن سر واحد من أسرار الآخرة لما كان بمقدوره العثور على شيء دون الاستعانة بالأنبياء .

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى رأى ببالغ حكمته أن يختار عدداً من الصالحين ليعلمهم الغيب ويُريهم الجنة والنار والطريق إليهما حتى يقدموا للناس هدايا ربّانيّة من ذلك العلم الإلهي ويشرحوا لهم أسرار عالم ما بعد الموت .

لا يسألون الناس أجراً

إن برنامج كافة الأنبياء كان يستند إلى قاعدة حب الخير للناس وتقديم النصح لهم دون أن يسألوهم أجراً على عملهم هذا[١] .

في أواخر عمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) اجتمع عدد من أصحابه في المدينة وأخذوا يتباحثون في أمر جمع بعض المال لشراء ملك له ووضعه تحت تصرفه ليغطي بمردوده مصاريفه الكثيرة ونفقات الذين يتوافدون عليه باستمرار وذهبوا بالفعل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وطرحوا الأمر أمامه فسكت رسول الله . عندها نزلت الآية الشريفة : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى** ﴾[٢] فلو كان النبي يُريد مال الدنيا لكان الله قد وضع خزائن الأرض وكنوزها تحت تصرفه .

نفع المودّة يعود إليكم

أتريدون أن تدفعوا لمحمد (صلى الله عليه وآله) أجره ؟ ليس من أحد بقادرٍ على أن يدفع أجره ، فأجره على الله[٣] بلى فإن الأمر الوحيد الممكن عمله من قبل أمته هو العمل بتعاليمه . إن أجر محمد (صلى الله عليه وآله) هو العمل بإرشاداته والصلاة عليه وعلى آله كلما ذكر اسمه ، ومحبة أهل بيته وذلك كله يعود في النتيجة لمصلحة الأمة نفسها وهو ما جاء في صريح القرآن : ﴿ **ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم** ﴾[٤] .

---

(١) ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ﴾ سورة الشعراء : الآية ١٢٧ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٣) ﴿ إنَّ أجري إلاّ على الله ﴾ سورة هود : الآية ٢٩

(٤) سورة سبأ : الآية ٤٧ .

الأنبياء أكثر الناس زهداً

لقد سبق وأشرنا إلى أن الأنبياء إنما يختارهم الله سبحانه وتعالى من بين أفضل الناس ، وأنه لا بدّ لهم وأن يكونوا على رأس القائمة في امتلاكهم لكافة الأخلاق الفاضلة ، ومن جملة تلك الأخلاق الفاضلة فضيلة الزهد ، فالأنبياء أبعد الناس عن الاهتمام بالمال والجاه والشهرة وجل اعتمادهم واتكالهم على خزينة الله قبل أن يكون على ما بأيديهم كما جاء في أحد أدعية الصالحين التي عبَّرت عن هذا الشرط الإلهي : « بعد أن شرطت عليهم الزهد في هذه الدنيا الدنيّة وزخرفها وزبرجها »[١] .

فلو كان النبي من أصحاب جمع المال وطُلّاب الشهرة والرئاسة فكيف كان بإمكانه تشويق الناس للانسلاخ عن الدنيا وترغيبهم ودعوتهم لطلب الآخرة ، من هنا نجد أن الأنبياء جميعاً هم أكثر الناس زهداً فوق هذه البسيطة . وفي هذا المجال يمكننا العودة إلى إحدى خطب الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وهو يتكلم فيها عن زهد الأنبياء .

زهد عيسى وموسى نماذج من زهد الأنبياء

لقد جاء في خطبة علي (عليه السلام) في نهج البلاغة في هذا المجال ما مضمونه إن جدار معدة موسى بن عمران كان قد أصبح أخضر لكثرة ما كان يتناول من الأعشاب ، وإنه عندما جاءت إليه بنات شعيب بقرص خبز قال مخاطباً ربّه : ربّ إني كنت مُحتاجاً لهذه النعمة التي بعثت بها إليَّ[٢] .

ثم إن عيسى بن مريم كان يلتحف السماء ويتكىء على يديه ويجعل

---

(١) دعاء الندبة .

(٢) ﴿ ربِّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ سورة القصص : الآية ٢٤ .

منهما وسادته حين المنام ، ولم يكن متزوجاً ولم يسكن داراً ولا امتلك يوماً فراشاً وكان طعامه المفضَّل هو البصل .

زهد خاتم الأنبياء (ص)

ثم يضيف سيدنا الإمام علي (عليه السلام) ليُحدثنا عن زهد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) فيقول ما مضمونه : إنه دخل يوماً إحدى حجرات نسائه (يقال إنها حجرة عائشة) فشاهد ستارة معلقةً وعليها بعض الصور ، فقال لزوجته : أبعدي هذه الستارة لأنني عندما أنظر إليها أتذكّر الدنيا . نعم ، فهو لم يضع حجراً على حجر أبداً في الوقت الذي كان بإمكانه أن يشيِّد لنفسه بيتاً من الذهب . لقد كان سقف بيته عبارة عن أعواد من سعف النخيل .

وفي هذا المجال كتب أحدهم يقول : يا ليتهم حافظوا على آثار النبي محمد (صلى الله عليه وآله) كما هي إلى يومنا هذا حتى يتسنى للمسلمين رؤية وضع حياة نبيهم بأنفسهم ليعتبروا منها . فنبينا الكريم كان من أزهد الناس على الإطلاق إذ كان يصرف كل ما تقع عليه يداه في سبيل الله .

عندما كان يدخل مجلساً ويقوم له الحاضرون إجلالاً كان يقول لهم : لِمَ تقومون لي وأنا واحد مثلكم . لقد كان يجلس في أكثر المواقع تواضعاً وحقارةً في المجلس ، لقد كانت جلساته دائرية باستمرار ولم يكن فيها صدر ولا مؤخرة .

وكان نبيّنا الكريم يستخدم قطعة من القماش يبلغ طولها أربعة عشر متراً يفرش نصفها تحته ويُغطي بدنه المبارك بالنصف الآخر ، ثم يستخدمها نفسها حين الصلاة إذ يضع نصفها تحت قدميه والنصف الآخر على كتفه .

وفي أواخر عمره كان عليه الصلاة والسلام يقول : « سيبتني سورة هود »

وسورة (هود) كما سورة (عم) تعتبران من (السور المشيِّبة) والمعروف أن آيات القهر الإلهية كانت قد شيبت الرسول (صلى الله عليه وآله) .

ويروى في هذا المجال عن بعض زوجات الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه كان يطوي قطعة القماش أربع طيّات ويجلس عليها في أواخر عمره بعد أن كان الإرهاق قد اشتد به واستبد به التعب الشديد . ويحكى أنه : أجلس في إحدى الليالي في مكان مريح ، فنام عليه الصلاة والسلام في تلك الليلة ، وتأخر في المنام ، وتأخر قليلاً عن موعد صلواته وتهجده آناء الليل فلمّا نهض إلى الصلاة قال : من هو ذلك الذي ظلمني ؟ إن مجلسي السابق كان أفضل .

يروى عن عائشة أنها قالت : أنه مرّ علينا أربعون يوماً ولم توقد في دارنا نار طبخ إذ كنّا نسدّ رمقنا فيها بالتمر والماء . ولكن عندما رحل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فُرجت علينا إذ صارت تصرف لنا من قبل دار الخلافة الرواتب المخصصة لزوجات النبي (صلى الله عليه وآله) .

لا تراجع عن الدعوة

اجتمع قادة قريش في أول الدعوة وذهبوا إلى أبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وآله) وقالوا له : إن ابن أخيك قد تجرأ علينا وسفَّه أحلامنا وسبّ آلهتنا فاسأله ماذا يريد ، فإن كان طالب مال فإننا أثرياء جزيرة العرب ونحن على استعداد لنجمع له من المال ما يُريد ونجعل منه أثرى أثرياء العرب . وإن كان يُريد السلطان فنحن على استعدادٍ لتنصيبه رئيساً علينا . وإن كان طالب نساء فنحن على استعداد لتزويجه بأجمل نسائنا وإن كان مجنوناً فلنأت له بطبيب يُداويه . فدعاه أبو طالب وأخبره بما قالت قريش فأجابه عليه الصلاة والسلام : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني

والقمر في شمالي (وذلك كنايةً عن أنهم لو أعطوني سلطان الأرض والسماء وكافة الامتيازات الكونية الممكنة) على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » .

وما حاجة محمد (صلى الله عليه وآله) إلى المال والله سبحانه قد أغناه عن ذلك[1] ، وجعل لسانه كيمياءً .

بنطقه يحوّل الفضة إلى ذهب

يروى أن امرأةً جاءت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي تحمل كيساً فيه ثلاثمائة درهم من الفضة فقدمتها بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله) وقالت : يا رسول الله ، اصرف هذه على الفقراء ، فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أحد أصحابه الحاضرين أنْ افتح كيس الذهب هذه . فأخلي الكيس بدراهم ذهبية تخرج منه ، فتعجبت المرأة وقالت يا رسول الله ، أقسم بالله إنني وضعت فيه فضةً . فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله) : نعم ، وأنت صادقة ، لكنني قلت ذهباً فجعلها الله ذهباً . نعم ، إن نطقه كيمياء تقلب الفضة ذهباً ، فما حاجة من مثله بالدنيا ؟! يا رسول الله ، إنك وبإشارة منك تجعل من الفضة والنحاس ذهباً فماذا يضير لو أنك ترمينا بنظرة لطف منك وتجعل قلوبنا النحاسية هذه تنقلب ذهباً .

كيف يصاب بلوثة المادة من يشفي الناس من المادة !

إن النبي والإمام لا بدّ لهما وأن يكونا على درجة تامة من الكمال في جميع الفضائل ؛ في الحلم والصبر كما في العفو والتسامح وفي كظم الغيظ

(١) ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ سورة الضحى : الآية ٨ .

كما في الوقار والطمأنينة ، لا بد وأن يكونا على رأس السُلَّم ، لا بدّ وأن يكونا أرأف الناس وأشدهم رحمةً ، ولا يمكن أن توجد فضيلة من الفضائل الأخلاقية إلاّ موجودة على أتّم وجه وأكمل صورة عندهما .

إن النبي مُكلَّف بشفاء الناس وأفراد المجتمع من الأمراض المعنوية ، وأن يُحيي قلوبهم الميتة ، وينزع من نفوسهم حب الدنيا ، فكيف يكون هو ملوَّثاً بالماديات ؟!

حديث لطيف للشيخ الشوشري

يقول الشيخ جعفر الشوشري في إحدى مواعظه : أن الناس ينتقدوني بأنني أخوِّفهم كثيراً بالموت والنار . وأنا أقول لهم نعم ، الشيخ يخيفكم ولكن قولوا لي كم هو عدد الأشخاص الذين خافوا فعلاً حتى الآن وصاروا يفكّرون بشد الرحال إلى الآخرة ؟ .

ويضيف في مكان آخر : إن الدوافع الطبيعية الموجودة لجلب الناس إلى الدنيا من هوى النفس والشيطان وغيرها لكثيرة حقاً وليست بحاجة إلى مزيد من التحريك فمقتضيات الأمور منطبقة على الماديات ، في حين أنه لا بدّ في الطرف الآخر من مُحرِّك وصوتٍ يؤذن دوماً في آذان الناس بأن هذه الدنيا ما هي إلاّ دنيا فانية ، وليس هناك من داعٍ للحرص عليها والتعلّق بمادياتها .

نعم ، إنه التكليف المفروض على النبي والإمام وعالم الدين لدفع الناس عن الدنيا وتشويقهم بالمقابل لكسب الآخرة ، وبالتالي لا بدّ أن يكونوا هم أطهر المخلوقات ، معصومين عن التلوث بأمور الدنيا وزخرفها ، ولذلك ترى أن أهل العقل ينظرون إلى حالات وكمالات الدعوة النبوّية أكثر ممّا ينظرون إلى المعجزة ، فالأساس هو الكمالات النفسانية ، فمدّعي النبوّة إذا ما

كان مادّياً وعابداً للمال والشهوة وطالباً للمقام والجاه فإن كذبه سيتضح بسرعة وإن كان يأتي بالأعمال الخارقة .

العصمة قوة ربّانيّة

إن العصمة التي هي شرط من شروط النبوّة والإمامة ما هي إلا عبارة عن قوة موهوبةً من قبل الله إلىٰ عباده الصالحين (الأنبياء والأئمة) لتحفظهم من كل ذنبٍ أو خطأ سواء كان ذلك سهواً أو نسياناً أو غفلةً ، وقبل النبوّة والإمامة كما بعدها .

ومن الألفاظ المتداولة خطأ بين الناس إطلاقهم صفة العصمة على الطفل عندما يقولون إنه طفل معصوم ، وذلك ظناً منهم بأن العصمة تعني اللاذنب .

فلو حصل أن المكلَّف لم يرتكب ذنباً فإنه سيكون عند ذاك عادلاً . لكن المعصوم هو من يملك القوة القدسية الموهوبة له من قبل الله والتي تمنعه عن الخطأ ، لأنه لو كان الأنبياء والأئمة ممن يجوز منهم الخطأ فإن ذلك يعني أنهم قد يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف من باب الخطأ، وعندها سوف تسحب الناس ثقتها منهم وبالتالي فإنها سوف لن تخضع لتعاليمهم وإرشاداتهم لأن أمرهم في تلك الحالة لا يختلف بشيء عن أمور سائر الناس .

اعترافات الأئمة هل هي تواضع أم تعليم للعباد

هنا يبرز إشكال مشهور كثيراً ما يعرضه ويستفسر عنه الكثيرون ، وهو أنه إذا كان من الصحيح القول بأنه وبحكم العقل لا بدّ وأن يكون الأنبياء والأئمة معصومين بل أنهم وحسب عقيدتنا لم يمارسوا حتى ترك المستحب وفعل المكروه . فما هو إذن تفسير إقرار الأئمة (عليهم السلام) بالذنب ، وهو ما

نقرأه في دعائهم ، كمثل ما نقرأه في دعاء أبي حمزة الثمالي المشهور عن الإمام السجّاد (عليه السلام) الذي يقول فيه على سبيل المثال : « إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت » .

يقول علي بن عيسى الاربلي في كتابه (كشف الغمة) : لقد جذب انتباهي قول موسى بن جعفر (عليه السلام) في السجدة وهو يقول : « إلهي ليتك أخرستني عندما عصيتك بلساني وليتك جعلتني أصماً عندما عصيتك بأذني » . فذهبت إلى رضي الدين سيد بن طاوس أسأله أن يحل لي هذا الإشكال الذي برز لي .

فقال لي : ربما كان ذلك بهدف تعليم العباد .

فلم أستأنس لهذا الجواب فقلت : ولكن موسى بن جعفر (عليه السلام) كان يقرأ هذا الدعاء فيما بعد منتصف الليل وهو وحيد في غياهب السجون ، وبالتالي فمن كان المقصود بالتعليم في مثل هذه الحالة .

فرد السيد قائلاً ربما كان يقصد به التواضع لله ، لكن هذا الجواب لم يُقنعني أيضاً إلى أن وجدتُ الحل بفضل موسى بن جعفر (عليه السلام) نفسه .

جواب أربلي على الإشكال المشهور

وملخص كلام أربلي هو أن عند النبي والإمام حالات استغراق عميقة كانوا خلالها يغرقون في بحر العظمة الإلهيّة ، وعندها يخرجون من ذواتهم ، ولمّا كانت هذه الحالات العبادية الصرفة ليست مستمرة معهم صباح مساء نتيجة انشغالاتهم الأخرى ، بأمور من قبيل معالجة أمور العباد ونظم أمور المعاش والرزق لعائلاتهم ، وغير ذلك من أمور الواجب والمستحب والمباح ، وممّا لا ريب فيه أنهم عندما كانوا ينشغلون بتصريف مثل هذه الأمور يصبحوا

غير قادرين على أداء صلواتهم بحالة من الاستغراق الآنفة الذكر باستمرار ولمَّا كان النبي والأئمة يرون شرط العبودية في دوام حالة الاستغـراق تلك وإن عدم دوامها يُشكِّل لوناً من ألوان اقتراف الذنب . فإنهم بدعائهم ذاك كانوا يعتذرون إلى الله ويطلبون المغفرة منه .

أعرفكم بالله أخشاكم لله

في المحكمـة الإلهيّة غـداً سيكون الأكثـر قربـاً إلى الله أكثـرهم خشيـةً وارتجافاً منه ، ذلك أنه هو الذي يدرك عـظمة الحق سبحـانه وتعـالى أكثر من غيره « فأعرفكم بالله أخشاكم لله » .

ولمَّـا كان الأنبيـاء والأئمة قـد وجـدوا طـريقهم إلى بسـاط القـربـة فـإن المباحات أصبحت عندهم قبيحة .

الذنب هو الفعل الذي يوجب الخجل

الحقيقة أن الإشكال الذي مرّ ذكره هنا قد نشأ في الـواقع بسبب النـظرة التي تُبقي على اللفظ في حـدود معناه اللغـوي ، في حين أن مصاديق المعنى الاصطلاحي للألفاظ أكثر من معناها اللغوي . بتعبير آخـر : فإن كلمـة الذنب في لغة العرب تعني اقتراف الجريمـة وعندمـا يقال (ذنب) يتبـادر إلى الذهن فوراً معنى العذاب ، أي الجريمة التي لا بـدّ وأن يعاقب عليهـا.. في حين أن المعنى الاصطلاحي لكلمة الـذنب يستخدم في سيـاق الأمر المـوجب للخجل والحياء ، حتى وإن كان ذلك لا يستوجب العقوبة .

وانطلاقاً من هذا التفسير فـإن الذنب سيشمـل حتى الأمور التي تحصـل للإنسان بالإجبار ومن دون اختيـاره أو غصباً عنـه كما يقـال ، وعندهـا لا يبقى مجال للإشكـال . أي يتم رفع الإشكـال الآنف الذكـر . وإليكم بعض الأمثلة على ذلك توضيحاً للأمر :

الذنب بالمعنى الواسع

كأن تدوس القرآن المجيد بقدميك أثناء سيرك دون انتباه ، أو أنْ يقع القرآن من يدك ، فإنك في هذه الحالة ، وإن كنت غير مقصر فيما حصل ، لكنك تشعر بالتأكيد بالذنب ، وإن كان الأمر لا يستأهل معاقبتك عليه .

مثال آخر ، هناك طفل صغير نائم تحت اللحاف فتمر أنت فوقه وتسحقه بقدميك دون أن تنتبه ، فيموت الطفل ، ففي هذه الحالة وعلى الرغم من أنهم لن يقتلوك ولا يترتب عليك أو ضدك حق القصاص أو الانتقام لأنه لا تقصير منك فيما حصل لكنك رغم ذلك سوف تشعر بالخجل الدائم والشعور (بالذنب) أبداً ما بقيت على قيد الحياة أمام أهل ذلك الطفل وأقاربه .

التضحية في سبيل المحبوب قليلة بنظر المحب مهما بلغت

أو كأن يصل المُحب في علاقته مع المحبوب إلى درجة أنه لو ضحّى بالوجود كله في سبيل المحبوب يظل خجلاً منه .

فإنك ترى مثلاً عاشق الحسين (عليه السلام) يبذل الغالي والنفيس وكل ما لديه من المال في سبيل زيارة الحسين (عليه السلام) وإقامة مجالس العزاء ، لكنه يبقى رغم ذلك خجلاً من نفسه لأنه لم يتمكن بنظره من أداء حق الحسين (عليه السلام) ، ولذلك فإنه يشعر باقترافه (للذنب) في هذا المجال .

محمد وآل محمد يخجلون حتى من المباحات

ولذلك فإن محمداً (صلى الله عليه وآله) وآل محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام يشعرون بالخجل أمام الله وهم يقومون بالمباح من الأعمال كالأكل والشرب والنوم والحديث والمواقعة ، وغير ذلك من الاشتغالات اليومية المتعلقة بالبشر العاديين .

وإذا ما عرفنا ذلك فإنه يمكننا القول إنه أصبح واضحاً إلى حدٍّ ما المقصود من تعبير (الذنب) الذي يستخدمهُ الإمام السجّاد (عليه السلام) مثلاً في دعائه المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي حيث يقول : « أدعوك يا ربّ بلسان قد أخرسه ذنبه ، ربّ أناجيك بقلب قد أوبقه جرمه . . . . » فإنه يقصد بلسان نطق بغير ذكرك وبقلب لم يكن متوجهاً إليك ، وليس بلسانٍ ـ أعوذ بالله ـ لهج بالغيبة وقول الكذب وقول الفحش أو ـ قلب ـ عُجِنَ ـ أعوذ بالله ـ بالشرك والرياء والغرور مثلاً .

(١٣)

بين المعجزة والسحر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾

(سورة الطور : الآية ١٥)

الله هو الذي يعلن عن المعصومين ويُعرِّفهم

بعدما اتضح بأنَّ حكم العقل يقضي بضرورة عصمة النبي والإمام ، نأتي الآن إلى علامات العصمة التي يجب توفرّها لدى المعصوم .

إن العصمة شأن باطني وخفي . ومن الجائز أن نرى أشخاصاً لا يُخطئون ولكن ذلك يكون ناتجاً عن تظاهرهم بعدم الخطأ ، وترك الخطأ بحد ذاته لا يُعطي معنى العصمة ، فنحن لا نعلم من قلوب الناس شيئاً ، ولسنا بقادرين على معرفة ممارساتهم حين انصرافهم لعزلتهم ، لذلك فإن الله وحده عالم السر والخفايا هو الذي ينبغي أن يعلن علينا عصمة المعصومين ويُعرِّفنا بهم . والله سبحانه وتعالى يوقع على عصمة المعصوم من خلال إظهار المعاجز على يديه وبذلك يُعرِّف المعصوم إلى الملأ العام .

المعجزة غير السحر والشعوذة

لا بدّ لي هنا من الإشارة إلى مسألة هامة وهي أنه قد يمكن لبعض الناس إظهار أعمال خارقة للعادة عن طريق التوّسل بالسحر والشعوذة ومهارة الحركة وقد تكون بمثابة شكل من أشكال العجائب والمعجزات لدى الناس العاديين وربما تؤدي بهم إلى الضلال . ولكن الله كفيل بفضح مثل هؤلاء الناس وتبيان أكاذيبهم .

ويروى في هذا المجال أنه قيل لمسيلمة الكذّاب الذي أدّعى النبوّة في اليمن أيام الدعوة النبوّية المحمدية بأن رسول الله قد جاء بمعجزة تدّل على نبوّته عندما بصق في بئر جافة فامتلأت ماءً كثيراً بفضل بركته ، فإن كنت نبيّاً حقاً فأتنا بمثل هذه المعجزة . فوافق مسيلمة وذهب إلى بئر فيها قليل من الماء فبصق في تلك البئر على أن يُبيِّن معجزته ولو بقليل من الماء ، وإذا بماء البئر القليل ذاك يجف نهائياً ولمَّا اعترضوا عليه قال : إن انقطاع المياه عن هذه البئر بحدّ ذاته معجزة وأني اتحدّاكم لو استطعتم أن تأتوا بمثلها ! وهكذا يفضح الله المُكذبين ويُبيِّن عجزهم .

الساحر سيء الطّويّة وهمه هو المال

إن السحر والشعوذة ـ وهي من الأعمال التي لا تزال موجودة بشكل أو بآخر في عصرنا الراهن ـ عبارة عن نوع من النشاط الخفي الذي يقوم به بعض الأفراد من خلال إستخدام بعض الطلاسم واستغلال تأثيراتها في خلق علاقة مودّة بين شخصين أو التفرقة بين شخصين .

والعقلاء من القوم يعرفون السحرة ويُميِّزونهم بصفتين أساسيتين الأولى صفة باطنية وهي تميزهم بسواد القلب وظلاميته ، والتي تشخصها العين الملكوتية . والثانية صفة ظاهرة وهي تعلقهم بالمال وحبهم الزائد له ،

فالساحر طويل اليد ولديه الاستعداد لارتكاب الجرائم من أجل الوصول إلى المال .

كشف المجهول عن طريق الاتصال بالجن

وهناك نوع آخر من الكهانة يمارسه البعض وهو ارتباطهم بالجن ، واكتشاف بعض الأمور الخفية أو جمع المعلومات عن حادث معين بواسطتهم وإراءة بعض العجائب الخاصة بعالم الجن ، والأمر واضح بالطبع ، لأنه لمّا كان الجن مخلوقاً لطيف التركيب والخلقة وغير مقيد بقيود البشر فإنه أقوى من البشر وأسرع وأمهر وقصة عرش بلقيس ونقله بلحظة واحدة من اليمن إلى مقر سليمان مشهورة ومعروفة للجميع[1] .

وتعتبر هذه الأعمال ممارسات عجيبة غريبة لمن لا يعرفون أسبابها ولكن إذا عرف السبب بطل العجب فالاستعانة بالجن غير المعجزات وأنباء الغيب الخاصّة بالأنبياء والأئمة (عليهم السلام) .

وهؤلاء الناس المرتبطون بالجن عادة ما يكونون أشخاصاً قذرين وتشمئز النفس من اللقاء بهم وهم يشتركون مع السحرة في صفة حبهم للمال وتعلقهم به .

السحر والكهانة بحاجة إلى الوسائل بينما المعجزة ليست كذلك

السحر والكهانة من الأعمال التي تحتاج إلى ممارسة بعض الرياضات

(١) ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ﴾ سورة النمل : الآية ٣٩ .

بينما تتمّ المعجزات دون الحاجة إلى ذلك وتحصل بمحضّ الإرادة .

السحر مهنة اكتسابية وتحتاج إلى ممارسة الساحر لبعض رياضات الباطل والتلوّث ببعض الأعمال الشيطانية القذرة ، والكهانة بدورها أيضاً بحاجة إلى طرد الروح والابتعاد عن المعنويات الإنسانية والالتصاق بالجن والشياطين ، وذلك بهدف كسب صداقة الجن والانسجام مع روحياتهم حتى تتوّفر إمكانية كسب المعلومات منهم .

ولهذا فإنه لا يمكن الخلط بين السحر والكهانة من جهة وبين المعجزات السماوية من جهة أخرى . فأي عاقل يستطيع كشف أباطيل السحرة لما فيهم من مميزات حب المال والنظرة المادية والانفصال التام عن عالم المعنويات .

الساحر المبطان

يروى أن أحد السحرة المشعوذين القاطنين في بغداد أيام الخليفة العباسي المهدي قد ادّعى النبوّة واستطاع بذلك أن يخدع بعض الناس ، فسمع به الخليفة المهدي فدعاه إليه وسأله : أحقاً أنك تدِّعي النبوّة ؟ فأجابه الساحر بكل وقاحةٍ : نعم . فقال له المهدي : وما هي معجزتك ؟ فردّ بوقاحة أكثر : أي شيء تشاء ، فقال له الخليفة العباسي أريد منك أن تأتيني ببطيخة صفراء (شمّام) فوراً . [وكان الفصل آنذاك شتاء] فردّ عليه الساحر : أعطني مهلة ثلاثة أيام وسآتيك بها ، فقال له الخليفة العباسي إذا كنت نبيّاً حقاً فعليك أن تأتيني بها في الحال . فقال الساحر : إنك لو طلبت من الله أن يحضر لك بطيخةً لوعدك بها بعد ستة شهور [فيصل البطيخ] فكيف بي أنا العبد المسكين من عباد الله ، وأنا أطلب منك مهلة ثلاثة أيام وتستكثرها علي ! وتريدها مني فوراً وفي الحال . وهنا فهم الخليفة العباسي أنه واحد من

المشعوذين الماهرين فأمر فوراً بأخذه إلى أحد بيوت الضيافة والاهتمام بإطعامه جيداً . وبعد مرور بضعة أيام أمر بإحضاره مجدداً وسأله هذه المرة عن حاله فرد الساحر النبي الكذّاب : حالي جيد جداً وأفضل من ذي قبل إذ كان جبرائيل من قبل ينزل عليَّ مرة واحدة في اليوم بينما صار الآن ينزل عليَّ عدة مرات في اليوم .

فسأله الخليفة وماذا كان يقول لك ؟ قال : يقول لي ابق هنا ولا تتحرك من مكانك .

نعم ، لقد اتّضح الأمر تماماً فعندما تمتلىء البطن وتشبع تنتفي الحاجة إلى ادّعاء النبوّة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾[1] و ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيّب** ﴾[2] و ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه** ﴾[3] .

المعجزة بيان للقدرة الإلهية

وأمّا المعجزة فإنها عبارة عن ظاهرة تبيان القدرة الإلهية بدون الحاجة إلى الوسائل وبصرف الإرادة المترافقة مع النورانية والمعنوية الخالصة وإبراز آيات الله . بإشارة واحدة منه (صلى الله عليه وآله) يشقّ القمر نصفين .

عدّة آلاف من العساكر والجند العطاشى جاؤوا إلى رسول الله (صلى

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٨ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٣٧ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ١٨

الله عليه وآله) يسألونه الماء ؟ فقال لهم : هاتوا كل ما عندكم من الآنية . ثم وضع يده المباركة في الإناء فخرجت أربعة عيون من المياه الجارية فشرب الجميع ورُفع العطش في لحظات . فأين هذه الأعمال وأين السحر ؟ إنها المعجزة الرّبانية بعينها .

معجزة عصا موسى (ع) وسحرة فرعون

إن السحرة قبل غيرهم وأسرع من كافة الناس قد عرفوا أن عصا موسى ليست سحراً وإنما هي ظاهرة مضادة للسحر ومبطلة له . إنها المعجزة التي نزلت من عند الله لتكشف زيفهم وتدحض أباطيلهم .

والمعروف أن هؤلاء السحرة أنفسهم عندما دعاهم فرعون لمواجهة موسى ، خرج اثنان منهم وقالا : نذهب أولاً . وقبل شروع المواجهة لنسرق العصا من موسى حتى نختبره ، فإن سارت الأمور على ما يرام عندها نطمئن للمواجهة لأنه سيتأكد لنا بأنه واحد مثلنا .

وفي المساء ، وبينما كان موسى غارقاً في نومه توسلوا بكل الطرق للوصول إليه فلمّا وصلوا إليه وأرادوا سرقة عصاه تحوّلت فجأةً إلى ثعبان يسعى ، وعندها تأكّد لهم أن موسى نائم ، ولكن صاحب موسى صاح وقادر فلو كان الأمر مجرد سحر لكانت العصا لا تعمل إلاّ بإشارة من موسى وحده وهو النائم ، فكيف صارت حيةً تسعى .

ولذلك فإنه عندما جمع فرعون فيما بعد كل سحرته والكهنة والمشعوذين من كل أطراف الصحراء وألقوا بسحرهم من كل نوع فإذا بعصا موسى تتحوّل إلى حيةٍ تسعى فتبلع كل ثعابين السحرة . فوقعوا كلهم ساجدين وأعلنوا إيمانهمْ بالله ، لأنهم عرفوا أنه الإعجاز الرّباني وليس السحر ، وكلما حاول فرعون أن يصدّهم عن إيمانهم لم يستطع ولم يتراجعوا عن إيمانهم الجديد .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لأقطِّعن أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأصلّبنكم أجمعين * قالوا إنّا إلى ربّنا لمنقلبون ﴾[1] .

المعجزة شهادة صدق على عصمة النبي والإمام

من خلال ما تقدم يمكننا القول بأن ظاهرة الإعجاز عبارة عن فرع من فروع القدرة الرّبانية التي تظهر على يد مأمور إلهي هو النبي أو الإمام ، دون حاجة إلى التعليم أو التعلم ، ولا تأتي عن طريق الاكتساب ، وهذه الظاهرة في الواقع عبارة عن شهادة صدق تعرِّفه بالعصمة ومن دونها تبقى درجة عصمته مجهولة ولا يعود بمقدور الناس أن يكتشفوا صحة ادّعائه أو عدمها .

لا بدّ أن يُعرِّف الله نبيّه حتى يَعرفه الناس ويُصدِّقوه . وفي كل عصر من العصور يكون التعريف بوسيلة معجزة تناسب ذلك العصر كما كانت معجزة موسى (عليه السلام) هي (العصا السحرية) التي إنما اختيرت لانتشار ظاهرة السحر آنذاك والتفاف الكهنة والمشعوذين حول فرعون إضافة إلى الآيات التسع المعروفة بهذا الخصوص[2] .

إحياء الموتى وشفاء الأعمى والأبرص

كان العلم قد وصل وتخطى مراتب عُليا في زمن السيد المسيح (عليه السلام) حيث كانت الأمراض المستعصية يتم معالجتها بسهولة ولذلك نرى أن معجزة المسيح (عليه السلام) جاءت أيضاً في هذا السياق .

فمعجزاته كانت تتركز حول قضايا الطبّ التي عجز عنها الأطباء رغم

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) راجع تفسير سورة القمر للشهيد دستغيب والتي تمت طباعتها في كُتيب له تحت عنوان (حقائق من القرآن) وفيها شرح الآيات التسع المذكورة .

التقدم العلمي الذي أشرنا إليه فكان (عليه السلام) يُحيي الموتى ويشفي الأعمى بالولادة والأبرص[1] . ولذلك فإن أطباء عصره كانوا يتحولون إلى جادة الإيمان بعد أن يروا تلك المعاجز الطبية ، ويلحق بهم أعداد أخرى من الناس باستمرار ولا يبقى غير المعاندين ، ومن هنا نرى أن الله سبحانه يقول : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات ﴾[2] حتى تكون مثل هذه البيّنات (المعجزات) شهادة صدق على ادّعائهم بالنبوّة وشهادة ربّانية على عصمتهم وصلاحيتهم لتبوّىء مقام النبوّة وليعترف بهم عامة الناس .

الله يعرِّف محمداً (ص)

نعم فالله سبحانه وتعالى هو المعرِّف ونِعمَ المُعرِّف ، وكلكم قد قرأتم سيرة حياة خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله) إنه ذلك الطفل اليتيم الذي مات أبوه قبل أن يولد وترى عيناه نور الحياة ومن ثم ماتت أمه وهو طفل صغير وهكذا أصبح محروماً من رعاية الأبوين فرعاه الله برعايته[3]، وربّاه بتربيته الربّانيّة الخاصّة في وسط محيط قبائلي وبدوي لم يكن يعرف لوناً للنظام ولا شكلاً من أشكال الحياة المدنية أو التقدّم ، وبين قوم يئدون النفس الإنسانية ويتناحرون بوحشية تامة ، ولا سابقة لهم بالعلوم والفكر العلمي فيأتي ذلك الأمي ليبعث الله بواسطته ذلك النور المبين ولينطق نبيّه الأمين برسالته الربّانية قرآناً عربياً فصيحاً حاوياً لكل أنواع العلوم .

ذلك القرآن العظيم الذي كتب حوله المفسِّرون ما يقارب مائتي تفسير حتى الآن دون أن يتمكن أحد من سبر كافة أعماقه ، لأنه بحر بل محيط لا

---

(١) ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٣) ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ سورة الضحى : الآية ٦ .

حدود له يشمل كل أنـواع المعجزات ابتـداءً بمعجزة ذلـك العصر الـذي ظهر فيـه ، حيث الشعر والفصـاحة والبـلاغة وشيـوعها عنـد العرب آنـذاك وانتهـاءً بمعجزة دوامه وخلوده وبقـائه محفـوظاً دون تحـريف لأنه سنـد وشهادة أخـرى على خلود دينه ، الإسلام العظيم .

آيات القرآن تهزّ « عتبة »

يروى أن قريشاً اجتمعت في الأيام الأولى لظهور الدعوة لمواجهة الـدين الجديد واختارت عتبة ذلك الرجل الذي كان مشهوراً في فن الشعر والفصاحـة والبلاغة والنموذج الأمثل عندهم ليكون المنافس للنبي (صلى الله عليه وآلـه) والرجل القادر على قول ما يشبه القرآن !

ولمّا جاء عتبـة إلى رسول ا (صلى الله عليـه وآله) قـال له : يـا محمد اقـرأ لي من أشعارك . فقـال رسول الله : لا تقـل شعراً فهـو كلام الله . فقـال عتبة اقرأ ، فقرأ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) الآيات الأولى من سورة (حم فُصِّلت) ومعلوم ما هي النتيجة المتوقعة ، فالمقروء هو القرآن والقـارىء خاتم الأنبياء محمـد (صلى الله عليه وآلـه) . أقول فقـرأ عليه آيـات منه حتى وصل إلى قوله تعالى : **﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة هـود وثمود ﴾**[1] وإذا بحالة عتبة تنقلب تمـاماً ويفقـد قدرتـه على متابعـة الاستماع وفزع وصار يـرتجف ويرتعـد ، واقترب من رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه) ووضع يده قريباً من فم النبي المبارك وقال لـه : بحق الرحم كفى ، فلم أعُـد بقـادر على متابعـة الاستماع . وعـاد على الفـور من حيث أتى مصفـرّ الـوجه مرتعداً والفشل بـادٍ عليه . فـالتقفه كـل من أبي سفيان وأبي جهـل وهو بهـذا المنـظر فقالا لـه : ما الخبـر ، هل التحقت بمحمـد ؟ قال لا ، لـم أؤمن بعـد

(١) سورة حم فصلت : الآية ١٣ .

ولكنني عرفت بأنه ليس بكلام البشر . نعم ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ** ﴾[1] .

نعم ، فلو كان بمقدورهم أن يأتوا بسورة واحدةٍ من مثله كما تحدّاهم القرآن المجيد لكانوا قد طبّلوا وزمّروا على طول الزمان ، ولرأيت كيف كانوا قد طبعوا منها ملايين النسخ لاسيّما بعد انتشار ظاهرة الطباعة وشيوع الاكتشافات العلمية الحديثة في حقل النشر والإعلام والدعاية والترويج . ولكن ، ومع كل أنواع الأعداء الذين تتابعوا على مرّ التاريخ ولا يزالون ، فإن القرآن المجيد يبقى ظاهرة إعجازية فريدة من نوعها ، وقد سبق أن أشرنا إلى العديد والعديد من مظاهر ذلك الإعجاز الربّاني في الفصول السابقة ، ولكننا نعود الآن مُجدداً ونذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر لتكون مسك الختام لهذا البحث .

الاستشفاء بالقرآن الكريم

إن القرآن الكريم يمكنه أن يكون سبباً لازدياد البصيرة والثقة بالنفس وقوة القلب من جهات مختلفة . وذلك لأن كلام الله هذا تترتب على ألفاظه العظيمة مجموعة من الخواص الظاهرية والمعنوية ، ومن جملة هذه الخواص الظاهرية مسألة الاستشفاء بالقرآن المجيد . إن القرآن دواء وشفاء للناس فهو شفاء ظاهري كما هو شفاء باطني ، إنه شفاء للأمراض البدنية كما هو شفاء للأمراض المعنوية من نظير الجهل[2] .

إن المرء ليستطيع العودة إلى القرآن والاستمساك به في كل شدّة أو مرض ، وعندها سيرى الآثار الإيجابية والعجيبة لذلك ، حتى في الصحراء ،

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٣ ، ٤ .

(٢) ﴿**وتنزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ سورة الإسراء : الآية ٨٢ .

وعندما تواجهنا الرياح الشديدة يمكننا الاستعانة بالقرآن وقراءة الآية الكريمة : ﴿ **وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم** ﴾[1] فهي مؤثرة جداً .

إن قراءة سورة الحمد لاسيّما إذا ما قرئت سبعين مرةً فإنها مُجرَّبةً لاستشفاء أي مرض كان ، فإمّا أن تُشفي المريض تماماً أو تُخفف من آلام ذلك المرض عليه كحد أدنى ، بل إنه يروى أنها إذا ما قرئت على ميّت وأحيته فلا عجب في ذلك ، ولكن الشرط في حصول مثل هذا التأثير هو في تعظيم القارىء لآيات القرآن المجيد وإخلاصه واعتقاده بأن مثل هذا التأثير إنما هو من عند الله ، وأن القرآن ما هو إلاّ كلام الله ، إذ أن مثل هذا الاعتقاد هو الأساس في حصول الفائدة ، فقارىء القرآن محترم وحامله كذلك ، ويروى أنه غداً يوم القيامة يُقال لقارىء القرآن : إقرأ وارقأ ، أي ترفَّع درجة بمقدار ما تقرأ .

القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد المتبقّي

نعم ، فالقرآن المجيد هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يمكننا الادّعاء بأن ألفاظه عين ما جاء به الوحي ، بينما التوراة والإنجيل والصحف والزبور ليست كذلك .

صحيح أن التوراة والإنجيل الأصيلين كانا كتابين ناطقين بالوحي الإلهي إلاّ أنهما لم يكونا مظهراً من مظاهر الإعجاز ، بل كانا يهدفان إلى تبيان أحكام الديانتين اليهودية والنصرانية ، وسرد القصص التاريخية الماضية أو المستقبلية .

وأما التوراة والإنجيل الفعليين والمعروفين باسم العهد العتيق والعهد الجديد فإنه لم يحصل أن ادّعى أحد يوماً أنهما عين ألفاظ الوحي ، بل إنهما

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .

عبارة عن عبارات منقولة عن أفراد مختلفين يتغيرون في كل مرة ، وخير دليل على ذلك هو وجود أربعة أناجيل مشهورة بين أيدي الناس ، يختلف كل واحد منها عن الآخر ، وذلك حسب الشخص الذي نُقل على لسانه .

وعليه فإن القرآن المجيد هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تعتبر ألفاظه عين الوحي وهو الكتاب الوحيد الذي أنزل بمنزلة الإعجاز أي أنه تعبير أعجازي متكامل ، وإعجازه متعدد الأبعاد ، وقد أشرنا إليها مراراً حتى الآن .

معانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة وبأسلوب فريد

سبق وأن أشرنا إلى أن المرحوم فخر الإسلام قد أشار في كتابه (أنيس الأعلام) إلى أربعة عشر باباً أو بعداً من أبعاد الإعجاز في القرآن ، وأما ما جاء في كتاب بيان الحق فيبدو أنه ذكر عشرين بُعداً من أبعاد ذلك الإعجاز الربّاني نذكر لكم واحداً منها وهو : القدرة على ذكر عدة قضايا أساسية ومتنوعة في قالب ألفاظ معدودة من دون الإخلال بالمعنى أو الأسلوب اللفظي .

وبتعبير آخر إمكانية قول القليل من الكلام في شرح معانٍ كثيرة مع رعاية تامة للقواعد الأدبية ، وبأكمل أوجه الفصاحة والبلاغة بشكل يعجز عنه البشر .

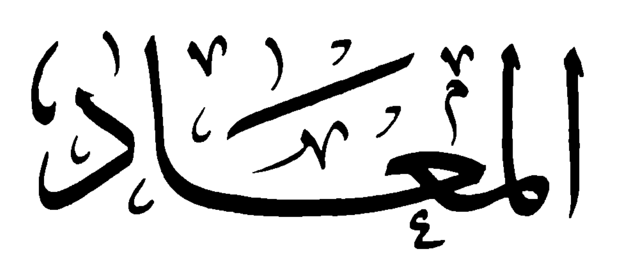
ومن باب المثال يمكن الإشارة إلى الآية السابعة من سورة القصص وهي الآية التي يقول فيها تعالى : بسم الله الرحمين الرحيم ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ حيث نرى كيف تم في هذه الآية الجمع بين خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين وذلك كله ببيان سهلٍ ومبدعٍ ليس بخافٍ على أهل الفن .

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

سلسلة أصول الدين

٤



المعاد

شهيد المحراب

آية الله عبد الحسين دستغيب

ترجمة وتحقيق

الأستاذ نادر التقي

الدار الإسلامية

مقدمة المعرّب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً ، ولا مبدّل لكلماته ﴾

المعاد في دائرة العقل

المعاد هو الحلقة الأخيرة من سلسلة هذا الوجود ، وهو الخطوة الأخيرة في مسيرة الإنسان الطويلة نحو الكمال المطلق ، في مسيرته إلى الله .

وعملية الخلق والإنشاء هي الحلقة الأولى في السلسلة ، فهي تقوم لتتوالى بعدها الحلقات واحدة إثر أخرى ، بتسلسل منتظم ، وتوازن دقيق ، ووحدة متكاملة .

ويطوي الإنسان ـ من خلال هذا التوازن والوحدة ـ مراحله التي قدّرت له . فيحيا ويموت ، ثم يبعث من جديد ، ليستكمل مسيرته ، ويحطّ عصا ترحاله في تلك الدار الآخرة ، دار الخلود الأبدي ، حيث تصل دورة الكون والوجود إلى كمالها ، إلى المنتهى .

ونحن لو دقّقنا النظر في هذا الكون المترامي إلى الحدّ الذي ليس له حدّ نعرفه ، وأعملنا الفكر مليّاً في هذا الوجود

الممتـد ؛ وبلونا الغـرض الكامن وراء إيجـاده ، لاستوقفتنـا فيـه سمات جليّة واضحة :

منها ، سمة التوازن :

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ .

فكـل ما في هـذا الـوجـود متـوازن ، بمعنى : أن كـل شيء وضـع في مكـان خـاص بـه لا يـزايله ، وبقـدر خـاص بـه لا يتجاوزه ، وفي مسار خاص به لا يعدوه .

﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

يؤدي دوره المرسوم ، بتناسق وتناغم ـ مع غيره من الأشيـاء ـ عجيب ، لتنبثق عن هذا التوازن بين الأشياء طاقة معينة ، أو أثـر محدّد ، يجسّد الغرض الذي وجدت من أجله .

ويتجلى التـوازن في الكون في مـظاهر عـديـدة : نـراهـا في الأفلاك وانتظامها ، وفي الحرارة والبرودة ، وفي الزوجين الـذكر والأنثى ، إلى آخر ما هنالك من مظاهر .

ومنها ، سمة الثبات :

والثبات شرط لتحقق الأغراض ، وبلوغ الأهداف والغايات ، وهو واضح جلي في ظواهر الكون وسننه .

﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ ﴿ ولا مبدّل لكلماته ﴾ .

ومنها ، سمة الترابط والوحدة :

فكل جزء من أجزاء هذا الـوجود يـربطه بـالجزء الآخـر رباط وظيفيّ محـدد ، لتشكل الأجـزاء مـع بعضهـا ظـاهـرة التكـامـل المـطلق ، والوحـدة تجمع الـوجود كله في مجمـوعة متمـاسكـة متـرابطة منسجمـة ؛ فالـواحد الـذي خلق هـذا الكـون ، منحـه ـ بحكمته ـ وحدته .

﴿ وإلهكم إلـه واحد ﴾ ﴿ مـا خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾ .

ومنها أخيراً ، سمة العدالة :

فالعدالة سمة تنتظم هذا الوجود ، وتطبعه بـطابعها ، فتضفي عليه صفة الجدوى والحق ، وتشكل الأسـاس الذي لا يقـوم إلا بـه وعليه . وهي تعـطي للوجود ـ في مـراحله الدنيـا والقصوى ـ أسمى معانيه ، ففيها تبيان غرضه وغايته . وفيها الحكم على كل خطوة في مسيرته ، ولولاها لضاع الغرض والتبست الغاية .

﴿ وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً ﴾ .

والعـدالة تستـدعي حكماً مسـألتي الثـواب والعقـاب ، فتنفي ـ إذ ذاك ـ العبثيّة عن هذا الوجود .

وهنا نتساءل :

هذا الوجـود في اتساعه وامتداده ، وفي توازنه ووحدته ، وفي ثبات ظواهره مهما طال بها المدى ؛ وهذا الإنسان . . سيّد هذه الدنيا ، وخليفة الله على الأرض ؛ الذي سخّر له ـ سبحانه ـ كلّ ما في الكون ؛ وهذا الكدّ والسعي الحثيث ، والعمل المتواصل منه ، وهذا الشقاء والألم ، كل هذا وغيره ، إلى أين ؟ ومـا هي نهاية المطاف ؟ .

أإلى الموت والاندثار ؟! .
أم إلى التحلّل والفناء ؟! .

لئن كان ذلك كذلك ، فما المعنى من هذا كلّه ؟ .

وهل خلق الإنسان ليحيا، فيأكـل ويشرب ، ويسعـد ويشقى ،

ثم ينتهي الأمر به إلى الفناء ؟! .

هل الأمر لا يعدو مجرد سحابة تتلاعب بها أرياح العبث .. ؟ !

لا .. فالجواب جليّ وواضح :

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ؟ وأنّكم إلينا لا ترجعون ؟! ﴾ .

أجل ، فالأمر بعيد كل البعد عن العبث ، والحياة في مسيرتها لا بد أن تنتهي إلى الكمال المطلق ، والإنسان لا بد بالغ غاية الطريق .. حيث نتائج عمله وسعيه في انتظاره ، حيث الحصاد : إن خيراً فخير ؛ وإن شراً فشرّ .

العقل بهذا يحكم ، والعقل يقول : إنّ مسألة المعاد أمر بديهيّ مسلّم به . بهذا نطق القرآن المجيد ، وبهذا توافد الرسل وبهذا تقول الفطرة السليمة ، وبهذا يقول العقل السليم :

لا بدّ أن نعود من مسيرتنا بحصيلة ، ولا بدّ للزرع من جنىً ؛ لا بد أن نعود ونبعث ، لنقدّم الحساب ، إلى ربّ الحساب في يوم الحساب .

والأمر كما قال سيد العقلاء والمتقين عليه السلام : « اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

فالبدار البدار .. لنتّخذ لهذا اليوم أهبته ، ولنسعَ له سعيه ، فإنه قريب قريب .. إنه **﴿ يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾**

نادر التقي

المقدمة[1]

قبل البحث في النظريات الفلسفية عن مفهوم (المعاد) لدى الفلاسفة الإلهيين والمادّيّين على السواء ، فإن (لا شعورنا) يطرح سؤالاً ، وهو :

من أين أتينا . . وإلى أين نحن ذاهبون ؟! .

ويبدو أن طرح هذا السؤال مبعثه أن البشر يقطعون طريقاً في هذه الحياة تبدأ بالولادة ، وتنتهي ـ كما يرون ـ بالموت . فهل هذا هو كل شيء ؟ وهل الحياة تنتهي بمجرد الموت ؟ وهل الموت هو نهاية الطريق ؟ إن صحّ هذا أفليس هو العبث بعينه ؟! وهل خلق الإنسان ليكافح ويجاهد في هذه الحياة ، فيذوق حلاوتها ويبلو مرارتها ، ويحرص على أن يخلّف وراءه ذكرى عطرة ، ويتشبث بفكرة البقاء والشهرة بصورة أثر صالح يتركه وراءه ، أو خلف صالح يحفظ به استمراره ، هل خلق لينتهي معه كل هذا بالموت ؟ لماذا يكرّم الإنسان الشهيد والشهادة ؟ وإذا كان الكفاح لحفظ البقاء ، فما فائدة كفاح ينتهي بالموت ، وينتهي معه كل شيء ؟ ألا ينبئنا إحساسنا أن هذا غير صحيح وغير منطقي ؟ .

---

(١) هذه المقدمة للسيد علي أصغر دستغيب (بتصرّف) .

أسئلة كثيرة ، ومئات غيرها تبين أن الإنسان يعتقد في أعماقه بأن الحياة لن تنتهي هنا ، وأن البقاء بعد الموت ـ بشكل من الأشكال ـ لا بدّ سيستمر ، إن كان لخلق الإنسان ووجوده من هدف . كما أنه ليس من المنطق أن يكون الصالح والطالح في النهاية سواء .

وهذه صفحات التاريخ تطفح بأخبار الأمم السالفة وكلها ـ دون استثناء ـ عانت هذا الشعور والإحساس باستمرار البقاء بعد الموت ، وإن اختلفت في الصور التي جسدت فيها خيالاتها أشكال هذا البقاء . وهي أشكال تتفاوت تبعاً لمستوى ودرجة الرشد التي بلغها كل من هذه الأمم . فمنهم من كان يعتقد بحلول عصر ذهبي يعقب عصر الظلام ، ويمتلىء بنور العدالة . ومنهم من كان ـ ولا يزال ـ يعتقد أن الإنسان يبعث بعد الموت على الحال التي غادر فيها الدنيا ، فهم يدفنون مع موتاهم ما يتخيلون أنهم سيكونون بحاجة إليه بعد بعثهم . كالمال والذهب والأدوات وغيرها .

يقول العالم الفيلسوف (كاميل فلاماريون) في كتابه : (المشاهدات العلمية) :

« من عادات أهل جزيرة (فيجي) أنهم يوارون آباءهم وأمهاتهم الثرى ، فيدفنونهم وهم أحياء في سنّ الأربعين ، ويختارون هذه المرحلة من العمر لأنها المعدّل الوسطي للعمر ، وهي أكمل مراحله ، ولظنهم أن موتاهم يبعثون وهم على تلك الحال من القوّة والكمال » .

من هنا تتضح لنا أهمية بعث الأنبياء والرسل إلى البشر ، لتقويم أفكارهم وتهذيب ما اعوجّ منها ، وتنمية الأحاسيس الفطرية لديهم ، بما يكفل لها السلامة والاستقامة ، ويبعد بها عن مواطن الزيغ والزلل . وقد اتفقت كافة الأديان السماوية ـ التي أتى بها الرسل ـ على توجهات واحدة بالنسبة لمسألة المعاد . وأوحت بحقائق هامة على هذا الصعيد .

منها أن الاعتقاد بالمعاد ويوم الحساب هو وحده الضامن لسعادة وأمن المجتمع البشري . فحين يعتقد البشر بأن حصيلة أعمالهم ستعرض أمام محكمة العدل الإلهية ، يحسّون بالمسؤولية والخشية ، كما يحسّون بالأمل ، بأن جهودهم لم تكن مجرد عبث لا نتيجة له . ويكون هذا الإحساس ـ على وجهيه ـ رادعاً عن المفاسد والانحراف ، وحافزاً للجهد في سبيل الخير ، وموجباً لتسكين الخواطر واستقرارها ، وداعياً للاطمئنان النفسي ، فتنتفي عند ذاك كل المشاكل والعقد ، وتنتهي القلاقل والنزاعات ، التي لم تستطع كل مظاهر التقدم ـ وخاصة في عصرنا ، عصر الفضاء ـ أن تضع لها حدّاً . فالجرائم استشرت والمفاسد عم بلاؤها ، وفشلت كل المنظمات التربوية ـ على كثرتها ـ في كبح جماحها ، حتى بتنا نعرف من يدعون بـ « الوحوش البشرية » .

يقول (لويس سنايدر) أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك :

« لقد تعلّم البشر الإمساك بعنان كل الأشياء ، إلا الإمساك بعنان المتوحشين من الطينة البشرية » .

إذاً ، فليس هناك سوى سبيل واحدة ، هي الإمساك بعنان «المتوحشين» بواسطة تقوية الإيمان والاعتقاد بالمعاد والحساب .

ومن الحقائق الهامة أيضاً ، أن الاعتقاد الحق بالبعث والمعاد هو من أهم العوامل الدافعة في طريق الرقي والرفعة والتقدم . وشاهدنا على ذلك مقارنة بسيطة نجريها بين العصر الذهبيّ للإسلام وبين حالة المسلمين في العصر الحاضر .

لقد تمتع المسلمون الأولون بحالة من اليقين استلهموها من الرسول الكريم والقادة العظام كانت خير دافع وحافز لهم على التطّلع بشوق نحو الحياة الخالدة ، وكانت الشهادة بالنسبة لهم نقطة العبور إلى ذلك الخلود ،

فمارسوها بشوق لا يدانيه شوق ، وكانوا يطلبـون الموت فـوهبت لهم الحياة ، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتخبط في ظلامات عصورهـا الوسـطى كان المسلمـون الأوائل يخـطّون عصور النـور وينشرون العـدالة على ربـوع نصف الدنيا ـ حينذاك ـ .

أما مسلمو هذا العصر . فالإسلام وآفاقه الرحبة وتعاليمه السمحـة غدت حروفاً تنطق بها أفـواههم ولا تحس بها قلوبهم ، لقـد جانبـوا فطرتهم وأحبـوا الحياة فجبنوا ، فوهب لهم الموت والتخلف والذل والصَّغار .

فالإيمان الحق ، والاعتقاد بساعـة الحساب همـا خير حـافز للسمـو في طريق التقدّم الصاعدة أبداً .

وهـذا الكتـاب الـذي بين أيـديكم ، أثـرٌ قيّم . يعنى بجـانب هـام من جوانب هذا الإيمان ، بأسلوب علمي تحقيقي ، فهو يبحث في مسألـة المعاد ، ويجيب على ما يرد من شبهات حولها ببيان بليغ وحجج بيّنة .

وقـد أضاف المصنف الشهيـد ـ عليه رحمـة الله ورضـوانـه ـ إلى طبعتـه الأولى بعد نفادها إضافات جديرة بالاهتمام وهذه هي الطبعة الثالثة ، نرجو أن تكون حافز خير وإلهام يقين . والله من وراء القصد .

الفصل الأول

المـــوت

الموت والمعاد

المعاد من مادة العود ، بمعنى العودة ، ذلك أن الروح تعود ثانية إلى الجسد .

والمعاد أصل من أصول الدين الإسلامي الحنيف ، والاعتقاد به واجب . أي الاعتقاد بأن كل إنسان سيبعث ثانية بعد الموت ، وينال جزاء اعتقاده وعمله .

ومسألة المعاد ـ التي تبدأ بالموت فالقبر فالبرزخ فالقيامة الكبرى ، وتنتهي بالنعيم أو الجحيم ـ لا تدرك بالحواسّ الظاهرية للإنسان ، بالرغم من ثبوتها بالدليل العقلي كما سيذكر بالتفصيل لاحقاً . وبما أن من المحال أن يقوم إنسان بعد موته لينبئنا بما جرى معه ، فلا سبيل لنا هنا غير ما نزل به الوحي على الرسول الكريم (ص) ؛كما أن أي إنسان مهما بلغ فلن يتجاوز إدراكه حدود هذا العالم ، إذ كيف للجنين وهو في عالم الرحم أن يدرك العالم خارجه ؟ وكيف لمن هو في عالم الملك أسير المادة والطبيعة أن يدرك عالم الملكوت ؟ .

والخلاصة فإن عوالم ما بعد الموت هي غيب بالنسبة لمن هو في عـالم الدنيا ، ولا سبيل لديه لمعرفة شيء عن هذه العوالم إلاّ بالتصـديق بما أخبـرنا به الخالق عزّ وجل .

إذاً ، لـو قال قـائل مثـلاً : أنا أستبعـد عقلاً أن يجـري مـا يجـري بعـد الموت ؛ لأجبناه : إن هذا الأمر لا يرتبط بعقلي وعقلك وعقول الآخرين . ولو كان بعضنا لبعض ظهيراً ، لأن عقولنـا مرتبـطة بهذا العـالم ، ولا يمكن لها أن تقيس عليه غيره من العوالم ، ولا يتبقى صحيحاً ومؤكداً في هذا الصـدد سوى ما أتى به الرسول الكريم وما أخبر به الأئمة أهل العصمـة ، فهم مهبط الوحي والتنزيل من لدن رب العالمين .

الموتى . . هل يتكلمون ؟

يطلق بعض الجهلة شبهات حول هذا الموضوع : كأن يقولـوا مثلاً : إن جسم الميت يغدو بعد الموت بحكم الجماد كالخشب اليابس ، ولو حشونا فم الميت بشيء يمنعه من الحركة ، وعدنـا إليه بعـد أيام لـوجدنـاه على حالـه ، وفمه كذلك ، فأين السؤال والجواب في القبر ؟ .

هذه الشبهة وأمثالها تنطلق من عدم الإيمان بالغيب . ومطلقوها يخالـون أن النطق محصور باللسان فقط ، لأن النـطق من عمل الجـوارح ، أما الأرواح فـلا تنطق ولا تتحرك ؛ فما بالهم إذاً خلال نومهم ينطقون بلا صوت ويتنقلون بلا حركة ، ويكررون كل مشاهد اليقظة دون أن تتحرك منهم جارحة ؟ .

حكمة الرؤيـا

يروى عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) أن الإنسـان في بداية

خلقه لم يكن يرى ما يراه النائم ، ثم منحه الله تعالى الرؤيا فيما بعد .

وسبب ذلك أن أحد الأنبياء الأوائل كان يدعو قومه لعبادة الله وطاعته ، فقالوا له : لو عبدنا الله الذي تدعونا إليه فماذا سينالنا بالمقابل ؟ وها أنتذا تعبده دون أن يكون ما لديك أكثر مما لدينا ! فأجابهم :

ـ إن عبدتم الله فسيجزيكم الجنة ، وإن عصيتم ولم تسمعوا قولي فجزاؤكم جهنم .

قالوا : وما الجنة وما جهنم ؟! .

فوصفهما لهم فسألوا : ومتى ندركهما ؟ .

فأجاب : حين تموتون .

قالوا : ولكن موتانا يهترئون ويصيبهم العفن ، ثم يستحيلون تراباً ، دون أن يدركهم شيء مما تقول ؟!

وحين سخروا من قوله وكذّبوه جعل الله لهم الأحلام . فصاروا إذا ناموا يتراءى لهم أنهم يأكلون ويشربون ويتحدثون ويتحركون ، فإذا أفاقوا لم يروا أثراً لما جرى لهم . فشكوا أمرهم إلى النبي فأجابهم :

ـ إن الله أراد أن يُتم الحجة عليكم ، فأراكم أن أرواحكم تقوم بكل ما رأيتم حين نومكم . وكذلك الحال بعد الموت ، فالجسد يفنى ويستحيل تراباً ، لكن الروح تبقى حية . وهي إما أن تبقى في النعيم ، وإما أن تبقى في العذاب إلى يوم القيامة . وهو يوم الحساب الأكبر .

عدم التقبّل من عدم الاستيعاب

للعقل لازمة : هي كثرة الاحتمالات : « إنما يعرف عقل المرء بكثرة احتمالاته » .

يسمع المرء أخباراً كثيرة ، فإذا سمع خبرا غير محالٍ عقلاً يقـول : هذا الأمر محتمل الوقوع والصحة . وينتقل الفكر إلى ناقل الخبر . فإن كان الناقل صادقاً وموثوقاً ، أي معصوماً عن الكذب وغيره ، يغدو الخبر هنا صحيحـاً كل الصحة ، نظراً لمعصومية الناقل وصدقه .

فالعاقل يتقبل الأخبـار الصادرة عن المعصـومين ، والتي هي غير محـالة عقـلاً ، والمكابـرة في أمر كهـذا تعدّ جهـلاً . لأن السامـع يأبى أن يستـوعب حقيقتين :

أولاهما : احتمال الصحة وعدم الاستحالة العقلية .

وثانيتهما :معصومية الناقل وتنزهه عن الكذب .

أي أن السـامع في هـذه الحالـة يأبى أن يُعمـل فكره حتى يستـوعب ما يطرح أمامه ، الفكر الذي يمتاز به عن الحيوان . فالحيوان لا يـدرك سوى مـا تدعوه إليـه الحاجة والغريزة من أكل وشرب وسواهما ، فلا يمكنه أن يستوعب غيـرها من الأمور البسيطة ، ناهيك عن أمـور تستدعي الإدراك الـرفيع الـذي يتجاوز الجسم المادي حتى يستوعب الروح .

ومسـألة المعـاد هي كـذلـك ، تحتـاج إلى سعـة في الإدراك وسعـة في الاستيعاب ، يعقبهما الإيمان القوي الدي لا يتزعزع .

وسنـذكـر فيمـا يـأتي مـا ورد في أخبـار المعصـومين أهـل البيت (عليهم السلام) عن هذه المسألة ،من منزلتها الاولى حتى المنزلة الاخيرة

المنزلة الأولى : الموت

حقيقة الموت هي فصل الروح عن البدن ، وللعلاقة بين الروح والبـدن

تشبيهات عدة : منها أنها كعلاقة الربّان بالسفينة ، والموت يخرج السفينة عن سيطرة الربّان .

يقول الإنسان : عيني ، يدي ، رجلي . . الخ . . أما أنا فغير العين واليد والرجل .

فحين تقول : مشيت ، صحيح أنك مشيت ، لكنك مشيت برجلك ، ورأيت بعينك وسمعت بأذنك ، فالمرجع وحدة واحدة هي أنت ، وأنت هي الروح . فالروح هي التي ترى وتسمع ولكن من خلال العين والأذن ، فالرائي هو الروح والعين هي آلة الرؤية ، كذلك السامع هو الروح والأذن هي آلة السمع . فالروح كالمصباح ينير الجسم المظلم ، ويظهر نوره من خلال العين والأذن وسائر الحواس ، والموت يعني انفصال هذا المصباح . وأضرب لذلك مثلاً غرفة فيها فتحات في جدرانها ، وأضأنا في داخلها مصباحاً ، فنور المصباح ينبعث من خلال الفتحات ، فإذا أخرجنا المصباح من الحجرة عمّ الظلام ، وأظلمت كذلك الفتحات ، والموت هو كذلك : هو إخراج المصباح من البدن .

ويجدر بنا الالتفات إلى وجوب الاعتقاد بأن الموت يتم بإذن الله تعالى ، فالذي جعل للروح تلك العلاقة بالبدن ـ مذ كان الإنسان جنيناً حتى آخر يوم من حياته ـ هو الذي يقطع تلك العلاقة . فهو المحيي لصاحب الروح وهو المميت له كذلك . ورغم ما ورد في القرآن الكريم من أن الله هو الذي يحيي ويميت ، فإن البعض يتشاءمون من ذكر « عزرائيل » ويعتبرونه بمثابة عدو ، دون أن يدركوا بأنه لا يأتي بعمله من نفسه ، وإنما هو مأمور ، ينفذ ما يأمره به رب العالمين .

كيفية قبض الروح

يستفاد مما ورد من أحاديث المعراج عن كيفية قبض الأرواح أن هناك لوحاً يتضمن أسماء كل البشر ، فإذا أمّحى منه اسم أدركه الأجل قام « عزرائيل » بقبض روح صاحبه في الحال، وقد تمّحي آلاف الأسماء دفعة واحدة فيقبض « عزرائيل » أرواح أصحابها ، ولا عجب في هذا ، فهي كالمصابيح الكثيرة أطفأتها الريح دفعة واحدة . وتعود الأرواح إلى بارئها ، فالله سبحانه هو المميت ، وما « عزرائيل » إلا رسول من قبله عزّ وجلّ ، والملائكة كذلك . فقد نسب القرآن الكريم قبض الأرواح إلى الله تعالى تارة[1] ، كما نسبه إلى ملك الموت « عزرائيل » تارةً أخرى[2] ، وتارة ثالثة إلى الملائكة[3] ، الذين هم أعوانه . وكل ذلك صحيح ، لأن « عزرائيل » وأعوانه يقبضون الأرواح بأمر من الله تعالى . ومثلهم في ذلك ـ للتقريب إلى الذهن ـ كمثل سلطان فتح بلداً بواسطة جيشه : ضباطه وجنوده . فيصبح القول بأن الجيش الفلاني فتح البلد ، أو الضابط الفلاني كذلك . . وعلى العموم فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يقبض الروح حين الموت .

ويجدر الالتفات إلى أنه ـ عزّ وجلّ ـ قد جعل الدنيا دار الأسباب والعلل ، ومن خلال ذلك جعل للموت أسباباً معيّنة كذلك ، كالمرض أو القتل أو موت الفجأة أو غيرها؛ وهي رغم أنها أسباب للموت في ذاتها ، فلا يمنع ذلك من أن يصاب الكثيرون بأمراض تتفاوت شدّة ثم يشفون ، في حين يموت بها ـ أو بأقل منها ـ آخرون . والمدار في ذلك هو أن هذه الأسباب ليست الموجبة وحدها للموت إذا لم يواكبها انقضاء الأجل بأمر من الله ،

---

(١) ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها ﴾ سورة الزمر : الآية ٤٢ .

(٢) ﴿ قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ﴾ سورة السجدة : الآية ١١ .

(٣) ﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة ﴾ سورة محمد : الآية ٢٧ .

وصدور الأمر بقبض الروح ، وكم ـ على العكس من ذلك ـ من أناس كانوا أصحاء لا يشتكون علة فأدركهم الموت .

وهناك ناحية أخرى تتعلق بملك الموت ، وهي الشكل الذي يتخذه بالنسبة للمُحتضر ، ويروى كما في (بحار الأنوار) أن النبي إبراهيم (عليه السلام) طلب من « عزرائيل » أن يريه الهيئة التي يحضر بها لقبض روح الكافر ، فأجابه بأنه لن يطيق ذلك، قال : بلى . قال : فأعرض عني ، فأعرض عنه ؛ فأظهر« عزرائيل » نفسه بتلك الهيئة ، ورأى إبراهيم صورة رجل أسود البشرة أشعث الشعر ، نتن الرائحة ، يلبس ثياباً سوداً ، تخرج ألسنة اللهب والدخان من فمه ومنخريه فغشي على إبراهيم ، ولما أفاق من غشيته قال : لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه ،والأمر بالعكس حين يتعلق بالمؤمن[١] .

وكذلك تأتي الشياطين عن طرف المحتضر الأيسر لأجل إغوائه ، والملائكة تأتي عن يمينه[٢] .

وعمل الشياطين الخداع الدائم ، وخاصة عند الموت ، حتى لو كان المحتضر مؤمناً فالشياطين تحاول خداعه ، لأن خاتمة الأعمال هي ميزان السعادة والشقاء ؛ فكما يعيش المرء يموت ، وكما يموت فإنه يحيا من جديد[٣] ، وكلّ ما يتمنّاه عند الموت فإنه يموت عليه ، فلو تمنيت رؤية جَمال عليّ (عليه السلام) لكان جماله مؤنسك ، ولو كنت من أهل الهوى والهوس لكان في ذلك خاتمة أمرك ، لكن الله سبحانه وعد من كان من أهل الإيمان أن يحفظه فيمنع أيدي الشياطين من الوصول إليه[٤] .

(١ ، ٢) بحار الأنوار (المجلد الثالث ـ باب ملك الموت) .

(٣) « كما تعيشون تموتون ، وكما تموتون تبعثون » .

(٤) ﴿ يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ سورة إبراهيم : الآية ٢٧ .

قيل لأبي زكريا الرازي حين موته : قل : « لا إله إلاّ الله » فقال : لا أقول . وكانت حالة الغشية قد غلبت عليه وبعد أن عاد لوعيه قال : تراءى لي شخص يقول : إن أردت أن تصبح سعيداً محظوظاً فقل : إن عيسى ابن الله . فقلت : لا أقول . وبعد إلحاح شديد قال : قل لا إله إلا الله ، فأجبت : بما أنك أنت الذي تقولها ، فلن أقول . فبرزت ـ عندئذٍ ـ حربة وأزاحته . والآن أقول الكلمة الحقة . ثم نطق بالشهادتين ، وفارق الحياة .

وهكذا نرى أن من قضى عمره موحّداً صادقاً فلن يكون للشيطان إليه من سبيل ، أما من قضاه متّبعاً لخطوات الشيطان فلا بدّ أن يكون الشيطان أنيسه في تلك الساعة .

سهولة إسلام الروح وصعوبته

جاء في الروايات الكثير عن صعوبة فصل الروح عن البدن ، ففي بعضها تشبيه لتلك الصعوبة بسلخ الجلد عن الجسد ، ووصفها البعض الآخر بأنه لو وضعت حجارة الطاحون أو مسامير القلعة في عين المحتضر وحرّكت ، لكان ذلك أسهل عليه من سكرات الموت ، وشبهت روايات أخرى فصل الروح عن البدن بتقطيع الأوصال بالمقراض إرباً إرباً .

ولا شك أننا نشاهد آثار صعوبات الاحتضار لدى بعض المحتضرين ، غير أنه لا جدال في أن إسلام الروح لدى آخرين لا يتعدى جهد شم أفضل الورود[1] .

وروى بعضها أنه لا يعدو مَثَلَ إبدال اللباس النظيف بالوسخ ، أو حل

---

(١) ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ سورة النحل : الآية ٣٢ .

القيود والأغلال عن البدن ، أي أن الموت بمثابة إحراز الخلاص من سجن الطبيعة .

ويبدو أنه لا شمولية لأي من تينك الطريقتين في إسلام الروح ، فليس كل من كان من أهل الإيمان يسلم الروح بسهولة ، إذ إن كثيراً من المؤمنين يشملهم اللطف الإلهي فتكفّر عنهم ذنوبهم بصعوبة قبض أرواحهم ، مما يجعلهم يرحلون عن الدنيا طاهرين ، بينما يكون هذا بالنسبة إلى الكفار مدخلاً إلى النار ، ومقدّمة للعذاب الذي سيلقونه[1] .

وأحياناً يسلم الكفار والفسّاق أرواحهم بسهولة ، وهم من أهل العذاب ، إنما يكونون قد قدّموا عملاً صالحاً خلال حياتهم ، فيجزون عنه بسهولة قبض أرواحهم ، تسديداً وتصفية لذلك العمل الصالح ، كأن يكون أحدهم قد أعان فقيراً أو مظلوماً ، فيوفّى أجره عنه بهذه الطريقة ، فيما يكون قبض روح المؤمن صعباً ، تطهيراً له من ذنوبه. وعلى أي حال فإن إسلام الروح بالنسبة إلى الكافر هو بداية التعاسة ، سهلاً كان أم صعباً ، فيما هو للمؤمن بداية نعيم وسعادة .

وهكذا يتبين أن سهولة إسلام الروح أو صعوبته بالنسبة لكلا المؤمن والكافر لا شمولية له من ناحية العمل ، صالحاً كان العمل أم سيئاً .

ورد في المجلد الثالث من البحار حديث مفاده :

قدم رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعود ابن عمه علياً (عليه السلام) وكان يعاني من ألم شديد في عينه ، وكان ـ رغم أنه من الصابرين ـ يئن ويشكو . فنقل إليه الرسول (صلى الله عليه وآله) خبراً نسي من هوله ما كان يعاني . أخبره عن جبرائيل (عليه السلام) أنه إذا قبضت أرواح الكفار يحضر

---

(١) ﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾سورة محمد : الآية ٢٧ .

الملائكة لعذابهم ، فيتناولون أرواحهم بأسياخ وسياط من نار . فسأله أمير المؤمنين (عليه السلام) : أو هكذا تسلم أمتك أرواحها يا رسول الله ؟ قال نعم ، ثلاثة : حاكم الجور ، وآكل مال اليتيم ، والشاهد بغير الحق .

ومن الممكن ـ والعياذ بالله ـ أن يرحل المرء عن الدنيا كافراً دون إيمان بسبب سوء عمله[1] .

ورد في المذكرات التي تتضمن أخبار فضيل أياز ، التائب المشهور ، أن أكثر تلامذته علماً مَرِض مَرَض الموت، وعاده الكثيرون. وشرع فضيل مرة بقراءة سورة « يس » فما كان من تلميذه إلا أن ضرب يد أستاذه قائلاً : لا أريدك أن تقرأ القرآن ، مع أن هذا الشقي قضى عمره بالتردد إلى المسجد والمدرسة ومجالس العلم والعبادة ، وكان من أهل القرآن ، وها هو الآن يقول لأستاذه : لا أريدك أن تقرأ القرآن ، وقد مات في هذا المجلس دون أن ينطق بالشهادتين .

تألم فضيل كثيراً لهذه الحادثة ، فاعتزل في بيته ولم يغادره . حتى كان يوم رأى فيه روح تلميذه الخبيثة في المنام ، فسأله عن سبب عاقبة السوء التي انتهى إليها فقال : ثلاث خصال كنّ فيّ ، فرحلت عن الدنيا بدون إيمان :

أولاها : الحسد ، فلم أكن أطيق أن أرى من هو أرفع مني . أجل ، إنه الحسد يأكل الإيمان كالحطب تأكله النار[2] .

ثانيتها : النميمة ، فقد كنت نمّاماً أفرّق بين المرء وزوجه ، فإن سمعت

---

(١) ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوءى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ سورة الروم : الآية ١٠ .

(٢) « الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » أصول الكافي .

منَ أحـد قـولاً عن آخـر نقلتـه إليـه من فـوري قـائـلاً لــه : إن فـلانــاً رمـاك بالفاحشة[١] .

بينما يجب أن يكون تصرفه على العكس من ذلك ، فإن رأى جفـاء بين حبيبين عليـه أن يصلح بينهما ، فينقـل لأحدهمـا أن الآخر يـذكره بـالخيـر في غيابه ، ولا شيء يعيب الكذب هنا ، لأنـه في سبيل الإصـلاح ، على العكس من النميمـة ، فهي إضافـة إلى كونهـا من الكبائـر ، عيب كبير ، تنشـر الكدر والشقـاق ، وتـورث العـداوة والبغضـاء ، وتؤدي إلى الفتن التي هي أشـد من القتل[٢] .

ثالثها : أنني (أنه) كنت شارباً للخمر .

نعم ، هذه الكبائر الثلاث توجب للعالم والفاضل والمـدرس وغيرهم أن يرحلوا عن الدنيا بدون إيمان[٣] .

حبّ المـوت

هناك مطلب هـام يجب أن ينشده المؤمن وهـو حبّ لقاء الله . أي على المؤمن أن لا يتشاءم من الموت أو يستوحش ، وليس المعنى أن ينشد المـوت ويتمناه فينتحر للوصول إليه ـ والعياذ بالله ـ ذلك لأنه يستطيع في هذا العالم أن يتوب من ذنوبه ويطهـر نفسه ويـزيد في حسنـاته ، حتى إذا استـدعاه الله إليـه بالموت أدرك أن الموت في هذه الحـال نعمة ، لأنـه إن كان من أهـل الطاعـة فسيبلغ دار الثواب سريعاً، ويجني آثار أفعاله الحسنة ، وإن كان مذنبـاً فسيقطع الموت حبال ذنوبه فلا تستطيل ، ويقل استحقاقه للعقوبة بذلك .

---

(١) ﴿ **ويل لكلّ همزة لمزة** ﴾ سورة الهمزة : الآية ١ .

(٢) « والفتنة أكبر من القتل » .

(٣) هذه الكبائر شرحت مفصّلة مع آثارها في كتاب « الذنوب الكبيرة » للمصنف (ره) .

والخلاصة ، على المؤمن أن يحبّ الموت حين يريده الله له . كونه وسيلة لبلوغ تمام سعادته، أي الخلاص من دار الغرور وبلوغ دار السرور ، والورود على بساط الخالق جل وعلا ، ووصال الأحبة الحقيقيين ، النبي محمد وآله الأطهار (عليهم السلام) ، وسائر الأرواح الشريفة من الأخيار والأبرار .

كما على المؤمن من جانب آخر أن يحبّ طول العمر وتأخر الموت إلى أن يشاء الله ، ليستطيع زيادة أفعاله الحسنة ، ويتدارك ما فاته استعداداً لهذا السفر الطويل ، المبارك إن شاء الله .

التعلق بالدنيا مذموم عقلاً وشرعاً

إن كراهية الموت ، وحب البقاء في الدنيا من أجل التنعم بلذاتها ـ كما هو حال أكثر الناس ـ خطأ كبير لا يقرّه عقل أو شرع .

أمّا عقلاً ، فلا وجود للذة المطلقة في هذا العالم . فاللقمة لكي تصل إلى الفم دونها مصاعب ومتاعب . وأما لذّة الشباب ، فلن يدوم الشباب لأحد، وسرعان ما سيغدو الشاب شيخاً مسناً ضعيفاً، يفقد مع ضعفه كل أثر للذة ، أما إن كانت السلامة شرطاً أساساً لبلوغ اللذة ، فهي مهددة كل لحظة بمختلف الأمراض والعلل . وأما إن كان المال هو الوسيلة ، فكم يجلب لصاحبه صنوفاً من المتاعب وكم يحف به من خطر . وأما إن كانت في المنصب والجاه ، فهما توأمان للقلق والانشغال بالتنافس والتزاحم . مما يفقدهما كل أثر للذة الحقيقية ؛ وإضافة إلى ذلك ، فكل ما مرّ مصيره الزوال أخيراً .

إن الفؤاد يرى الدنيا عروسته لكنها لم تعاشر بالرضى أحداً

حب الدنيا صفة الكفار ورأس كل خطيئة

وأما شرعاً ، فقد ورد في القرآن الكريم ذمّ الدنيا وأن حبّها صفة من صفات الكفار .

﴿ زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾[1] ، **﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور ﴾**[2] ، **﴿ لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا ﴾**[3] ، **﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾**[4] ، ويقول عن اليهود : **﴿ يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة ﴾**[5] .

وآيات القرآن المجيد في هذا الموضوع كثيرة ، وكذلك الأخبار والروايات ، ونكتفي منها بالحديث النبوي الشريف : « حبّ الدنيا رأس كل خطيئة » .

كراهية الموت والبكاء على الأقارب

يتبين مما ذكر أن كراهية الموت وحبّ البقاء في الدنيا من أجل اللذة والهوى ـ كون الموت يحول بين المرء وبين ما يحب ـ أمر مذموم عقلاً وشرعاً .

أما كراهية الموت وحبّ تأخيره من أجل تدارك ما فات ، والتزود لسفر الآخرة ـ كون الموت يقفل كتاب الأعمال ، وتأخر الموت يوسع في الفرص ـ فأمر حسن جداً .

وأما كراهية موت الأقرباء والأحبة ، والإحساس بالألم والانزعاج

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة يونس : الآية ٧ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٣٨ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٩٦ .

لموتهم ، فذلك مذموم إن كان لسبب ماديّ ، كأن يبكي المرء عزيزاً حرم لذّات الحياة ، أو يأسى على صديق حرم بموته من منفعة كانت ستصله من طريقه ، وإلى ما هنالك من أمثال ذلك . أما إن كان الحزن مبعثه ألم الفراق عن الأحبة وإخوة الإيمان ورفاق السفر إلى الآخرة فأمر حسن جداً ، بل هو مستحب .

عدم الصبر نتيجة للغفلة عن الآخرة

أكثر الناس ـ والنساء منهم خاصة ـ مأخوذون بحب الدنيا ، فإن توفّي لأحدهم قريب فإنه يتألم ويحس بالضيق والجزع ، وينهار أحياناً ، كمن يودّ الخلود في هذه الدنيا ، ويتمنى لو أن قريبه لم يمت ليشاركه هذا الخلود المتوهم ، ولو علم أن ذلك الميت هو بمثابة المسافر ، وأنه واصل إلى موطنه الدائم ، وأنه ـ هو نفسه ـ لاحق به عما قريب لما أظهر من الجزع وقلة الصبر ما أظهر .

رأى الإمام الصادق (عليه السلام) رجلاً يجزع كثيراً لموت ابنه فقال له :

« جزعت للمصيبة الصغرى وغفلت عن المصيبة الكبرى . لو كنت لِما صار إليه ولدك مستعدّاً لَما اشتدّ عليه جزعك ، فمصابك بترك الاستعداد أعظم من مصابك بولدك »[١] .

الإنعام واللطف الإلهيان

وعلى العموم فإن حال المؤمن مع الموت ، وتطلّعه إلى لقاء ربّه يجب

---

(١) عيون اخبار الرضا .

أن يكون كحال من يرقب الحضور بين يدي السلطان لينال جزاء خدماته له ، فهو مع فرحه باللقاء يأمل تأخيره عله يتمكن من إنجاز خدمات أكثر للسلطان فيزيد بذلك إنعامه عليه ، والمؤمن يسعد بالموت الموصل إلى دار الثواب لكنه يحبّ أن يتأخر موعده كي يستزيد من العبادة فيزداد من ثَمّ ثوابه ، ويكون بذلك راضياً مع حسن ظنه بربّه الكريم مستعداً للقائه ، متشوّقاً للقاء أحبائه محمد وآله (عليهم السلام) .

حضور أهل البيت (ع) حين الفزع

ورد في الروايات أن محمداً (صلى الله عليه وآله) وعلياً (عليه السلام) يحضران إلى مرقد المؤمن المحتضر ، (ولكن بصورتيهما النوريتين وبدنيهما المثاليين ، كما سنذكر لاحقاً) . وفي بعض الروايات أن الخمسة المطهرين (أي مع فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام))، وفي بعضها الآخر أن المعصومين الأربعة عشر كلهم يحضرون إلى مرقد المؤمن .

يروى أن أحد أصحاب الإمام الرضا (عليه السلام) كان في حالة الاحتضار ، فحضر الإمام (عليه السلام) إلى مرقده ، فقال له المحتضر : إني أرى الآن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلياً وفاطمة والحسن والحسين (حتى وصل إلى الإمام موسى بن جعفر (عليهم السلام) ، ثم قال : كما أني أرى صورتك النورية حاضرة أيضاً يا مولاي[1] .

وخلاصة القول : إن من المسلّمات أن كل إنسان لا بدّ سيلاقي أهل البيت حين موته ، وسينتفع بلقائهم بمقدار معرفته بهم ومحبته لهم .

---

(١) المجلد الثالث من بحار الأنوار .

وفي الحديث المشهور لأمير المؤمنين (عليه السلام) مع الحارث الهمداني ، وهو من خواصّ أصحابه . قال :

يا جار همدان من يمت يرني   من مؤمن أو منافق قبلا[1]

أجل ، فإن ما يجري عند الموت نعمة كبرى للمؤمنين ، فإن في مشاهدة جمال المحبوب لذّة لا تدانيها لذّة . أما الكافر والمنافق وأمثالهما فيبوءون بالخسران ونقمة ربّ العالمين[2] .

أخبار ما بعد الموت

إن الروح بعد قبضها تؤخذ إلى السموات العلى إن كان صاحبها مؤمناً ، أما روح الكافر فتؤخذ إلى أسفل سافلين .

وعند الغسل يسأل أحد الملائكة الميت المؤمن : هل تهوى الرجوع إلى الدنيا ؟ فيجيبه : لا ، أبداً ، فأنا لا أحب الرجوع إلى دار المتاعب والمشقات .

وحين يتحرك المشيعون بجنازة الميت ، فإن صاحبها ـ إن كان مؤمناً يصيح بهم : عجّلوا كي تبلغوا بي منزلي سريعاً . أما إن كان كافراً فيقول : تمهّلوا ولا تستعجلوني إلى قبري .

وتكون روح الميت حاضرة عند غسل صاحبها وعند تشييعه ، وترى الناس والمشيعين ، وتستمع إلى أحاديثهم ، لذا ورد الأمر بالكف عن أحاديث القال والقيل حول الميت ، وبالكف عن كثرة الحركات التي لا معنى لها ، وأن ينشغل الناس عوضاً عن ذلك بالذكر وتلاوة القرآن .

---

(١) المجلد الثالث من بحار الأنوار .

(٢) « السلام على نعمة الله على الأبرار ، ونقمته على الفجّار » الزيارة السادسة للأمير (ع) .

كما يستفاد من بعض الأخبار ظهور علاقة أخرى بين الروح والبدن ؛ فحين يدفن الميت ويعود المشيعون أدراجهم ، يعرف الميت أنهم تركوه ، وأنه بات في قبره وحيداً ، فيحس بالغربة والضيق والوحشة .

إن أول بشارة تزف للمؤمن في قبره هي أن الله قد رحمه ورحم مشيّعيه كافة . لذا يستحب للمؤمنين أن يراعوا المراسم الدينية والإتيان بالمستحبات عند الاحتضار والغسل والتكفين والدفن . ومن المستحبات الخاصة أن يعود وليّ الميت بعد انصراف المشيعين فيلقّنه التلقين الأخير ، إذ يكون قد سبقه تلقينان ، الأول في حال الاحتضار ، والثاني عند الدفن .

السؤال والجواب في القبر

من جملة ما يجب الاعتقاد به عند المسلمين هو أنّ : « سؤال منكرٍ ونكيرٍ في القبر حق » .

والقدر المسلم به هو أن يعتقد المرء بوجود السؤال والجواب في القبر ، ويقفز إلى الذهن هذا التساؤل : وكيف يكون ذلك ؟ هل هو بالبدن الأصلي أم بالبدن المثالي ؟ وهل يكون في هذا القبر الترابي أم أن الروح هي التي تسأل وينتقل التأثير من خلال العلاقة التي تربطها بالبدن ؟ أم لعل السؤال والجواب يتمّان بشكل آخر غير معروف ؟ .

قد يتصور البعض أننا لا شأن لنا بهذه الأمور ، خاصة وأنه لا سبيل لنا إلى معرفتها . إلاّ عن طريق الأخبار ، إذ لم يرد في الروايات بيان صريح عنها .

يقول العلاّمة المجلسي في المجلد الثالث من كتاب (بحار الأنوار) وفي (حق اليقين) : يظهر من الأحاديث المعتبرة أن قضية السؤال والجواب والضغطة في القبر تجري على البدن الأصلي ، حيث إن الروح تعود إلى تمام

البدن (أو إلى بعضه ، كالصدر أو الوسط كما في بعض الأخبار) بحيث تكون لها القدرة على فهم السؤال والجواب .

والذي تجب معرفته هو : عمَّ يُسأل الإنسان في القبر ؟ .

في القبر يسأل الإنسان عن العقائد والأعمال ، فيقال له : من إلهك ؟ من نبيّك ؟ ما هو دينك ؟ يسأل عن هذا كل فرد مؤمناً كان أم كافراً ، ما عدا الصبي القاصرُ والمجنون ، فإن كان المسؤول متمكّناً من العقيدة الحقّة فإنه يذكر عقيدته ، ويشهد بوحدانية الله تعالى وبرسالة نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) وبإمامة أئمة الهدى (عليهم السلام) ، وإن لم يكن ، فيتلعثم ويتردد في الإجابة ، حتى أن بعضهم يجيب من الخوف : أنت إلهي ، أو يقول : سمعت أن الناس يقولون بأن محمداً نبي ، وأن القرآن كتاب الله ، فيعجز بذلك عن الإجابة الحقة .

والخلاصة : إن الميت إن استطاع أن يجيب يفتح له باب من فوقه يصل إلى عينيه ، ويُعمل على توسعة قبره . ويبقى في عالم البرزخ إلى يوم القيامة في سعة وراحة واطمئنان[١] ، ويقال له : نم نومة العروس[٢] . وأما إن عجز عن الإجابة فيفتح له من فوقه باب من جهنم البرزخية[٣] ، ويُنفخ على قبره نفخة من نفخات جهنم[٤] .

ما الفائدة من السؤال والجواب في القبر

الله سبحانه وتعالى يعلم ما إذا كان الإنسان مؤمناً أم كافراً ، فاعلاً للخير

---

(١) ﴿ فأما إن كان من المقرّبين * فروح وريحان وجنّة نعيم ﴾ سورة الواقعة : الآيتان ٨٨ ـ ٨٩ .
(٢) أصول الكافي .
(٣) ﴿ وأما إن كان من المكذّبين الضالّين * فنزل من حميم ﴾ سورة الواقعة : الآيتان ٩٢ ـ ٩٣ .
(٤) استنتجنا هذه الجمل من الروايات ولم نذكر الأصل توخّياً للاختصار .

أم للشر ، إذاً فلماذا السؤال والجواب ؟ .

إن السؤال والجواب في القبر هما بداية ظهور النعمة والبشارة للمؤمن . فكم هو لذيذ ومطمئن أن يشاهد المؤمن الملكين بهيئة جميلة مريحة ، ويشم منهما عبق ورود الجنة ورياحينها ، ولذا فهما يسمّيان في هذه الحالة : « البشير والمبشّر » .

ناهيك عن أن نفس السؤال والجواب يتضمن لذة للمؤمن ؛ فكما يسرّ التلاميذ في المدرسة حين يسألون فيجيبون إجابات كاملة استعدّوا لها وحضّروها ، كذلك يسرّ المؤمن حين يسألِ فيجيب ويشهد ـ مطمئناً ـ بوحدانية ربّه ورسالة نبيّه .

وبالقدر الذي يسرّ فيه المؤمن من السؤال والإجابة ، ويرى فيهما نعمة وبداية لراحته ؛ يكون الأمر على العكس بالنسبة للكافر ، فهو بداية لعذابه وشقائه ، ويكون ظهور الملكين له سبباً للخوف والوحشة . ففي الروايات أنه يسبق حضورهما صوت كالرعد ، ويظهران والشرر يتطاير من أعينهما ، وشعرهما يتدلّى إلى الأرض ، فيواجهان الميت الكافر مواجهة مخيفة ، ولذا فهما يسمّيان في هذه الحالة « منكراً ونكيراً » .

فالإنسان الذي لم يعرف ربّه طوال عمره ، ولم ينشىء معه علاقة قائمة على الإيمان به وبرسله والعبودية له ، هذا الإنسان يعرف ما سيكون جوابه حين يسأل ؛ فهو لم يتخذ له ربّاً طوال عمره سوى المال والجاه . فما هو شأنه مع ربّ العالمين ؟! ولن تكون له من إجابة سوى التردد واللعثمة ، وإن أجاب عن السؤال عن ربّه فسيعجز عن الإجابة عن النبي ، وعن سائر العقائد الحقة ، وإن أجاب فإنه سيخفق في الإجابة عن عمله .

يُسأل عن الأعمال

ورد في المجلد الثالث من (بحار الأنوار) أن أحدهم سئل في القبر عن عقائده فأجاب عنها كلها جيداً ، وسئل عن أعماله فأجاب عنها كذلك ؛ فقيل له :

أتذكر يوماً رأيت فيه مظلوماً ولم تلبِّ نداء استغاثته ؟ ورأيتهم يهتكون عرضه ويسلبون ماله ، وكنت تستطيع أن تعينه فلم تفعل ؟! .

هنا عجز عن الجواب .

(إغاثة الملهوف وتلبية نداء المظلوم هي من جملة الواجبات) .

وبما أنه لم يعمل بموجب تكليفه فقد قيل له : لقد حكم عليك بمئة سوط من العذاب . وما أن جلداه مرّةً حتى امتلأ قبره ناراً .

أجل . . فهذا ما يجري لمن يترك واجباً من الواجبات

المقصود : هو أن لا تقول : إن أصول عقائدي صحيحة ؛ لذا فإن عملي صحيح ؛ وترحل هكذا عن الدنيا معتقداً بصحّته ، ولكن . . ماذا عن أعمالك ؟ أتستطيع أن تدّعي أنك لم تتعثّر في عملك ؟ الإمام المعصوم زين العابدين (عليه السلام) يشكو ويقول : « أبكي لسؤال منكر ونكير » . فماذا نقول أنا وأنت ؟! .

العمل أنيس في القبر

من المسلّم به أنّ أنيس كلّ امرىء في قبره هو عمله ، كما يصرح القرآن المجيد وجملة من الروايات . منها ما رواه الصدّوق ـ عليه الرحمة ـ في كتاب (الخصال) و (الأمالي) و (معاني الأخبار) ، عن قيس بن عاصم : أنه قدم مع جمع من قبيلة تميم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ،

فعرض : أن يا رسول الله عظنا كي ننتفع ، فإننا جوّالون في البادية (أي قليلاً ما نوفق لزيارتكم) فوعظهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بكلام جاء فيه :

يا قيس ، لا حيلة لك عن قرين يُدفَن معك وهو حيّ ، وتُدفَن معه وأنت ميت ؛ فإن كان قريناً كريماً فسيكرمك ، وإن كان لئيماً فسيهملك ، ولا تُحشر إلّا معه ، ولا تُسأل إلّا عنه ؛ فلا تجعله إلّا صالحاً ، لأنه إن كان صالحاً تأنس به ، وإن كان فاسداً فلن تستوحش إلّا منه ؛ وذلك القرين هو عملك .

فأنشد قيس هذه الموعظة شعراً في ذلك المجلس فقال :

تخيّر خليطاً من فعالك إنّما	قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بدّ بعد الموت من أن تُعدّه	ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
فإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن	بغير الذي يرضى به الله تُشغل
فلن يصحب الإنسان من بعد موته	ومن قبله إلّا الذي كان يعمل
ألا إنّما الإنسان ضيف لأهله	يقيم قليلاً بينهم ثمّ يرحل

الله يحذّر

كثيرة هي الآيات التي تتحدث عن أنّ قرين الإنسان بعد موته هو عمله ؛ ونكتفي منها بالآية الكريمة :

﴿ يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذّركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد ﴾[1] .

ورد في كتاب (الأربعين) للسيّد الجليل القاضي سعيد القمّي نقلاً عن الشيخ البهائي قوله : إنّه كان له رفيق في مقبرة أصفهان ، وكان دائم الانشغال

---

(١) سورة آل عمران : الاية ٣٠ .

بالعبادة عند تلك المقبرة ، وكان الشيخ البهائي يذهب لرؤيته من حين لآخر وذات يوم سأله :

ماذا رأيت من عجائب المقبرة ؟ .

فأجاب : أُحضرت أمس جنازة إلى المقبرة ، ودفنت في هذه الناحية ، وانصرف المشيعون ، وعند الغروب انتشرت في المكان رائحة نتنة لم أشمّ مثلها من قبل ، فضايقتني ، وفجأة رأيت هيكلاً أسود موحشاً كالكلب ، وكانت الرائحة تنبعث منه ، ثم تقدم هذا الهيكل حتى وصل إلى القبر فاختفى فيه .

وبعد مدّة ، انتشرت في المكان رائحة زكية عطرة لم أشمّ أطيب منها من قبل ، وظهر إذ ذاك شكل جميل جذّاب ، لم يلبث حتى اختفى عند القبر نفسه (وهذا من عجائب عالم الملكوت) .

مضت على ذلك مدة ، ثم رأيت الشكل الجميل يخرج من القبر ، وكان مجروحاً ينزف دماً ، فقلت :

ربِّ أفهمني ما هما هذان الشكلان ؟

فأفهمني (سبحانه) أن ذلك الشكل الجميل هو أعماله (الميّت) الحسنة ، وذلك الهيكل الموحش هو أعماله السيئة ؛ وبما أن أعماله السيئة كانت أكثر ، فإنها ستبقى أنيسه في القبر إلى أن يطهر ؛ وعندها تصل نوبة الشكل الجميل .

ضغطة القبر

قال العلاّمة المجلسي في (حقّ اليقين) :

ضغطة القبر والثواب والعقاب فيه ، هما عموماً محلّ إجماع المسلمين . ويظهر من الأحاديث المعتبرة أن ضغطة القبر تقع على البدن

الأصلي ، وأنها ليست عامّة ، (أي ليست بلاء يعم الناس كافة) بل هي عقاب للمستحقّ فقط ، وتتفاوت شدّة وضعفاً بحسب ذنب المسيء .

ويروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن ضغطة القبر للمؤمن كفّارة لما ضاع منه من تبذير للنعم الإلهية .

وروى الكليني عن أبي بصير بسند معتبر أنه قال :

سألت الإمام الصادق (عليه السلام) : هل ينجو من ضغطة القبر أحد ؟ فقال (عليه السلام) : أعوذ بالله ، فإنه يندر من ينجو منها ، أما وإن رقيّة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين استشهدت وقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) على قبرها ، ورفع رأسه إلى السماء والدموع تجري من عينيه وقال للناس : تذكّرت ما وقع لهذه المظلومة فرقّ قلبي لها ، وطلبت من الله الرحيم أن يرحمها بي فلا تدركها ضغطة القبر ، ثم قلت : ربّ ارحم رقيّة بي من ضغطة القبر .

فرحم الله تلك المظلومة ، بالنبيّ .

نعم ، فقلّةٌ أولئك الذين لا يعاينون ضغطة القبر ، ذلك لأنها تأتي في أثر الذنوب ، وحتى أنها تأتي أثراً لسوء معاملة مع ابنٍ أو زوجة .

وللتدليل على هذا الأمر ، وللإحاطة بأهمية ضغطة القبر وأنه لا ينجو منها إلّا القليل ، نورد الحديث المشهور المتعلق بسعد بن معاذ الأنصاري .

كان سعد بن معاذ (زعيم الأنصار) يتمتع باحترام الرسول (صلى الله عليه وآله) واحترام المسلمين ، وكان حين يأتي إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) راكباً يأمر رسول الله باستقباله ، حتى إذا وصل إليه نهض قائماً للترحيب به ، وقد أسند إليه أمر التحكيم مع اليهود . وعند موته حمل النبي نعشه على كتفه من أطراف النعش الأربعة وهو عاري القدمين ، وكان يقول : إن الملائكة

حضروا تشييعه صفوفاً ، ويقول : كانت يدي بيد جبرائيل أذهب حيث يذهب . وقد أنزله الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى القبر بيديه الكريمتين . فصاحت أم سعد حين رأت كل ذلك : أبشر يا سعد، فهنيئاً لك الجنة .

فالتفت إليها الرسول قائلاً : أين لك أن ابنك من أهل الجنة ؟ ها إن سعداً يعاني من ضغطة القبر !! .

فسأله أصحابه : يا رسول الله ، وهل مثل سعد يعاين ضغطة القبر ؟ فقال : نعم .

وفي رواية أخرى أنهم سألوا الإمام (عليه السلام) عن سبب ضغطة القبر لسعد فأجاب : لضيق خلقه مع أهل بيته .

ضغطة القبر ممكنة في أي مكان

روى الكليني عن يونس أن الإمام الرضا (عليه السلام) سئل عن رجل شُنق : هل يدركه عذاب القبر ؟ (لأنهم كانوا يدعون البعض بعد شنقهم معلّقين ، دون أن يواروهم قبورهم ، كما جرى للشهيد زيد بن علي (عليه السلام) حيث ترك معلقاً ثلاثة أعوام) فأجاب الإمام (عليه السلام) : نعم ، إن الله يأمر الهواء بضغطه .

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

إن إله الأرض والهواء إله واحد ، يوحي للهواء فيكون ضغطه أسوأ من ضغطة القبر .

وكذلك الأمر بالنسبة لماء البحر في حال الغرق .

يتبين مما تقدم أن سوء الخلق وقبح اللسان مع الأهل من الأمور الموجبة

لضغطة القبر ، وكذلك إضاعة نعم الله وكفرانها[1] .

ومن الأمور الموجبة لضغطة القبر عدم التحفّظ من نجاسة البول ، وكذلك التهمة والغيبة ، فتعاني منها الروح كما يعاني البدن ، كما ورد في روايات عديدة .

وفي المقابل فإن من يتحلّ بحسن السلوك والأخلاق الفاضلة يكن في سعة وانشراح عند موته . وللسعة أيضاً مراتب ومنازل : فللبعض سبعة أذرع وللبعض الآخر سبعون ذراعاً ، مع فتحة تصل إلى العين ، فتكون أرواحهم في سعة .

---

(١) ورد الحديث تفصيلاً عن كفران النعمة والعذاب في المجلد الثاني من كتاب (الذنوب الكبيرة) للشهيد دستغيب .

الفصل الثاني

البـرزخ

البـرزخ لغةً هـو الساتـر أو الحائـل الـذي يقـع بين شيئين ويحـول دون اتّصالهما . مثلاً : بحر مياهه عذبة وآخـر مياهـه مالحـة ، ورغم تموجهمـا فلا يمكن لأحدهما أن يطغى على الآخر ، لأن الله تعالى جعل بينهما مانعاً يحول دون ذلك[1] . وهذا ما يقال له البرزخ .

أما البرزخ بحسب الاصطلاح فهو عـالم جعله الله بين الدنيـا والآخرة ، بحيث تبقى لكـل من العـالمين خصـائصـه ، أي : هـو عـالم مـا بين الأمـور الدنيوية والأخروية .

وفي البرزخ لا وجود لـلآلام كأوجـاع الرأس والأسنـان وغيرهـا مما هـو مـرتبط بـالتـركيب الجسمـاني لعـالمنـا المـادي ، فـالعـالم هنـاك هـو عـالم المجـردات ، وليس هو عـالم الآخرة بـالطبـع ، فليس هو ظلمـة بحتـة لأهـل المعصية ، كما أنه ليس لأهل الطاعة نوراً محضاً .

سئل الإمام (عليـه السلام) : متى يكـون البرزخ ؟ فـأجـاب : من حين

---

(١) ﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ سورة الرحمن : الآيتان ١٩ ـ ٢٠ .

يموتون إلى يوم يبعثون[1] .

يقول القرآن المجيد : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[2] .

العالم المثالي ـ البدن المثالي

يقال للبرزخ أيضاً : « العالم المثالي » فهو يشبه عالمنا هذا ، ولكن من حيث الشكل والصورة ، لكنه يختلف عنه من حيث المادة والخواصّ والخصوصيات . فنحن نرد ـ بعد الموت ـ عالماً تكون الدنيا بالنسبة إليه كما هو بطن الأم بالنسبة لعالم الدنيا .

وكذلك فالبدن في عالم البرزخ « بدن مثالي » ، فهو من حيث الشكل عين هذا البدن ، غير أنه يختلف عنه من حيث التركيب ، فليس في البرزخ جسم ومادة ، بل هو بدن لطيف كالهواء ، لا يقف دونه حائل ، فهو ـ حيثما استقرّ ـ يبصر كل شيء .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : لو رأيته لقلت : هو هو[3] .

فلو رأى أحدنا أباه الميت في المنام فإنه يراه ببدنه الدنيوي ، في حين يكون جسمه المادي في قبره ، فهذه هي صورة « البدن المثالي » .

وللبدن البرزخي عينٌ مثلاً ، وهي تشبه أعيننا من حيث الشكل ، لكنها لا تحوي سائلاً ولا تحسّ ألماً . فهي تمتلك القدرة على الإبصار حتى يوم القيامة ، لكنها لا تضعف فتحتاج إلى نظارات .

ويشبّه الحكماء والمتكلمون « البدن المثالي » بالصورة المنعكسة في

---

(١) بحار الأنوار .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .

(٣) بحار الأنوار .

المرآة ، غير أنها تمتاز بأمرين أحدهما : القيام بالذات ، أي : أنها قائمة بذاتها وليست انعكاساً في مرآة . وثانيهما : الإدراك والشعور . فالبدن المثالي إذاً : قائم بذاته ، وهو يحسّ ويدرك ويفهم .

نظير ذلك هو ما تراه في المنام ، حيث إن عيناً مطبقة تقطع مسافات كبيرة فتذهب إلى مكة أو مشهد أو غيرهما .

وفي عالم البرزخ تتوفر المآكل والمشارب ، والمشاهد الجميلة الجذابة ، كما تتوفر أنغام وألحان عذبة لا طاقة لأهل الدنيا على سماعها ، والأرواح بأبدانها المثالية تنعم بها كلها وترزق منها(١) .

لكن مآكل ومشارب وسائر نعم ذلك العالم كلها لطيفة ولا صلة لها بالمادّة ، وقد ورد في الروايات أن الشيء الواحد يمكن أن يتغير إلى أنواع مختلفة طبقاً لإرادة المؤمن ورغبته ، فهو لو رغب مثلاً أن ينقلب المشمش خوخاً لتمّ له ما أراد .

فقد ورد عن الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه قال ما مضمونه :

رأيت عمي حمزة سيد الشهداء (وذلك بعد شهادة الحمزة) وأمامه طبق من رمّان الجنة ، وفجأة رأيت الرمان وقد استحال عنباً ، ثم لم يلبث العنب أن انقلب رطباً(٢) .

والمغزى هنا هو أن الشيء ينقلب إلى غيره لأنه ليس شيئاً مادّياً بل هو شيء لطيف .

---

(١) ﴿ **ولا تحسبّن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٢) مضمون بقية الرواية أن الرسول (صلى الله عليه وآله) سأل عمه : ما الأمور المؤثّرة هنا ؟ فقال : ثلاثة أشياء تفيد هنا كثيراً : سقاية العطشان ، والصلاة عليك وعلى آلك ، ومحبة علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

شدّة التأثير والتأثّر

من ميزات عالم البرزخ بالنسبة إلى هذا العالم الفاني ، قوة التأثير . وقد ورد بيان هذه الميزة بشكل بيان علميّ في الحكمة العالية ، وحيث يصعب تفهمها على العموم فإننا نشير إلى موضوعها إشارة فقط (كلّما كان المُدرَكُ لطيفاً يكون الإدراك أقوى) .

إن الفواكه والحلاوات واللذات التي نتذوقها ونلتذّ بها هي قطرة من بحر بالنسبة لفواكه وحلاوات ولذّات عالم البرزخ ، إذ أن أصلها هناك ، فلو كشف الغطاء عن صورة الحور العين لانبهرت الأعين ، ولو بلغ نور الحور هذا العالم لكان أقوى من نور الشمس .

أجل ، فإن الجمال المطلق هو هناك ، يقول ربّ العالمين في كتابه المجيد :

﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾[1]
وذلك لتمييز الصغير من الكبير ، والصبيّ من العاقل ؛ وليعرف من يرضى بهذا اللهو ممّن لا يخدع به ، فهو يقتفي أثر اللذة الحقيقية والجمال الواقعي والسعادة المطلقة .

المقصود أن شدّة التأثير وقوته في عالم البرزخ ليست قابلة للقياس بمقاييس هذه الدنيا ؛ وقد تطرأ لبعض الناس في هذه الدنيا أمور تكون سبباً لعبرة الآخرين البالغة .

من هذه الأمور ما نقله المرحوم النراقي في (الخزائن) عن أحد الثقات من أصحابه قال :

في مقتبل شبابي كنت وأبي نتبادل الزيارات مع جمع من الرفاق عند

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧ .

حلول عيد النوروز في أصفهان . ذهبنا يوماً ، وكان يوم ثلاثاء ، لنرد الزيارة لأحد الرفاق وكان بيته قرب المقبرة ، ويبدو أننا أطلنا السير فلم نعثر على المنزل ، فتوجهنا نحو المقبرة لنرتاح من التعب ونزور أهل القبور .

وحين جلسنا هناك التفت أحد الرفاق إلى القبر القريب مني وقال مازحاً : يا صاحب هذا القبر ، إنها أيام العيد ، أفلا تستقبلنا ؟ فارتفع صوت من ناحية القبر يقول : بعد أسبوع ، وفي مثل هذا اليوم (الثلاثاء) أنتم ضيوفي ها هنا ، وجميعكم .

غمرنا الخوف والوحشة ، وخيّل إلينا أنه يعني بذلك موتنا خلال هذا الأسبوع ، فانشغل كل منا بإصلاح نفسه وأعماله وتهيئة وصيته وما إلى ذلك ، استعداداً للموت ؛ لكن الأسبوع مضى دون أن يوافي أحدنا الموت . فما كان منا إلا أن اجتمعنا معاً واتفقنا على الذهاب إلى القبر ، لعلّ الأمر يكون شيئاً آخر غير الموت .

وحين وصلنا إلى القبر قال أحدنا : يا صاحب القبر ، ألا تفي بوعدك ؟ فارتفع صوت قائلاً : تفضلوا .

(يلاحظ هنا أن الله تبارك وتعالى يرفع حجاب الرؤية البرزخية من أجل العبرة) .

يقول الرجل متابعاً : عندها فتحت أمام أنظارنا عين ملكوتية ، فرأينا جنة في منتهى الروعة والبهاء ، وقد ظهرت فيها أنهار تجري بالمياه العذبة الصافية ، وأشجار تحمل من فواكه كلّ الفصول ، وعلى أغصانها طيور ترسل أعذب الألحان .

سرنا فيها حتى وصلنا إلى عمارة شيدت بأروع زينة وجمال ، وقد فتحت جنباتها على تلك الجنة .

دخلنا تلك العمارة ، فقابلنا فيها شخصاً في منتهى البهاء والصفاء ، وقد اجتمع حوله جمعٌ كالبدور ، تحلّقوا حوله للقيام بخدمته ، فما كان منه إلّا أن هبّ واقفاً معتذراً ، وقد لفتت أنظارنا أنواع من الحلويات وأصناف من الفواكه لم نر لها نظيراً من قبل ، بل لم نكن نتصوّر وجود مثلها أصلاً .

(ألفت الانتباه إلى قوله التالي) :

يقول : حين أكلنا كان الطعام لذيذاً لم نذق مثله قط ، كنا نأكل فلا نشبع ، ولم تفارقنا الشهيّة أبداً . فوضعت أمامنا أنواع مختلفة من المآكل والفواكه .

بعد ساعة قمنا واقفين ، وواكبنا ذلك الرجل (مضيفنا) إلى خارج الجنة . سأله أبي قائلاً :

ـ من أنت ؛ حتى منّ الله عليك بهذه الثروة التي تستطيع بها استضافة العالم بأسره ؟ وأين يقع هذا المكان ؟ .

فأجاب : أنا من مواطنيكم ، فأنا ذلك القصّاب الذي كان في المحل الفلاني . . .

قالوا : وما علّة هذا المقام الذي أنت فيه ؟ .

قال : لهذا سببان : أحدهما أني لم أكن أنقص المكيال (في البيع) . والآخر أني لم أكن أفوت الصلاة أو وقتها أبداً ، كنت إذا وضعت اللحم في الميزان ، وارتفع صوت الأذان بـ « الله أكبر » ، توقفت عن الوزن واتجهت فوراً إلى المسجد للصلاة . وبعد الموت أعطيت هذا المكان . وكان أن حدثتموني بحديثكم في الأسبوع الماضي ، غير أني لم أكن مأذوناً باستضافتكم ، فاستمهلتكم حتى يؤذن لي ، وهكذا كان .

ثم سأله كل منا عما تبقّى من عمره ، فكان يجيب عمّا يسأل عنه ، وقد

أجاب شخصاً مؤمناً منّا بأنه سيعيش حتى ما فوق التسعين من العمر (وهذا الشخص لا يزال حياً يرزق) .

أما أنا فأجابني بأني سأعيش حتى العمر الفلاني (وقد تبقى الآن مما حدده لي عشر أو خمس عشرة سنة) .

ثم ودعناه ، فسار معنا قليلاً وقد عزمنا على العودة ، وفجأة رأينا أنفسنا ونحن جالسون في مكاننا الأول عند القبر .

دوام اللذة

من أهم مميزات العالم الآخر الدوام والثبات . أما في هذه الدنيا فلا بقاء لشيء ؛ أمّا الجمال فسرعان ما يذوي ويزول ؛ وأما الطعام فلا تستغرق لذته سوى مروره في الفم ويمضي ؛ وحتى النكاح فلذته آنية ؛ وقس على ذلك كل اللذائذ ؛ هذا إن وجدت حقاً ! ناهيك عما يلحق بها من فساد .

أما عالم البرزخ فلا سبيل للفساد إليه ، لأنه لا وجود فيه للعناصر المادّية التي يلحقها الفساد ، وله لذلك صفة الدوام والاستمرار .

وأورد هنا واقعة جرت للعلاّمة الشيخ مهدي النراقي صاحب كتاب (مستند الشيعة) وكان مرجعاً كبيراً وعالماً عظيم الشأن في أهل زمانه . وإنني إذ أورد مضمونها شاهداً على ما نقول ، فإن ما فيها من الحقائق قريب إلى الفهم سهل المتناول :

في القسم الأخير من كتاب (دار السلام) ينقل الشيخ محمود العراقي عن المرحوم النراقي أنه قال :

حين كنت مجاوراً في النجف الأشرف وقع قحط عجيب ، أصيب الناس منه بالجوع ، وعظمت معاناتهم وارتفعت شكاواهم ، خرجت من منزلي

ذات يوم عازماً على زيارة أهل القبور ، متوخياً رفع الهم بهذه الزيارة ، فيممت شطر وادي السلام . وهناك رأيت جماعة من الناس يشيعون جنازة ، ودعاني أحدهم لمرافقتهم قائلاً : لعلك تودّ مشاركتنا في إلحاق هذا المسجّى بعالم الأرواح ، فانضممت إليهم . وإذا بنا في جنة واسعة ، فأدخلوا النعش إليها ووضعوه في قصر منيف من القصور المنتشرة في تلك الجنة ، وكان القصر محتوياً على كافة مستلزمات العيش ، وعلى أكمل نحو .

دخلت القصر مع الداخلين وإذا بصوت يناديني باسمي ، نظرت فرأيت شاباً في زي الملوك جالساً فوق عرش من ذهب . دعاني إليه وسلّم عليّ ، ثم أفسح لي إلى جانبه فوق العرش بكل تجلّة وإكرام . ولما جلست بادرني بالقول :

أنت لم تعرفني . أنا صاحب تلك الجنازة التي رأيت ، اسمي فلان ، وأنا من أهل المدينة الفلانية ، أما المشيعون الذين رافقتهم فهم من الملائكة ؛ وقد نقلوني من مدينتي إلى هذه الجنة ، وهي من جنان الفردوس البرزخي .

بعد أن أنهى الشاب كلامه ، شعرت بالغم يفارقني وأحسست برغبة في التجول في هذه الجنة ومشاهدة ما فيها . خرجت أتمشى فلفتت نظري قصور عدّة منتشرة هنا وهناك ، ورأيت فيها أبي وأمي وبعض أرحامي ، فاستقبلوني بترحاب ، وقدموا لي أطعمة شهية شغلتني بلذائذها ساعة ، ثم تذكرت امرأتي وابنائي ، والجوع الذي يعانون منه فعاودني الهم ، ورأى أبي ما اعتراني من تحول ، فقال لي : إليك يا بني هذه الكومة من الأرزّ فخذ منه حاجتك . خلعت عباءتي وملأتها أرزاً ، فقيل لي : هيا احملها ، وما أن حملتها حتى رأيت نفسي في وادي السلام ، في المكان الذي كنت فيه ، غير أن عباءتي كانت لا تزال معي وهي مملوءة بالأرزّ . فأسرعت بها إلى البيت ، وحين

سألني عيالي من أين أتيت بها أجبتهم بأنه لا شأن لهم بذلك . وقد طعموا من هذا الأرزّ مدة طـويلة دون أن ينفد .

« بعـد مدة أصـرّت امرأتـه على أن يخبرهـا بمصدر الأرز ، لكنـه أصـرّ بدوره على الكتمان ؛ فما كان من نتيجة تصميمها وإصرارها إلّا أن اختفى مـا تبقىّ من الأرزّ » .

ما أودّ الإشارة إليـه هنا هـو ميزة دوام الأمـور في العالم الآخـر ، إن من حيث دوام النعمة بذاتها أو من حيث دوام لذتها . كما أن البلاء ـ والعياذ بالله ـ هـو كذلـك . فلو ابتلي إنسان بـالعـذاب البـرزخي ، وبلغت إلينـا صيحـة من صيحات عذابه لتلاشى بلاء الدنيا كلها أمام ناظرينا .

ورد في المجلد الثـالث من (بحـار الأنـوار) أن رسـول الله (صلى الله عليه وآله) قال : إنه حين كان يرعى الأغنام قبل البعثة كان يراها تتوقف أحياناً عن تناول الكلأ وتـرفع رأسهـا في حيرة كـأنها تنصت إلى شيء ، الأمـر الذي أصابه بالعجب ، ويقول إنه سأل جبـرائيل عن هـذا الأمر بعـد نزول الـوحي ، فأجابه بأنها تنصت إلى أنين الأموات في عالم البرزخ ، فالحيوانات تسمع هذه الأصوات دون غيرها من الإنس والجن .

في كتـاب (دار السـلام) ينقـل النـوري عن كتـاب (ثـواب الأعمـال) للصـدوق (ره) : أن شابـاً جميـل المحيـا قـوي الجسم ، كـان من عسـاكـر كربلاء ، وكان قد ذبح أحد إخـوة الحسين (عليه السـلام) . يقول الـراوي : رأيت وجه هذا الشـاب الجميل وقـد غدا أسـود ، وقد نحـل جسمه وضعف ، فسألت جيرانه عن أحواله فأفادوني أنه منذ أوبته من كربلاء وهو يعاني من حال غريبة ، ففي الليل يرتفع أنينه حتى تضج به المحلّة ويوقظنا من نومنا .

ذهبت إليه مستفسراً عن حاله ، فأنبأني بأن ذلك الشـاب الهاشمي يـأتيه كل ليلة في نومه ويجرّه إلى النار ، فيقاوم وهو يئن ويصرخ حتى يفيق من نومه .

إن هذا الأنين والضعف واسوداد الوجه ما هي إلّا ذرّة من العذاب الآتي الـذي سيلقاه .

والأمور التي تكون سبباً للعذاب البرزخي كثيرة يطول ذكرها ؛ وسأكتفي بإيراد أمر واحد ذكره النوري في (دار السلام) :

نقـل النـوري في المجلد الأول ، الصفحـة ٢٤٧ ، عن العـالم السيــد هاشم البحراني قوله :

كان في النجف الأشرف عـطّار ، وكان من عـادته أن يعظ النـاس يوميـاً بعد صلاة الظهر ؛ فلم تخل دكانه يوماً من جماعة تستمع إلى مواعظه .

ذات يوم قدم إليه في ذكانـه شابّ من الهنـد ، وهو ابن لأحـد ملوكها ، وكان مقيماً في النجف الأشرف . فأودع عنده أمانة هي عبارة عن جعبة تحوي أحجاراً كريمة نفيسة ، لأنه عازم على السفر .

بعد عودة الشاب قصد العطّار وطلب الأمانة ، فأنكرها ، أصيب الهندي بالحيرة وأسقط في يده ؛ فلاذ بقبر أمير المؤمنين (عليـه السلام) وشكـا حالـه قائلاً :

يا علي ، عليك السلام . لقد هجرت موطني ومسقط رأسي للإقامة عند قبرك الشريف ، وقد أودعت كل ما أملك عند فلان العطّار ، وها هو الآن ينكر علي وديعتي لديه ؛ ولا مال لدي غيرها ، ولا شاهد عنـدي يشهد لي بحقي ، فلا يقضي حاجتي غيرك .

في تلك الليلة ، أتاه علي (عليه السلام) في منامه وقال لـه : إذا فتح باب المدينـة في الصباح ، فـاخرج وطـالب أول رجل تلقـاه بأمـانتك ، تـدرك حاجتك .

وفي الصباح خرج الشـاب من المدينـة ، فكان أولَ من رآه شيـخ مسـنّ

عليه سيماء الورع والتقى ، وكان يحمل كومة من الحطب على كتفيه ، وهو في سبيله لبيع الحطب في المدينة لينفق من ثمنه على عياله . فاستحى أن يطلب منه حاجته ، وقفل عائداً إلى الحرم .

وفي الليلة الثانية قيل له في المنام ما قيل له في الليلة الأولى ، فخرج صباح اليوم التالي وإذا بالشيخ نفسه يكون أول من يلقاه ، فلم يقل له شيئاً ، وتكرر الأمر في الليلة الثالثة كما تكرر لقاؤه مع الشيخ في الصباح الثالث .

عندها تقدم منه وشرح له حاجته وطالبه بالأمانة ، فكّر الرجل قليلاً ثم قال له :

ـ وافني بعد ظهر غد إلى دكان العطّار فأردّ لك أمانتك .

وفي اليوم التالي تجمّع الناس حول العطّار للاستماع إلى مواعظه ، لكن الشيخ العابد بادره قائلاً :

ـ دع الموعظة اليوم لي ، ثم التفت إلى الناس وقال :

ـ أيها الناس أنا فلان ابن فلان ، وأنا والحمد لله من أهل القناعة ، وليس في قلبي حب لمال الدنيا ، وذلك من توفيق الله ، وأخشى كثيراً أن أضيع حق الناس ، وقد وقع لي أمر عسير سأخبركم به اليوم ، لأحذّركم من شديد عقاب الله ، ومن لهيب نار جهنم ، كما سأنبئكم بشيء من أخبار يوم الجزاء .

اعلموا أنني احتجت يوماً لاقتراض بعض المال ، فاستدنت من أحد اليهود عشرة دنانير ، واتفقت معه على أن أردها له خلال عشرين يوماً ، أي نصف دينار كل يوم . مرّت عشرة أيام كنت آتيه خلالها كل يوم بنصف دينار ، ثم غاب اليهودي فلم أره بعدها . سألت عنه فقيل لي إنه ذهب إلى بغداد .

ومضت بضع ليال ، وفي المنام رأيت كأن القيامة قد قامت ، وأحضرت

مع الناس لموقف الحساب ، ورأيت أنني ـ بفضل الله ـ قد تخلصت من هذا الموقف العسير ، وتوجهت نحو الجنّة مع أهلها ؛ وحين وصلت إلى الصراط سمعت زئير نار جهنم ، ثم رأيت ذلك اليهودي الدائن ، وقد خرج من جهنم كأنه شعلة من نار ، وتقدم مني يسدّ علي الطريق وهو يقول : أعطني دنانيري الخمسة وتابع طريقك ، فجزعت وقلت له : كنت بصدد البحث عنك لأردّ لك دينك ، لكني لم أعثر عليك ، فقال : لن أدعك ما لم تردّ عليّ حقّي . فأجبته بأني لا أمتلك شيئاً هنا . فقال : دعني إذاً أضع خاتمي هذا على بدنك ، فقبلت .

وضع الرجل خاتمه على صدري فأحسست بلذعه الشديد . وأفقت من النوم ، وإذا بي أرى في موضع خاتمه جرحاً ، ولم يزل هذا الجرح حتى اليوم دون أن ينفع معه دواء .

ثم كشف الشيخ عن صدره فرأى الناس الجرح، وارتفعت أصواتهم بالبكاء .

أما العطّار فقد تملكه الرعب والجزع من العذاب الإلهي ، فاصطحب الهندي إلى بيته ، وردّ له أمانته واعتذر منه .

هل تنكر المطالب السابقة ؟

إن حكم العقل بشكل عام هو أن لا ينكر الإنسان شيئاً مما يسمعه ، طالما أنه ليس مستحيل الوقوع ، وأن العقل يحكم بأنه ممكن الوقوع .

فمثلاً : لو ادّعى منجّم أو عالم فلك وجود عدد من الكويكبات تدور حول كوكب المريخ ، فهل ننكر هذا الخبر عند سماعنا إيّاه ؟ بالطبع لا . لأن من الممكن أن يكون صحيحاً .

يقول الشيخ الرئيس : « كل شيء قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان ما لم يذدك قائم البرهان » .

فإذا سمعت مثلاً بولادة طفل له رأسان فقل إن ذلك ممكن ، طالما أن هذا الخبر لا يدخل في نطاق الاستحالة .

مراتب الخبر

الدرجة الأولى : لا يصح إنكار خبر ما ، ما لم يقم برهان عقلي على عدم وقوعه .

الدرجة الثانية : الخبر المسند ، والذي تصاحبه شواهد صدق وصحة يحكم بها العقل ، يجب قبوله كذلك .

الدرجة الثالثة : لو كان لدى المخبر مدارك وأسناد من قبل ربّ العالمين ، وكان الخبر معجزة ، فليس العقل وحده هو الذي يقرر في هذه الحالة ، ولا يتوجب الإنكار ، بل السبيل الأولى هو قبوله والاطمئنان إليه كخبر من المرتبة الثانية .

لا دليل عقلياً على عدم وجود المعاد

هل هناك دليل عقلي على أنّ أخبار ما بعد الموت ممتنعة الوقوع ؟ وهل يستطيع أحد أن يدّعي ـ ويأتي على ادّعائه بدليل عقلي ـ أنه ليس هناك سؤال ولا جواب بعد الموت ، وليس هناك ضغطة قبر ولا برزخ ولا قيامة ؟! .

احكموا أنتم يا أهل العقول : هل إخبار منجم بوجود أربعة آلاف كويكب بين المريخ والمشتري مثلاً ، يختلف ـ من ناحية الإخبار ـ عن قول النبي (صلى الله عليه وآله) بأن للكافر في قبره تسعةً وتسعين ثعباناً ؟ .

لعل أحدهم يقول : إن إخبار المنجم جاء عن طريق الحس ، نعم ، ومحمد (صلى الله عليه وآله) كذلك قال ما قال عن طريق الحس ؛ فلقد شاهد كل شيء ليلة المعراج ، بل إن روحه الطاهرة كانت تحيط بكل العوالم ، وكان أعلى من ذلك المنجم الذي قد يحس خطأ (بما هو أعلى منه) ، لكن بصيرة محمد (صلى الله عليه وآله) لا تخطىء . فإحساس المنجم يعتريه اعوجاج أو زيادة أو نقصان ، بينما حسّ محمد (صلى الله عليه وآله) ليس عرضة لمثل هذه الأمور .

إن ما يقوله محمد إذاً هو أرفع بدرجات من أقوال أهل النجوم والفلك ، وإن كنت لا تقبل كلام محمد (صلى الله عليه وآله) فذلك لنقصٍ ومحدودية في تفكيرك ، إذ لا دليل عقلياً على امتناعه ، خاصة وأن محمداً (صلى الله عليه وآله) صادق مطلقاً ، وكان أهل مكة قبل الإسلام يدعونه (الصادق الأمين) ، ولم يعرف عنه أبداً كذب أو خيانة ، علاوة على سند رسالته ومعجزته ، القرآن المجيد ، الباقي في متناول الجميع .

فإن أخبرنا شخص لا نظير له كمحمد (صلى الله عليه وآله) عن موضوع السؤال والجواب في القبر ، أو عن قيام القيامة ، فسنصدّقه حتماً ونقبل ما يقول .

رواية عن الحوادث الآتية

عندما ماتت فاطمة بنت أسد ، أم سيد المتّقين علي بن أبي طالب (عليه السلام) أقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) باكياً إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) وقال : لقد ماتت والدتي يا رسول الله ، فأجابه : بل ووالدتي .

ذلك لأن فاطمة بنت أسد كانت تحب الرسول كثيراً ، وقد أشرفت على شؤونه مدّة محلّ أمه .

عند تكفينها خلع رسول الله (صلى الله عليه وآله) قميصه وأمر أن يلبسوه لتلك السيدة الجليلة ، وقبل دفنها نام الرسول بنفسه في قبرها ودعا لها ، وبعد الدفن وقف (صلى الله عليه وآله) على قبرها ، وإذا به يقول : « ابنك ، ابنك ، لا جعفر ولا عقيل » .

ولما سئل النبي (صلى الله عليه وآله) عن سبب تصرفه ذاك أجاب قائلاً :

كنت ـ في حياتها ـ قد أتيت على ذكر ضغطة القبر أمامها فقالت : واضعفاه ! فنمت في لحدها وكفيتها ذلك . وكنت قد ذكرت لها القيامة وكيف يحشر الناس فيها عراةً فقالت : واسوأتاه ! فكفّنتها بقميصي لتقوم مستورةً يوم القيامة . وأما قولي لها : « ابنك . . . . » فذلك لأن الملكين نزلا وسألاها : من ربّك ؟ فأجابت : الله ربّي . فسألا : من نبيّك ؟ فأجابت : محمد نبيّي . فقالا : من وليّك وإمامك ؟ فاستحت أن تقول ولدي ، فقلت لها ذلك .

الجدير بالذكر ان هذا كان قبل غدير خم ، والإعلان الصريح عن خلافة علي (عليه السلام)] ، فأقر الله بذلك عينها .

في هذا الحديث موعظة كبيرة : فإن فاطمة بنت أسد ، هذه المرأة الجليلة والعظيمة الشأن ، المرأة التي بقيت في بيت الله الحرام ثلاثة أيام ، في داخل الكعبة ، أشرف بقعة على وجه الأرض ، المرأة التي كان رحمها مستقراً للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ، والتي كانت ثانية امرأة آمنت برسول الله (صلى الله عليه وآله) ؛ هذه المرأة مع كل عظمتها وتقاها وورعها كانت تخشى المواقف والصعاب الآتية ! فكيف بنا نحن ، وماذا عنّا ؟! .

ونعـود الآن إلى المطلب الأسـاسي ، وهو ان محمـداً (صلى الله عليـه وآله) الصادق الأمين يقـول : إن هناك سؤالاً وجـواباً وضغـطة في القبر ، وإن هناك قيامة وحساباً .

تأثير الروح في البدن الجسماني

رغم أن الروح في عالم البرزخ تكون إمـا معذّبـة أو منعّمة ، فـإن من الممكن أيضّاً أن يتأثر البدن الترابي في القبر بما يعرض للروح هناك ، فيبقى البدن من جرّاء قوّة الروح على حاله ، دون أن يتعفّن أو يبلى ، فتنقضي على البدن ألف سنة مثلاً ، ويبقى طرياً كأنه حديث عهد بالدفن .

والشـواهـد على هـذا الأمـر كثيـرة ؛ مثـل قصـة جسـد ابن بـابـويـه (عليه الرحمة) ، فقبل حوالي مئة وخمسين سنة ، في عهد (فتـح علي شاه) كان العمّال يقومون بـأعمال التـرميم في البقعة التي تضم جـدث ابن بابـويه ، فدخلوا إلى السرداب المدفون فيه ، فرأوا جسده لما يزل طرياً ، حتى أن كفنه كان لا يزال على حاله ، وزاد في عجبهم أن أظفـاره كانت تحمـل آثار الحنّـاء رغم مرور ما ينوف عن تسعمئة سنة على موته .

وقـد ورد تفصيل هـذه الحادثـة في كتاب (روضـات الجنـات) ، على الشكل الآتي :

في حدود سنة ١٢٣٨ ظهر شقٌ وخراب من أثـر المطر في جـدار سرداب القبـر ، فأرادوا أن يصلحـوه ويعمّروه ، فـدخلوا إلى السرداب ، فـرأوا جسـده الشـريف لمّا يـزل سليماً ـ وكـان جسيماً ووسيمـاً ـ وكـان أثـر الخضـاب على أظفـاوه ، انتشر الخبـر في طهران ، وبلغ أسمـاع المرحـوم (فتح علي شـاه) فتوجه السلطان بنفسه مع جمع من العلماء وأركـان الدولـة للتحقق من الأمر ،

فشاهدوا عياناً ما كانوا قد سمعوا عنه . فأمر السلطان بترميم الشق وتجديد البناء وتحديثه .

جسد (الحرّ) حيّ طري

أورد المحدّث الجزائري في كتاب (الأنوار النعمانية) أنه قدم إلى كربلاء في زمن الشاه (إسماعيل الصفوي) فسمع أن البعض يطعنون في مقام (الحرّ بن يزيد الرياحي) ـ عليه الرحمة ـ إذ كانوا لا يعرفونه جيداً . فأمر بنبش قبره ، فرأوا جسده كما كان يوم استشهد ، فلم يتغيّر قط ، وكان رأسه معصوباً بمنديل (من الثوابت التاريخية أن سيد الشهداء (عليه السلام) كان قد عصب جرح الحر بمنديله ، بعد أن أصيب بمعركة كربلاء) ، فأمر الشاه أن يحل المنديل عن رأس الحرّ ويوضع في كفنه . وحين فكّوه جرى الدم من الجرح ، فأعادوا ربطه بمنديل آخر فلم يتوقف نزيف الجرح ، حتى عادوا فربطوه بالمنديل الأول فانقطع النزيف .

وهكذا فقد تأكدت للناس حقيقة الحر ، وأمر الشاه ببناء مقصورة فوق قبره ، وعين له خادماً .

وشبيه لهذا ما يروى عن قبر الكليني صاحب الكافي (ره) ويقع عند رأس جسر في بغداد .

فقد عزم أحد حكّام الجور على هدم ضريح الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) حتى لا يتوجه أحد لزيارته ، وكان للحاكم وزير يبطن التشيع ، فوقف حائراً أمام قرار الحاكم ، لا يدري ما يفعل ، فحياته تغدو في خطر لو اكتشف تشيّعه .

توجه الحاكم مع وزيره نحو ضريح الكاظم (عليه السلام) ، ولما وصل الموكب إلى الجسر قال الوزير مشيراً إلى قبر الكليني : هنا قبر أحد علماء

هـذا المذهب (بقصـد المذهب الشيعي) ، وأحـد وكلاء مـوسى بن جعفـر ، ويُـزعم أن جسد هـذا الشخص حيّ لا يبلى ولا يهترىء ، فـأرى أن نتأكد من هذا الزعم ، فإن رأيت ما يقال صدقاً فلا يصلح أن نكمـل ما عـزمنا عليـه من هدم قبر موسى بن جعفر .

أعجب الحـاكم برأي الـوزير وأمـر بنبش قبـر الكليني على الفـور ،وإذا بجسد هذا الرجل الصالح حيّ طريّ ، والأعجب من ذلك أنهم رأوا إلى جانبه جسد طفل رضيع ، وكان طرياً سليمـاً بدوره ، ولم يعـرف إن كان الـطفل ابن هذا الرجل أم ابن غيره .

وهكذا نرى أن كل موجود يحيا الحياة التي يختارها ويعمل ويكـافح في سبيلهـا ، فيصل بسعيـه إلى جوهـر الحياة ، وإن آل محمـد (صلى الله عليـه وآله) هم جوهر الحياة ومعدن كل خيـر . وها هي آثـارهم ، والمعجزات التي تظهر عند قبورهم المـطهرة ، وقبـور السادة الصـالحين وعلماء الحق ، تشهـد بذلك .

ونـرى في المقـابـل أن عـذاب الـروح يـطول جسـد من كـان من أهـل العـذاب ، كما جـرى لقبور بني أميـة عندمـا نبشها العبـاسيون بعـد أن ظهروا عليهم ، ومن جملتها قبر يزيد ، فإنهم لم يجدوا في قبره سوى كومة من الرماد على قدر جسده .

وينقـل المرحـوم الشيخ محمـود العراقي في (دار الســلام) قـول أحـد الثقات المعروفين إذ قال :

ذهبنا مرّة قبـل الغروب إلى مقبـرة (السيد حسن) في طهـران ، فجلس أحـدنـا على أحــد القبـور ليستـريـح ، فلم يلبث أن صــرخ : ارفعـوني . . ارفعوني . . وإذا بنا نرى حجارة القبر وقد صارت مثل النار .

لكم كانت الروح معذّبة ، مما جعل حرارة النار تصل إلى القبر وتسري إلى حجارته كذلك .

يقول الراوي : أنا أعرف صاحب القبر ، لكني أتجنب ذكر اسمه كي لا يفتضح .

ويذكر أيضاً أن أحد الأشخاص دفن في قم ، فارتفعت من قبره شعلة من النار أحرقت سجاد وبسط المقبرة .

النار الحامية

يقول الشيخ الشوشتري في مواعظه :

الله سبحانه يقول في كتابه المجيد : ﴿ **نار حامية** ﴾ . أي نار ساخنة ، فهل يعني هذا وجود نار باردة ؟ .

نعم ، إن نار الدنيا قياساً إلى نار البرزخ والقيامة تعدّ باردة ، وهناك في هذه الدنيا نوعان من النار نستطيع التميز بينهما قياساً على آثارهما :

يقول : هناك نار الحطب أو الفحم ، وهناك نار الصاعقة . فللصواعق نار سريعة تحدث جرّاء احتكاك الغيوم ببعضها ، وهي رغم قوامها اللطيف فإنها تحرق كل جسم تقع عليه ، ثم ترتدّ دون أن يستطيع شيء إخمادها ، وهي لو أصابت شجرة لحولتها إلى رماد ، وإن وقعت في البحر أحرقت كل ما تصادفه إلى القعر .

فالصاعقة إذاً نار كما أن الفحم في الموقد نار ، لكن هذه الأخيرة تطفئها قبضة من تراب أو قليل من ماء .

أما نار العالم الآخر فلا يمكن قياس شدّتها إطلاقاً مع نار الدنيا مهما بلغت شدّتها .

فلو أن البدن المثالي والروح لشخص ما كانا معذّبين في البرزخ ، فمن الممكن أن يتأثر البدن المادي كذلك (مع ملاحظة أنه لا عمومية لهذا طبعاً) .

كما أننا ـ على العكس من ذلك ـ نشم روائح المسك والعطور عند قبور بعض أولياء الله ، دون أن يستعمل لذلك زهر أو عطر .

الذين لا يستوحشون

وردت في أخبار أهل البيت (عليهم السلام) بشارة مفادها أن فريقاً من الناس يكونون ـ بفضل من الله ـ في أمان من خوف القبر وضغطته وعذاب البرزخ .

فمنهم أولئك الذين تلقّوا التلقين ،ويبدو أن المراد بالتلقين هو التلقين الثالث بعد الدفن .

« قال يحيى بن عبدالله : سمعت من الإمام الصادق (عليه السلام) قوله : ما يمنعكم من عمل يبقي ميّتكم في أمان من رؤية منكر ونكير ؟ قلت : يا مولاي ماذا نعمل ؟ فقال : حين يدفن الميت فعلى وليّه أن يبقى عند قبره ، ويدني فاه عند جهة رأس ذلك الميت ، ثم يقول بصوت عالٍ :

يا فلان ابن فلان ، هل أنت على العهد الذي فارقتنا عليه : من شهادة أن لا إله إلّا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله سيد النبيين ، وأن علياً أمير المؤمنين وسيد الوصيين ، وأن ما جاء به محمد هو الحق ، وأن الموت حق والبعث حق ، وأن الله يبعث من في القبور ؟ .

قال : فيقول منكر لنكير : فلنذهب ، لأنهم لقّنوه الحجة »[١] .

---

(١) وسائل الشيعة ، كتاب الطهارة ، الباب ٣٥ .

(التلقين الأول يكون عند الموت ، والتلقين الثاني عند الدفن في القبر) .

فلا يقولنّ أحد : وماذا يفهم الميت ؟! لطالما قلنا فيما سبق بأن الروح تكون حاضرة وتسمع أفضل مما نفعل .

ولا يقولنّ أحد : إن الميت لا يعرف العربيّة ! لأن كل من يرحل عن هذا العالم ، فكل الألسنة واللغات بالنسبة إليه سواء ، لأن المحدودية تخصّ عالم المادّة وحده .

ومن أهل الأمان أيضاً أولئك الذين يفارقون الدنيا ما بين ظهر الخميس إلى ظهر الجمعة ، فهم يردون على بساط الرحمن عند نزول الرحمة ، فتسعهم رحمته سبحانه ولا يستوحشون ، ومن لطف الله أن يجعل عبده محل عنايته بهذه الأسباب .

ومن الأمور التي وعد بأنها تمنع من عذاب القبر ، الجريدتان ، ويستحب أن تكونا من سعف النخيل ، ويجب أن تكونا رطبتين . وقد وردت رواية في كتاب طهارة الوسائل ، الباب السابع ، فيما يخصّ الجريدتين مفادها : أنه روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال :

يتجافى عنه العذاب والحساب ما دام العود رطباً . إنما العذاب والحساب كله في يوم واحد ، في ساعة واحدة ، قدر ما يدخل في القبر ويرجع القوم ، وإنما جعلت السعفتان لذلك ، فلا يصيبه عذاب ولا حساب بعد جفوفهما إن شاء الله .

ومن الأمور المانعة لعذاب القبر أيضاً : شهادة أربعين نفراً بخير الميت وطلب المغفرة له . فقد ورد في (الأنوار النعمانية) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

كلما حضر أربعون نفراً عند الميت وقالوا : اللهم إنّا لا نعلم منه إلّا خيراً ، يقول الله : قبلت شهادتكم وغفرت له ما لا تعلمون .

وروي عنه أيضاً أنه قال : إنّ عابداً كان في بني إسرائيل ، وأوحى الله إلى داود (عليه السلام) أن ذاك العابد مراءٍ . وعندما مات لم يتوجّه داود (عليه السلام) لتشييعه . لكنّ أربعين نفراً صلّوا عليه وقالوا : اللهم إنّا لا نعلم منه إلّا خيراً ، وأنت أعلم به منّا فاغفر له ، وعندما غسلوه قدم أربعون آخرون وقالوا مثل قولهم ، لأنهم كانوا يجهلون سريرته ، فنزل الوحي على داود (عليه السلام) يقول : لماذا لم تصلّ عليه ؟ قال : ربّ ، لأنك أخبرتني أن هذا العابد مراءٍ ، فجاء النداء : هذا صحيح ؛ ولكن بما أن جمعاً شهدوا بخيره فقد غفرنا له .

وذلك فضل من الله عزّ وجل يمن به على عباده ، فيخلصهم من العذاب دون أن يستحقوا ذلك . ولهذا نرى أهل الفضائل ـ وخاصة السالفين ـ يعدون أكفانهم ويطلبون من أصدقائهم والمؤمنين أن يكتبوا لهم شهاداتهم على أكفانهم .

وينقل المحدّث الجزائري أن أستاذه العلامة المجلسيّ كان يطلب من المؤمنين أن يكتبوا بالتربة الحسينية على كفنه الشهادة على إيمانه ؛ فكانوا يكتبون : لا ريب في إيمانه ، كما يكتبون اسمه مذيّلاً بخاتمهم .

ومن الأمور المؤثّرة كثيراً في هذا المقام وضع تربة الإمام أبي عبدالله الحسين (عليه السلام) في القبر والكفن ، وكذلك مسح الجبهة والكفين بها .

ومن الأمور التي تنفع المرء في عالمي البرزخ والقيامة أعمال الخير التي تؤدّى عن الميت بالنيابة ، أو إهداؤه ثواب مثيلاتها . ويأتي في طليعة هذه الأمور أداء الدين وقضاء ما فاته من صلاة وصوم وحج واجب ، وأمثالها ، ثم

التصدّق عنه في سبيل الله ، والدعاء له ، وطلب المغفرة .

وقد وردت روايات كثيرة في هذا الموضوع عن أهل البيت (عليهم السلام) ، ومن أرادها فليرجع إلى كتاب الطهارة ـ أبواب الاحتضار ـ الباب الثامن والعشرين من (وسائل الشيعة) . كما نقل ستة وعشرون حديثاً في قضاء الصلاة ، في الباب الثاني عشر ، ويراجع أيضاً باب الحج والوقت من الكتاب المذكور .

وخلاصة تلك الروايات أن من أتى بعمل خير نيابة عن الميت من صلاة أو صوم أو حج أو صدقة جزاه الله أجره وثوابه ، ويضاعفه لعامله رحمة .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : إنه يكون في ضيق فيوسع الله عليه ذلك الضيق ، ويقال له : خُفف عنك هذا الضيق ، فهذه هدية فلان ابن فلان إليك ، (من الدنيا) .

وتعود بعض مراتب الإنفاق بأجر عظيم على الميت ؛ كما في رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في كتاب الوسائل ، ومفادها : إذا تصدّق الرجل بنيّة الميت أمر الله جبرائيل أن يحمل إلى قبره سبعين ألف ملك ، في يد كل ملك طبق ، فيذهبون إلى قبره ويقولون : السلام عليك يا وليّ الله ، هذه هدية فلان ابن فلان إليك ، فيتلألأ قبره ، وأعطاه الله ألف مدينة في الجنة ، وزوّجه ألف حوراء ، وألبسه ألف حلّة ، وقضى له ألف حاجة .

ويروى في كتاب (جامع الأخبار) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : ابعثوا بهديّة إلى موتاكم ، فسألوه : وما هدية الموتى ؟ قال : الصدقة والدعاء ، وقال : إن أرواح المؤمنين تأتي كل ليلة جمعة إلى سماء الدنيا فوق بيوتهم ، وتصيح بصوت حزين باكٍ :

يا أهلنا ، يا أولادنا ، يا والدينا ، يا أقرباءنا ترحّموا علينا يرحمكم الله ـ

فما كان في أيدينا ، فحسابه وعذابه علينا ، ونفعه لغيرنا ، ترحّموا علينا بدرهم أو بقرص خبز أو بلباس ؛ ألبسكم الله من لباس الجنة . . . إلى آخر الحديث .

أين هو البرزخ

يتبادر إلى أذهان البعض هذا السؤال : أين يقع عالم البرزخ ، بما هو عليه من الحجم والاتّساع ؟ .

ورد في الروايات تشبيه بأن عالم الدنيا كله ، بما فيه من سموات وأرضين ، ليس بالنسبة لعالم البرزخ سوى كحلقة صغيرة في بيداء واسعة ، أو كشخص بالنسبة للدنيا ، أو كطفل في بطن أمه بالنسبة إلى العالم خارج الرحم .

وعقلنا وإدراكنا لن يبلغا بنا حدّ الإحاطة بهذا العالم ، فكيف بعالم البرزخ ، والذي نستطيع قوله هو أن عالم البرزخ محيط بالتأكيد بهذا العالم ، لكنه لا محدودية له ، وليس له قيد من زمان أو مكان ، فهذه قيود تخص عالم المادة والظواهر .

إن قيل لطفل في بطن أمه : إن وراء هذا البطن عالماً ، لا يعد عالم الرحم بالقياس إليه شيئاً ؛ لعجز عن إدراك هذا وفهمه . والأمر كذلك بالنسبة إلينا فنحن ندرك الظاهر المحسوس ، لكننا لا ندرك ماهية العوالم الأخرى .

يقول القرآن المجيد : ﴿ **فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[1] .

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٧ .

ونحن نصدّق بما يكون ، لأنه نقل إلينا عن مخبر صادق ، وأفضل ما نشبّه به عالم البرزخ هو أنه يحيط بهذا العالم ، إحاطة هذا العالم برحم الأم .

الأرواح تأنس باجتماعها

يروى عن الأصبغ بن نباتة أنه رأى أمير المؤمنين (عليه السلام) يقف عند باب الكوفة متوجهاً نحو الصحراء ، وكأنه يكلم أحداً أو يتحدث مع شخص ما ، لكنه لم ير أحداً غيرهما ، فوقف ينتظر ، وطال به الوقوف حتى أحس بالتعب فجلس ليستريح ، ثم عاود الوقوف حتى تعب ، هذا وأمير المؤمنين (عليه السلام) ما يزال واقفاً يتحدث . فسأله مع من يتحدث فقال : إن هي إلا محادثة مؤمن أو مؤانسته ، فسأل الأصبغ : أمع المؤمنين ، فقال : نعم ، ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون ، فقال : أرواح أم أجساد ؟ قال : بل أرواح . .

وادي السلام محل الأرواح

يستفاد من الروايات أنه ما من مؤمن في شرق العالم أو غربه ترحل روحه عن الدنيا إلا وتحلّ بالقالب المثالي في وادي السلام بجوار أمير المؤمنين (عليه السلام) ، أي أن النجف الأشرف هو محل لظهور الملكوت العلوي .

وبالمقابل فإن لأرواح الكفار صحراء (بَرَهوت) وهو وادٍ رهيبٌ في اليمن ، لا ينمو فيه نبات ولا يرتاده طائر ؛ فهو محل ظهور الملكوت السفلي .

ومجاورة علي (عليه السلام) هي مجاورة روحانية ، فمع أن جسد

الإنسان بعيد ، إلّا أنه يكون قريباً من علي (عليه السلام) بالعلم والعمل ، وبعيداً بقدر ما يصدر عنه من ذنوب ، فإذا كانت الروح قريبة منه (عليه السلام) ، فإن الجسد أيضاً يكون مدفنه قريباً في النجف الأشرف ويا لها من سعادة ! . أما إن كانت الروح معذّبة في وادي (بَرَهوت) فليس للجسد أن يكون في النجف . فيجب السعي إذاً لتكون الصلة الروحية قوية .

ومع هذا ، فليس دفن الميت في النجف عديم التأثير ، بل له كمال التأثير ، فهو نوع من التوسّل بشفاعة أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ورد في كتاب (مدينة المعاجز) قصة مفادها : أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان ذات يوم جالساً مع جماعة من أصحابه عند باب الكوفة ، نظر إلى البعيد وقال : إني أرى رجلين وقد أتيا بجنازة على ظهر جمل ، وأمامهما مسيرة ثلاثة أيام . وفي اليوم الثالث شاهد الأصحاب ـ وهم في جلستهم مع أمير المؤمنين (عليه السلام) كما كان شأنهم قبلاً ـ جملاً يمسك أحدهم بزمامه ، وعلى ظهره نعش ، ويسير خلفه رجل آخر ، ولما اقتربوا سألهم الإمام عن المكان الذي وردوا منه فقالوا : نحن من أهل اليمن ، وهذا جثمان أبينا ، وقد أوصانا أن ندفنه في نجف الكوفة ، ومما قاله لنا : سيدفن هناك رجل لو أراد أن يشفع لأهل المحشر جميعاً لكان له ذلك بفضل من الله . فقال (عليه السلام) : صحيح ، أنا والله ذلك الرجل . قالها مرتين .

وفيما يعود إلى اللواذ بقبر أمير المؤمنين وفائدة ذلك ، فقد أورد المحدث القمي في مفاتيح الجنان مثلاً مناسباً للمقام فقال :

من أمثال العرب السائرة : « أحمى من مجير الجراد » . وقصة المثال : أن رجلاً من أهل البادية من قبيلة طيّ يسمى (مدلج بن سويد) كان ذات يوم في خيمته ، فإذا هو بقوم من طي ، ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع في فنائك ، فجئنا لنأخذه ، فلما سمع (مدلج) ذلك ركب

فرسه وأخذ رمحه وقال : أيكون الجراد في جواري ثم تريدون أخذه ؟ لا يكون ذلك .

فما زال يحرسه حتى حميت الشمس عليه ، وطار ، فقال : شأنكم الآن ، فقد تحوّل عن جواري .

فمن البديهي أن من استجار بالإمام علي (عليه السلام) والتجأ إليه ، فسينعم ـ قطعاً ـ بحمايته المباركة .

تعلّق الروح بالقبر هو الأقوى

يقول المحدّث الجزائري في أواخر (الأنوار النعمانية) :

.. إن قلت إن الأرواح تكون في القالب المثالي في بيت السلام ، فكيف أُمِر الناس بزيارة القبور ؟ .

وفي حال أن الأرواح ليست عند قبورها ، فكيف تسمع وتفهم زوّار القبور ؟ .

فنجيب : إنه يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أن للأرواح إحاطة علميّة بقبورها وما يجري حولها ، رغم كونها في وادي السلام ، فهي تعرف الزائرين والواردين . وقد شبه (عليه السلام) الأرواح بالشمس ، فأشعتها تحيط ببقاع الأرض كافة رغم أنها بعيدة في السماء . والأرواح كذلك .

ويقول الوضيع : كما أن شعاع الشمس إذا انعكس في مرآة أو بلّور يكون أقوى ، فكذلك تكون إحاطة الأرواح بقبورها فهي هناك أشمل وأقوى منها في أي موضع آخر . ذلك لأن بدناً استقرت فيه زمناً ، وبلغت ببركته الكمال والسعادة لهو موردٌ لنظرها وتعلّقها .

ولعلّ في هذا جواباً لمن يقول : ما لزوم الذهاب لزيارة قبر الإمام طالما أنه يكون حاضراً في كل مكان ؟! إذ لا فرق بين أي موضع وموضع آخر .

نعم ، لا شك في ذلك ، ولكن مواضع القبور الشريفة للأئمة وعظماء الدين هي مورد توجه أرواحهم الشريفة ، ومحل نزول البركات الإلهية ، ومكان لتردد الملائكة ، فمن أراد أن يحظى بنصيب كامل من هذه البركات عليه أن يسعى إلى تلك العتبات المقدسة ما استطاع ، وأن لا يبرحها ما أمكنه ذلك .

شبهة أخرى وجوابها

يثير البعض شبهة أخرى تقول :

إن الروح تستقرّ بعد الموت في بدن لطيف يسمّى البدن المثالي ، وهو يشبه البدن الجسماني ، وهي تتلقى الثواب أو العقاب بذاك البدن ، والإنسان حين قام بأعماله في الحياة الدنيا ، فإنه إنما إدّاها بهذا البدن المادّيّ الترابي ، فلماذا يحاسب البدن الآخر ، فيلقى نتيجة العمل من ثواب أو عقاب ؟! .

هناك أجوبة متعددة عن هذا التساؤل :

يبيّن العلاّمة المجلسي ـ عليه الرحمة ـ أن البدن المثالي ليس شيئاً خارجياً ، بحيث يؤتى به بعد الموت ويقال للروح : تفضّلي واستقري هنا ، بل إن البدن المثالي بدن لطيف يرافق الإنسان دائماً ؛ فإن كل روح لها بدنان : بدن روحاني لطيف ، وبدن مادّي كثيف ، والإنسان يتعبّد بكلا البدنين ، كما أنه يعصي بكليهما كذلك . ويتّضح الأمر جيّداً عند النوم ، فما يراه النائم يتم بواسطة البدن المثالي ، بعد أن يفترق عن البدن المادّي ، فالنائم يتوجّه ـ بطرفة عين ـ إلى كربلاء أو مشهد أو أي مكان آخر في الشرق أو الغرب . فالبدن المثالي لا محدودية له كما للآخر الماديّ .

وهكذا يتضح أن البدن المثالي مرافق للإنسان ، لكنه ينفصل عن البدن الجسماني بعد الموت ، ورأي المجلسي هذا يتحقّق كثيراً ، وعليه شواهد جمة .

ثانياً : إن الروح الإنسانية تُصوَّر بعد الموت بصورة البدن الدنيوي ، لا أنها تستقر في بدن خارجي ، بل أن شكلها يأخذ الصورة الجسمانية ، ولا فرق هنا في تسميتها بالبدن المثالي ، أو القالب البرزخي ، أو الروح . لكنها بما أنها لطيفة ، فالعين الماديّة لا تدركها .

وعلى العموم فالروح هي التي أطاعت أو عصت ، وهي التي ستحاسب لاحقاً ، وسواء تعلقت بالبدن المثالي أو بقيت مستقلة ، فإنها يوم القيامة ستستقر في البدن الجسماني كما سيأتي .

ثواب البرزخ وعقابه في القرآن

١ ـ ﴿ النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة ، أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ﴾[1] .

هذه الآية الشريفة هي من جملة آيات تدل على عذاب البرزخ . وهي تتعلق بآل فرعون ، وقد كان مصيرهم الموت غرقاً في النيل ، ومذ ذاك فهم يعرضون على النار صباح مساء إلى أن تقوم الساعة ، فينزل بهم أشدّ العذاب .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : إنه لا يكون يوم القيامة غدوّ ولا عشيّ ، وإنما يرجع هذا للبرزخ .

---

(١) سورة المؤمن : الآية ٤٦ .

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : إذا مات المرء عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ ، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار . ويقال : هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة .

٢ ـ ﴿ فأمّا الذّين شَقُوا ففي النار ، لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، إلاّ ما شاء ربّك ، إنّ ربّك فعّال لما يريد * وأمّا الذين سُعدوا ففي الجنة ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، إلاّ ما شاء ربُّك ، عطاءً غير مجذوذ ﴾[١] .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : إن هذه الآية تتعلق بالبرزخ ، والمراد هنا هو الثواب والعذاب البرزخيّان ، وإلاّ فإنه لا سماء في القيامة « إذا السماء انشقّت » . وتبدّل الأرض أيضاً بغير هذه الأرض « يوم تبدّل الأرض غير الأرضِ والسموات وبرزوا لله الواحد القهّار » .

٣ ـ ﴿ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾[٢] .

نزلت هذه الآية الكريمة بمؤمن آل فرعون ؛ حبيب النجار ، حين دعا قومه لاتّباع الأنبياء فهدّدوه (كما ورد في شرح سورة يس) ، ثم قضوا عليه شنقاً ، فأدركه الثواب الإلهي وقال : « يا ليت قومي يعلمون ، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » .

يقول الإمام علي (عليه السلام) عن قوله تعالى : « قيل ادخل الجنة » : إنها الجنة البرزخية .

---

(١) سورة هود : الآيات ١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٢) سورة يس : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

وفي رواية أخرى يعبّر عنها بالجنة الدنيوية ، التي هي أسفل من جنة القيامة .

وإجمالاً ، فإن الظاهر من هذه الآية الشريفة أن مؤمن آل فرعون دخل ـ بعد استشهاده ـ الجنة البرزخيّة ، وبما أن قومه كانوا لا يزالون أحياء فقد قال : يا ليت قومي يعلمون بما منّ الله عليّ ، وأولاني من نعمه وعطاياه ، وذلك كي يتوبوا وينيبوا إلى الله .

٤ ـ ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(١) .

قال أكثر المفسّرين إن المعيشة الضنك ، إشارة إلى العذاب في القبر والبرزخ ، وقد وردت عن الإمام السجاد (عليه السلام) رواية بهذا المعنى .

٥ ـ ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعونِ * لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلّا إنّها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾(٢) .

تدلّ هذه الآية دلالة واضحة على وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة وقبل الحياة الآخرة وقيامة الإنسان ، تشكّل حدّاً فاصلاً بينهما ، وتسمّى بعالم القبر أو عالم البرزخ .

ويتضح من التدبّر في آيات الكتاب المجيد أن الروح الإنسانية هي حقيقة مغايرة للبدن ، لكنها تشكّل معه نوعاً من الاتّحاد تتم به إدارة البدن بواسطة الإرادة والشعور ، فشخصية الإنسان هي بالروح ، وليست بالبدن الذي يفنى ويتلاشى بالموت ، فإن حقيقة وشخصية الإنسان (وهي الروح)

---

(١) سورة طه : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

باقية بعد الموت وتنشغل بسعادة خالدة أو بشقاء أبديّ ، فسعادة الإنسان وشقاؤه مرتبطان بملكاته النفسانية وأعماله في هذا العالم ، ولا يرتبطان بخصائصه الجسمية .

وقد وردت عن حكماء الإسلام براهين عقليّة تثبت أنّ الروح غير البدن ، وأنّها لا تفنى بالموت ، وأنّ الأحكام المرتبطة بها تتفاوت مع أحكام البدن ، وبعد التدبّر في قول الله عزّ وجلّ ، وأقوال الأئمة (عليهم السلام) ، لا تبقى حاجة لمزيد من البرهان ، فالأمر واضح لنا وضوح الشمس ، بل هو أوضح .

٦ ـ ومن جملة الآيات المتعلّقة بالجنّة البرزخية الآيات الواردة في أواخر سورة الفجر :

﴿ يا أيّتها النفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّةً * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي ﴾[١] .

فهي تخاطب صاحب النفس المطمئنة عند الموت : أن ادخل في عبادي (أي في زمرة محمد وآله) ، وادخل الجنة (التي فسّرت بالجنة البرزخية) .

وهناك آيات أخرى كذلك تتحدث صراحة أو كناية عن الجنة أو جهنم البرزخيتين ، وفيما تقدم الكفاية .

ثواب البرزخ وعقابه في الأخبار

كثيرة هي الأخبار التي تتحدث عن الثواب والعقاب في عالم البرزخ . ونكتفي هنا ببضع روايات :

---

(١) سورة الفجر .

ورد في المجلّد الثالث من كتاب (البحار) عن تفسير علي بن إبراهيم القمّي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال :

إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا ، وأوّل يوم من الآخرة مُثِّلَ له ماله وولده وعمله .

فيلتفت إلى ماله فيقول : والله إني كنت عليك لحريصاً شحيحاً ، فمالي عندك ؟ فيقول : خذ مني كفنك .

ثم يلتفت إلى ولده فيقول : والله إنّي كنت لكم لمحبّاً ، وإني كنت عليكم لمحامياً ، فما لي عندكم ؟ فيقولون : نؤدّيك إلى حفرتك ونواريك فيها .

ثم يلتفت إلى عمله فيقول : والله إني كنت فيك لزاهداً ، وإنّك كنت عليّ ثقيلاً ، فماذا عندك ؟ فيقول : أنا قرينك في قبرك ويوم حشرك ، حتى أعرض أنا وأنت على ربّك .

فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً ، وأحسنهم منظراً ، وأزينهم رياشاً فيقول : أبشر بروح من الله وريحان وجنة نعيم ، قد قدمت خير مقدم . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، ارتحل من الدنيا إلى الجنة .

وإنّه ليعرف غاسله ، ويناشد حامله أن يعجله ، فإذا أدخل قبره أتاه ملكان وهما فتّانا القبر ، يجرّان أشعارهما ، ويبحثان الأرض بأنيابهما ، أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيقولان له : من ربك ومن نبيّك وما دينك ؟ فيقول : الله ربّي ومحمد نبيّي والإسلام ديني . فيقولان : ثبّتك الله فيما تحب وترضى . وهو قول الله : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا » . الآية . فيفسحان له في قبره مدّ

بصره ، ويفتحان له باباً إلى الجنة ، ويقـولان له : نم قـرير العين نـوم الشابّ الناعم . وهو قول الله : « أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً » .

وإذا كان لربّه عدوّاً فإنه يأتيه أقبح خلق الله رياشـاً ، وأنتنه ريحـاً فيقول له : أبشر بنزلٍ من حميم وتصلية جحيم .

وإنه ليعرف غـاسله ، ويناشـد حامله أن يحبسـه ، فإذا أدخـل قبره أتـاه ممتحنا القبر ، فألقيـا عنه أكفانه ، ثم قالا له : من ربّك ومن نبيّك وما دينك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقولان له : ما دريت ولا هديت ، فيضربانه بمرزبة ضربة مـا خلق الله من دابّةٍ إلّا وتـذعر لهـا ما خـلا الثقلين ؛ ثم يفتحان لـه بابـاً إلى النـار ، ثم يقولان لـه : نم بشرّ حـال ، فهو من الضيق مثـل مـا فيـه القنـا من الزّجّ ، حتى أن دماغـه يخرج من بين ظفـره ولحمه ؛ ويسلّط الله عليـه حيّات الأرض وعقـاربها وهـوامّها فتنهشـه حتى يبعثه الله من قبـره ؛ وإنه ليتمنّى قيـام الساعة ممّا هو فيه من الشرّ ، ويدوم هذا الأمر إلى أن يبعثه الله من قبره .

كمـا نقل في (الأمـالي) للشيخ الـطوسي حـديث عن الإمـام الصـادق (عليه السلام) جاء في آخره : فـإذا قبضه الله عـزّ وجلّ صيّـر تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا ، فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا .

وقـال في حـديث آخـر : إن الأرواح في صفـة الأجسـاد في شجـرة في الجنة تعارف وتساءل ، فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنها قد أفلتت من هولٍ عظيم ، ثم يسألونهـا : ما فعـل فلان ؟ ومـا فعل فـلان ؟ فإن قـالت لهم : تركتـه حيّاً ، ارتجـوه . وإن قالت لهم : قـد هلك ، قالـوا : قد هوى ، هوى هناك ، ولا بدّ أنه رحل إلى جهنّم .

وفي المجلّد الثـالث من كتـاب (البحـار) ، عن كتـاب (الكـافي)

وغيره ، نقلت رواية مفـادها أن الأرواح في عـالم البرزخ تـأتي لزيـارة أهاليهـا وأقاربها لتلقاهم وتسأل عن أحوالهم ، بعضها يأتي كل يوم ، ومنها ما يأتي في يومين متتاليين ، ومنها ما يحضر في ثلاثة أيام متوالية . وبعضها يحضر كل يوم جمعة ، وبعضها كل شهر ، وبعضها الآخر كل سنة ، ومردّ هذا الاختلاف إلى تفاوت الحالات ، وسعة أو ضيق مقامها ، وحرّيتها ومصاعبها .

وفي روايـة أن المؤمن لا يرى من أهله سـوى الخير ومـا يدعـو للفرح ، ويذهب عنه ما يزعجه . أما روح الكافر فلا ترى سوى الشر والأمور المزعجـة لا غير .

حوض الكوثر في البرزخ

روي في كتب متعـددة[1] عن عبد الله بن سنـان أنه سـأل الإمـام جعفـر الصادق (عليه السلام) عن حوض الكوثر ، فقال (عليه السلام) : حوض ما بين بصـرى إلى صنعاء ، فتعجب عبـد الله ، قـال الإمـام (عليـه السـلام) : أتحب أن تراه ؟ قال : أجل يا مولاي . . . قال : انظر . [وقد زال الحجـاب الملكوتي من أمام عينيه بأمر من الإمام (عليه السلام)] . يقـول : رأيت نهراً لا يـظهر طـرفاه ، غيـر أن الموضـع الذي كنت واقفـاً فيه مـع الإمام كـان مثل جـزيرة . وبـرز أمام نـاظري نهـر يجري في أحـد طرفيـه ماء أشـدّ بياضـاً من الثلج ، وفي طـرفه الآخـر لبن أشدّ بيـاضاً من الثلج ، وبينهـمـا يجري شـراب كالياقوت احمراراً ولطافة ممـا لم أر مثيلاً لـه قط . قلت : جعلت فداك ، من أين يخرج هذا النهر ؟ قال : هذه هي العيون التي ذكرها الله في كتابه ، أنهار في الجنة ، عين من ماء ، وعين من لبن ، وعين خمر تجري في هذا النهر .

وعلى ضفتي ذلك النهر كان هناك أشجار ، ووسط الأشجار حوريّات كان

---

(١) بصائر الدرجات ـ المجلد الثالث من (بحار الأنوار) ص ١٥٢ ، معالم الزلفا وغيرها .

الشعر يتدلّى من رؤوسهنّ ، بحيث أني لم أر بجمال ذلك الشعر قط . وبيد كل منهنّ طبق لم أر مثيلاً له قط ، ولم يكن من أطباق الدنيا .

ثم تقدم الإمام إلى إحداهنّ ، وأشار أن هاتي الماء ، فملأت تلك الحورية طبقاً من النهر وقدمته له ومالت ، فأشار إليها أن تملأ الطبق ثانية ، فملأته فأعطانيه الإمام فشربت ، ولم أكن قد جرعت شراباً بمثل تلك اللطافة واللذة ، إذ كان له رائحة المسك . قلت : جعلت فداك ، لم أر قط ما رأيت اليوم ، ولم أتصوّر قط أن يوجد مثل هذا .

قال الإمام (عليه السلام) : هذا أقلّ ما أعدّه الله لشيعتنا ، وإن المؤمن إذا توفّي صارت روحه إلى هذا النهر ، ورعت في رياضه ، وشربت من شرابه . وإن عدوّنا إذا توفّي صارت روحه إلى وادي بَرَهوت ، فخلدت في عذابه ، وأطعمت من زقّومه ، وأسقيت من حميمه . فاستعيذوا بالله من ذلك الوادي .

ومن الذين رأوا الجنة البرزخية في هذا العالم ، أصحاب سيد الشهداء حيث أظهرها لهم الإمام (عليه السلام) في ليلة عاشوراء .

وروي في المجلد الثاني من كتاب (البحار) عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه ما من متوفّى يرحل عن الدنيا إلاّ ويسقى في نَفَسه الأخير من حوض الكوثر إذا كان مؤمناً ، ويسقى من حميم جهنّم إذا كان كافراً .

بَرَهوت مظهر جهنّم البرزخيّة

إن وادي السلام ـ كما تقدم ـ هو محلّ تجمّع الأرواح السعيدة ، وبَرَهوت صحراء قاحلة جرداء ، لا كلأ فيها ولا ماء ، وهي كذلك مظهر لجهنّم البرزخية ، ومحل عذاب الأرواح الخبيثة . وأعرض هنا حديثاً يمكن أن يتّضح معه قصدنا .

دخل رجل ذات يوم مجلس رسول الله (صلى الله عليه واله) ، وعلى وجهه تبدو سيماء الوحشة ، وأخبر الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه رأى مشهداً عجيباً ، فسأله الرسول عمّا رآه فقال كمن يشكو :

إن امرأتي أصيبت بمرض شديد أعياها ، فأشير عليّ بأنْ أحضر لها ماء من بئر في وادي بَرَهوت فتشفى . (بعض الأمراض الجلدية تعالج بالمياه المعدنية) ، أخذت عدتي للتوجّه إلى ذلك المكان ، من قربة وقدح وسواهما ، وذهبت إلى هناك ، فوجدتني في صحراء موحشة ، اعتراني خوف شديد وانتابتني الهواجس ، لكني قاومتها ، ورحت أبحث عن البئر حتى وجدتها . رحت أملأ القربة بالقدح ، وإذا بي أسمع من فوقي صوتاً يشبه صوت ارتطام السلاسل ، ورفعت رأسي فرأيت شخصاً معلقاً ، والسلاسل تحيط بعنقه وهو يقول : اسقوني فقد هلكت . توجّهت نحوه أريد أن أسقيه فإذا به يرتفع ، كما لو أن أحداً سحبه إلى الأعلى باتّجاه قرص الشمس . انتابني خوف شديد ، لكني عدت لأملأ القربة فإذا به يهبط ثانية وهو يسترحم طالباً ماء ، لكنه سحب إلى الأعلى عندما أردت أن أسقيه ، وتكرر الأمر للمرة الثالثة ، فما كان مني إلا أن حملت القربة ، وأسرعت هارباً لا ألوي على شيء ، من شدّة الخوف والرعب . وقدمت مباشرة إليك ، لعلك تنبئني بتفسير لما حصل .

فأجابه الرسول (صلى الله عليه وآله) بأن ذلك الشخص هو قابيل الذي قتل أخاه[1] . وسيقيم في هذا العذاب ، في ذلك المكان حتى يوم القيامة ، فيلقى مصيره في جهنّم ، حيث قمة العذاب .

وقد روى السيد مؤمن الشبلنجي في كتاب (نور الأبصار) عن أبي القاسم بن محمد أنه قال :

---

(١) ﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ سورة المائدة : الاية ٣٠ .

رأيت اجتماعاً في مقام إبراهيم (عليه السلام) في المسجد الحرام ، فسألت عن السبب فقيل لي : إن هناك راهباً قد أسلم ، وقدم إلى مكة ، وهو يحدّث بخبر عجيب .

توجهت إلى المكان حيث ازدحم الناس ، فرأيتهم يحيطون بشيخ وقور يلبس الصوف ، كما وضع على رأسه قبعة من الصوف كذلك . كان يبدو في جلسته عظيم الجثة ، وكان يقول :

كنت يوماً في صومعتي بجوار البحر . وكنت أحدّق في الماء ، فإذا بطير كأنه نسرٌ كبير يقبل ويحطّ على صخرة قريبة ، ويشرع بقرض قطعة من جسد إنسان أحضرها معه ، ثم يطير حتى يغيب عن النظر ، ثم يعود ثانية ليقرض جزءاً آخر من جسد ذلك الإنسان ، وكرر فعلته أربع مرات حتى التهم الجسد بكامله . فإذا بي أرى جسد الإنسان ينتصب واقفاً كأن لم يجر له شيء . ثم رأيت الطير يقبل ثانية ويشرع بالتهامه حتى أتى على ربعه ، وعاود فعلته أربع مرات حتى أتى عليه بكامله ، كما فعل في الكرة الأولى .
عجبت من هذا الذي رأيته ، واحترت في أمر ذلك الرجل ، وأسفت لأني لم أسأله عن ذلك .

وفي اليوم التالي ، أقبل الطير كحاله في اليوم السابق ، لكنه هذه المرة أحضر الجسد بكامله ، وبدأ بقرض لحمه حتى أتى عليه ، ثم إذا بالرجل ينتصب إنساناً سويّاً ، أسرعت إليه جرياً واستحلفته بالله أن يخبرني عن قصته ، فلم يجب ، حتى استحلفته ثانية ، قال :

أنا ابن ملجم ، وقد قتلت علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، فسلّط الله عليّ هذا الطير ليعذّبني كل يوم على النحو الذي رأيت .

تركت صومعتي ، ورحت أسأل عمنّ هو علي بن أبي طالب ، حتى

عرفت أنه ابن عم محمد (صلى الله عليه وآله) ووصيّه ، فأسلمت . وها أنذا قادم لحجّ بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله) .

الفصل الثالث

القيامـــة

القيامة في حكم العقل

لنفترض أنه لم تصل إلينا دلائل نقلية على وجود يوم القيامة ، ولنفترض أن الأنبياء لم يأتوا ليؤكدوا ذلك ، ولم يقوموا بدعوة الناس إلى الأعمال والسلوك والعبادات التي هي مورد الحساب في ذلك اليوم ؛ أفليس العقل أكبر شاهد ودليل ؟ ألا يحكم العقل بأن الخلقة الأولى للموجودات ، ودوران عالم الأفلاك هذا لا يمكن أن يكونا دون هدف وغاية ؟ .

ننظر حوالينا فنرى الليل ينقلب نهاراً ، والنهار يعقبه ليل ، ونرى الإنسان يأكل وينام ويمارس نشاطاته ، وأن الطفل يكبر والشاب يشيخ ويموت ، فهل الموت يا ترى هو الغاية من ذلك النظام الكبير اللامتناهي لهذا الكون العظيم ؟! .

إن الحضارة المزيفة هي التي تركت الإنسان تائه الفكر ، يتخيل أن الحياة مجرد عبث ولهو ، فهي فقط للأكل والشرب والنوم وممارسة الشهوات ، إنها بحياة الحيوانات أشبه ، فإن كان الأمر كذلك ، فما الحاجة إذاً لوجود الإنسان ؟! .

إن أولئك الذين ينكرون الآخرة ، ولا يعترفون بحكمة الله من إيجاد هذا الكون ، ألا يعني تفكيرهم هذا أن نظام الكون لغو لا غاية له ؟[1] .

إنهم على خطأ ، لأن كلّ ما نشاهده ـ وأينما تطلّعنا ـ يحمل من الحكمة الكثير مما ندركه ، والأكثر الأكثر مما لا يحيط به إدراكنا القاصر . إن أكثر الأشياء صنعةً في هذا العالم لا يمكن أن يكون وجوده دون حكمة أو مصلحة ، حتى ما يبدو زائداً كالشعر والأظفار فهو كذلك ، خذ الظفر مثلاً : هذا الشيء الصغير عديم الأهمية ، أليس بمثابة متّكأ ومسند للأصابع ؟ ألا تتحمل الإصبع الضغط والثقل بفضل هذا الظفر ؟ وكيف يكون حال الإصبع إن لم تتسلّح بالظفر ؟ ناهيك عما يقوم به من حكّ للبدن ودفع للأوساخ ، الأمر الذي يدعو لتقليم الأظفار مرة في الأسبوع على الأقل (ويستحبّ ذلك يوم الجمعة) .

أما شعر البدن ، فوجوده ليس عبثاً كذلك . يقول الإمام الصادق (عليه السلام) للمفضّل : « إن المانويّة وأشباههم حين جهدوا في عيب الخلقة ، عابوا الشعر النابت على الركب والإبطين ، ولم يعلموا أن ذلك من رطوبةٍ تنصبّ في هذه المواضع ، واعلم أن آلام البدن وأدواءه تخرج بخروج الشعر في مسامّه . . . فتخرج الآلام والأدواء بخروجهما (الشعر الأظفار) . . . أما إذا طالا تحيّرا وقلّ خروجهما فاحتبست الآلام والأدواء في ...ن » [2]

... أمر بالإسراع في إزالة الشعر ، كل أسبوعين على الأكثر) .

وهكذا ، فجميع مظاهر الوجود ، مهما بلغت في الصغر ، يرى فيها الإ... عمقاً وإغراقاً في الحكمة .

---

(١) ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا تُرجعون ؟ ﴾ سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .

(٢) للتوسّع في الشرح يُرجع إلى كتاب (توحيد المفضل) .

اشتهر عن (جالينوس) الحكيم أنه كان يعترض على خلق الجعل ، ولا يرى أي فائدة منه ، فلماذا خلقه الله ؟! .

وكان أن ابتلي بمرض مؤلم في عينه ، وعجز عن العلاج رغم أنه كان من أفضل أطباء عصره ، أتته يوماً امرأة مسنّة وعرفت ما يشكو منه ، فوصفت له دواء تعرفه . ولما تعاطى ذلك الدواء شفيت عينه ، وحين سأل المرأة عن سرّ ذلك الدواء أجابته بأنه دواء يدخل في تركيبه جزء من بدن الجعل .

أجل ، فكل ذرّة من ذرّات هذا الوجود خلقت لحكمة ، فإذا كان للظفر أو الشعرة تلك القيمة ، فهل خلق الإنسان كله دون هدف أو غاية ؟ هيهات .

وقد أجمع علماء هذا العصر أنهم لم يتوصّلوا بعد إلى إدراك كافّة علل نظام الكون ، والحكمة منه ، والله وحده يعلم ماذا سينكشف للبصائر من عجائب ، فقد كان الرأي السائد بين الأطباء قبل أربعين سنة ، أن (الزائدة الدودية) في جسم الإنسان عضو زائد تجب إزالته ، وقد بادر كثير من الناس ـ حتى المعافون منهم ـ إلى استئصال تلك (الزائدة) . غير أنه تبيّن فيما بعد أن (الزائدة) هي بمثابة ناقوس للخطر يدقّ إذا ما عرض للأمعاء عارض خطر ، ناهيك عما يمكن أن يكون لتلك الزائدة من فوائد أخرى ، لم تدرك بعد .

أما عدد الأسنان في الفم ، فهل خلق هكذا عشوائياً دون حكمة ؟ وهل تكفي سن واحدة ـ مثلاً ـ لطحن الطعام ومضغه قبل بلعه ؟ وكيف تكون حال الجسم لو فقد عظماً واحداً من عظامه المئتين وثمانية وأربعين عظماً ؟ ألا يختلّ نظام البدن ؟ وقس على ذلك ما تبقّى من شرايين وأوردة وغيرها ، فهل أتى تركيب الجسم على هذه الصورة دون حكمة ؟! .

من هنا ندرك حكمة الخالق العظيم ، وحين نتدبّر الغرض والحكمة من

خلق هذا الوجود ـ حتى أصغر ذرّة منه ـ ندرك أن الغاية هي مصلحة الإنسان ، وما يعود عليه بالنفع والفائدة .

« لئن كان الغيم والريح والفلك ، والشمس والأرض والقمر ، كل ذلك مسخراً لتأمين الخبز للإنسان ، أفليس من الإنصاف أن يطيع الإنسان من سخر له ذلك ؟ » .

وأتساءل : هل الغرض من وجود الإنسان أن يحيا هذه الحياة المادية ، ثم ينتهي كل شيء ويفنى ؟ وعلى فرض المحال : لو أن الحياة كانت كلها هناء ورغداً ، لا تشوبها المتاعب والآلام ، أليس من العبث ـ إذ ذاك ـ أن تزول وتفنى ؟ وهل خلق الكون بهذه العظمة والاتّساع والشمول لينتهي إلى فناء لا يعقبه شيء ؟! .

أما الواقع ، فهو أن الحياة مليئة بالمصائب والمحن ، حافلة بالمتاعب والفتن ، بما فيها من أمراض وأدواء ، وموت للأولاد والأصدقاء . فلئن كانت الحياة كذلك ، أفلا تكون الخلقة من أصلها عبثاً لا طائل تحته ولا حكمة فيه ؟! وكيف يتفق هذا مع حكمة الخالق وكرمه ورحمته ؟ .

إذاً ، فلا شك في أنه ستكون هناك حياة أخرى وعالم أفضل ، ينتهي فيه الإنسان إلى خير ، وتنتظره فيه السعادة الكاملة ، دون أن يكدّر صفوه سوء أو شقاء ، ودون أن ينتهي إلى فناء .

« أريد أن أرتحل عن هذا البيت الخرب ، أنشد الراحة عند الأرواح ، فروحي تهفو إلى ذلك » .

وأخيراً ، فالعقل لاشك يحكم بأن الله عزّ وجلّ إنّما خلق الإنسان من أجل حياة خالدة ، وسعادة وسرور دائمين ، وأنظره في هذه الحياة الفانية إلى

مدة يستعدّ فيها لحياته الآتية الباقية ، فيهيّىء لها زادها ، ويحلّق إلى الأرواح على جناحي العلم والعمل .

والحق أن الإنسان لو رجع إلى عقله ووجدانه وفطرته ، لتبيّن له أن في الإمكان الشكّ والتردد في أي شيء ، إلاّ في مسألة المبدأ والمعاد ، أي أن يعتقد بربّ العالمين ، ويعتقد بالحياة الأبدية وعالم الحساب بعد الموت ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولا شك في هذا ولا تردد .

لقد أضاع أكثر الناس ما فطروا عليه ، حين أفرطوا في الشهوات ، وانصرفوا إلى الأمور الماديّة ، فاعتراهم الشك وضلّوا السبيل .

﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾[١] .

والعقل كذلك ، يحكم بأن الكون والعوالم والأفلاك والإنسان ، لم توجد إلاّ لغاية وهدف ، ولا بدّ أن تكون هناك حياة أخرى ونمط آخر .

لازمة عدل الله إقامة يوم الجزاء

ذكرنا في بحث التوحيد ـ ضمن تبيان صفات الخالق عزّ وجلّ ـ أنّ الله عادل ، وقد منّ على كل شيء أراده ،وتفضّل على كلّ موجود بالتكوين ، دون أن يطلب منه ذلك .

« كنّا عدماً ولم نكن لنطلب ، لكنّ لطف الحقّ يسمع ما لا نقول » .

ومن موارد العدل الإلهي جزاء الأفراد ، فنحن نرى أهل الفضائل يمضون أعمارهم في العبادة والطاعة وعمل الخير ، ولا يلقون في الدنيا جزاء ما عملوا ، كما يجب . وكذلك نرى أهل السوء وما يصدر عنهم من فساد وفجور ، ولا يلقون جزاء ما عملوا، أيضاً ، بل غالباً ما نراهم ينعمون بحياتهم

---

(١) سورة القيامة : الآية ٥ .

أكثر من أهل الصلاح . ونرى كذلك ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، فمن غصب وسلب للأموال ، إلى هتك للأعراض والحرمات ، إلى سفك للدماء ، ولكنّ الله عادل ، وبما أنه كذلك ، فلا بدّ من يوم يجزي فيه كل امرىء بما عمل ، ويستأدي الحق الذي في عهدته لصاحبه[1] . وليبلغ بالظالم النار التي وعده بها[2] ، ولينتقم لمن قتل دون جريرة أو ذنب[3] ، أي ليجزي فاعل الخير خيراً ، وفاعل الشر شراً ، فيحقق عدله سبحانه .

الصادقون يخبرون عن القيامة

لا شكّ أن الأنبياء هم أصدق الخلق ، وأن أقوالهم حجج وبراهين ، بحدّ ذاتها ، وبالنسبة إلى الجميع (كما مرّ بالتفصيل في بحث النبوّة) وقد أخبروا بقيام القيامة ، وإن أهل الأديان والملل كافة اعتقدوا ويعتقدون باليوم الآخر ، لأن أساس الديانات جميعها يرجع إلى الأصلين : (المبدأ والمعاد) ، ونجد أكثر الآيات القرآنية التي تتحدث عن الاعتقاد بالله ، تتحدث بعده مباشرة عن الإيمان بيوم الجزاء : ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾[4] .

والمخبرون الصادقون (الأنبياء) ليسوا قلّة ، بل هم عشرات الآلاف ، وجميعهم يخبرون بحلول يوم الجزاء ، إذاً فالعقل يحكم (بحكم التواتر) بوجوب التسليم والاعتقاد بحلول هذا اليوم .

---

(١) ﴿ **اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم** ﴾ سورة المؤمن (غافر) : الآية ١٧ .

(٢) ﴿ **إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾ سورة الكهف : الآية ٢٩ .

(٣) ﴿ **وإذا الموءودة سئلت * بأيّ ذنب قتلت** ﴾ سورة التكوير : الآيتان ٨، ٩

(٤) سورة آل عمران : الآية ١١٤ .

أفضل دليل على « الإمكان » هو « الوقوع »

ذكرنا فيما سبق أن مسألة المعاد ليست محالاً عقليّاً ، وحين يجري العقل حسابه يحكم بأن القيامة أمر « ممكن » ، علاوة على أن المخبرين الصادقين ، أي : المئة والأربعة والعشرين ألف نبي ، وأوصياءهم ، قد أخبروا بذلك ، في حين أن قول الواحد منهم يكفي لتسليم العقل السليم .

غير أن البعض من الغافلين يلقون شبهة مفادها أن « إعادة المعدوم ممتنعة » . أي أن الشيء الذي لم يكن شيئاً أصلاً ، كيف يمكن أن يصير شيئاً ثانية ؟ .

طبعاً لا دليل لديهم على مقولتهم هذه سوى إصرارهم وتمسّكهم بها ، ويقولون : دليلنا هو ضرورة إيضاح مطلبنا . وعلى فرض أن أحدهم استطاع الإتيان بـ « دليل » ، فإنه يكون قد أتى بالإجابة مسبقاً .

أولاً : يقول المحقق نصير الدين الطوسي (عليه الرحمة) : إنه لا إعادة لمعدوم في المعاد ، بل جمعٌ للمتفرّقات .

وتوضيح قوله هو أن البدن الذي كان مركّباً من أجزاء وذرّات ، وقد تآكل وتفتّت بعد الموت ، يجمع بقدرة الخالق عزّ وجلّ . إذاً فالمعاد هو جمع للأجزاء ، وجمع للروح والجسد بعد انفصالهما ، وليس إعادة لمعدوم ، كي يمتنع ولا يمتنع (علاوة على أن أصل المطلب ليس صحيحاً) .

ثانياً : إن أفضل دليل على « إمكان » حدوث شيء هو « وقوع » مثله . فلو فكّر الإنسان في المراحل الأولى لتكوينه لأدرك أنه كان عبارة عن ذرّات متفرقة لا تحصى جمعت على صورة معيّنة بقدرة إلهية قادرة ، من التراب والماء والهواء ، وتم نماؤها بمساعدة أنواع من المآكل والمشارب التي استقرت في معدة الأب ، لتتوزع ثانية في كافة أنحاء جسمه ، وعند تحرّك

الشهوة ، التي هي مظهر لخلاصة الأغذية المهضومة ، تمّ استخلاصها من ذرّات الرطوبات المتفرقة في الأعضاء ، ثم قذفت في أوعية المني من ظهر الأب لتستقر في رحم الأم[1] .

وعلى العموم فإن كل جسم كان في البداية أجزاء متفرقة ، جمعتها يد قادرة من صلب التراب والماء والهواء أولاً ، ثم نطفة من صلب الأب ثانياً ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة** ﴾[2] . فهل ـ بعد تبصّر وإدراك هاتين المرحلتين ـ يتبقى أي شك أو تعجّب من جمع الذرّات المتفرقة للبدن المهترىء في القبر ، وإعادة إنشائها للمرة الثالثة ؟ ﴿ **ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكّرون** ﴾[3] .

هذه الآيات تخاطب الإنسان فتقول :

يا أيها الإنسان ، لقد كنت ذرّات ترابية متفرقة فجمعتك يدنا القادرة ، فغدوت جزءاً من جسد أبيك موزعاً في أنحائه ، ثم جمعناك مرة ثانية وأخرجناك نطفة أودعناها في رحم أمك ، وشهدت هذه العمليات ، فلم العجب إن قلنا إننا سنجمعك للمرة الثالثة ؟! .

هنا والحياة بعد الموت كثيرة الحدوث ، فالنباتات مثلاً تعود إليها الحياة في الربيع بعد أن تكون قد جفت وماتت ، والأرض الميتة تعود إليها الحياة كذلك ، ﴿ **ويحيي الأرض بعد موتها** ﴾[4] . والأمر نفسه يحدث مع الإنسان ، فقد تم إحياء كثير من الموتى على يد السيد المسيح (عليه السلام) ، وكذلك على أيدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة

---

(١) يجب عقب هذه العملية غسل تمام البدن ، لأن ذرّات النطفة أخذت من كافّة أجزاء البدن .

(٢) سورة فاطر : الآية ١١ .

(٣) سورة الواقعة : الآية ٦٢ .

(٤) سورة الروم : الآية ١٩ .

الأطهار (عليهم السلام) كما ورد في الأخبار . وقد ذكرت في القرآن قصتان عن إحياء الموتى .

عزير مات مئة سنة

وردت قصة عزير في القرآن الكريم في سورة البقرة[1] . وإليك خلاصة آياتها وتفسيرها وسبب نزولها :

كان عزير نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل ، حفظ التوراة بكاملها ، وكان معلماً ودليلاً لليهود في بيت المقدس ، كان يوماً مسافراً على حماره ، وقد حمل معه زاده من الخبز والعنب ، فمر في طريقه على قرية خاوية ، وكان أهلها قد هلكوا منذ زمن ، فلم يبق منهم إلا عظام مهترئة نخرة .

نظر عزير إلى العظام نظرة حيرة وتعجّب ، وتساءل : ﴿ **أنّى يحيي هذه الله بعد موتها** ﴾ ؟ وكان تساؤله من قبيل التعجّب والحيرة ، وليس من قبيل الإنكار .

وشاء الله أن يبيّن له الأمر بطريق الحس والتجربة ، وأن القيامة إن بدت له مبعثاً للتعجب والحيرة ، فهي ليست كذلك بالنسبة إلى الله تعالى . فأماته سبحانه ، وبقي على حاله تلك مئة عام . أما الحمار فقد بليت عظامه واهترأت ، بينما بقي العنب على حاله ـ رغم رقّته وليونته ـ مئة عام بكاملها . وبعدها أحيا الله عزيراً ، وأرسل له ملكاً بصورة إنسان .

---

(١) ﴿ **أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال : أنّى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مئة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مئة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه ، وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلمّا تبيّن له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

سأله الملك : كم لبثت هنا على هذه الحال ؟ قال : لبثت يوماً أو ربما بعض اليوم . فقال الملك : «بل لبثت مئة عام» ، فها هو حمارك قد بلي واهترأت عظامه . انظر إليه تَرَ ما يفعله به الله .

نظر عزير إلى حماره ، فإذا بأجزاء بدنه تتحرك ، ثم تعود إلى الالتصاق ببعضها ، كل عضو في مكانه من الجسد ، حتى استوى كما كان من قبل .

عندُها قال له الملك : انظر إلى العنب كيف بقي على حاله ولم يفسد ، ذلك ليريك الله من آياته وقدرته وليكون ما جرى لك عبرة للناس .

رجع عزير إلى بيت المقدس ، فإذا بها قد تبدلت ، فلم يتعرف على معالمها ، ولم يقع بصره على إنسان يعرفه ، فما كان منه إلاّ أن اتّجه إلى بيته مسترشداً بذاكرته ، ولما وصل قرع الباب ، فسأله صوت من الداخل : من الطارق ؟ قال : أنا عزير . قال الصوت : لا شك أنك تمزح ، فعزير غاب عنا منذ مئة عام ، وأنا خالته وقد فقدت بصري ، فإن كنت عزيراً حقاً فهات علامته ، واطلب من الله أن يعيد إليّ بصري (كان عزير مشهوراً بعلامته ، وهي أنه مستجاب الدعوة) .

عند ذاك دعا لها عزير فعادت مبصرة ، وتعرفت عليه ، ثم قص عليها ما جرى له .

وراحت قصته عبرةً له ولغيره .

أما القصة الثانية التي وردت في القرآن بهذا الصدد ، فهي قصة إبراهيم (عليه السلام) حين رغب أن يعرف الكيفية التي يتم بها إحياء الموتى ، وهذا نص آي الذكر الحكيم يلخص القصة :

﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أوَ لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذْ أربعة من الطير فصُرهنّ

إليك ، ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعياً ﴾[1] .

ورد في تفسير الآية أن إبراهيم (عليه السلام) أمسك برؤوس الطيور الأربعة بيده بعد أن فرق أجسادها ، كلاً على جبل ، ثم دعاها ، فأقبلت الأجساد بعد أن تركبت ، واتّجه كل منها نحو رأسه ، فحاول إبراهيم (عليه السلام) أن يوجّه أحدها نحو رأس لا يخصّه فلم يلتحم به ، وبعد أن التحم كل رأس بجسده . عادت الطيور حيّة كما كانت .

إنّ الله على كلّ شيء قدير

قد يتبادر إلى الذهن سؤال ، وهو : كيف يمكن لذرّات البدن أن تجتمع مع بعضها ، بعد أن مرّ عليها من التغيير والتبديل ما لا يعلمه إلاّ الله ؟ .

إن مبعث هذا التساؤل (الشبهة) هو الغفلة عن علم الله وقدرته . فقد مرّ معنا في بحث « التوحيد » أنّ الله **﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾** أي أن له الإحاطة العلميّة بكلّ شيء ، فلا تخرج عن محيط علمه ذرّة من ذرّات الوجود ، أضف إلى ذلك قدرته تعالى ، أي أنه على كلّ شيء قدير . وعندها فلا يبقى أي مجال لهذا التساؤل أمام هذه الشبهة . صحيح أن البدن يهترىء ويتعفّن تحت التراب ، ويغدو طعاماً للحشرات والديدان ، أو يتحوّل إلى تراب تذروه الرياح في كل اتّجاه فيضحي جزءاً من النباتات والحبوب ؛ لكنه في كل الأحوال لا يفنى ، ولا يضيع عن علم الله ، القادر على جمع ذرّاته أينما وجدت . كما مرّ في قصة إبراهيم (عليه السلام) حين قطّع الطيور ووزع القطع على الجبال .

وإجمالاً فإن الله تعالى هو العالم بالأجزاء والذرّات رغم ما مرّ عليها من

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠

أطوار ، وهو القادر أيضاً على جمعها أينما كانت ، لتتلقى ما تستحقّه من ثواب أو عقاب[1] .

ونذكر فيما يأتي شواهد مختصرة على قدرة الله عزّ وجلّ ، وأنه قدير على كل شيء .

اجتماع الماء والنار

قال تعالى :

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[2] .

هذه الآية أتت في سياق الردّ على المشرك الذي سأل عمّن يحيي العظام وهي رميم ، فأتى الجواب بأنه الله القادر الذي أنشأها أول مرة ، والذي جعل النار تخرج من الشجر الأخضر ، وينبغي هنا التوقّف قليلاً عند هذا الأمر .

لو قطعنا غصنين من شجرتي (المرخ والعفار)[3] ، لرأينا الماء يقطر من مكان القطع ، فلو قدحنا طرفيهما المقطوعين معاً لخرجت منهما النار . وقد كان لهاتين الشجرتين أهمية كبيرة في جزيرة العرب قديماً ، لأنهما كانتا تستعملان لإيقاد النار ، حيث لم يكن هناك كبريت أو غيره .

ألا يدعو للعجب فعلاً أن تخرج النار من موضعين لا يقطر منهما إلّا

---

(١) قد تطرأ على الذهن هنا شبهة « الآكل والمأكول » التي سبق طرحها فعلاً ، ومن أراد الجواب يمكنه الرجوع إلى كتاب المصنف (٨٢ سؤالاً) : الباب الخامس ـ بحث المعاد .

(٢) سورة يس : الآية ٨٠ .

(٣) المرخ : شجر رقيق سريع الاشتعال يقتدح به .

والعفار : شجر يتّخذ منه الزناد ، والشجرة الأولى مؤنّثة ، بينما الثانية من الشجر المذكر الذي يستخدم في لقاح النبات ، ومنها سميّ الذي يلقّح النباتات بالعفّار .

الماء ، سبحان من جمع الماء والنـار ، أليس هو بقـادر على إعادة الـروح إلى الجسد ؟! .

كيف تُحيى العظام وهي رميم ؟

﴿ وضرب لنا مثـلاً ونسي خلقه . قـال : من يحيي العظام وهي رميم * قل : يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة ، وهو بكلّ خلق عليم ﴾[١] .

حضر أبيّ بن خلف إلى مجلس الرسول (صلى الله عليه وآلـه) ، وكان يحمل بيده قـطعة عـظم مهترئـة نخرة ، فـركها بين أصـابعه فتفتّت وذرّاهـا في الهواء ، ثم قال : من الـذي سيحيي هذه العـظام بعد أن غـدت رميماً بـالية ؟ فنزلت الآيات الكريمة وفيها يوبّـخ الله تعالى قـائل هـذا الكلام ، لأنـه يضرب الأمثـال ، وينسى خلقه هـو ، ينسى أنه لم يـك شيئاً فخلقـه الله إنسـانـاً ، ثم يخاطب سبحانه نبيّه ، ويأمره أن يجيب السائل بأن الذي يحيي هذه العظام هو الذي أنشأها أول مرة ، إذ لم تكن شيئاً .

وذرّات جسد المؤمن تمتاز عن غيـرها ، كمـا يمتاز الـذهب الذي غـطّاه التراب ، فإذا هطل المطر زال الترابِ عن الذهب فالتمعت ذرّاته ، فـلا مجال هنا لأي شبهة . كما رأينا في قصة إبراهيم (عليه السلام) ونـزيدهـا تفصيلاً : إن إبـراهيم (عليه السـلام) أخذ ديكـاً وغـراباً وحمـامـة وطـاووسـاً ، فقـطع رؤوسهـا وأبدانهـا سبعة عشـر جزءاً (كمـا تقول الـروايات) ووزعهـا بعد أن اختلطت على سبعة عشر موضعاً من الجبل ، ثم أمسك برأس الحمامة ودعا ، فاجتمعت أجزاء بدن الحمامة واتجهت نحو رأسها والتحمت به ، ثم دعـا بدن الطاووس ، وحين أقبل وجّه نحوه رأس الديك فلم يلتحما .

فالمقصود أنه لا سبيل للخطأ أو الشبهة في علم الله عزّ وجلّ .

---

(١) سورة يس : الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

خلق الأفلاك أهمّ من خلق الإنسان

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

مقارنة بسيطة تطرحها هذه الآية الشريفة ، لكنّ دلالتها عظيمة ، فأيهما أكبر ؟ خلق السموات والأرض ، مع ما يتبع ذلك من أنظمة محددة للدوران والتنسيق ، أم خلق الإنسان ؟ لا شك أن خلق السموات والأفلاك أكبر . أفليس الذي خلقهنّ إذاً بقادر على أن يحيي الإنسان بعد موته ، ويجزيه جزاء عمله ؟ [2] .

بلى ، إنه القادر على ما يشاء ويريد ، فلو أراد قيام الساعة في الحال فسيحيا الجميع بأمره[3] .

دفع الضرر « المحتمل » واجب عقلاً

إذا عزم أحدنا على القيام بأمر ما ، واحتمل وقوع ضرر له خلال ذلك ، فإن العقل يحكم عليه بوجوب الاحتياط لدفع الضرر المحتمل ، فمثلاً : إذا احتملنا وقوع خطر ما خلال عبورنا للصحراء ، كأن يتعرض لنا حيوان مفترس ، أو يقطع لصّ علينا طريقنا ، فمع أن وقوع هذه الأخطار يبقى في مجال الاحتمال ، ودون أن يرقى لدرجة اليقين ، فالواجب يفرض علينا اختيار طريق آمن .

كما أن الضرر المحتمل يتفاوت شدّة وضعفاً ، فارتطامنا بصخرة في

---

(١) سورة المؤمن (غافر) : الآية ٥٧ .

(٢) ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلّاق العليم ﴾ سورة يس : الآية ٨١ .

(٣) ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ﴾ سورة يس : الآية ٨٢ .

الطريق أخف وطأة من سقوطنا في وادٍ عميق . مثلاً : لو أن طفلاً أخبرك أن عقرباً تتسلّق ثوبك من ناحية الظهر ، فإنّك لن تتردد في خلع ثوبك لدفع الضرر المحتمل ، دون أن تلتفت إلى أن المخبر طفل لا يدرك ، ودون أن تتيقن أو تظنّ ، بل بمجرّد الاحتمال . وذلك لأن الضرر المحتمل جسيم خطير .

وإليك مثالاً آخر : لو عزم إنسان على السفر في طريق صحراوي ، وأخبره أحدهم أن الماء مفقود في هذا الطريق ، فالعقل والاحتياط يفرضان عليه التزوّد بقربة ماء ، حتى إذا كان الخبر كاذباً فلن يخسر شيئاً ، ويكون قد احتاط من الوقوع فريسة العطش ، لو صدق الخبر .

وقياساً على هذه القاعدة التي ذكرنا نقول : إن مئة وأربعة وعشرين ألفاً من الأنبياء البشر ، قالوا لنا بلسان واحد : أيها الناس ، إن أعمالكم وأقوالكم تسجَّل عليكم ، وهناك ملكان مأموران بتسجيل عمل كلٍّ منكم[1] ، فلو لم يحصل لنا اليقين أو حتى الظنّ بوقوع القيامة ، فلا أقل من أن يدعونا العقل للاحتياط ، فنحتمل حلول ذلك اليوم ، ونجتنب ظلم الآخرين وهتك أعراضهم .

وأود ـ على هامش هذا الموضوع ، وللتدليل العقلي على المعاد ـ أن أورد هذا الحديث :

ورد في (أصول الكافي) ، في الحديث الثاني من كتاب التوحيد أن الإمام الصادق (عليه السلام) قال لابن أبي العوجاء[2] ، خلال موعظة ساقها إليه :

---

(١) ﴿ **ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد** ﴾ سورة ق : الآية ١٨ .

(٢) كان ابن أبي العوجاء في المسجد الحرام مع عبدالله بن المقفّع ورجل ثالث ، فأراد أن يختبر الإمام الصادق (عليه السلام) ، ورغم نصيحة ابن المقفع له بأن لا يفعل فقد أصرّ على عزمه ، وقصد الإمام (عليه السلام) في مجلسه .

« إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ، (يقصد أهل الطواف) ـ وهو على ما يقولون ـ فقد سلموا وعطبتم ، وإن يكن الأمر على ما تقولون ـ وليس كما تقولون ـ فقد استويتم وهم . فقال ابن أبي العوجاء : يرحمك الله ، وأي شيء نقول ، وأي شيء يقولون ؟ ما قولي وقولهم إلّا واحداً ، فقال : وكيف يكون قولك وقولهم واحداً ؟ وهم يقولون : إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً ، ويدينون بأنّ في السماء إلهاً ، وأنها عُمران . وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد . . . ؟ » . الحديث .

تلاحظون هنا أن الإمام (عليه السلام) قد ساق الاستدلال بدليل الاحتياط ، لإثبات وجود الصانع ، وهذا يشكل الحدّ الأدنى لاستدلالنا ، بينما الواجب هو إحراز اليقين بيوم الجزاء ، فلا يغني التردد والشك ، ولا يغني الظنّ كذلك .

القيامة أمر عظيم

نسمع بنبأ القيامة فنتلقاه ببساطة تامة ، في حين أن عالم الدنيا بالنسبة إلينا عالم مهم وعظيم ، بينما يعتبره الله عزّ وجلّ لهواً ولعباً كما ذكر في محكم كتابه . أما نبأ القيامة فيشير إليه سبحانه بالنبأ العظيم[1] .

أجل ، إن القيامة عظيمة جدّاً ، يوم يجمع فيها الخلق ، الأولون والآخرون ، يلفّهم القلق والحيرة ، ينتظرون نتيجة أعمالهم ، والكل في فزع ورعب ، إلّا ما ندر (كما سنذكر لاحقاً) .

عمرو بن معد يكرب ، كان من شجعان العرب المشهورين ، صاحب نجدة وقوّة بدنيّة ، قدم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فدعاه إلى

---

(١) ﴿ عمّ يتساءلون * عن النبأ العظيم ﴾ سورة النبأ : الآيتان ١ ، ٢ .

الإسلام (وكان لما يزل مشركاً) ، وقال له : إن تؤمن تكن في أمان من الفزع الأكبر يوم القيامة ، فقال يا محمد ، أي فزع يمكن أن يخيف مثلي ؟ قال :

يا عمرو دع هـذا الذي تـظنّ . إنما هي صيحـة تنزل على النـاس ، لا تبقي ميتاً إلاّ أحيته ، ولا حيّاً إلاّ أماتته . والذين لا يشاء الله أن يميتهم بعدهـا تنـزل عليهم صيحـة أخـرى تحييهم كلّهم ، ويجـرّون صفّـاً . وتنشقّ السمـاء وتتـلاشى الجبال وتتبعثـر ، ولا يبقى ذو روح إلاّ وينقـطع قلبـه ويـزيـغ بصـره وينشغل بنفسه ، إلاّ من شاء الله . عندها أين تكون يا عمرو ؟ .

وبعد أن تحدّث الرسول (صلى الله عليه وآله) اهتزّ بدن عمـرو وقال : وماذا أفعل لهذا اليوم الذي ينتظرني ؟ قـال : قل : « لا إلـه إلاّ الله » . وأسلم عمرو مع قومه في ذلك المجلس .

في ذلك اليوم ـ القيامة ـ أينما نظر المرء تطالعه مظاهـر الوحشـة من كلّ صـوب ، فالأرض ومـا عليها قـد تبدلت ، وهي ـ بقـدرة الله ـ تغـدو ذات فهم وشعور وحياة ، فهي تحت قدمي المؤمن سكينة وهدوء ، وتحت قدمي الكـافر نار ملتهبة . ويختفي عن وجه الأرض كل شيء معهود ، فلا شجرة ولا جبل ، بل بشر قيام ينظرون إلى بعضهم بحيـرة وقلق ، بشرٌ كلهم ، غيـر أن أشكالهم تختلف ، فلم تعد على طراز واحد كما كانت في الدنيا ، بل هي تختلف تبعاً للأعمال والعقائد .

أشكال مختلفة في المحشر

﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾[1] .

ورد في تفسير مجمع البيان أن معاذ بن جبل سأل رسول الله (صلى الله

---

(١) سورة النبأ : الآية ١٨ .

عليه وآله) عن معنى هذه الآية فقال : « يا معاذ ، سألت عن عظيم من الأمر ثم أرسل عينيه ثمّ قال :

يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً ، قد ميّزهم الله من المسلمين ، وبدّل صورهم ؛ بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وآخرون منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ، ثم يسحبون عليها . وبعضهم عميٌ يتردّدون ، وبعضهم صمّ بكمٌ لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعاباً ، يتقذّرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

فأما الذين على صورة القردة فالقتّات من الناس ، (أي النمامون . والنمام ناقل الحديث ومحرّفه ، يفتن ما بين اثنين) ، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، (آكل السحت هو الذي ينقص في المكيال ويغش في المعاملة) ، وأمّا المنكّسون على رؤوسهم فأكَلَة الربا ، والعمي : الجائرون في الحكم ، والصمّ البكم : المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون بألسنتهم : فالعلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم (أي يعظون الناس بينما هم غارقون في الوحول ، ينتفع الناس من أحاديثهم ، أمّا هم فأشقياء يمضغون ألسنتهم ويتجرّعون الحسرة) ، والمقطّعة أيديهم وأرجلهم : الذين يؤذون الجيران ، والمصلّبون على جذوع من نار فالسّعاة بالناس إلى السلطان ، (أي الذين يسعون بالوشاية على الناس عند السلاطين ، فيلحقون الأذى بهم) ، والذين هم أشدّ نتناً من الجيف فالذين يتمتّعون بالشهوات واللذات ويمنعون حقّ الله في أموالهم (أي يستمتعون باللذات ولا يؤدّون الحقّ الإلهي الواجب في أموالهم) ، والذين يلبسون

الجباب فأهل الفخر والخيلاء »[1] . (أي المتكبّرون والمتفاخرون) .

وروي في حديث آخر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أن من في أعينهم مسامير من النار ، هم أولئك الذين ملأوا أعينهم من الحرام .

ينقل المحدّث الفيض في (عين اليقين) أن شارب الخمر حين يرد المحشر تكون زجاجة الشراب معلقة في عنقه ، وقدح الشراب ملتصقاً بيده ، ورائحة نتنة تنبعث منه هي أنتن من الجيفة ، فيعرف الجميع أنه كان شارباً للخمرة ، وكلما مرّ عليه أحد يلعنه ، كما أن أهل الطرب تكون أوتارهم وآلاتهم ملتصقة بأيديهم وتضرب على رؤوسهم .

والمرء أصلاً يعرف بسيماه ، ويعرف إلى أيٍّ من أهل الذنوب يعود[2] .

ونقل أيضاً في الكتاب نفسه أنه : يحشر بعض الناس على صورٍ تحسن عندها القردة والخنازير .

وروي أيضاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركباناً ومشاةً وعلى وجوههم . فقيل يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم .

القلوب تبلغ الحناجر

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾[3] .

أي : وأنذرهم أن يوم القيامة دانٍ وقريب ، وأن قلوب الناس في ذلك

---

(١) تفسير مجمع البيان : الجزء الثلاثون .

(٢) **﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾** سورة الرحمن : الآية ٤١ .

(٣) سورة المؤمن (غافر) : الآية ١٨ .

اليوم تزول من مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر . بينما يغزو الناس رعب يغمرهم بالكرب والغم .

ولقد كرر الله سبحانه ـ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ـ ذكر الخوف في ذلك اليوم ، وكيف يفر فيه المرء من أخيه ، ويبتعد عن أمه وأبيه وامرأته وأبنائه ، فإن ما يشغله من القلق والخوف يكفيه ، وإن أقوى الروابط الإنسانية تنقطع في ذلك اليوم من شدّة الهول ، فلا يشغل المرء فيه إلا نفسه ، فيفرّ من الجميع لا يلوي على أحد[١] ، كما أنه يخشى أن يطالبوه بحقوقهم التي منعها عنهم .

فالهم والغم يغمران الجميع ، ولا يسمع في هذا الحشر الكبير صوت إلا الهمس والهمهمة[٢] .

الآمنون من فزع القيامة الأكبر

وعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بضعة أصناف من الناس بالأمان من الفزع الأكبر[٣] .

من يوقّر ذي شيبة في الإسلام ، وهذا يوجب الأمان من الفزع يوم القيامة ، أباً كان ذو الشيبة أم أمّاً ، وما أفضل من يلبي نداء العاجزين ، فقد

---

(١) ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكلّ امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ سورة عبس : الآيات ٣٤ ـ ٣٧ .

(٢) ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً ﴾ سورة طه : الآية ١٠٨ .

(٣) الخصال التي تؤمن من الفزع الأكبر : توقير ذي شيبة في الإسلام ، والدفن في الحرم ، والموت في أحد الحرمين ، ووضع اليد على القبر وقراءة (القدر) سبع مرات ، ومن عرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها من مخافة الله عزّ وجلّ ، ومن مقت نفسه دون الناس ، ومن مات في طريق مكّة ذاهباً أو جائياً . (سفينة البحار : ٣٦٠) .

وعده الله بتلبية ندائه يوم القيامة كما لبّى نداء الضعفاء ، أو أعـان من كبا ، أو فرّج عن مهموم همه وكربته .

وكذلك من ارتاد مسجداً وتعلّق به ، فإنـه يؤتى به إلى قبـره يوم القيـامة بصورة هودج ، فيـركبه ويمضي بـه ، ويترجـل عنه في الجنة؛ وفي الروايـة أن المؤمن يتساءل عن الصراط ، وكيف مضى عنه ؟ فيقال له مضى عنه مـا تحت قدميك ، فيسأل ما كان هذا المركب ؟ فيقال إنه المسجد الـذي كنت تتعلّق به في الدنيا ، أجل ، إنه بيت الله ، وعليكم أن تقدّروه وتعظّموه .

ويأمن من الفزع الأكبر كذلـك من مات في مكـة أو المدينـة أو من دفن هناك ، أو مات في الطريق إلى مكة أو العودة منها .

ويأمن الفزع الأكبـر من اتّخذ من نفسـه عدواً من دون النـاس ، وظاهـر معنى الحـديث : « من مقت نفســه دون النـاس » : أن من رأى من غيـره مـا اعتبره عيباً قبيحاً في نظره فعليه أن يردع نفسه هو عن متابعة عيوب الآخرين ، وأن يجعل نفسه تتسقط عيوبها المؤكدة هي ، بدل التعلّق بالنظر لعيوب جزئيـة محتملة من الآخرين .

كما وعد بـالأمان من الفـزع من يتمالـك نفسه عنـد الغضب ، ويتجنب الإقـدام على تصرف قبيـح يمكنه الغضب منـه بـل يتمـاسـك من أجـل الله ، ويهدىء من ثورة غضبه ، ويسلك سبيل الحلم .

ومنهم كــذلـك من يــردع نفســه عن الشهــوات ويجتنب الفـواحش إن عرضت له ، وذلك من مخافة الله فحسب ، وليس خوفاً من ضياع النـاموس أو المال .

وكذلك من باب اللطف الإلهي لبعض الأموات ، الـذين إذا وضع مؤمن

يده على قبر أحدهم وتلا سورة (القدر) سبع مرات ، يشمل اللطف ذلك الميت ويأمن من فزع يوم القيامة .

ولاية عليّ (ع) أمان حقيقي

الأمان المطلق ، والذي لا سبيل معه لأي خوف هو ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) . و« الحسنى » التي ورد ذكرها في القرآن المجيد ، والتي لا تعلوها (حسنى) غيرها هي ولاية علي (عليه السلام) ، التي ـ بنص القرآن ـ تبعد صاحبها عن فزع ذلك اليوم :

﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها ، وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾[١] .

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : يا علي ، أنت وشيعتك في أمان من الفزع الأكبر ، وهذه الآية ترجع إليكم .

وكذلك « الحسنة » ، حيث إن الحسنة المطلقة هي ولاية علي وآله (عليهم السلام). وقد ورد في القرآن الوعد بأن من يأتي بالحسنة فهو في أمان من فزع ذلك اليوم[٢] .

وفي تفاسير العامة أيضاً كتفسير (الكشاف) للزمخشري وتفسير الإمام الرازي والثعلبي وروح البيان وغيرها ، وردت رواية عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) مفادها : أن من يموت على حبّ آل محمد فإنه يموت تائباً ، ويرحل عن الدنيا طاهراً من الذنوب ، ويبعث من قبره وقلبه طاهر نقيّ ، ويرد المحشر ولا هول يصيبه ولا فزع من القيامة ، وتزيّن له الجنّة كالحجرة بالنسبة

---

(١) سورة الأنبياء : الايتان ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذٍ آمنون ﴾ سورة النمل : الآية ٨٩ .

للعروس . . إلى اخر الرواية[1] .

وكان الهدف هو ذلك القسم من الرواية الذي يتعلّق بالأمان من هول يوم القيامة .

تأمين الآتية

إن القسم الأعظم من آيات القرآن الكريم يتحدّث عن القيامة وأوضاعها وأحوالها ، وخاصة في أواخر السور من (الواقعة) فما بعدها ، بل يندر أن توجد سورة لا يرد فيها ذكر القيامة ، حتى أنه يذكر لذلك اليوم ما يربو على سبعين اسماً .

وهنا يتساءل الإنسان : ما هي حقيقة هذا اليوم حتى يعطى له هذا القدر من الأهميّة ؟ .

والجواب عن هذا التساؤل هو أن هذه الأهمية أتت لتذكّر الإنسان باستمرار أن يظل في (هاجس تأمين الآتية) ، علّه ـ ببركة هذه الآيات ـ يتشوّق لتأمين مستقبله ، فتقول له : بعد كل ما سمعته وعرفته من الأهوال والعقبات التي تنتظرك ، فكّر في المخرج ، ولتكن ممن ورد أنهم في أمان من الفزع الأكبر .

الجميع يقولون : حقاً يجب التفكير في الآتية (المستقبل) وتأمينها ، هذا صحيح وعقلاني ، ولكن ، هل هم يدركون معنى هذا الكلام ويطبقونه بالطريقة الصحيحة ؟ هل يعنى لهم تأمين الآتية ادّخار المال في المصرف ؟ هل قيمة أن يعيش المرء خمسين أو ستين سنة أو أقل أو أكثر أن يهدر هذا

---

(١) وردت هذه الرواية بالتفصيل في كتاب (سيّد الشهداء) للمصنف ، فعلى من يطلبها أن يرجع إلى ذلك الكتاب في صفحاته من ٧ إلى ١٠ .

العمر العزيز في جمع المال ، ثم يتركه ويرحل ؟ لا ، هذا هو الجهل ، إلاّ إذا كان المرء يتوقع خطر الجوع فيحرص على تأمين آتيته ، ولكن . . هل سمعتم أن أحداً مات من الجوع ؟! نعم ، يمكن في حالة حدوث قحط ـ لا قدّر الله ـ وهذا أحد أسباب الموت المقدّر ، وحينها لا تنفع أموال ولا ممتلكات . بل هنا لا خطر على آتيته ، لأن الأمر يندرج فيما ضمنه الله بل أقسم عليه[1] ، وهو أن يتكفّل برزق كل حي[2] .

والله عزّ وجلّ وعد وتوعّد من أجل الخطر ، بل كل الخطر في ذلك اليوم ، فليس أمام الناس غير سعيهم[3] ، فبالسعي يأمنون الخطر . وليس بأن يردوا المحشر وهم يقولون : الله كريم ، حقاً ، إنّ الله كريم ، لكنهم لو أدركوا هذه الحقيقة حقّ الإدراك ، فلماذا لم يعتبروه كريماً في أمر الدنيا ؟ أليس معنى هذا أنهم لا ينطقون بهذا الكلام عن حقّ وصدق ؟! .

إنكم لو أردتم حقاً تأمين الآتية ، لفتحتم صندوقاً عند بارئكم ، واستودعتموه فيه عباداتكم وإنفاقكم في سبيله ، فهذه كلها ودائع لكم ، والله خير حافظ لها ومؤتمن عليها ، فيوفّيكم إياها أضعافاً يومذاك ، أو حتى يعوضكم عنها بأفضل منها في هذه الدنيا[4] .

والله تعالى يأمر نبيّه بتحذير الناس من « عقبات الآتية » ، فلنعرف أن يوماً صعباً عسيراً ينتظرنا .

---

(١) ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون * فوربّ السماء والأرض إنه لحق ﴾ سورة الذاريات : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ﴿ وما من دابّة في الأرض إلاّ على الله رزقها ﴾ سورة هود : الآية ٦ .

(٣) ﴿ وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى * وأنّ سعيه سوف يُرى ﴾ سورة النجم : الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ سورة المزّمّل : الآية ٢٠ .

إسرافيل ينفخ في الصور

إذا حان يوم القيامة ، فأول ما يقع هو « النفخ في الصور » ، الذي أخبر به الله تعالى مراراً في كتابه المجيد[1] .

ويستفاد من الآيات والأخبار أنه ينفخ في الصور نفختان : الأولى نفخة الإماتة ، والأخرى نفخة الإحياء ، يقول سبحانه :

﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[2] .

والمراد أن لكل من الملائكة الأربعة المقربين من ربّ العالمين (جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل) مهمة خاصة به ، فجبرائيل واسطة تنزيل الوحي على الأنبياء ، وميكائيل مأمور الأرزاق ، وعزرائيل مأمور لقبض الأرواح ، أما إسرافيل فعمله يكون يوم القيامة ، فالصور في يده باستمرار ينتظر أمر ربّه (كما يستفاد من الروايات) ، وعندما يأتيه أمر الله ، فإنه يهبط من السماء إلى الأرض ، ويحدث تحرّكه فراغاً (مساراً) في السماء ، فيهتزّ أهل السموات ، ويصل إلى الأرض فينادي من بيت المقدس ومن الكعبة : « موتوا » فيموت الجميع ، وبنفخة واحدة لا يبقى حي على وجه الأرض . وفي الروايات أن البعض يكون مشغولاً في الأسواق بالأخذ والردّ ، فتأخذه الصيحة ، فيقع ولا يدرك الوصية ولا يعود إلى أهله[3] .

---

(١) ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض ﴾ سورة النمل : الآية ٨٧ .
﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون ﴾ سورة يس : الآية ٥١ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٣) ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ سورة يس : الآية ٥٠ .

الله وحده هو الباقي

﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾[1] .

ويرتفع نداء القهر الإلهي : أين أنتم أيها العاصون أين أنتم أيها المتكبّرون المدّعون ، ولمن الحكم اليوم ، ولمن الملك والسلطان المطلق ؟! .

فلا يجيب أحد ، إذ الملك والحكم اليوم لله وحده ، القاهر على عباده ، وهو وحده الباقي .

هذا ما يعقب النفخة الأولى ، وتنقضي مدة قبل وقوع النفخة الثانية ، نفخة الإحياء والإقامة . وقد سئل المعصوم عن الزمن الفاصل بين النفختين ، أي الزمن الذي ينتفي فيه وجود أيّ حيّ في هذا العالم ، فأجاب : أربعون سنة ، كما في رواية ، وفي رواية أخرى أن الزمن الفاصل بين النفختين هو أربعمئة عام ، إذ تمضي الروايات بالقول : بأن أموراً عجيبة تحدث في هذه الفترة ، كتصادم الأفلاك ، والزلازل ، وتناثر الجبال ، وتسجير البحار (أي اضطرابها واتّقادها) .

ثم يهطل المطر بغزارة على الأرض كلها لمدة أربعين يوماً ، وأول من يحيا ويقوم بأمر الله عزّ وجلّ هو إسرافيل ، المكلف بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، نفخة القيامة . فينادي إسرافيل :

أيتها الأرواح الهائمة واللحوم البالية والعظام المهترئة والشعور المتناثرة ، هلمّي للحساب .

ويصدر الأمر الإلهي إلى الأرض بأن تلقي ما في جوفها **﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾**[1] فيخرج ما في جوف الأرض بفعل الزلازل الشديدة ،

---

(١) سورة الزلزله : الاية ٢ .

وتجمع ذرّات الأبدان وتنفخ فيها الروح فتنتصب قائمة كلها دفعة واحدة ، لأن خلق فرد واحد أو خلق أفراد لا يحصون ، سيان عند ربّ العالمين[1] .

الكلّ الآن قائم ، وإن اختلفت الأشكال والأقوال ؛ فأهل الخير مستبشرون يشكرون الله أن صدقهم وعده[2] ، وسيلقون جزاء عملهم . أما أهل الشر فترتفع منهم صيحات الخوف والحسرة[3] . وتذكر الروايات أن الواحد منهم يقف ورجله الواحدة في القبر ، والأخرى خارجه ، ويبقى على هذه الحال من البهت والحيرة ثلاثمئة عام . وتلك مقدِّمة العذاب .

يروى أن جبرائيل عرض على رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوماً أن يريه كيف يكون البعث فأخذه إلى مقبرة في البقيع ، وهناك ضرب برجله على أحد القبور وقال : قم بإذن الله ، فأطل من القبر وجه نوراني صبيح وهو يقول : « الحمد لله الذي صدقنا وعده » ثم ركل قبراً آخر وقال : قم بإذن الله . فانبعث منه شخص كريه الهيئة يتلمّس مخرج القبر وهو يقول : « واحسرتا » .

وهكذا تبين للرسول (صلى الله عليه وآله) كيف تكون القيامة .

وتذكر الروايات أنّ المؤمنين في البرزخ يرجون ربّهم التعجيل في قيام القيامة ، لأنهم تذوّقوا عيّنة من اللذائذ ، ويحدوهم الشوق للوصول إلى الأصول ، أما الكفار فيرجون الله إبقاءهم حيث هم ، فلا يودّون المزيد مما ذاقوه .

---

(١) ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾ سورة لقمان : الآية ٢٨ .

(٢) ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ سورة الزمر : الآية ٧٤ .

(٣) ﴿ قالوا يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ﴾ سورة يس : الآية ٥٢ .

الخافضة الرافعة

القيامة هي يوم الحقيقة دون ساتر يخفيها ، فهناك يرتفع شأن الأتقياء ويعظم بعد تواضعهم في الدنيا ، فالقيامة لهم رافعة ، بينما الأشقياء ممّن كانوا يرفلون في مظاهر الاحترام والعظمة في الدنيا ، تضمحل عظمتهم ويحقر شأنهم ، فالقيامة لهم خافضة .

فما أجدرنا في هذه الحياة أن نعرف مواضع احترامنا وتقديرنا ، فنهبها لمن يستحقها ، لا لمن يظهر التقوى ويبطن الفسق والعصيان ، ولنعتبر ولنتقّ يوم الحشر والخجل ، يوم العري ولا ساتر ، في صحراء الحشر المترامية ، وذلك : ﴿ **يوم تبلى السرائر** ﴾[1] .

التقوى لباس القيامة

﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾[2] .

في هذا اليوم القريب القريب ، يبعث الناس عراة ، إلّا من شاء الله لهم غير ذلك ، وأولئك هم الأتقياء ، الذين وعدوا بوقايتهم من عري المحشر بلباس إلهي ؛ وكذلك المؤمنون الذين رحلوا عن الدنيا من غير توبة ، فقد طهّرهم عذاب البرزخ . وأما من رحل عن الدنيا غير طاهر فيتوقع أن تتلقاه جهنم سريعاً يوم الحشر ، وتكون مخرجه من وطأة الخجل .

آدم أبو البشر ، ترك الأَوْلى ، فانقلب عُرياناً والملائكة تشهد عريه ، فلجأ إلى أوراق الشجر يستر بها عورته ، ويداري خجله[3] .

أجل ، فالمذنب ليس أهلاً للباس الإلهي ، فهل يأتي يوم ـ عليّ

---

(١) سورة الطارق : الآية ٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٦ .

(٣) ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ سورة الأعراف : الآية ٢٢

وعليكم ـ تتوقف فيه ذنوبنا عن الازدياد ؟ هلا فكرنا بصعوبة يوم القيامة ؟ رغم افتقارنا إلى لباس التقوى ؟! وهذا زين العابدين (عليه السلام) ترتفع شكواه في إحدى أسحار شهر رمضان المبارك خشية من عري يوم القيامة فيقول : « أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً » . فهلاّ نادينا معه بصوت متضرّع : « وألبسني من نظرك ثوباً يغطّي عليّ التبعات ويغفرها لي » ؟ .

بسيماهم يعرف المذنبون

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾[١] .

ورد في مواضع عديدة في الكتاب المجيد ما يفيد بأن أول ما يعتري الإنسان يوم الحشر هو الحيرة البالغة : **﴿ مُهطِعين مُقنِعي رؤوسهم ، لا يرتدّ إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء ﴾**[٢] . فالأبصار تحدّق ، ويمنعها الخوف من الانطباق ، تلك حال أهل المعصية ، فعيونهم مفتوحة ، وذنوبهم للجميع مكشوفة .

أذكّركم هنا برواية معاذ بن جبل ـ التي مرّ ذكرها ـ عن معنى آية سورة النبأ : **﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾**[٣] . ومضمونها أن الله أقسم بعزّته وجلاله ليسقيّن شارب الخمرة من حميم جهنم بالقدر الذي شربه من الخمرة في الدنيا .

وروي في كتاب (لألىء الأخبار) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال :

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٤١ .
(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٣ .
(٣) سورة النبأ : الآية ١٨ .

« يأتي شارب الخمر في القيامة ووجهه مسودّ ، وعيناه مزرقّتان ، وقلبه مشغول ، ولعاب فمه يسيل من صدره إلى قدميه ، وكلما مرّ عليه أحد تأذّى من رائحته النتنة ، وخرج لسانه من فمه » .

وقال أيضاً : « فبالله الذي قد بعثني ليموتنّ شارب الخمر عطشاناً ، ويتوجّه إلى القبر عطشاناً ، ويحشر عطشاناً ، ويئنّ ألف عام من العطش ، ثم يطعمونه من حميم جهنّم » .

أما آكل الربا ، فتكبر بطنه حين يبعث ، وتتدلّى على الأرض فلا يستطيع القيام ، يطأطىء رأسه إلى الأرض ، ويعرف الجميع أنه كان آكلاً للربا .

أما من كان من أهل الدفّ والوتر ، فقد روي في كتاب (الأنوار النعمانية) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : يحشر صاحب الطنبور مسودّ السيما ، وبيده طنبور من نار يضرب رأسه ، وسبعون ملكاً يضربون رأسه ووجهه ، وصاحب الغناء وصاحب المزمار والدفّ يحشر أعمى وأصمّ وأبكم .

وروي أيضاً أن من كان مع الناس بلسانين (أي يتكلم في حضور الناس بطور معين ، وفي غيابهم بطور مختلف) يحشر في القيامة وله لسانان من نار . أما أولئك الذين كانوا يؤذون الناس بألسنتهم فستخرج ألسنتهم من ظهورهم .

وهناك طائفة تحشر كالنمل الضعيف العاجز ، وهي طائفة المتكبرين في الدنيا .

أما الزناة ، فإن أهل المحشر يتقززون من الروائح القذرة المنبعثة من عوراتهم .

وظـاهر الـروايات أن صـاحب كل خلق سيّىء ، سيعـطى صورة تمـاثل خلقه أو ذنبه ، فيعرف به .

يوم مقداره خمسون ألف سنة

﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[1] .

ورد عن المعصوم في المجلد الثالث من (بحـار الأنوار) بضـع روايات عن هذا الأمر ؛ منها قوله : فإنّ في القيـامة خمسين مـوقفاً ، كـل موقف مثـل ألف سنة .

أي أن كلاًّ منها ألف سنة ، ويجب الوقوف لدى كـل موقف ألف سنـة ، فيصبح مجموعها خمسين ألف سنة من السنين الشمسية أو القمرية .

فإن قيل : إن عالم القيامة لا ليل فيه ولا نهار ، ولا نور شمس ولا ضياء قمر ، فلماذا أتى التعبير عن القيامة بـ « اليوم » ؟ .

أقول : النهار قطعة من الزمان ، يضيء العـالَم فيه نـور الشمس ، فيرى الإنسـان فيه كـل شيء بوضـوح مما لا يـراه في الليـل المـظلم ، كـذلـك في القيـامة ، فكـل ما كـان مستتراً في بـاطن النـاس من عقـائـد ونـوايـا وسيئـات وحسنات ، فإنه يبدو جليّـاً ظاهـراً لأنه يـوم تبلى فيه السـرائر والخفـايا . قـال سبحانه : **﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾**[2] أي : ظهر لهم ما لم يكونوا يتصورون .

أجل ، فالدنيا ليل وظلمة ، لا يعلم فيهـا أحد عن أحـد شيئاً ، حتى أن

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٤٧ .

الواحد منّا لا يعلم سريرة نفسه . فالأعمال يسترها غطاء لا يبين ما وراءه أما القيامة فهي نهار ، وهي واقعاً كذلك ، إنها يوم لا ليل فيه ، يسطع فيه نور شمس الحقيقة ، فتنكشف لنا نفوسنا ونفوس الآخرين .

في هذا اليوم تتجلّى مواقف : موقف الخير كما ذكرنا ، وموقف الذهول والسكوت فلا يسمع سوى الهمس : ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلّا همساً** ﴾[١] وكيف يتكلم الناس وقد بلغت القلوب الحناجر ؟![٢] كذلك يتجلّى موقف القلق ، فيسأل الناس بعضهم بعضاً عما ينتظرهم[٣] .

وفي موقف آخر يفرّ الناس من بعضهم : فالأب يفرّ من بنيه ، والزوجة من زوجها ، والأخ من أخيه ، فهم يتنافرون كالفراش المبثوث[٤] ، ﴿ **خشّعاً أبصارهم ، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾[٥] . أرأيتم الجراد حين يقبل كيف ينتشر في كل ناحية ؛ يمنة ويسرة ، فوق وتحت ، لا نظام ولا ترتيب يحكمه ؟ هكذا يفرّ الناس من بعضهم يوم الحشر ، لكنه فرار لا طائل تحته ، ففي هذا اليوم يؤمر ملائكة السماء الأولى بالتحلّق حول البشر لحصارهم ، وتتحلق ملائكة السماء الثانية حول ملائكة الأولى وكذلك الثالثة والرابعة حتى السابعة . سبعة صفوف من ملائكة السموات السبع تحيط بأطراف صحراء المحشر . وعندها ﴿ **يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا** ﴾[٦] .

فالفرار إذاً محال ، ويسقط في يد الإنسان : ﴿ **يقول الإنسان يومئذٍ أين**

---

(١) سورة طه : الآية ١٠٨ .

(٢) ﴿ **إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين** ﴾ سورة المؤمن (غافر) : الآية ١٨ .

(٣) ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ سورة الصافات : الآية ٢٧ .

(٤) ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** ﴾ سورة القارعة : الآية ٤ .

(٥) سورة القمر : الآية ٧ .

(٦) سورة الرحمن : الآية ٣٣ .

المفر ؟ ﴾[1] هناك لا فرار إلّا إليه سبحانه : ﴿ **كلّا لا وزر * إلى ربّك يومئذ المستقرّ** ﴾[2]

ومن المواقف : موقف السؤال . فكلٌّ يسأل من يعرفه أن يهبه حسنة من حسناته ، لكن أحداً لا يهب أحداً شيئاً ، فالكل محتاجون . وكل من سألته الحسنة أجاب بأنه للحسنة أحوج .

تطاير الكتب ـ كتاب الأعمال

﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه * إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنّة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾[3] .

ثبت الأعمال ، من الأمور التي نعتقد بها ، فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم مراراً متعددة : ﴿ **وإنّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون** ﴾[4] أي أن الملائك الكرام الكاتبين يسجلون أعمالنا ، وقد عبّر عنهم في موضع آخر بتعبير « الرقيب العتيد » الحاضر المعدّ لكتابة كل شيء حتى الأقوال : ﴿ **ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد** ﴾[5] .

يكتبون ، نعم ، ولكن كيف ؟ أبالقلم والقرطاس ، أم بنحو آخر ؟ لا نعلم ، إنما عين النبوّة هي التي تبصر هذه الأمور .

الكتبة يكتبون كل شيء ، حتى خطرات الفكر والنوايا ، حتى لو همّ

---

(١) سورة القيامة : الآية ١٠ .
(٢) سورة القيامة : الآيتان ١١ ـ ١٢ .
(٣) سورة الحاقة : الآيتان ١٩ ـ ٢٤ .
(٤) سورة الانفطار : الآيات ١٠ ـ ١٢ .
(٥) سورة ق : الآية ١٨ .

أحدنا بخير أو شرّ فيكتب له . سئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن نيّة الخير ، وكيف يطّلع عليها الملكان حتى يكتباها ؟ فقال (عليه السلام) : إن الشخص حين ينوي الخير تنبعث رائحة عطرة فيعرفان ، وكذلك حين ينوي الشر فرائحته النتنة تؤذيهما .

فإن نوى الإنسان الخير كتبت له حسنة ، وإن أتى بالحسنة كتبت له عشراً . أما الذنب فلا يكتب له أكثر من سيّئة إن أتى به[1] .

يروى أن هناك لطفاً يتعلق بهذا الأمر ، وهو أن العبد حين يذنب يهم أحد الملكين بكتابة ذنبه ، فيقول له الآخر : أمهله لعله يندم ويتوب ، فيعطى مهلة ، فإن تاب تجاوز عن ذنبه ، وإن لم يتب يقولان : ما أقلّ حياء هذا العبد ! ثم يكتبان ذنبه .

وظاهر الروايات أن لكل امرىء كتابين : واحداً للحسنات وآخر لسيئات ، وكل ما يفعله انمرء مثبت في أحدهما . يقول القرآن المجيد : ﴿ **وكلّ شيء فعلوه في الزّبر * وكل صغير وكبير مستطَر** ﴾[2] .

نقل الصدّوق في كتابه (العقائد) أن أمير المؤمنين (عليه السلام) رأى عدداً من الشبّان يلغون ويضحكون فقال لهم : أتسوّدون كتاب أعمالكم بمثل هذه الأشياء ؟! فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أويكتبانها أيضاً ؟ قال : نعم ، يكتبان حتى طلعة النَفَس .

...جل ، فإنك لو اقتلعت شوكة من الطريق ، أو رفعت عنه حجراً ، أو قشرة بطيخ لا يزل أحد بها ، لقرت عينك ، ولن يضيع حتى هذا العمل البسيط . وإلّا ، فلمَ كان كتاب الأعمال ؟! .

---

(١) ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلّا مثلها . وهم لا يظلمون** ﴾ سورة الأنعام : الآية ١٦٠ .

(٢) سورة القمر : الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

﴿ إنّ كتــاب الأبــرار لفي علّيّين ﴾[1] . و ﴿ إنّ كتــاب الفجــار لفــي سجّين ﴾[2] . فلم هذان الكتابان ؟ أليس لأن الله يحب ـ من لطفه ـ أن يجنّب عبـاده الذنـوب ؟ فوضـع عليهم الرقبـاء ، لعل في معـرفتهم ذلك مـا يجعلهم يحتاطون ويرتدعون عن ارتكاب الذنب ؟ ثم أوليس لكي تتبين قيمة الحسنات واهتمـام ربّ العـالمين بهـا ، ومحبتـه أن يـأتي بهـا العبـد ، لمصلحـة هــذا العبد ؟ .

هاؤم اقرأوا كتابيـه

ما أسعد الطفل الـذي ينال الـدرجة الأولى في مـدرسته ، فهـو يقفز من الفـرح ، ويضجّ ويصيـح : تعالـوا وانـظروا كلكم ، فقـد فـزت والله ، وهـذه شهادتي تشهد بذلك .

وحال المؤمن يوم القيامة لا تختلف عن حال هذا الطفل النـاجح ، فـإنه يتلقى كتاب أعماله بيده ، ويغلبـه السرور فيصيـح بمعارفـه وأحبائـه أن تعالـوا وانـظروا كتابي ، اقـرأوا ما فيـه ، « هاؤم اقـرأوا كتابيـه » . فقد قبلت صلواتي وأعمـالي ، ورجح الميـزان بحسناتي . «إني ظننت أني مـلاقٍ حسابيـه » وكنت في الدنيا أفكر كثيراً في هذا اليوم واتخذت له عدّتي .

إنه سعيد اليوم بفوزه « فهـو في عيشة راضيـة » . وحياتـه ستكون ملؤهـا السعادة والهناء « في جنّة عالية » .

أما الشقي فله الويل . يمسك بكتابه بشماله ، نـاطقاً بـذنوبـه ومعاصيـه ﴿ وأمّـا من أوتي كتابه بشمالـه فيقول يـا ليتني لم أوت كتـابيـه * ولم أدر مـا

(١) سورة المطففين : الآية ١٨ .

(٢) سورة المطففين : الآية ٧ .

حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * هلك عنّي سلطانيه ﴾[1] .

أجل ، إنه يتمنى لو لم يتلقَّ كتاب عمله ، يتمنى لو كانت ميتته الأولى هي القاضية والأخيرة ، إذاً ، لم ير هذا الحساب المخجل ، الذي لم يغن عنه مال أو سلطان . فقد ذهب الملك والسلطان ، ولم يبق إلاّ الخسران .

ويؤتى بعض الناس كتبهم وراء أظهرهم : ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبوراً * ويصلى سعيراً ﴾**[2] .

والواحد من هؤلاء إما أن تقيد يداه خلف ظهره ويؤتى كتابه ، ويقلب وجهه إلى الخلف ، وإما أن تدخل اليسرى ، في صدره فتخرج من ظهره ، ويقلب وجهه ويقال له : ﴿ **اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾**[3] ، فيقرأ ، وبالرهبة ما يقرأ !! سيرى الفحش والمخازي التي عملها مسطورة أمام ناظريه ، فيقرأها بنفسه ، وتشهد عليه جوارحه .

وترتفع شكوى المذنبين ويقولون : ﴿ **يا ويلتنا !! ما لهذا الكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلاّ أحصاها ؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً ؛ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾**[4] . فيرى كل منهم ما عمله ، فتبهته الحقيقة ، وهذا كتابه منشورٌ أمامه[5] .

والبعض يقرأوان كتبهم ، فيرتعدون لما فيها ، وتسيل أعينهم قيحاً ودماً . جاء في رواية نبوية آن نداء الحق يرتفع بسؤالهم إن كانوا يرون في

---

(١) سورة الحاقّة : الآيات ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الانشقاق : الآيات ١٠ ـ ١٢ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١٤ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٥) ﴿ **وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾** سورة الإسراء : الآية ١٣ .

كتبهم ذكراً لذنب لم يقترفوه ، فيجيبون : لا ، إنه صدق كله . ويطأطئون رؤوسهم .

ويتذكر الإنسان . . وتمر أعماله أمامه كشريط ، وتتجسّد له ذنوبه ومعاصيه ، وتطول وقفته في الحساب أو تقصر ، تبعاً لما عمله قلّ أو كثر ، ويمتد الوقوف ببعضهم ألف سنة ، يضنيهم تصور العذاب ، ومن المواقف ما يمتد خمسين ألف سنة كما تقدم .

البشرى

« وإياب الخلق إليكم . . وحسابهم عليكم » .

ورد في المجلد الثالث من (بحار الأنوار) عن أمالي المفيد ، بالسند المتصل عن الإمام الصادق (عليه السلام) : إذا كان يوم القيامة ، وكّلنا الله بحساب شيعتنا . فما كان لله سألنا الله أن يهبه لنا ، فهو لهم ، وما كان لنا فهو لهم ، ثم قرأ : « إنّ إلينا إيابهم ، ثم إنّ علينا حسابهم » (الزيارة الجامعة) .

ونقلت في الكتاب نفسه ـ باب حساب القيامة ـ رواية أخرى عنه (عليه السلام) ، يقول فيها بعد ذكر حق الله وحق الإمام اللذين يوهبان : فما كان فيما بينهم وبين الناس من المظالم أدّاه محمد (صلى الله عليه وآله) عنهم .

جعلنا الله من أمة محمد (صلى الله عليه وآله) وشيعة أهل بيته ، وحشرنا معهم .

والبشرى للشيعة : هي أن الله تعالى يدع حساب كل قوم لإمامهم ، وطوبى لمن سيحاسبه على عمله الحجة بن الحسن (عليه السلام) ، لأن حسابنا يكون مع شخص كريم ، منزلته رفيعة عند الله ، ونرجو أن يشفع لنا

مهما اسودّت منا الوجوه ، ومهما طأطأنا الرؤوس ، شفاعة المحبوب لمن يحبه .

الميــزان

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾[1] . **﴿ والوزن يومئذٍ الحقّ ﴾**[2] .

الميزان من الأمور التي يجب الاعتقاد بها ، « والميزان حق » . فيوم القيامة ينصب ميزان الأعمال ، فتوزن الحسنات والسيئات ، وأيهما رجحت فهي .

وجوهر حقيقة الميزان ضرورة من ضروريات المذهب ، فما هي هذه الحقيقة ، وما هو عمل الميزان ؟ .

لعلماء الكلام أحاديث شتى في هذا الموضوع أتت طبقاً لمفاهيم ومذاق كل منهم ؛ فالبعض ينحو إلى أن (كتاب الأعمال) هو الذي يوزن ، وينحو غيرهم إلى أنّ التجسيد الجسماني للأعمال هو الذي يوزن . وحيث لا مستند لهذه الأقوال ، فإن ما يحكم به العقل لا يعدو معنى الوزن . أما كيف يتم الوزن ؟ فهذا ما لا نعلمه . لأن ما ينصرف إليه تفكيرنا هو الميزان والقبان ، اللذين يوزن بهما الأرزّ والعدس مثلاً . أما الحق فهو أن ميزان العدل الإلهي يقدر الأعمال خيراً كانت أو شراً ، **﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾**[3] فطوبى لهم . **﴿ ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾**[4] فتعساً لهم .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٨ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ١٠٢ .

(٤) سورة المؤمنون : الآية ١٠٣ .

إذاً ، فما يوزن هو الأعمال ، إنما بأي شكـل ؟ لا ندري ، وقـد وردت في الروايات حدودٌ عليا ودنيا لوزن الحسنـات والسيئات ، وهـذه الحدود هي أعمال الأنبياء والأوصياء بالنسبة للحسنات ، ونقيضها السيئات .

عليّ ميزان الحـق

« السلام على ميزان الأعمال » .

ميزان العدل الإلهي الذي لا ينحرف مقدار شعرة هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، إذ يؤتى يوم القيامة بصلاة الأوّلين والآخرين ، ويكون ميزانَها علي (عليـه السلام) . وقـد ورد عن الإمام الصـادق (عليه السـلام) قولـه : « المـوازين هم الأنبياء والأوصيـاء » . أي أن الموازين التي تـوزن بها أعمـال وعبادات الخلق هي الأنبياء والأوصياء .

أهل بيت محمد (عليه السلام) يزنون صـلاتنا يـوم القيامـة بصلاة علي (عليه السلام) ، ويزنون أعمالنا الكمالية بأعماله ، فهل في أعمالنا من أعماله شيء ؟ وهل أعمالنا تتفق في وجهة الخير مع أعماله ؟ وليس الكلام عن تطابق الأعمال ، فهذا محال .

فمـا أجدرنـا أن نتشبـه بهم ، بمـوازين الحق ، وليس بمن أكـل أمـوال الناس بالباطل ، أو بمن اغتصب حق الزهراء (عليها السلام) .

ما الذي ساءنا من الحق حتى ننقلب إلى الباطل ؟

أمـامنا طـريقان لا ثـالث لهما : طـريق الحق وطـريق البـاطـل ، وإنني أتساءل : أي حرمان يصيب ذلك الذي سلك سبيل الهـدى والحق ؟ أليس في الـزوجة الحـلال الطاهـرة غنى عن الراقصـات العاريـات كـالسلعـة يتـداولهـا الجميـع ؟ وهل ينعم أولئـك المنحرفـون بحيـاة مستقـرة هـانئـة ؟ ألا يصيبهم

المرض كغيرهم ، بل أكثر ،وهل تدوم اللذة المحرّمة ؟ ما هي عاقبة الزوجة التي أحصنها زوجها : فعفرت كرامتها بالتراب ؟ ما هي عاقبة شارب الخمرة غير الغرق في المشاكل والمنازعات والسجون ؟ .

أما ذلك التاجر الذي ربح قرشه بالحلال وشكر ربّه بعد أن آمن بأنه هو الضامن لرزقه ؛ ما الذي يمتاز عنه الآخر الذي غش وتلاعب في تجارته ، وسلب الناس حقوقهم ؟ أليست عاقبة هذا الخزي والخسران في الدنيا قبل الآخرة ، وذاك عاقبته الفوز والفلاح ؟ ﴿ **أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[1] .

والخلاصة أن من التزم بميزان الحق في هذه الدنيا فلا خوف عليه ، أما من انحرف عن ميزان الحق فالخوف عليه في الآخرة محقق ، أما في الدنيا فنفعه مشكوك فيه ، لا بل إن ضرره مؤكد . فهل الاحتيال لكسب بضعة قروش ستدفع أضعافها للطبيب أجدى ، أم أن الصدق والحق أجدى ؟ وما هو العيب في الصدق يا ترى ؟ وما الذي يسوؤنا من الحق والصدق حتى ننزع إلى الباطل ؟ .

هلمّوا نعاهد أنفسنا على قول الحق ، والالتزام بميزان الحق ، فلا نحيد عن سبيله ، عن سبيل علي (عليه السلام) ، فهو ميزان الحق .

الحساب

﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾[2] .

يكون الناس يوم الجزاء ـ من منظور الحساب ـ أربع طوائف :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١٠٥ .

فـطائفـة يـدخلون الجنـة دون حسـاب ؛ وهم أحبـاء أهـل البيت (عليهم السلام) ممّن لم يقترفوا معصية ، أو أنهم رحلوا عن الدنيا تائبين .

وطائفة يـدخلون النار دون حسـاب ؛ وهم الذين يمـوتون دون إيمـان . فهؤلاء لا يقيم لهم الله وزناً ، ويلقون العذاب دون حساب .

وطائفة يقفون موقف الحساب ، ويطول وقوفهم أو يقصر تبعاً لذنوبهم ، لكنهم ينجون ويكونـون من أهل الجنـة ، لرجحـان حسناتهم على سيئـاتهم . قال رسول الله (صلى الله عليـه وآله) لابن مسعـود : « إن المرء ليحبس على ذنب واحد مئة عام » . مع أنـه يكون من أهـل الجنة ، ولم يـذكر في الـرواية نـوع الذنب الـذي يحبس صاحبـه مئة عـام[1] ، حتى يـرتـدع المؤمنـون عن الذنوب كافّة .

والطائفة الرابعة : هم الذين فاقت سيئـاتهم حسناتهم ، وهم محكـومون بالعذاب ، والنار مأواهم حتى يطهروا من ذنوبهم ، إن لم تدركهم الشفـاعة ، فيصبحوا من أهل النجـاة والجنة ، وكـذلك حـال كل من كـانت لديـه ذرّة من الإيمان .

ولا يبقى في النار سوى الكافر المعاند ، فيخلد فيهـا ويحرم من دخـول الجنة ، مهما كانت أعماله خيّرة ، لأن الأسـاس في دخول الجنـة هو الاعتقـاد بالله وآياته . فكيف يرى الجنة من جحد وجود الله ؟! .

ورد في المجلد العاشر من (البحار) قول لـرسول الله (صلى الله عليـه وآله) في حديث الأعرابي والتمساح ، مفاده أن من هيأ لأعرابي زاد سفره فـأنا ضـامن له زاد تقـواه ، ولما سـأل سلمان عمـا هو زاد التقـوى قال (صلى الله

---

(١) ورد شرح مفصل لهذا الأمر في كتاب (الذنوب الكبيرة) للمصنف .

عليه وآله) : قول : « لا إله إلاّ الله » عند الموت . فمن قالها رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ومن لم يقلها لم يره . والمراد من قول كلمة التوحيد عند معالجة سكرات الموت هو إيمان المحتضر واعتقاده بها ، فإن عجز اللسان عن نطقها ونطق بها القلب لكفى ، وتلك هي حال التلقين .

الإحباط والتكفير

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾[1] .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد ، وهو الحقّ من ربّهم ، كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾[2] .

ما يمكن قوله ببساطة ليفهمه الجميع بيسر وسهولة : هو أنه لا فائدة من رحيل المرء عن الدنيا بدون إيمان ، حتى لو صدرت عنه أعمال خير كثيرة ، وهذا هو الإحباط (أي : الإبطال) ، فإن الموت على غير الإيمان يضيع أعمال الخير ويحبطها .

لو قال قائل : أفليس من **﴿ يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ﴾** ؟[3] قلنا بلى ، إذ يمكن أن يجزى فاعل الخير في هذه الدنيا عن عمله ، كأن يسلم الروح بيسر ، أو أن يوقى من الأمراض ، أو يجنَّب الضرر ، فلا يبقى له من الأجر ما يدخله الجنة ، بعد أن تقاضى أجر ما عمل ، ذلك لأنه مات كافراً غير مؤمن .

---

(١) سورة محمد : الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة محمد : الآية ٣ .

(٣) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

ومن الممكن أيضاً أن تكون أعمال الكافر الخيّرة سبباً لتخفيف عذابه الأخروي ، كما ورد عن حالة (حاتم الطائي) المشهور بالجود والكرم ، وحالة (أنو شروان) العادل ، اللذين مصيرهما جهنّم ، ولكن لا تحرقهما نارها .

وعلى أي حال ، فينصّ القرآن الكريم في معرض استثناء الكفار ممن تشملهم التوبة : ﴿ **وليست التوبة . . . ولا الذين يموتون وهم كفار** ﴾[١] . وفي موضع آخر : ﴿ **والذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون** ﴾[٢] .

إذاً ، من يرحل عن الدنيا وهو كافر ، فقد أضاعَ أعماله وأحبطها .

وإن ما ذكر في الآيات القرآنية المتعدّدة عن الإحباط إنّما يتعلّق بالكفر والشرك ، فماذا عن المعاصي الأخرى ؟ وهل هي بدورها تحبط الأعمال ؟ .

الجواب : نعم ، فقد ورد في روايات خاصة عن عاقّ الوالدين ، مثلاً ، أن النداء يأتي : « يا عاقّ ، اعمل ما شئت » ، اعمل ما شئت فلن يقبل منك ، فإن كان قد جعل شكاوى أمه وراء ظهره ، فإن النار تأكل عمله . والأمر كذلك بالنسبة لبعض المعاصي الأخرى ، كالتهمة الباطلة وإظهار الحسد فإنه كما مرّ : « يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » .

والتكفير : من الكفّارة[٣] ، بمعنى المحو والستر لمعصية وقعت ، ولا شك أن الإيمان يمحو أثر الكفر السابق . فلو أن إنساناً كان غير مؤمن عمره ، ثم آمن في آخره ومات ، فهو يقيناً من أهل النجاة .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٨

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٤٧

(٣) ﴿ **فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ سورة الفرقان : الآية ٧٠ .

بناء على ذلك ، فإن الماحي القطعي لأثر المعصية الواقعة هو التوبة الجامعة للشرائط ، كما قال القرآن عن أهل التوبة : « فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات » كذلك هناك من الحسنات ما يمحو الذنوب والآية الكريمة : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾[1] . تفيد ذلك . أما تحديد رتبة الحسنات وأثرها ، فقد ورد في الروايات بعضه ، ففي المجلد الخامس عشر من (البحار) أن شخصاً شكا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عظيم ذنبه (كان قد وأد ابنته في الجاهلية) وطلب أن يذكر له الرسول عملاً يرحمه به الله ، فقال : ألك أمّ ؟ قال : لا . (يتّضح أن الإحسان إلى الأم هو خير علاج) ، قال : ألك خالة ؟ قال : نعم ، قال : اذهب وأحسن إلى خالتك (لعل الحسنة تدرك أمه عن طريق أختها) ثم قال (صلى الله عليه وآله) : لو كانت أمه . (أي لو كانت المحسن إليها أمه لكان أفضل له ، لأن للإحسان إلى الأم أشدّ الأثر في محو الذنوب يقيناً) .

أسئلة القيامة

ورد في مواضع عدّة من القرآن الكريم أن الأنبياء يسألون يوم القيامة ، وكذلك يُسأل من أرسلوا إليهم من الناس[2] .

يُسأل الرسل عن أنهم قد بعثوا لدعوة الخلق إلى الحق ، فهل بلّغوا ما أرسلوا من أجله ؟ فيقولون : ربّنا ، أنت الشاهد علينا ، وشاهدنا خاتمنا محمد (صلى الله عليه وآله)[3] .

---

(١) سورة هود : الآية ١١٤ .

(٢) ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألنّ المرسلين ﴾ سورة الأعراف : الآية ٦ .

(٣) ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

ويسأل عيسى ابن مريم : ﴿ **أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله** ﴾[1] فيرتجف عيسى (عليه السلام) أمام عظمة الخالق جل وعلا ويقول : ﴿ **سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍّ ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنّك أنت علّام الغيوب * ما قلت لهم إلّا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربّي وربّكم** ﴾[2] .

وتُسأل الأمم : ألم يخبركم رسلنا إليكم عن هذا اليوم ؟ فيقول الجميع : بلى . . .

وغير ذلك من الأسئلة ، كالسؤال عن نعم الله وكيف قوبلت : أبالحمد أم بالكفران ؟ وفي هذا روايات مختلفة يجمع بينها أن للنعم مراتب . وأهم مراتبها ولاية آل محمد ، فالولاية هي النعيم المطلق .

فقد سئل بعض العامة في مجلس الإمام الرضا (عليه السلام) عن قوله تعالى : ﴿ **ثم لتسألنّ يومئذٍ عن النعيم** ﴾[3] ؟ فقال : الماء البارد والطعام وغيره . فقال الإمام وقد علا صوته : « إن الله لا يسأل عباده عمّا تفضّل عليهم به ، ولا يمن بذلك عليهم . . . ولكن النعيم حبّنا آل البيت وموالاتنا »[4] .

يسأل الناس أيضاً عمّا كان شأنهم مع آل محمد (صلى الله عليه وآله) وعن مدى ولائهم لهم ومتابعتهم . ويسأل الأعداء عن عداوتهم وبغضهم لهم . أما الطعام والشراب فلا يسأل عنهما إلا في معرض الإسراف أو التبذير ، أو طريقة كسبهما أو صرفهما .

ويسألون عن كل فعل حرام وكل معصية ، يسأل المرء أيضاً كما في

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١٦ .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) سورة التكاثر : الآية ٨ .

(٤) سفينة البحار : ص ٥٩٩ .

الروايات : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله ممّ اكتسبه وفيم أنفقه ، وكذلك عن ولاية آل البيت (عليهم السلام) . فهناك يطبّق جيّداً قانون : « من أين لك هذا » ؟ وحتى الإنفاق برياء يكون موضع مساءلة ومؤاخذة .

يُسأل عن العبادات

﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾[1] .

يُسأل المرء أول ما يسأل عن الصلاة ، فـ « أول ما يحاسب به العبد الصلاة »[2] هذه الفريضة العظيمة ، التي هي عماد الدين والأمانة الإلهية . ثم إن قبلت يسأل بعدها عن العبادات الأخرى .

يُسأل عن المظالم ، وهي حقوق الناس . يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة ما مضمونه : الذنوب ثلاثة : ذنب مغفور ، وذنب يرجى لصاحبه ، وذنب غير مغفور .

أما الذنب المغفور فهو الذي عوّض عنه في الدنيا ، أي أجري عليه الحد . والله أكرم من أن يعاقب على الذنب مرتين .

والذنب الذي يرجى غفرانه فهو الذنب الذي لم يعوّض عنه في الدنيا ، لكن صاحبه تاب .

أما الذنب غير المغفور فمظالم العباد لبعضهم ، وحقوق الناس ، فإن لحق أدنى ظلم بإنسان عوّضه الله عنه . وفي الآية الكريمة « إن ربّك لبالمرصاد » (فسر المرصاد بالعقبة القائمة من حقوق الناس) .

---

(١) سورة الصافّات : الآية ٢٤ .

(٢) « إن قبلت قبل ما سواها » . البحار ـ المجلد الثالث .

ينقل المحدّث القمّي في (منازل الآخرة) حكاية عن سليمان الحكيم ، الذي اشتهر بكثرة زهده وعبادته وذكره لله ، فيقول : شوهد في المنام بعد موته فسئل عن أحواله فقال : إني موقوف لسنةٍ في عقبة ، ذلك أني ذات يوم ـ وقد وردت حمولة تبن إلى المدينة ـ أخذت منها قشّة ، فأنا موقوف سنةً لتصرفي في مال دون إذن صاحبه ورضاه .

لا تقل ما هي القشة وماذا تساوي ؟ فإنّها ملك الناس ، وكذلك الأمر مع من يحصل على شيء حياءً ومحاباة ؛ فإن « المأخوذ حياءً كالمأخوذ غصباً » ، وهو حرام .

اعملوا ما يلقي الأحمال عن كواهلكم ، واطلبوا الحِلَّ لما تساهلتم في أخذه ، كي تتجنبوا الوقوف في العقبات ، فقد يصل الوقوف في إحدى المراتب إلى ألف سنة .

أخذ الحقوق

لله تعالى في معاملته لعباده طريقتان : المعاملة بالعدل ، والمعاملة بالفضل .

أ ـ **المعاملة بالعدل** : هي المعاملة التي يستوفى بها حقّ امرىء من آخر بمقدار ماله عنده من حقّ ؛ فيؤخذ من حسناته بهذا المقدار ، وتعطى لصاحب الحق . والأمر كذلك مع من اغتاب إنساناً أو افترى عليه .

نقل في (روضة الكافي) حديث طويل عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) في موضوع حساب الخلائق ، واستيفاء الحقوق والمظالم ، نورد بعضاً منه :

قال الإمام (عليه السلام) : إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا الله لا إله

إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور . اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي ، لا يظلم اليوم عندي أحد ، اليوم آخذ للضعيف من القويّ بحقّه ، ولصاحب المظلمة بالمظلمة ، بالقصاص من الحسنات والسيئات ، وأثيب على الهبات ، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة ، إلا مظلمة يهبها صاحبها وأثيبه عليها ، وآخذ له بها عند الحساب . فتلازموا أيها الخلائق واطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدنيا ، وأنا شاهد لكم عليهم . وكفى بي شهيداً .

وفي آخر الحديث يقول له رجل من قريش : يابن رسول الله ؛ إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة ، أي شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار ؟ .

فقال الإمام (عليه السلام) : يطرح عن المسلم من سيئاته بقدر ما له على الكافر ، فيعذّب الكافر بها مع عذابه بكفره ، بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة .

فقال له القرشي : فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم ، كيف تؤخذ مظلمته من المسلم ؟ .

قال : يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته ، بقدر حق المظلوم ، فتزاد على حسنات المظلوم .

فقال له القرشي : فإن لم يكن للظالم حسنات ؟ .

قال : إن لم يكن للظالم حسنات ، فإنّ للمظلوم سيئات . يؤخذ من سيئات المظلوم فتزاد على سيئات الظالم[١] .

---

(١) روضة الكافي : الحديث ٧٩ .

وغنيّ عن القول أنه إن كان لكافر حقّ على مسلم ، فبما أنه ليست للكافر قابلية لتلقّي الحسنات ، فالعدل يقضي بأن يخفّف من عذابه بقدر حقّه . وزيادة في وضوح هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى قصة العابد الذي كان مديناً ليهودي بعشرة دنانير ، وقد تقدم تفصيلها في بحث البرزخ في هذا الكتاب ـ الفصل الثاني : فقرة « دوام اللذة » .

ورد في (لآلىء الأخبار) أن الإمام السجاد (عليه السلام) قال : « يؤخذ بيد العبد يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، ويقال : ألا من له قبل هذا حق فليأخذه ، ولا شيء أشدّ على أهل القيامة من أن يروا من يعرفهم ، مخافة أن يدّعي عليهم شيئاً »[1] .

وورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال لأصحابه : « أتدرون من المفلِس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا مال ولا متاع ، قال (صلى الله عليه وآله) : إن المفلس من أمتي من أتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج ، ويأتي قد شتم هذا ، وأكل مال هذا ، وهتك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيؤتى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياه عليه ، ثم يطرح في النار »[2] .

ب ـ **المعاملة بالفضل** : إذا شملت عناية الله عبداً من عباده ، وكان لأحدهم عنده حق « ينادي مناد من عند الله تعالى (مشيراً إلى قصر من قصور الجنة) : يا معشر الخلائق ، هذا لكلّ من عفا عن مؤمن »[3] . وهذه هي المعاملة بفضله تعالى ، فهو بفضله وكرمه يصلح حال عبده الصالح ، ومن مثل ذلك الموقف يشكو زين العابدين (عليه السلام) « ومن أيدي الخصماء غداً من يخلّصني » ؟ .

---

(١) لآلىء الأخبار : ص ٥٤٨ .

(٢) بحار الأنوار .

(٣) روضة الكافي : الحديث ٧٩

« إلهي عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك يا كريم » ، ويقول (عليه السلام) في دعاء أبي حمزة الثمالي : « وإلى معروفك أديم نظري » و « فضلك رجائي » .

حـوض الكوثـر

﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾[1] .

الكوثر من الأمور المسلّمة ، صرح به الكتاب المجيد ، ووردت بشأنه روايات عامة وخاصّة ، ومفادها أن « حوض الكوثر خير كثير رحم الله تعالى محمداً به » .

وطول هذا الحوض من صنعاء إلى البصرة كما تقدم . تملأ من أطرافه الكؤوس بأيدي الحور العين ، وتقدم للمؤمنين . وظاهر بعض الروايات أن هذا الحوض أقسام ثلاثة : « أنهار من خمر لذّة للشاربين ، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه ، وأنهار من عسل مصفّى » . وقال بعضهم : إن حوض محمد (صلى الله عليه وآله) أحلى من العسل وأنقى من الثلج .

« واسقنا من حوض جده ، بكأسه وبيده ، ريّاً رويّاً هنيئاً لا ظمأ بعده أبداً » .

ذكر الشيخ الشوشتري في (الخصائص) كما ذكر آخرون أيضاً أن [illegible]ية حوض الكوثر هي مع محمد (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) ، وأنه ما من مؤمن إلاّ وسيشرب منه .

أما محبّو الحسين (عليه السلام) فلهم مع الكوثر خصوصية أخرى : إذ

---

(١) سورة الكوثر : الآية ١

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : « وإن الكوثر لأشدّ فرحاً لباكي الحسين (عليه السلام) » ، فالكوثر يفرح لمقدم الباكين على الحسين إليه[1] .

ويخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن حول الكوثر اثنتا عشرة ألف شجرة ، كل شجرة لها ثلاثمئة وستون غصناً ، فإذا أراد أهل الجنة الطرب هبت ريح فحركت الأشجار والأغصان فتصدر عنها أصوات ، كل منها أكثر عذوبة من الآخر .

إن أردتم طرباً رفيعاً فها هو هناك ، عند حوض الكوثر ، شرط أن تتجنبوا اللهو واللعب والموسيقى في هذه الدنيا .

عظمة محمد وآله (ص)

(لواء الحمد ـ المنبر والوسيلة ـ المقام المحمود) .

من مواقف القيامة موقف تظهر فيه عظمة شأن محمد وآله (صلى الله عليه وآله) وجلال قدرهم :

لواء الحمد : هو بيرق من نور ، طوله مسيرة ألف سنة ، وله ثلاث شقق (قطع) . وتقول الرواية : إن طول الشقة منه بين الشرق والغرب . وفي رواية أخرى : إنها « أعظم من الشمس والقمر » . منقوش على إحداها : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وعلى الثانية : « الحمد لله رب العالمين » ، وعلى الثالثة : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ويستقر الأنبياء والصلحاء والمؤمنون تحت هذا البيرق ، ويكون حامله أمير المؤمنين (عليه السلام) .

---

(١) من رغب في التفصيل فليرجع إلى كتاب (محرم ـ وقائع الأيام) للخياباني .

المنبر والوسيلة : « وقرّب إليه الوسيلة » .

وهي منبر خاص برسول الله (صلى الله عليه وآله) ، له ألف درجة مرصع ما بينها بالزبرجد والياقوت والذهب والزمرّد (من جواهر الجنة) ، وأعلى درجة هي أرفعها ، وتختص برسول الله (صلى الله عليه وآله) ، تليها مباشرة الدرجة المختصة بوصيّه (عليه السلام) ثم درجة إبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) ثم الأنبياء كل حسب درجته .

المقام المحمود : يشرع النبي الأكرم بمدح الباري جلّ وعلا من على هذا المنبر ، بما لم يمدحه به أحد من الأوّلين والآخرين ، ثم الحمد والثناء على الملائكة والأنبياء والصلحاء والمؤمنين ، وما يدعو للسعادة والافتخار ، فإن الإنسان الأول في عالم الوجود يقول في هذا المقام الرفيع : « ربّنا اجعلنا من الصلحاء » .

اقرأوا في زيارة عاشوراء هذه الجملة بدقّة : « **وأسأل الله أن يبلّغني** المقام المحمود الذي لكم عند الله » . أي : أسأل الله أن يبلّغني المقام المحمود الذي بلغه محمد (صلى الله عليه وآله) نتيجة لقيامه في الليل . كان (صلى الله عليه وآله) يقف للعبادة حتى ورمت قدمات ، عشر سنين لم يذق فيها طعم النوم في الليل : ﴿ **ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك ، عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً** ﴾[1] .

قسيم الجنة والنار

« عليّ قسيم الجنة والنار وجواز الصراط » .

في ذلك المقام المحمود تتوافد الملائكة للسلام على النبي (صلى الله

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٩ .

عليـه وآله) ، ويقبـل (رضوان) ويقـول : أنا رضـوان خازن الجنـان ، ويقدم للنبي مفاتيح الجنة ، ثم يقبل ملك مهيب ويقدم له مفاتيح جهنم . فيسلمهمـا كليهما إلى علي (عليه السلام) ، بعد أن ينبئه بأن النـار ستكون أطـوع له من إطاعة العبد لمولاه ، فيتقـدم علي إلى الصراط ، ويجـوز عليه إلى الجنـة من أذن له ، ومن لم يأذن له فالنار مأواه .

الصــراط

﴿ وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾[1] .

الصراط كذلـك من الأمور التي يجب الاعتقـاد بها ، والصـراط لغة هـو الطريق . فمن كان في الحيـاة الدنيـا على الجادة المستقيمـة ، فلم ينحرف ، فسيجـوز على الصـراط القـائم فـوق جهنّم صحيحـاً سـالمــاً ، البعض يعبـره كالبرق ، والبعض قائماً أو منحنياً أو متردداً ، كمـا كان شـأنه في سلوكـه جادة العبادة في الدنيا .

وفي تفسيـر الآية الشـريفـة : ﴿ وجيء يـومئـذ بجهنّم ﴾[2] . روي عن رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه) : أن الله ـ لا إلـه غيـره ـ إذا جمـع الأوّلين والآخرين ، أتي بجهنّم تقاد بألف زمام ، يمسك بكل زمـام مئة ألف ملك من الغلاظ الشداد ، لها هدّة وزفيـر ، وإنها لتـزفر الـزفرة ، فلولا أن الله عـزّ وجلّ أخّرهم إلى الحساب لأهلكت الجميع ، ثم يخرج عنق يحيط بالخلائق : البـرّ منهم والفاجر . . ثم يوضع عليها صراط أدقّ من حدّ السيـف .

يوضع جسر فوق جهنم . وعلى الجميع أن يعبروه ، فـلا حيلة في ذلك ولا استثناء ؛ بصريـح قول الكتـاب المجيد : ﴿ وإن منكـم إلاّ واردهـا ، كان

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٧٤ .

(٢) سورة الفجر : الآية ٢٤

على ربّك حتماً مقضيّاً * ثم ننجيّ الذين اتّقوا ، ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾[1] .

ولهذا الصراط سبع عقبات ، لكل عقبة مواقف ، وكلّ موقف سبعة عشر ألف فرسخ ، وفي كل عقبة سبعون ألف ملك مأمورون ، وعلى الخلائق أن تجوز هذه العقبات السبع .

العقبة الأولى : الرحم والأمانة والولاية

يُعترض المرء في أول الصراط ويُسأل عن الرحم الذي قطعه،رحم الأم والأب والأخ . . فعلاوة على ما ترتّب على قطع الرحم من آثار سيئة في الدنيا ، كقصر العمر أو ذهاب البركة من المال ، يطالب المرء بتقديم حساب عما مضى : ﴿ **واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** ﴾[2] . هل عدتم رحماً مريضاً ؟ هل كفيتم محتاجاً ؟ هل كنتم تزورون أرحامكم بين وقت وآخر .

ثم موقف الأمانة : فالأمانة تسري على القول كما على المال ، فمن ائتمنك على قول وأفشيته فقد خنت الأمانة : « المجالس بالأمانة » . إن فضحت إنساناً فقد خنت الأمانة ، إن رهن لديك بيت فلم تردّه عند الوفاء ، إن استأجرت بيتاً ولم تلتزم بشروطه ومواعيده ، كل ذلك يندرج في خيانة الأمانة ، والحساب يجري على القول والفعل .

ثم موقف الولاية ، ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، كما في روايات السنّة والشيعة ، يقول الثعلبي وآخرون غيره في تفسير الآية الكريمة : ﴿ **وقفوهم إنّهم مسؤولون** ﴾[3] : « إنهم مسؤولون عن ولاية علي بن أبي طالب » .

---

(١) سورة مريم : الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١ .

(٣) سورة الصافّات : الآية ٢٤ .

الحمويني والطبري من أجلّ علماء السنّة ، يرويان عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : يا عليّ ، من له براءة ولايتك فإنه يعبر الصراط ، والروايات في هذا الصدد كثيرة . آثرنا عدم ذكرها توخياً للاختصار .

العقبة الثانية : الصلاة

بعد تخطّي العقبة الأولى بولاية عليّ (عليه السلام) وردّ الأمانة وصلة الرحم ، ينتقل المرء إلى العقبة الثانية ، فيسأل عن صلواته : اليومية الواجبة ، وصلاة الآيات ، والقضاء وغيرها .

قال (صلى الله عليه وآله) : « لا ينال شفاعتي من أضاع صلاته » . وقال الصادق (عليه السلام) في آخر وصيّة له : « لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاة » .

ويتدرّج تارك الصلاة من التهاون البسيط بها أولاً ، كأن يؤخّر صلاة الصبح مثلاً إلى ما بعد طلوع الشمس ، أو يصلي الظهر أو العصر عند الغروب ، وهكذا إلى أن يصل إلى ترك الصلاة ، وورد أن تارك الصلاة يموت عطشان ويبعث من القبر عطشان .

وهناك أمر أحب التأكيد عليه ليسمعه الجميع ، وينقلوه إلى الآخرين ؛ وهو موضوع مسؤوليّتنا نحو أبنائنا في صدد الصلاة ، إذ يجب تعويد الأطفال على الصلاة قبل البلوغ ، وتشجيعهم على الذهاب إلى المساجد ، وكل جهد من الأب والأم في هذا السبيل يعود عليهما بالخير والثواب ، والأمر كذلك بعد بلوغ الابن ووصوله إلى مرحلة التكليف ، فيشملهما لطف الله وعنايته .

يروى أن أحد الأنبياء كان يعبر مقبرة مع أصحابه ، فمرّ بقبر أشار إليه وقال إن صاحبه يعذّب ، ومرّ عام ، وفي زيارة ثانية للنبي إلى المقبرة عرف أن

العـذاب رفع عن صـاحب القبر ، وإذ تسـاءل عن السبب أتاه النـداء بـأن ابنـاً لصـاحب القبر هـذا أدخل المـدرسة بعـد موتـه ، وتعلم أن يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » وحيث أتى ذكر رحمتنا على لسان الولد ، فقد رفعنا العذاب عن أبيه (إذ هو واسطة وجود الولد) .

إذاً ، فلعبـادات الأولاد أكبـر الأثـر على الـوالـدين . فعلينـا تعليمهم وتعـويـدهم عليهـا ، فهي المـرتبـة الأولى من الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكر ، وتتوجه إلى الأم والأب أولاً ، ثم إلى الأقارب[1] .

العقبة الثالثة : الخمس والزكاة

وفي هذه العقبة يسأل من كان في ذمته ولو مقدار درهم من حق الخمس أو الزكاة،وكثيرة هي الروايات التي تتحدث عن عذاب مانـع الزكـاة ، ومنها أن الأفعى حين تكبـر ويـزداد سمّهـا ينسلخ جلدهـا ، وتسمّى بـالعـربيّـة حينـذاك بـ (الأقرع) ، وتلتفّ هذه الأفعى حـول عنق مانـع الزكـاة ، ويروى أيضـاً أن الزارع الذي لا يخـرج زكاة زرعـه تلتف أرضه حـول عنقه إلى سبـع طبقات ، ويجرّ مانـع الزكـاة أيام ظهـور وليّ العصر (عـج) ، ولو كـان في ذمته مقـدار درهم زكاة ، أما الـذين يكنزون الـذهب والفضة ويمنعـون زكاتهـا ، فسيحمى عليهـا في النار ﴿ فتكـوى بها جبـاههم وجنوبهم وظهـورهم ، هذا مـا كنزتم لأنفسكم . فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[2] .

أما الخمس ، فالروايات التي تتحدث عن صعوبة الحساب فيـه كثيرة ،

---

(١) ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ سورة الشعراء : الآية ٢١٤

﴿ يا أيها الذين آمنوا قـوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقـودها النـاس والحجارة ﴾ سـورة التحريم : الآية ٦

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٥ .

ونكتفي ، بالرواية الواردة عن الإمام الصادق (عليه السلام) في (الكافي) و (التهذيب) و(من لا يحضره الفقيه) إذ قال : « إن أشدّ ما فيه الناس يوم القيامة أن يقوم صاحب الخمس فيقول : يا ربّ خمسي » ، ويكفي للدلالة على صعوبة ذلك ، أن يكون المطالبون بالخمس ممن منعه ، هم أولئك الذين يفترض أن يكونوا شفعاءه .

العقبة الرابعة : الصوم

يكون صوم شهر رمضان المبارك مورداً للسؤال في العقبة الرابعة ، فإن « الصوم جُنَّة من النار » وقال (صلى الله عليه وآله) : « للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة يوم القيامة ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[1] . فتكون هنا ـ في العقبة الرابعة ـ فرحته الثانية .

العقبة الخامسة : الحج

من استوفى شرائط الاستطاعة ولم يحجّ في حياته ، فهاهنا ـ في العقبة الخامسة ـ عثرته ، وهناك طائفتان يقال لهما : « مت يهوديّاً أو نصرانياً » وهما مانعو الزكاة وتاركو الحج ، وينعت الله سبحانه تارك الحج في كتابه المجيد بالكافر ، وكفى بذلك تعساً . يقول تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر** (فلم يحج) **فإن الله غنيّ عن العالمين** ﴾[2] .

هذا ولن أطيل في بحث هذه الأمور ، فالغرض هو الذكر للمعرفة ، وليس البحث في أصول العقائد .

---

(١) سفينة البحار : ص ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

العقبة السادسة : الطهارة

ذكر أن المراد في رواية ابن عباس عن « الطهارت الثلاث » : الوضوء والغسل والتيمم ، وقال البعض إنها « مطلق الطهارة » ، وتقف هذه العقبة في وجه من لم يحرص على طهارته في الدنيا ، وخصوصاً النساء ، فإن لم يكنّ قد حرصن على الطهارات في أوقاتها فإنّهنّ مسؤولات في هذا الموقف .
ويروى أن إهمال الطهارة سبب لضغطة القبر .

العقبة السابعة : المظالم

ويعبّر عنها تارة بعقبة « العدل » ، وطوراً بعقبة « حقّ الناس » ، كما عُبّر عنها في القرآن الكريم بـ « المرصاد » في قوله تعالى : ﴿ **إنّ ربّك لبالمرصاد** ﴾[1] . فهي عقبة لا يجوزها عبد بمظلمة عبد ، فإن لطمة لإنسان بغير حق ، توقف اللاطم هناك خمسمئة سنة حتى تنخر عظامه .

يسأل صاحب العمل : بأي حق ضرب أجيره ، والمعلم : بأي حقّ أنّب تلاميذه إن أرتج عليهم في سؤال ، والزوج : بأي حق ضرب زوجته ؟ ونشير هنا إلى استثناء ورد في الآية الكريمة : ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً** ﴾[2] . وهذا استثناء نادر الوقوع ، وخارج عن بحثنا .

وفي هذه العقبة يحجز من حبس حقاً عن صاحبه أربعين سنة ، دون أن يكلَّم ، ثم ينادى عليه بحابس مال الناس ، ويعذب أربعين سنة أخرى ، ثم يطرح في جهنم . هذا إن لم تكن لديه حسنات تستوفى منه ، ويروى أن مقابل درهم واحد يستوفى منه سبعمئة ركعة يعطى أجرها لصاحب الحق .

---

(١) سورة الفجر : الآية ١٤ .

(٢) سورة النساء : الآية ٣٤ .

نقل ثقة الإسلام (النوري) من كتاب (المستدرك من الأنوار المضيئة) من مؤلفات السيد غياث الدين النجفي . أحد علماء الإمامية وفقهاء الشيعة ، نقل هذه الحكاية :

كان من عادة متولّي مسجد قريتنا القريبة من النجف أن يحضر نهاراً إلى المسجد ، واسمه محمد بن أذينة . غير أنه ذات يوم لم يحضر جري عادته ، فسألنا عنه فقيل إنه طريح الفراش ، فعجبنا لأنه كان في الليل صحيحاً معافى . وحين عدناه رأينا الحروق تغطي جسده ، وكان يصحو تارة ويفقد وعيه أخرى . سألته عمّا أصابه فقال :

في الليلة الماضية رأيت الصراط في المنام ، وأمرت بالمرور عليه ، كانت بداية سيري سهلة مريحة ، ثم إذا به يضيق أمامي ويغدو حاداً قاطعاً ، تابعت مروري بحذر كي لا أقع في جهنم ، وكانت تحتي ترتفع ألسنتها بلون أسود ، وكان الناس يتساقطون فيها كورق الشجر ، وفجأة أحسست بالنار تجذبني ، وسقطت في جهنم ، وكنت ـ مهما حاولت وضربت بيدي ورجلي ـ أزداد هبوطاً إلى أسفل[1] . ألهمت أن أستغيث فقلت : يا علي ، أغثني يا مولاي يا أمير المؤمنين . نظرت إلى أعلى فرأيت سيداً يقف بجانب الصراط ، مدّ يده وأمسكني من جنبي ورفعني ، قلت : أغثني يا سيدي فقد احترقت ، فمسح بيده الكريمة عليّ من ركبتي إلى آخر فخذي ، وهنا تنبهت من النوم ، فرأيت موضع يده (عليه السلام) وليس فيه أثر للحروق ، غير أن بقية جسمي كانت تلتهب .

بقي الرجل ملازماً فراشه ثلاثة أشهر ، يتردد عليه الأطبّاء حتى عوفي من حروقه ، ونبت له لحم جديد .

---

(١) لنار جهنم جاذبيّة قوية ، ويروى أن قعرها يقع على عمق سبعين سنة من المسير .

وقد ورد في الكتاب نفسه (المستدرك) أنه كلما جرى الحديث بقصته كان يرتعش وترتفع حرارته .

المراد أن سبيل النجاة هو التمسك بولاية أهل البيت (عليهم السلام) ، وقد وعد الإمام الرضا (عليه السلام) زائريه بأنه سيعينهم على الصراط ، كما وردت بشارات بحقّ محبّي الإمام الحسين (عليه السلام) ، حتى قيل في رواية عن الصادق (عليه السلام) أنهم سينجون المختار .

الشفاعة

من الأصول المسلّم بها يوم القيامة : الشفاعة ، والشافعون هم أولئك المقربّون المعتبرون عند الله تعالى ، أصحاب القدرة الذين يأخذون بيد الضعيف المتعثّر ، والشفاعة نوعان : شفاعة لمن ورّط نفسه بالوقوع في جهنّم ، تخلّصه من الأغلال والقيود ، وشفاعة لمن دخل الجنة ، غير أنه لم يفز بالقرب من محمد وآله (صلى الله عليه وآله) ، ترفع من قدره ومكانته ، فالجميع إذاً بحاجة للشفاعة .

نقل في (بحار الأنوار) عن أبي أيمن أنه عرض للباقر (عليه السلام) قائلاً : يا أبا جعفر ، تغرّون الناس وتقولون : شفاعة محمد . . شفاعة محمد ؟! فبان الغضب في وجه أبي جعفر (عليه السلام) وقال : ويحك يا أبا أيمن ، أغرّك أن عفّ بطنك وفرجك ؟ . . . ما أحد من الأولين والآخرين إلّا وهو محتاج إلى شفاعة محمد (صلى الله عليه وآله) يوم القيامة .

الشفاعة الكبرى ، بل أصل الشفاعة هو محمد وآله (صلى الله عليه وآله) . وكل الشافعين هم فروع من هذا الأصل . فالعلماء ، وهم الوسائط لهداية الناس ، أليسوا ممن تذوّقوا فتات موائد محمد (صلى الله عليه وآله) ؟ والمؤمنون الذين قيل إن أحدهم يشفع لمئة ، أليسوا من المقتدين بمحمد

وآله ، وكافة السادة ألا يستقون من جذور هذا الأصل ؟ والقرآن والمساجد كذلك ، أليست من آثارهم (عليهم السلام) .

يُشفع في كل المواضع

عمدة الشفاعة ، شفاعة يوم القيامة ، غير أن بين أيدينا من الشواهد ما يدل على أن الشفاعة تجري في البرزخ وفي هذه الدنيا كذلك : مثل بلاء يوشك أن يقع ، يدفعه الاستشفاع بولي العصر (عج) ، أو معذّب في البرزخ توسّل له أهله بأهل البيت (عليهم السلام) ، فكانوا واسطة رفع العذاب عنه ، وقد وقعت حوادث من هذا القبيل[1] ؛ منها ما وقع للسيد الحميري عند احتضاره[2] . وعن الشفاعة في الدنيا ، هناك قصة الحاج ميرزا خليل ، والتي جرت مؤخراً ، ولعل بعض الشيوخ المحترمين يذكرونها .

كان الحاج في البداية طالباً في مدرسة الشفاء في قم ، وذات يوم دخلت حجرته امرأة قائلة بلهفة وتوسّل : ولدي يشكو من ألم شديد في القلب ، أله عندك دواء ؟ أما الحاج الذي لم يكن متمكّناً من مهنة الطبّ فقد أجابها دون تفكير : أعطه الدواء الفلاني ، وسمى لها دواء كيفما اتفق .

وفي اليوم التالي بدأت الهدايا وأطباق الطعام يؤتى بها إلى مسكنه جزاء له على مهارته بالطب ، وذاع صيته في الناحية ، وتوافد إليه المرضى من كل صوب ، فرأى أن من الخير له أن يتمكن من مهنته ، فابتاع كتاب (تحفة الحكيم المؤمن) ، وانشغل بالطبابة رسمياً ، ثم نشط عمله فاستدعي إلى طهران .

---

(١) نشرت في كتاب تفسير سورة (النجم) للمصنف قصتان عجيبتان في هذا الموضوع . فمن شاء فليرجع إلى الكتاب المذكور ص ١٣٠ ، ١٣١ . حكاية الملاّ جعفر .

(٢) نشرت القصة في كتاب (الذنوب الكبيرة) للمصنف ج ١ ص ٤٠ .

كان الحاج ينتوي الذهاب إلى كربلاء ، لكنه لم يستعجل الأمر ، وذات ليلة رأى شخصاً في منامه يقول له : إن كنت تودّ الذهاب إلى كربلاء فعليك بالتوجّه الآن ، لأن الذهاب إلى هناك سيمنع بعد شهرين وسافر الحاج فعلاً إلى كربلاء ، ولم تمض المدة التي ذكرها رجل المنام حتى تحقق قوله ، فعلم الحاج عندها أن الرؤيا كانت صادقة ، وبقي في كربلاء مشتغلاً بمداواة المرضى .

ذات يوم زارته امرأتان ، وكانت إحداهما تشكو من جرح عجيب في يدها . وبعد أن فحصها أخبرها أن مرضها هو الجذام ، وأنه سيدرك العظم ، ولا علاج له، فانصرفت كسيرة الفؤاد . غير أن خادمها حضر في اليوم التالي وقال له : أتعرف من هي هذه المرأة ؟ قال : لا . قال : إنها امرأة علويّة ، وهي من سلالة ملوك الهند ، وقد أتى بها إلى كربلاء عشقها لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) والآن هي كما تراها مصابة بهذا المرض ، وقد نفدت أموالها ، وأنت قد فاقمت في حزنها بعد زيارتها لك . فقال له الحاج : أرجعها إلى هنا فوراً .

ورغم خطورة المرض وصعوبة علاجه ، فقد شرع الحاج في علاجها وهو يأمل من الله أن يمنّ عليها بالشفاء ، وقد شفيت فعلاً بعد ستة أشهر من العلاج ، وتعلّقت المرأة به ، وصارت ترعاه كالأم الحنون .

بلغ الحاج الثلاثين من عمره ، وذات ليلة زاره في النوم الشخص نفسه الذي رآه في طهران ، وأنبأه بأنه سيمرض ويموت بعد عشرة أيام . فما كان من الحاج إلا أن أعدّ وصيته وهو يترقب حلول أجله ، فلم تمض أيام حتى مرض فعلاً واشتد مرضه حتى بلغ به مرحلة الاحتضار .

كان في هذه الحال حين حضرت المرأة العلوية لزيارته ، وراعها ما رأته فيه ، ثم اندفعت خارجة بعد أن أوصت بألا يمدّ أحد إليه يداً حتى تعود . ثم

انطلقت إلى قبر الحسين (عليه السلام) فتمسكّت بالضريح تهزّه وتقول : جدّاه ، أطلب منك مساعدة الحاج ، وأن تمدّ في عمره ، وبلغ بها التأثر حداً وقعت معه في الإغماء ، ورأت في غشوتها الإمام (عليه السلام) يقول لها : ما الذي أصابك يا بنيّة ؟ فالحاج قد دنا أجله وانتهى الأمر ، فقالت : أنا لا أفهم هذه الأمور ، أتوسّل إليك أن تنقذه . فأجابها بأنه سيدعو له الله ، وله الأمر أولاً وأخيراً . ثم انصرف إلى الدعاء ، ولم يمض إلا القليل حتى رأت البسمة على وجهه وهو يقول : لقد استجاب الله دعائي ، ومدّ للحاجّ في عمره .

وفعلاً فقد شفي الحاج وامتد به العمر حتى توفي عند بلوغه التسعين ، وكان عنده أربعة أبناء ، أصبح أحدهم مرجعاً عالي القدر هو الحاج ميرزا حسين وأصبح ابنه الثاني طبيباً ، وكان قد ضمنّ وصيته لأبنائه أن يلتفتوا لرعاية السادة ، وخاصة العلويات منهم .

وقد نقل مثيل لهذه القصة في كتاب (دار السلام) للعراقي ، من حيث آثار التوسّل بأهل البيت (عليهم السلام) ، وهي قصة إحياء ولد سقط عن السقف ومات .

أملنا بالشفاعة

« أي خوف على الأمة وأنت حصنها ، وأي خوف من الموج على السفينة ونوح ربّانها » .

روي في المجلد الثالث من (بحار الأنوار) عن رسول الله أنه قال ما معناه : لكل نبي دعوة قد دعا بها وسؤال قد سأله ، وقد خبّأت دعوتي لشفاعتي لأمتي يوم القيامة .

كما وردت روايات عدّة عن شفاعة الزهراء (عليها السلام) وذلك عن

النبي (صلى الله عليه وآله) وعن الأئمة (عليهم السلام) ومنها واحدة تفيد أنه ينال شفاعة الزهراء (عليها السلام) كل امرأة رعت واجباتها وأدت فرائضها وأرضت زوجها .

من نافل القول أن نشير إلى أن أمر الشفاعة ، وخاصة شفاعة أهل البيت ، لا ينبغي أن يصرفنا عن أداء ما علينا . طمعاً بشفاعتهم ، فهذا هو الغرور بعينه ، فما أكثر الذنوب التي تذهب بالإيمان ، وتمنع عن صاحبها الشفاعة ، أو توجب بقاءه في جهنّم حتى يطهر[1] .

الأعــراف

﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلًّا بسيماهم ﴾[2] .

استناداً إلى الأخبار الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) ، فإن الأعراف مكان مرتفع يقوم على الصراط ، وقد أقرّ الله تعالى محمداً وآله في ذلك الموضع ، وكل مؤمن يظهر النور من جبهته ، أي يتولّى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، يؤذن له فيدخل الجنة .

وبناء على هذا الخبر يصبح معنى الآية الشريفة : « وعلى الأعراف رجال » أي محمد وعلي « يعرفون كلاً بسيماهم » يعرفون كل من يقبلون على الصراط بوجوههم .

وفي تفسير آخر للأعراف ، أنه السور الذي يقام في الصراط بين أهل الجنة وأهل النار ، كما يبيّن تعالى في سورة الحديد : **﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنّات تجري**

---

(١) ورد شرح لهذا الأمر في كتاب (الذنوب الكبيرة) .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٤٦

من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسورٍ له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ﴾[1] (رحمة للمؤمنين وعذاب للكافرين) .

وقد ورد في التفسير أن النور الذي يسعى أمامهم هو نور أصول العقائد وولاية آل محمد (صلى الله عليه وآله) ، والذي على اليمين هو نور العبادات ، ونور البعض هو بقدر ما تراه العين ، والبعض الآخر نورهم ضعيف إلى حدٍّ ما ، يشعّ حيناً وينطفىء حيناً آخر ، فيبتهلون قائلين : ﴿ **ربّنا أتمم لنا نورنا** ﴾[2] (لنبلغ الدرجة) .

وهنا لا ينفع نور أحدٍ أحداً . فالمنافقون المذنبون يلتمسون نور السعداء ، ولكن عبثاً ، فيضرب بينهم سور هو الأعراف (بمقتضى التفسير) . فينادون : أيها المؤمنون ، ألم نكن معكم ؟ فيجيبون : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ، فانتابكم الغرور ، فابتعدتم عن الله ، وغفلتم عن هذا اليوم[3] . فاليوم لا حيلة لكم ومأواكم النار .

الوجه الثالث في معنى الأعراف : هو أنه مكان بين الجنة والنار ، يستقرّ فيه المستضعفون ، أي المجانين والأطفال غير البالغين ، وضعاف العقول[4] . وطبعاً فأولئك ليسوا في سعادة ونعيم أهل الجنة ، كما أنهم من ناحية العذاب ، غير معذّبين .

---

(١) سورة الحديد : الأيتان ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٨ .

(٣) ﴿ **ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم ، وغرّتكم الأمانيّ ، حتى جاء أمر الله ، وغرّكم بالله الغرور** ﴾ سورة الحديد : الآية ١٤ .

(٤) لمزيد من الشرح يرجع إلى كتاب (حق اليقين) للمجلسي .

ذخيـرة لأهل الإيمـان والتقوى وأمـل يتطلعـون إلى بلوغه ، جعله اللهم لهم موئلاً للسعادة وموطناً للهناء ، ذلك هو جنة النعيم ، تحفل بـأنواع اللذات والطيبات ، ومهما سرح الفكـر والخيال فليس بـالمستطاع تقـدير حقيقـة الجنة وتفصيل ما فيها ، ونكونُ ـ لو حاولنا ذلك ـ أشبه بجنين في رحم أمه يحاول أن يعرف أحوال الدنيا خارج الرحم ، قال تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين** ﴾[١] . أمّا عما تحفل به من وافر النعم فيقول تعالى : ﴿ **لهم مـا يشاؤون فيها ولدينا مزيد** ﴾[٢] ويقول في موضع آخر : ﴿ **وهم في مـا اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾[٣] (أهل الجنة) .

إنهـا بإيجـاز الموئـل الـذي لا تعـرف الخيبـة والهم والضعف والمـرض والتعب والشيخـوخـة سبيـلاً إليـه ، بـل هي دار السـلام ، هي سلطنـة أهلهـا ملوكها ، قال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾[٤] . ونـورد فيما يلي قطوفاً من نعم الجنة ورد ذكرها في الكتاب الكريم .

مآكل ومشارب الجنة

﴿ **ولحم طيـر مما يشتهـون** ﴾[٥] . ففي الجنة إذاً لحم طيـر ممّـا يحب أهلها .

﴿ **وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعـة** ﴾[٦] . وفيها فـاكهة لا تنتهي

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٧ .

(٢) سورة ق : الآية ٣٥ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ١٠٢ .

(٤) سورة الدهر (الإنسان) :الآية ٢٠ .

(٥) سورة الواقعة : الآية ٢١ .

(٦) سورة الواقعة : الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

مواسمها ولا تمتنع عن أهلها .

﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمّان** ﴾[1] . وفيها فاكهة وشجر نخل ورمان .

﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه ، وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين ، وأنهار من عسل مصفّى** ﴾[2] . وفيها أنهار من الماء العذب لا يتغير لونه ، وأنهار من لبن لا يتغيّر طعمه ، وأنهار من شراب خالص فيه لذّة خالصة لشاربيه (وليس كشراب الدنيا فيه الضرر وفقد الإدراك والضياع) بل هو سائغ طيب طاهر ، ﴿ **وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً** ﴾[3] وفيها أنهار من عسل خالص من كل شائبة .

وفي الجنة كذلك عيون لها خصائصها وأسماؤها من كافور وزنجبيل وسلسبيل وتسنيم، ويأتي في المقدمة منها نهر الكوثر ، ويستفاد من الأخبار أنه يجري تحت العرش وينتهي إلى حوض عظيم كما تقدم ، وماؤه أكثر بياضاً من اللبن وحلاوة من العسل ، حصاه زبرجد وياقوت ، وعشبه زعفران ، وتراب مجراه أطيب من المسك .

لباس الجنـــة

﴿ **يحلّون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندسٍ وإستبرق** ﴾[4]﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾[5](أهل الجنة) .

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله : فإذا دخل المؤمن إلى

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٦٨ .

(٢) سورة محمد : الآية ١٥ .

(٣) سورة الدهر (الإنسان) : الآية ٢١ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٣١ .

(٥) سورة الحج : الآية ٢٣ .

منازله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك والكرامة ، وألبس حلل الذهب والفضة والياقوت والدّر . . وألبس سبعين حلّة بألوان مختلفة . . . وقال أيضاً ما معناه ، إنه لو أتي بثوب من ثياب الجنة إلى هذا العالم ، لما كانت لأهل الدنيا طاقة على النظر إليه .

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله : إن لله كرامة في عباده المؤمنين في كلّ يوم جمعة ، فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكاً معه حلّة . . . فيأتزر بواحدة ويتعطّف بالأخرى ، فلا يمرّ بشيء إلاّ أضاء له ، حتى ينتهي إلى الموعد .

قصور الجنة

﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنّات عدن ، ذلك الفوز العظيم ﴾[١] .

ورد في القرآن المجيد مثيل لهذه الآية الكريمة في عدّة مواضع ، ويقول تعالى في سورة الزمر : **﴿ لهم غرف من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار ﴾**[٢] .

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن « تلك الغرف بنى الله لأوليائه بالدرّ والياقوت والزبرجد، سقوفها الذهب ، محكوكة بالفضة ، لكلّ غرفة منها ألف باب من ذهب ، على كلّ باب منها ملك موكّل به » .

وفي تفسير « مساكن طيبة » روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال :

---

(١) سورة الصف : الآية ١٢ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٢٠ .

« قصر من لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرّدة حمراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون فراشاً من كلّ لون ، على كلّ فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ، وقال : ويعطي الله المؤمن من القوة في غداةٍ واحدة أن يأتي على ذلك كلّه » .

متاع الجنة

﴿ **متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب** ﴾[1] ، فأهل الجنة يجلسون على سررٍ متّكئين على الأرائك ، وفي هذا نعم الجزاء والثواب .

﴿ **على سررٍ موضونة** ﴾[2] . أي يجلسون على سرر منسوجة بقضبان الذهب ومشبّكة بالدرّ والياقوت .

﴿ **متّكئين على فُرُش بطائنها من إستبرق** ﴾[3] . أي بطانتها من الديباج .

وقد وردت في القرآن المجيد تسميات متعددة لمتاع الجنة وأثاثها كالإستبرق والحرير والرفرف (الفرش المرتفعة) والعبقري (البسط الموشاة) والنمارق (الوسائد المتّصل بعضها ببعض) والزرابيّ (البسط الفاخرة) .

أما الأواني فقد ورد ذكرها في عدّة مواضع . ففي سورة الواقعة : ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلّدون * بأكواب وأباريق** ﴾[4] . وفي سورة

---

(١) سورة الكهف : الآية ٣١ .
(٢) سورة الواقعة : الآية ١٥ .
(٣) سورة الرحمن : الآية ٥٤ .
(٤) سورة الواقعة : الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

الدهر : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضّة وأكواب كانت قواريراً ﴾[1] . (أي أنها كالزجاج في اللون والصفاء) .

حور الجنة ونساؤها

ورد ذكر الحور في الجنة في مواضع كثيرة من كتاب الذكر الحكيم ، وذلك لما لهنّ من قيمة واعتبار ، ولكونهنّ من النعم الجسمانية المميزة في جنان الخلد ، وعلّة تسميتهنّ بالحور هي لما يمتزن به من حسن وبهاء ، فالحوراء هي البيضاء واسعة العينين ، من اشتد بياض عينها وسوادها ، أو لعل التسمية جاءت كذلك لأن العيون تصاب بالحيرة لدى رؤية مبلغ جمالهنّ (أو بياضهنّ) .

ورد في سورة الواقعة ﴿ وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾[2] . أي حور كأمثال اللؤلؤ المصون في صدفه ، لم تمسّه الأيدي .

وقوله تعالى : ﴿ إنّا أنشأناهنّ إنشاءً * فجعلناهنّ أبكاراً * عُرُباً أتراباً ﴾[3] أي : خلقناهنّ ابتداء (لا من أب وأم) وجعلناهنّ عذارى متماثلات في السن ، متميزات بدلال وعذوبة ومحبة وتعلّق بأزواجهن . (وتفيد الأخبار أن سنّ الحوراء تبلغ حدود ستة عشر عاماً ، بينما تبلغ سن الرجل ثلاثة وثلاثين عاماً) .

وتقول سورة الرحمن إنّ ﴿ فيهنّ قاصرات الطرف لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ﴾[4] . أي أن أبصارهن قاصرة على أزواجهن لا تعدوهم إلى

---

(١) سورة الدهر (الإنسان) : الآية ١٥

(٢) سورة الواقعة : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٣٥ ـ ٣٧ .

(٤) سورة الرحمن : الآية ٥٦ .

الغير ، وأنهنّ أبكار لم تمتد إليهن يد من قبل ، وأنهنّ في الحسن والبهاء أشبه بالدر : ﴿ **كأنّهنّ الياقوت والمرجان** ﴾[1] .

وروي أن الحورية ترتدي سبعين حلّة ، ومع ذلك فإن مخّ ساقيها يتبدّى من خلال الحلل كسلك يتبدّى من خلال الياقوت .

وتقول سورة البقرة : ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون** ﴾[2] . أي أن للذين آمنوا وعملوا الصالحات زوجات في الجنة ، طاهرات مطهّرات ، بعيدات كل البعد عما يشوب الطهر والنقاء من حيض أو نجس أو سواهما ، ومنزهات كذلك عن كل خلق ذميم كالغيرة والزهو والكبر ، وروي أنه مكتوب على يد الحورية اليمنى بأحرف من نور « الحمد الله الذي صدقنا وعده » وعلى يدها اليسرى : « الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن » .

وفي رواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن الله خلق الحورية وعلى يمينها مكتوب : « محمد رسول الله » وعلى شمالها : « عليّ وليّ الله » وعلى جبهتها : « الحسن » وعلى ذقنها : « الحسين » وعلى شفتيها : « بسم الله الرحمن الرحيم » . وهذه الكرامة هي لمن يقول من قبيل الحرمة والتعظيم : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وتبقى الإشارة إلى أن المؤمنات اللواتي رحلن عن الدنيا على الإيمان وصرن إلى الجنة ، فجمالهن أبهى من جمال الحور العين ، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾[3] . أي : نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، وقد فسّرت بأنهنّ نساء الدنيا المؤمنات ، ويروي

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٥٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الرحمن : الآية ٧٠ .

المجلسي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أن « الخيرات الحسان » هن المؤمنات العارفات اللواتي يدخلن الجنة ويتزوجن بالمؤمنين .

ويروى أنّ المؤمنات ممّن لم يكن لهنّ أزواج في الدنيا ، أو أن أزواجهنّ ليسوا من أهل الجنة ، فإنّهنّ يتزوجن بمن يرغبن ويرضين ، أمّا إن كان أزواجهنّ من أهل الجنة فسيتزوّجن بهم بمحض إرادتهن ، وفي حال تعدد الأزواج في الدنيا ، فإن المؤمنة تتزوّج أفضلهم خَلقاً وخُلقاً .

رياحين وعطور الجنة

﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنّتان ﴾[1] ﴿ ذواتا أفنان ﴾[2] . أي أن من خشع لله وخاف من موقفه بين يديه يوم الحساب ، فله جنتان حافلتان بأنواع الفواكه والرياحين .

ويروي المجلسي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أنه لو قدمت إحدى نساء الجنة إلى الأرض لبلغ طيب عطرها مشامّ أهل الأرض كافة ، كما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) : أن رائحة عطر الجنة تبلغ مسير ألف سنة .

وروي أن تربة الجنة مسك ، يفوح العطر من كل جنباتها .

النور في الجنة

﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾[3] . أي أن أهل الجنة لا يرون الشمس وحرارتها ، ولا يرون البرد وشدّته . بل ينعمون بجو مريح معتدل لا

(١،٢) سورة الرحمن : الأيتان ٤٦ ، ٤٨ .

(٣) سورة الدهر (الإنسان) : الآية ١٣ .

حاجة معه للشمس ، ولا حاجة معه لضوئها ، إذ يغني عنه نور إيمانهم وعملهم الصالح .

وروي أن نور الحوريات يفوق نور الشمس ، وأن كل شيء في الجنة يشع نوراً ويسطع ضياء .

أنغام وألحان الجنة

كل ما في الدنيا من أنواع النغم وصنوف المباهج والملذات ، ما هو إلا قطرة مما يقابلها في الجنة ، فهناك الحقيقة الكاملة والأصل الخالص ، والأمر كذلك فيما يعود للصوت ، فله هناك عذوبته الخالصة وطلاوته وحلاوته ، فلو أن نغمة من نغمات الجنة وصلت إلى أسماع أهل الأرض لما كانت لهم طاقة على الصمود أمام عذوبتها ، ولأهلكتهم ، فالأنغام التي كان داود (عليه السلام) يرسلها من مزماره مع أنها كانت من أنغام الدنيا ـ كان الكثيرون يهلكون لدى سماعها ، حتى أن الحيوانات على اختلافها كانت تجتمع حوله وقد ذهلت عن كل شيء ، حتى عن عداواتها المتأصلة بين بعضها والبعض الآخر .

ويتّضح من قول أمير المؤمنين (عليه السلام) في إحدى خطبه متحدثاً عن داود (عليه السلام) : « وداود (عليه السلام) صاحب المزامير وقارىء أهل الجنة » ، أن داود (عليه السلام) سيقرأ لأهل الجنة ، بأنغام من الجنة ، يحبها ويأنس بها أهل الجنة .

وفي مجمع البيان عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أن أفضل أنغام الجنة تلك التي تصدر عن الحور إذا رتلن تسبيحاً وحمداً وتقديساً لرب العالمين .

وروي أيضاً أن طيور الجنة تغرّد بأحلى الألحان ، وكذلك أشجارها ،

وقد سئل الإمام الصادق (عليه السلام) إن كان هناك غناء في الجنة فقال : إن في الجنة شجراً ، يأمر الله رياحها فتهب ، ، فتضرب تلك الشجرة بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها حسناً ، ثم قال : هذا عوضٌ لمن ترك السماع في الدنيا من مخافة الله .

النعم واللذات الروحانية

النعم واللذات الروحانيّة في الجنة متعددة متنوعة ، ورغم أن إدراكها يفوق قدرة عقولنا وتفكيرنا ، فإن ما وصلنا من الأخبار يلقي عليها بعض الضوء .

فمثلاً : الستار الذي يرفع عن البصيرة . فيمكّن الإنسان من الإحاطة بكل ما تساءل عنه أو شاهده في الدنيا حتى يبلغ إدراكه إلى الحقائق والمعارف الإلهية التي كان يتمنى إدراكها في الدنيا ، كما يدرك لقاء ومعرفة محمد (صلى الله عليه وآله) وآله (عليهم السلام) ، وقد ورد في تفسير (الصافي) من شرح الاية : ﴿ **وآقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾[1] . أن أهل الجنة يجتمعون ويتذاكرون في المعارف الإلهية والفضائل المحمّدية .

ومنها أنواع التكريم الإلهي للمؤمن ، كأن يشفع لوالديه وزوجته وأولاده إن كانوا مؤمنين ، وأن يلقاهم ويحضرهم إليه . قال تعالى : ﴿ **جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم** ﴾[2] . ومن ضروب التكريم الإلهي ، أن المؤمن إذا استقر به المقام في الجنة أمر الله ألف ملك بزيارته . فيتوافدون إليه في قصره ذي الأبواب الألف ، فيدخل ملك من كل

---

(١) سورة الطور : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٢٣ .

باب يسلّم عليه ويبارك له : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم** ﴾[1] .

أما قمّة التكريم الإلهي ، فهي مكالمة ربّ العالمين لعبده المؤمن ، ومع تعدد الروايات في هذا الصدد نكتفي بقوله سبحانه في كتاب المجيد : ﴿ **سلام قولاً من ربّ رحيم** ﴾[2] .

وقد ورد في تفسير (النهج) عن جابر بن عبد الله عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، أن أهل الجنة يكونون مستغرقين في نعم الجنة ، فيسطع عليهم نور ، ويرتفع صوت يقول : « السلام عليكم يا أهل الجنة » ، ومن هنا قيل : إن ما كان في الدنيا نصيب الأنبياء من مكالمة ربّ العالمين ، يضحي من نصيب أهل الجنة .

وفي المجلد الثاني من (بحار الأنوار) أحاديث مفصلة عن تجلّي الأنوار الإلهية لأهل الجنة ، ومنها مقام الرضوان المذكور في الكتاب المجيد : ﴿ **يبشّرهم ربّهم برحمة منه ورضوان** ﴾[3] . ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾[4] .

ومنها : نعمة الاتّصال بمحمد (صلى الله عليه) وآله (عليهم السلام) ومجاورتهم ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « يا عليّ ، أنت وشيعتك على منابر من نور ، مبيضّة وجوههم حولي في الجنة » .

ومنها : نعمة الخلود في الجنة . فحين يدرك المؤمن أن نعم الجنة

---

(١) سورة الرعد : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة يس : الآية ٥٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٢١ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٧٢ .

العظيمة لن تسلب منه ، فهو خالد فيما يشتهي منها ، يحسّ بارتياح وسرور لا يوصفان .

ومنها : لقاء المؤمن بالأنبياء والصالحين : ﴿ **على سررٍ متقابلين** ﴾[1] ويروى أن أهل الجنة يزورون كل يوم أحد الأنبياء أولي العزم ، ويكونون في ذلك اليوم ضيوفاً على ذلك العظيم ، كما يكونون ضيوف خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) أيام الخميس ، أما أيام الجمعة فيُدعَوْن إلى قرب الواحد الأحد جلّ وعلا .

موعظـة

كلّ ما تقدم ذكره وتفصيله من نِعم الجنة ، إنما هو نزر يسير ولمحة خاطفة . فهل يمكن لعاقل أن يحرم نفسه من هذه اللذائذ الروحانية ، والمقامات والمراتب الرفيعة ؟[2] .

ما أكثر العذاب الذي يتحمله المرء في سبيل الوصول إلى مركز أو مقام دنيوي ، فهو يتحمل المصاعب والآلام ، ويبذل الغالي والنفيس ، رغم عدم يقينه بالوصول . وعلى فرض وصوله أخيراً إلى مراده ، فهل سيدعه الموت ينعم به دون أن يسلبه إياه ، بعد أن أنفق عمره في سبيله ؟ .

ونراه من ناحية أخرى يضنّ بخطوة يخطوها نحو مقام خالد وعزّ دائم ، رغم اليقين بأن الجهد المبذول في هذا السبيل لا شك مثمر وموصل للهدف . وتكمن العلّة هنا بالقصور وضعف الهمم ، والرضى بشهوات الدنيا الزائلة مع ما يرافقها من فجور : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ﴾[3] . ويمضي قدماً

---

(١) سورة الصافّات : الآية ٤٤ .

(٢) « فهبني صبرت على حرّ نارك ، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك » .

(٣) سورة القيامة : الآية ٥ .

في المعاصي راكباً رأسه ، لا ينزع ولا يتوب .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له :

«أعرفك منزّهاً عمّا لا يليق بكبريائك ، وأنت خالق المخلوقات وربّ المكنونات ، باعتبار حسن اختبارك عند خلقك ، سبحانك خالقاً ومعبوداً ، خلقت داراً وجعلت فيها مأدبة ومشرباً ، وأزواجاً وخدماً ، وضروعاً وأنهاراً وقصوراً ، ثم أرسلت داعياً يدعو إليها ، فلا الداعي أجابوا ، ولا فيما رغبت إليه رغبوا ، ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا . أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها ، واصطلحوا على حبّها ، ومن عشق شيئاً أغشى بصره ، وأمرض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ، وأذن غير سميعة ، قد حرقت الشهوات عقله ، وأماتت الدنيا قلبه ، وجعلته هائماً ومبالغاً فيها ؛ فأصبح عبداً للدنيا ، وعبداً لمن حاز على شيء من متاع الدنيا » .

أمامنا سبيلان لا ثالث لهما ، فإما جنّة وإما نار ، وما لم نتوجه نحو الله ، فلن نحرم من نزر من هذه النعم فحسب ، بل ستكون جهنم هي المأوى .

وإليك نزراً يسيراً من ملامح سبيل جهنم ، بعد أن تحدثنا عن السبيل الآخر .

جهنّم

منخفض سحيق لا قرار له ، ونار مستعرة من غضب الله ، وسجون أخرويّة حافلة بضروب الشدائد والبلايا ، مما يعجز إدراكنا عن استكناه مداه .

جهنم بالتأكيد نقيض للجنة ، فهناك الوفير من النعم واللذائذ . وهنا الوفير من النقم والشدائد ، هناك الراحة الخالدة ، وهنا المتاعب الدائمة .

وإليك بعضاً مما أشار إليه القرآن الكريم من هذه المتاعب :

الطعام والشراب في جهنم

﴿ ثم إنّكم أيّها الضالّون المكذّبون * لآكلون من شجر من زقّوم ﴾[1] .

يا من ضللتم سبيل الحق وكذّبتم بيوم القيامة ، إنكم لآكلون من شجر الزقوم لا ريب ، **﴿ فمالئون منها البطون ﴾**[2] . بعد أن يعضّكم الجوع بنابه ، رغم مرارة هذا الأكل وقذارته ونتن رائحته ، **﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾**[3] اللاهب ، لشدّة عطشكم وقسوته .

جاء في الأخبار أن عذاب الجوع يسلّط على أهل جهنم ، فلا يجدون أمامهم سوى الزقّوم يملأون به بطونهم ، فيسلّط عليهم عذاب العطش ، فلا يجدون سوى الحميم يطفئون به سعار العطش فيقبلون عليه كما الإبل الهيم[4] أضناها الظمأ **﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾**[5] فيقطّع أمعاءهم : **﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾**[6] . و **﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾**[7] . فهذا هو طعامهم وشرابهم في يوم الجزاء .

يقول سبحانه في سورة الدخان : **﴿ إنّ شجرة الزقّوم * طعام الأثيم ***

---

(١) سورة الواقعة : الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة الواقعة : الآية ٥٣ .

(٣) سورة الواقعة : الآية ٥٤ .

(٤) الهيم : هي الإبل التي أصابها داء (الهيام) وهو شدّة العطش ، فلا تزال تشرب الماء ولا ترتوي حتى تهلك .

(٥) سورة الواقعة : الآية ٥٥ .

(٦) سورة محمد : الآية ١٥ .

(٧) سورة الواقعة : الآية ٥٦ .

كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم ﴾[1] أي أن تلك الشجرة هي طعام العاصي من أهل النار ، فهي ـ كالمذاب من النحاس أو الرصاص أو الذهب أو الفضة ـ تغلي في بطون شاربيها ، كما يغلي الماء بالغ الحرارة ، ومن هذا الماء يصبّ على رؤوسهم **﴿ يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾**[2] . فيفري ظاهرهم وباطنهم ، ثم هناك المزيد : **﴿ إنّ لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصّةٍ وعذاباً أليماً ﴾**[3] . أي : لدينا قيود وأغلال لا تفكّ ؛ ولدينا طعام يغص به آكله ، عسير البلع يأخذ الحلق فلا يدخل ولا يخرج .

وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أن شجرة الزقوم تخرج من قعر جهنم ، أوراقها وأشواكها من نار ، أشدّ مرارة من الحنظل ، ونتناً من الجيفة ، وخشونة من الحديد .

ثم إن من أطعمة جهنم : الغسلين ، وهو صديد أهل النار وما يخرج من بطونهم : **﴿ ولا طعام إلاّ من غسلين ﴾**[4] . وقد ورد في (مجمع البيان) أن ما يخرج من أهل النار يغدو طعاماً لهم . ثم هناك الضريع : **﴿ ليس لهم طعام إلاّ من ضريع ﴾**[5] وهو الشوك الذي تأنف الدوّاب أكله لمرارته ونتن رائحته ، ثم الصديد : **﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾**[6] . وهو ما يسيل من الدم والقيح من فروج الزناة في جهنم . ثم الغسّاق : **﴿ إلاّ حميماً وغسّاقاً ﴾**[7] . وهو الصديد ، ويقول بعض المفسّرين : إنه عين في جهنم تجري بالسموم .

---

(١) سورة الدخان : الآيات ٤٣ ـ ٤٦ .

(٢) سورة الحج : الآية ١٩ .

(٣) سورة المزّمّل : الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٤) سورة الحاقّة : الآية ٣٦ .

(٥) سورة الغاشية : الآية ٦ .

(٦) سورة إبراهيم : الآية ١٦

(٧) سورة النبأ : الآية ٢٥ .

لباس أهل جهنم

﴿ **قطّعت لهم ثياب من نار** ﴾[1] . فالنار ثيابهم التي أعدّت لهم ، ونسيجها النحاس المذاب : ﴿ **سرابيلهم من قَطِران وتغشى وجوههم النار** ﴾[2] . وكذلك أعدت لهم قمصان من قطران : وهو مادة سوداء نتنة يطلى بها الجمل الأجرب .

وروي أنه لو علّق ثوب من ثياب جهنّم بين السماء والأرض ، لهلك أهل الأرض كافّة من حرارته ونتن رائحته .

الوجوه المسودّة والأغلال

﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾[3] .

المذنبون يعرفون بعلامتهم وهي اسوداد الوجه وازرقاق العين ، وسرعان ما يتناولهم زبانية جهنم ؛ إن من نواصيهم أو من أقدامهم ، أو يجمعون بالأغلال والسلاسل بين نواصيهم وأقدامهم ويجرونهم إلى النار فيكونون وقودها : ﴿ **إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ، ثم في النار يسجرون** ﴾[4] . و ﴿ **ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة** ﴾[5] ﴿ **تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون** ﴾[6] . فالنار تصيب وجوههم السوداء فتغدو كالحة قد تقلّصت منها الشفاه ، وبرزت الأسنان كأنها رؤوس أغنام مشوية .

---

(١) سورة الحج : الآية ١٩

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٥٠ .

(٣) سورة الرحمن : الآية ٤١ .

(٤) سورة المؤمن (غافر) : الآيتان ٧١ ، ٧٢

(٥) سورة الزمر : الآية ٦٠ .

(٦) سورة المؤمنون : الآية ١٠٤ .

الموكّلون بجهنّم

﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ﴾[1] .

إنهم غلاظ لا يعرفون الرحمة ، شداد لا يعرفون اللين ، أولئك هم زبانية الجحيم ، أمروا بتعذيب المجرمين ، فلا يعصون ما أمروا به .

﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾[2] . مطارق وهراوات حديدية ، ينهالون بها على من يحاول الفرار فيعيدوه إلى العذاب . ويروى أنه لو اجتمعت الإنس والجن لما استطاعوا أن يرفعوا مقمعة واحدة ، لما لها من وزن وثقل .

كما روي أن الملكين الموكلين بجهنّم لهما سرعة البرق ووطأة الجبال ، والمسافة بين منكبي أحدهما تبلغ مسير سنة .

جهنّم وأبوابها

﴿ لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾[3] .

لجهنم أبواب سبعة ، وكل باب منها يقود إلى قسم ، فأقسامها إذاً سبعة ، وقد وردت تسمياتها عن أمير المؤمنين (عليه السلام) بالترتيب الآتي :

-جهنّم (وهي أسفل دركاتها) واللظى (فوقها) ثم الحطمة وسقر والسعير والهاوية ، تعلو إحداها الأخرى ، وتختلف شدة العذاب فيها ، فتزداد كلما تدنت دركاتها .

---

(١) سورة التحريم : الآية ٦ .

(٢) سورة الحج : الآية ٢١ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٤٤

ويتّضح من ظاهر آيات القرآن المجيد أن نار جهنم تختلف عن نار الدنيا بأن لها إدراكاً وشعوراً ، يقول سبحانه : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾[1] .

وكذلك فإن نار جهنم تعرف أهل العذاب ، فتتغيّظ وترسل زفرات الغضب لرؤيتهم . يقول سبحانه : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً** ﴾[2] . ويروى عن الصادق (عليه السلام) أن الناس جميعاً يسمعون زئيرها ، وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ **تكاد تميّز من الغيظ** ﴾[3] . أي : تكاد تتقطّع من الغضب على الكافرين ، ويروى أن صوتها يرتفع عند عبور المؤمن على الصراط ، كأنها تقول : ابتعد عني أيها المؤمن ، فنورك يكاد يطفىء لهيبي ، ذلك أن نور المؤمن هو الرحمة ، ونار جهنم هي الغضب ، والرحمة لا شك غالبة على الغضب « يا من سبقت رحمته غضبه » .

وعموماً ، فإن ما لدينا من الشواهد يفيد بأن جهنم ـ مثلها مثل سائر الموجودات الأخروية ـ ذات حياة وشعور وإدراك ، وأنها محبة لأحباء الله وعدوة لاعدائه .

ومن أوصافها أنها ـ رغم استيعابها للجن والإنس ـ تتّسع للمزيد ، إذ يأتي ذكر الأمكنة الضيقة فيها مما يكون مدعاة لضيق أهل النار ، يقول سبحانه : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعَوا هنالك ثبوراً** ﴾[4] . أي : دعوا على أنفسهم بالويل والهلاك من شدّة الضيق .

---

(١) سورة ق : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ١٢

(٣) سورة الملك : الآية ٨ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ١٣ .

وبقدر ما يكون أهل الجنة في أنس يغمرهم النور ، يكون أهـل النار في وحشة وظلام متـراكم ، كغريق تغشاه الأمواج من كـل حدب وصـوب ، يقول تعـالى : ﴿ **أو كـظلمــات في بحـر لجّيّ يغشــاه مـوج من فـوقـه مــوج من فوقه سحاب ، ظلمــات بعضهـا فــوق بعض ، إذا أخـــرج يــده لم يكــد يراها** ﴾[1] .

العذابات الرّوحانيـة

وإلى جانب ما يكابده أهـل النار من العـذاب الجسماني ، فهم يعـانون أيضـاً من عذاب روحيّ نفسيّ أليم ، ذلـك بـأن معـرفتهم بـأنهم سيبقـون في جهنم إلى الأبـد ، ولن تكتب لهم النجاة منهـا أبـداً ، كفيلة بـزيـادة عـذابهم وقنوطهم أضعافاً مضاعفة ، ويشير القرآن الكريم إلى هـذا الموضـوع في قولـه سبحـانـه : ﴿ **إنّ الـذين كفـروا من أهـل الكتـاب والمشـركين في نـار جهنّم خالدين فيهـا** ﴾[2] . ويقول أيضـاً : ﴿ **ذلك جـزاء أعداء الله النـار ، لهم فيها دار الخلد** ﴾[3] . بل إن نجاتهم من النار ومن ثم دخولهم الجنة من المحال ، كمـــا يقـول سبحــانـــه : ﴿ **ولا يــدخلون الجنــة حتى يلج الجمـــل في سمّ الخياط** ﴾[4] . وهذا مستحيل كاستحالة ذاك . غير أنه يستفاد من الروايات أن من سكنت قلبه ذرّة من إيمان فلن يخلد في العذاب .

ومن أعـظم صنوف العـذاب الروحي أن من كتب لـه العذاب يحـرم من لـطف ورحمة ربّ العـالمين ، بل يكـون مورداً لغضب الله وعـدم التفاتـه إليه بـــرعـايتــه الكـــريمـــة . يقـــول تعـــالى : ﴿ **كـــلاّ إنّهم عن ربّهم يـــومئـــذٍ**

---

(١) سورة النور : الآية ٤٠ .

(٢) سورة البيّنة : الآية ٦ .

(٣) سورة فصّلت : الآية ٢٨ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٤٠ .

لمحجوبون ﴾[1] . ويقول أيضاً : **﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ، ولا عذاب أليم ﴾**[2] .

ومن العذاب أيضاً الهم والغم والحسرات التي تنزل بهم ، والندم الذي يخشونه بعد فوات الأوان . يقول تعالى : **﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم ﴾**[3] . ويقول أيضاً : **﴿ ويوم يعَضّ الظالم على يديه ، يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً ﴾**[4] .

روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله : « فإذا سكن أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى منادٍ : يا أهل الجنة أشرفوا ، فيشرفون على النار ، وترفع لهم منازلهم في النار ، ثم يقال لهم : هذه منازلكم التي لو عصيتم ربكم دخلتموها . . . ثم ينادون : يا معشر أهل النار ، ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى منازلكم في الجنة ، فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم ؛ فيقال لهم : هذه منازلكم التي لو أطعتم ربّكم دخلتموها . قال : فلو أنّ أحداً مات حزناً لمات أهل النار ذلك اليوم حزناً .

ومن صنوف العذاب أيضاً : التوبيخ واللوم والسخرية التي تأتيهم من كل مكان : كما يخاطبهم الله تعالى بقوله : **﴿ ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ﴾**[5] . ويقول أيضاً : **﴿ أوَ لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكر ، وجاءكم**

---

(1) سورة المطففين : الآية ١٥ .
(2) سورة آل عمران : الآية ٧٧ .
(3) سورة البقرة : الآية ١٦٧ .
(4) سورة الفرقان : الآية ٢٧ .
(5) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .

النذير ﴾ ؟[1] وكثير غيرها .

كما أن خزنة النار يوبخونهم كذلك ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **كلّما ألقي فيها فوجٌ سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ * قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا : لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم** ﴾[2] .

والشياطين كذلك تلومهم وتلقي مسؤولية التقصير عليهم ، ويروى أن أهل النار يئنّون من العذاب ويتألّمون بصمت خوفاً من الشماتة . ويقول الكتاب المجيد : ﴿ **وقال الشيطان لمّا قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحقّ ، ووعدتكم فأخلفتكم ؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ، إنّي كفرت بما أشركتمونِ من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[3] .

وأهل الجنة يوجهون لهم اللوم أيضاً ، يقول تعالى : ﴿ **ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقاً ؟ قالوا : نعم ، فأذّن مؤذّن بينهم أنْ لعنة الله على الظالمين** ﴾[4] . كما ورد في سورة المطففين : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾[5] . وهذا ردّ على سخرية الكفار من المؤمنين في الدنيا .

ومن صنوف العذاب الروحي في جهنّم : الخصام والتلاوم فيما بين

---

(١) سورة فاطر : الآية ٣٧ .

(٢) سورة الملك : الآيات : ٨ ـ ١١ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٢٢ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٤٤ .

(٥) سورة المطففين : الآية ٣٤ .

أهـل النـار ، وبينهم وبين قـرنـائهـم من الشيـاطين ، في حين أن أهـل الجنـة يتـزاورون فيأنسـون ببعضهم . يقول تعـالى : ﴿ **ومن يعشُ عن ذكر الـرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبـون أنّهم مهتـدون * حتّى إذا جاءنـا قال : يـا ليت بيني وبينك بعـد المشـرقين ! فبئس القرين** ﴾[1] .

روي أن الكافر وقرينه من الشياطين يقيّدان معاً بسلسلة واحدة ، ويقذف بهما في جهنم .

وعن خصام أتباع أئمة الضلال وأعوان الظَّلَمة مع أسيـادهم في الدنيـا ، يقـول الكتـاب الكـريم : ﴿ **إذ تبـرّأ الـذين أُتُبِعـوا من الـذين اتّبَعـوا ، ورأوا العـذاب وتقطّعت بهم الأسبـاب * وقال الـذين اتَّبعوا : لـو أنّ لنا كـرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منّا** ﴾[2] . كما يقول أيضاً : ﴿ **ثمّ يـوم القيامـة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضـاً** ﴾[3] . ويقـول : ﴿ **الأخـلاّء يـومئـذٍ بعضهم لبعض عدوّ إلاّ المتّقين** ﴾[4] .

وجـاء في الروايـات أن كلّ محبّـة في الدنيـا كـانت لغيـر الله تنقلب في الآخرة عداوة .

ورد في سـورة محمـد (صلى الله عليـه وآلـه) : ﴿ **وإنّ للطاغين لشـرّ مآب * جهنّم يصلونها فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميم وغسّاق * وآخر من شكله أزواج** ﴾[5] . أي : سيرجع الطاغون شرّ مرجـع ، ويستقرون في جهنم

---

(١) سورة الزخرف : الآيات : ٣٦ ـ ٣٨ .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٢٥ .

(٤) سورة الزخرف : الآية ٦٧ .

(٥) سورة ص : الآيات : ٥٥ ـ ٥٨ .

فبئس المستقرّ ، ويذوقون الحميم بحرارته والغسّاق ببرودته ونتن رائحته ، وأنواعاً غيرها مماثلة لها في الشدّة .

ويروى أنه حين يرمى أئمة الضلال في جهنم يُلحق بهم بأتباعهم ، فيسألون : من هؤلاء ؟ فيجيبهم خزنة النار : هذا فوج يدخل النار معكم ، فيقولون لا مرحباً بهم : **﴿ هذا فوج مقتحم معكم ، لا مرحباً بهم ، إنّهم صالو النار * قالوا : بل أنتم ، لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدّمتموه لنا فبئس القرار * قالوا : ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار * . . . إنّ ذلك لحقّ تخاصم أهل النار ﴾**[1] .

هل يتحمّل البدن الضعيف

قد تتبادر إلى الأذهان تساؤلات (شبهات) ، نشير إليها باختصار :

منها تلك التي تقول : أنّى للإنسان الضعيف أن يتحمل هذه الصنوف من العذاب ؟! وطالما أنها ليست محدودة بمرحلة ثم تنتهي بعدها ، فكيف نوفّق بينها وبين ضعف البدن الجسماني ؟ .

وفي الجواب نقول : صحيح أن البدن في القيامة هو نفس البدن الجسماني الدنيوي ، غير أنه يكون في الآخرة مركّباً ـ بالقدرة الإلهيّة ـ تركيباً على قدرٍ من الشدّة والإحكام ، لا يمكن أن يقارن معه بالبدن الدنيويّ ، والأبدان الأخرويّة إجمالاً تتبع ـ في اللطف أو الشدة ـ الحالة المعنوية والنفسية لأصحابها .

فنفس المؤمن في الدنيا لطيفة ليّنة ، تتأثر لأقل حقّ تؤديه ، ونفوس المؤمنين مصداق لوصف أمير المؤمنين لهم : « المؤمنون : هيّنون ليّنون

---

(١) سورة ص : الآيات ٥٩ ـ ٦٤ .

مستسلمون » وهم في الآخرة كذلك ، فتكون أبدانهم لطيفة ليّنة كنفوسهم .

أما نفوس الكفار في الدنيا فهي في منتهى الغلظة والقسوة والعتّوّ ، وقلوبهم مصداق لما وصفهم به الكتاب الحكيم : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة** ﴾[1] . فهم لذلك لا يرعوون ولا ينقادون لحقوق الغير قط ، فتكون أبدانهم في الآخرة قاسية غليظة كقلوبهم . فإنه روي أن أسنان الكافر تكون في جهنم مثل (جبل أحد) فكيف يكون بدنه إذاً .

وبعبارة موجزة نقول : إن نمط الآخرة يكون بغلبة المعنى على الصورة ، وانكشاف الحقائق وتجلّيها ، ووحدة الظواهر والبواطن ، « يوم تبلى السرائر » .

هل شدة العذاب تتفق مع العدل

ومن الشبهات التي قد تتبادر إلى الأذهان شبهة تقول : هل العذاب الذي يبلغ هذا القدر من الشدة ، يتفق مع العدل الإلهي ؟ .

ونقول في الجواب : إن هذه الشبهة هي أثر لقياس العذاب الإلهي في الآخرة بتعذيب السلاطين والحكام في الدنيا ، في حين أن الأمر ليس كذلك . إذ أن انتقام الحكام والسلاطين ممن خالفهم ليس إلّا شفاء للغيظ والغليل ، وإطفاء للغضب وفوران الدم ، لكن العذاب الأخروي هو من باب ترتّب المسبّبات على الأسباب ، أي أن لازمة عدم الإيمان هي انتفاء النور والاستقرار في الظلمة الدائمة ؛ ولازمة مخالفة الله هي البقاء في الضيق والشدّة الأبديّة ؛ ولازمة غض البصر والسمع عن الحقوق هي العمى والصمم

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٤ .

الأبـديّان ؛ ولازمـة اتّباع الشيـطان وأئمة الضـلال هي الاقتران الأبـديّ بهم ؛ ولازمة أكل مال اليتيم أو أي مال غيره بالبـاطل هي أكل النار في الجوف .

إذاً فـالنـار هي نفس الإنسـان ، وهـو وقـودهـا بنصّ القـرآن المجيـد : ﴿ **فاتّقوا النار التي وقودها الناس والحجارة** ﴾[1] . أي فليتّق الإنسان نفسـه ، لأن العذاب الذي يقع فيه إنما هو نفسه من هيأ لـه الأسباب ، وأعـدّه لنفسه ، والله لا يـظلم أحـداً : ﴿ **إن الله لا يـظلم النـاس شيئـاً ولكن النـاس أنفسهم يظلمون** ﴾[2] .

وإلّا ، فكيف للجنّة وهي (دار السلام) أن تكـون مقراً للكـافر ، وهـو على ما هو عليـه من قسوة وغلظة ؟! وإن من غمـرته الأمـراض من رأسه حتى قدميه ، فامتلأ بالحسد والبخل والحقد والعداوة والبغضاء والكبر والغرور ، إن من هو كذلك محله (دار المرض) وليس (دار السلام) .

والحق أن دخول الكافر إلى الجنة ، هـو وضع الشيء في غيـر مكانـه ، وهو أشبه بصبّ زجاجةٍ من عـطر على رأس مصاب بـالزكـام فاقـد للشم ، أما دخوله جهنم فهو لا يتنافى مع العدالة بأي وجه ، لأن معنى العدل ، إقـرار كل شيء في محله المناسب ، بينما دخوله إلى الجنة يتنافى مع العدل الحقيقي ، وهو أصلاً وضع نفسه في موضع لا يستطيع معه الانتفاع من الجنة ، وهذا أشبه بتزيين عروس جميلةٍ لأعمى ، أو كنغمة أخّاذة تعزف لأصمّ .

ما شأن العذاب مع الرحمن

يمكن أيضاً للمرء أن يتساءل : كيف يرضى إله رحمان رحيم ، أن ينزل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤

(٢) سورة يونس : الآية ٤٤ .

العذاب بمخلوقه ، الذي هو موضع محبته واهتمامه ؟ .

والجواب هو أن الله سبحانه ، إلى جانب صفاته الجمالية اللطيفة ، له كذلك صفات جلاليّة قهريّة ؛ وكما أنه أرحم الراحمين (في موضع العفو والرحمة) ، كذلك هو أشدّ المعاقبين (في موضع النكال والنقمة) . وكما أن الجنة هي محل تجلي ألطافه المتناهية ، فجهنم هي محل تجلّي قهره الشديد .

والحق أن رحمته سبحانه غالبة على غضبه « يا من سبقت رحمته غضبه » ، ولا يرضى لعبده أن يكفر ويهوي إلى جهنم . ولكن ، ما العمل إن توجّه الخلق باختيارهم هذا التوجّه ؟ فهل من حكمته تعالى أن يردّهم بالضغط والإكراه ؟ في حين أنه غير محتاج مطلقاً ، فلا حاجة له بإيمان أحد ، بل الناس محتاجون للإيمان ، لما فيه خيرهم ، ومع ذلك ، فبرحمته ورأفته بخلقه ، فتح لهم باب التوبة ، باب الخلاص ، وشرع لهم هذا الباب حتى آخر لحظة من العمر ، فما العمل إذاً مع المعاندين إذ أعرضوا عن هذه الرحمة ، وأداروا لها ظهورهم ؟ هل يجبرهم على التوبة ، وهل تصحّ التوبة بالإكراه ؟! .

ثم إنه سبحانه ، وهو الله الرحمن الرحيم ، هيأ لعباده ـ من رحمته بهم ومحبته لهم ـ سبل التقرب منه ، بما فيه خيرهم وسعادتهم ، وما هو سبب لدخولهم الجنة ، والقرب منه سبحانه ، كما أنه ـ من رحمته بهم ومحبته لهم أيضاً ـ بيّن لهم ما يوجب بعدهم عنه ودنوّهم من الشياطين والنار ، وحذّرهم منه ، وأوضح لهم مزالقه .

وهكذا يتبين أن التكاليف بمجموعها (أوامرها ونواهيها) إنما هي منبعثة عن رحمته الواسعة . لذا فعلى الإنسان أن يستجيب لهذا اللطف وهذه الرحمة ، فيقوم بما كلّف به ، ويواظب عليه ، كي لا يصل به التساهل

والتهاون إلى حرمانه من رحمة الله ، الأمر الذي يستحيل جبرانه وتعويضه .

العمر القصير والعذاب الدائم

إشكال أخير يمكن أن يتبادر إلى الذهن وهو : كيف يتلاءم خلود الكافر في جهنّم مع عمره الدنيوي القصير الذي أعطي له ؟ .

والجواب هو أن الكافر الذي شغل عمره ـ القصير هذا ـ بالكفر ، يكون في الحقيقة قد التزم أمراً ثابتاً ، جزاؤه البقاء الدائم في النار ، وبعبارة أخرى : يكون قد هيّأ لنفسه ظلاماً لا سبيل للنور إليه أبداً وذلك بسوء اختياره ، كما أن المؤمن الذي غادر الدنيا على التقوى والإيمان ، يكون قد هيأ لنفسه ـ في عمره القصير كذلك ـ نوراً لا ينطفىء أبداً . وذلك بحسن اختياره .

سأل أبو هاشم الإمام الصادق (عليه السلام) ـ كما في (بحار الأنوار) ـ عن موضوع الخلود في الجنة وفي جهنم ، فأوضح له (عليه السلام) : أن المكوث الدائم لأهل النار في جهنم هو لأن نواياهم في الدنيا كانت على هذا النحو ، ولو دام بقاؤهم في الدنيا لاستمروا على ذلك . وأن المكوث الدائم للمؤمنين في الجنة هو بأن نواياهم كانت على هذا النحو ، ولو دام بقاؤهم في الدنيا لاستمروا على ذلك .

وعليه فإن نوايا الإنسان هي السبب في خلوده في الجنة أو خلوده في جهنم ، والقرآن المجيد يقول في الآية الرابعة والثمانين من سورة الإسراء : بأن كلاً يعمل حسب نواياه ، وعلى طريقته التي اعتادها : ﴿ **قل كلّ يعمل على شاكلته** ﴾ .

صدق الله العلي العظيم

المحتويـات

الموضوع **الصفحة**



الإمامة

تأليف

آية الله السيد عبد الحسين دستغيب

إعداد

لجنة التعريب والتحقيق في الدار الإسلامية

الأستاذ نادر التقي

الدار الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



كورنيش المزرعة، بناية الحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧
فرع ثاني: حارة حريك، مفرق الحلباوي، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
ص.ب: ١٤٥٦٨ - تلكس: ٢٣٢١٢ - غدير

كلمة الناشر



الإمامة أصل مكين من الأصول الخمسة التي يقوم عليها بنيان الدين الإسلامي ، لدى أتباع مذهب الإمام جعفر الصادق وبقية الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام) . هذا المذهب الذي توارثوه عن سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين جدّهم المصطفى (عليه وعليهم سلام من الله ورضوان) . والذي ألقمه لأبيهم سيّد الأوصياء علي (عليه السلام) ، وما كان في ذلك ينطق عن الهوى ، بل كان ينطق بالوحي وبلسان الحق . وتلك حقيقة قرّرها له ربّ العالمين وأكرمه بها .

وتستمدّ الإمامة أهميتها من كونها تجسّد القيادة الدينية والدنيويّة لأمّة الإسلام ، على مدى العصور والأيام . وهو مقام رفيع تعتمد عليه مسيرة دين الله في صعوده وانتشار نوره ، ويتطلب أن يكون قائد هذه المسيرة ممن هو أهل لها ، ممن رضي الله عنه فعصمه ونزّهه وسدّده ، وأهّله لهذه المهمة الرفيعة القدر العظيمة الشأن ، والتي هي عهد من الحق تعالى عهد به إليه ، مستثنياً إسناده إلى من ليس به حقيقاً وجديراً ، ومن ينجرف وراء الهوى والمصلحة ، ومن قصّر في الإحاطة بعلوم دينه إحاطة وافية شافية ، ومن يعمل برأيه فيقدّمه على ما نصّت عليه أوامره سبحانه ،

فيظلم بذلك نفسه فيما يوردها فيه من موارد الهلكة ، بسوء تقديره وقصور إدراكه ، ويظلم غيره فيما يوردهم فيه من موارد يفرضها عليهم بتسلطه عليهم وتحكّمه بهم .

هؤلاء استثناهم الله تعالى من عهده ، فقال في محكم تنزيله في ردّ قاطع حاسم :

﴿ **لا ينال عهد الظالمين** ﴾ .

وذلك بعد أن رغب نبي الله إبراهيم (عليه السلام) إلى الله تعالى أن يجعل الإمامة في ذرّيته ، كما جعله هو إماماً للناس .

ليست الإمامة والقيادة بالمركب اللين ، وليس تدبير أمور المسلمين بالمهمة السهلة ، خاصة وأنّ نجاح الأمم بقادتها ، فإن أخفق القائد فسدت الأمّة .

والدار الإسلامية إذ تتابع دربها مع شهيد المحراب السيد دستغيب ، إنّما ترجو أن يجد القرّاء في درّته هذه (الإمامة) ما ينير لهم الدرب ، ويضيء حوالك المسالك ، ويعيد بعض النقاط التي تاهت عن حروفها إلى مواضعها .

ولا اخالها بحاجة لأن تنوّه بالمؤلّف وكتابه ، فالمؤلف غنيٌ عن التعريف ، أمّا الكتاب فهو خير من يعرّف بنفسه .

والله من وراء القصد .

الدار الإسلامية

كلمة المعرب



لا أحد يجهل المكانة التي يحتلها شهيد المحراب السيد عبد الحسين دستغيب ـ عليه الرحمة ـ في صفوف رجال العلم والمعرفة ، والفضل والفضيلة . فإن عُدّ هؤلاء فهو المجلّي ، وإن عد أولئك فهو من أوائلهم .

حدّد منذ بداية العمر هدفاً ، واختاره صعباً عزيز المنال ، وعرف أن الطريق إليه صعب صعب ، لكنه شمّر وسعى ، تسدد خطاه عناية الرحمن ، وتحدوه في مسيرته الجادّة عزيمة الإيمان . فخاض تجربة الصعود إلى الكمال . منتهجاً نهج أجداده من أهل البيت (عليهم السلام) ، مقتفياً آثارهم ، مترسّماً خطواتهم ، حتى انتهى إلى ما انتهوا إليه ، وفاز بشرف الشهادة ، وحمل لقب الشهيد السعيد ، شهيد المحراب ، وأكرم به من مكان يلقى فيه الشهيد وجه ربّه ، أليس جدّه أمير المؤمنين من سبقه إليه ، ودلّه عليه ؟ .

محدّث حلو الحديث طليّه ، ومسامر أنيس المعشر نديّه ، وواعظ لينّ القول طريّه ، ناصح أمين ، ومحب بمحبّه ضنين ، إن قال صدق ، وإن أحب صدق ، وإن ناصح صدق ، وإن عنّف في الحق صدق ، فالحق رائده ، ولا أقول كان . . والصدق قائده ، ولا أقول كان . . فهو لن يغيب .

هذا كلّه ، وهو ممّا لديه أقلّه ، دفعني لإسماع قراء العربية طَرَفاً من حديثه ، وطُرَفاً من أقواله . ففيما يحدّث ويقول : طراوة تأنس بها الأسماع ونداوة ترتاح إليها القلوب .

وهذا الكتاب . . يتحدث فيه الشهيد عن الإمامة ، والإمامة ـ بما لها من قدر وأهمية ـ بحث يليق بالكبار أن يتحدثوا عنه ، كيف لا وهي ركن من أركان الإسلام الحق ، إنّها قيادة وريادة ، رئاسة وسياسة ، حنكة وفراسة ، إحاطة بالدين مكينة ، ومعرفة بالأحكام صحيحة ورصينة ، منصب يليق بالأوصياء ، والقادة المعصومين الأتقياء ، عرف الله سبحانه قدرها ، فقدّر وكلّف بها أهلها ، ممّن بفضله عصمهم ، وبعنايته سدّدهم .

هذا هو موضوع الكتاب ، لفتّ إليه الأنظار ، وتركت للمؤلف أن يتحدث عنه بما يختار .

وأخيراً . . لا يسعني إلاّ أن أنوّه بما بذلته الدار الإسلامية وتبذله من جهد ، في سبيل نشر المعرفة الحقّة ، والكلمة الصادقة ، بعد أن وُفّقت إلى العثور

على مصادرها الصحيحة ، ومنابعها الثرّة الصافية .
فراحت تغترف منها بكل همّة وثبات ، وتسقي قرّاءها
من كلّ عذب فرات . فلها من الله عميم الأجر ، ولها
من قرّائها ، ومنّي جزيل الشكر .

نادر التقي

الإمـامـة

مقدمـة

جذور الإمامة

مسألة الإمامة تضرب بجذورهـا عميقاً في المجتمـع الإسلامي وذلـك منذ بدء الدعوة الإسلامية . وبما أن الإسلام دين جامـع شامـل ، جاء ليستـوفي كل حاجات المجتمع ، فقد طرح مسألة الإمامة بصفتها قيادة منذ بدايات ظهوره .

وفي الوقت الذي كـان رسول الله (ص) يـدعو النـاس إلى الإسلام ، قـام بإرساء الأسـاس لأول حكومـة إسلاميـة تستجيب لاحتياجـات ذلك الـزمان من النواحي المالية والدفـاعية وإجـراء الأحكام القضـائية وغيـرها ، كـما تهتم بنفس المقدار بالنـواحي المعنويـة والأخرويـة من تقوى وتهـذيب للنفس وتحلٍّ بـالمعارف والأخـلاق الفاضلة ، غـير غافلة عن النـواحي الماديـة والاجتمـاعيـة للمسلمـين كذلك .

والإسـلام أصلاً مـطروح بشكل تنتفي معـه امكـانيـة فصـل الـدنيـا عن الآخرة . وفي الحديث النبوي المشهور :

« من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم »[1] .

---

(١) أصول الكافي : ج ٢ ص ١٦٣ .

الكمال في مقام القيادة

الإمام مظهر ونموذج للإسلام والمجتمع الإسلامي ، لذا يجب أن يتمتع . بأنواع من الكمالات تظهر الأبعاد المتنوعة السامية للإسلام .

فعليه أن يكون من حيث الخوف والرجاء ، ومحبة الله والتوكّل عليه ـ عديم النظير، كما أن يكون ـ من حيث العلم والعمل ـ عديم المثيل كذلك ، فلا يشكو من أي نقصان في هذه الكمالات كي يكون في مقدوره أن يسد حاجات الأفراد المختلفة إليها .

فلو كان يشكو نقصاً في إيمانه . فكيف يقدر على بث الإيمان الكامل في الناس ؟ ولو كان يخاف غير الله ، ويتوكل على غير الله . فكيف يعلم المسلمين الخوف من الله والتوكّل عليه ؟ ولو كان اعتماده على الله ضعيفاً ، أو أن محبة الله لا تشمل وجوده وكيانه ، فكيف يبث المحبة الإلهية في قلوب المسلمين ؟ !

الكمال لازمة من لوازم الإمامة

يجب أن يتصف الإمام بالشجاعة والحلم والكرم ، والعفو والمروءة ، والحزم في اتخاذ المواقف ، غير متأثر بأي عامل خارجي أو داخلي ، بعيداً عن أي مخاوف أو أوهام أو تردد ، شديداً على الظالمين ، وأن يكون في الوقت نفسه عطوفاً وعوناً لفقراء المسلمين . والخلاصة : يجب أن يكون نموذجاً ومظهراً لكافة صفات الكمال ، ومنزهاً عن كافة الرذائل والصفات القبيحة .

العصمة شرط أساسي في الإمامة

لقد عرّف الله سبحانه الإمام الجدير بالإمامة من وجهة النظر الإسلامية إذ يقول في كتابه المجيد : ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

فالأشخاص الذين تشملهم هذه الآية الكريمة ، هم الجديرون بقيادة المجتمع الإسلامي . إذ لم تلوثهم المعاصي حتى يتلوث المجتمع منهم ، بل إنهم مهيأون لتطهير المجتمع من الفساد والرذيلة بما لديهم من طهر وفضيلة .

من هنا فقد ذهب الشيعة إلى أن العصمة شرط أساسي في الإمامة ، كما هي في النبوة ، الأمر الذي هو مصداق لآية التطهير المتقدمة ، وعليه فإن الإمام يجب أن يكون بتعيينٍ من الله تعالى ، ولا شك ـ في مقام التضارب بين من طهره الله واصطفاه وعصمه ، ومن هو شخص عادي غير معصوم ـ أن الأول هو الأولى ، وعلى الأخص في مقام الإمامة وهي مقام تتوقف عليه صيانة الأمة الإسلامية من الذنوب ، ودفعها إلى الخير ، أي أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، إذ ليس من المعقول أن يمنع عن المعاصي مرتكبها ، وأن يدعو للخير تاركه .

أذكّر في هذا المقام بموعظة علي (ع) لهمام أحد أصحابه ، وكان رجلاً عابداً ، وذلك في معرض وصفه (ع) للمتقين ، فما أن انتهى من موعظته حتى صعق همام صعقة كانت نفسه فيها . فقال (ع) : « هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها » . أجل ، كانت موعظة من أهلها ولأهلها ، وما أحسن ما عبر « سعدي » عن ذلك إذ قال ما ترجمته : « القول الخارج من القلب لا جرم يستقر في القلب » .

أو ما جرى للمأمون مع سارق من الصوفية فعندما أراد اقامة الحد عليه قال له السارق : إن الخبيث لا يطهّر خبيثاً مثله .

الإمامة عهد إلهي

الخالق عز وجل هو العالم بالسرائر ولا يخفى عن علمه شيء، ويعرف من اصطفاهم لقيادة الناس وهدايتهم ، وقد عين الإمام علياً (ع) على لسان حبيبه محمد (ص) في موارد متعددة منها :

ما جاء في الآية الشريفة : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من**

ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾[1] .

ويلفت النظر في هذه الآية مسألتان :

أولاهما في قوله تعالى : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ . أي أن جهود الرسول (ص) وسعيه خلال ثلاثة وعشرون عاماً من الدعوة ستحبط إن لم يبلغ ما أمر به ، فما هو هذا الأمر الذي يرتدي هذا القدر من الأهمية ؟ إنه تعيين الإمام ، إذ أن مسألة الإمامة ترجح على كل ما عداها ، كما ورد في روايات عديدة من أنه لم يناد بشيء كما نودي بولاية أئمة أهل البيت .

والثانية في قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ إنه وعد من الله عز وجل بحفظ حبيبه محمد (ص) وحمايته من الناس . عندما يقوم بتنفيذ أمر ربّه ، ويوصي بإمامة علي (ع) ، ففي هذا خطر كبير إذا علم أن قلوب الناس مليئة بالحقد على الإمام (ع) لأنّه قتل آباءهم وإخوانهم في (بدر) و (أحد) و (حنين) إذا أصروا على محاربة الإسلام ونبيّه ، فلم تأخذه في الله لومة لائم . فهم لم يتحملوا أفضليته وقربه من الرسول (ص) ، فكيف بتنصيبه وصياً وإماماً ؟! .

شهيد المحراب وهذا الكتاب

يشتمل هذا الكتاب على بحث في الإمامة ، عرضه الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب بأسلوبه الجذاب وبيانه الشيق اللطيف ، وذلك قبل خمسة وعشرين عاماً ، في مجالس متعددة لم يصلنا منها للأسف سوى بعضها ، وهي على قلتها طافحة بالمواضيع القيمة والفوائد الجمة .

يتحدث الشهيد من خلال هذا البحث عن تعريف الإمامة ، والفرق بينها وبين النبوة ، ويثبت وجوبها تعيين النبي لخليفته ، كما فعل موسى (ع) إذ

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

ذهب إلى ميقات ربّه بتعيين أخيه هرون وزيراً له وخليفة ، كذلك عين خاتم الأنبياء (ص) وصيّة علياً (ع) حين خرج إلى حرب الروم في تبوك .

كما يتحدث عن شرائط الإمامة من العصمة والأعلمية المطلقة والإحاطة التامة بأحكام الإسلام ومعارف القرآن . مستعرضاً قصصاً جرت مع بعض الخلفاء ، مما انطوت عليه صفحات التاريخ ، مقارناً إياها مع إنجازات الإمام علي (ع) في هذا الصدد .

ويتحدث في موضع آخر عن مجمل فضائل الإمام علي (ع) ، وتأثير محبته وبغضه على النفوس ، من خلال قصص شيقة يوردها عن ذلك ، كقصة السيد الحميري شاعر أهل البيت (ع) ، وحصوله على الشفاعة عند موته ، وقصة الخطيب الدمشقي الذي تجاسر بسبّ علي (ع) ، وكذلك واقعة مقتل مرة بن قيس في الحرم العلوي بإشارة من الإمام (ع) .

الإمامة في قريش حتى القيامة

ويورد المصنف في بحث آخر الأحاديث النبوية الشريفة في إمامة الإمام وأهل بيته (ع) ، كحديث الثقلين وهما القرآن المجيد والعترة النبوية الطاهرة ، وأنهما لا يفترقان حتى يوم القيامة . وكذلك حديث الطير المشوي ، وحديث الغدير وغيرهما .

كما يتحدث عن نكتة مهمة في هذا الصدد ، وهي أن محبة أهل البيت (ع) متفق عليها لدى جميع المذاهب ، وأن المبغض لهم منافق . وما يعنيه هذا من خلوّ القلب من محبة الأمور الدنيوية والمادية ، إذ لا تجتمع محبة أولياء الله مع محبة الشهوات والأغراض الدنيوية . إضافة إلى ضرورة الالتزام بمحبتهم واتّباعهم فهم : « الصادقون » وهم « سفينة نوح » التي من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، إلى الحديث عن معجزة ردّ الشمس وغيرها .

ثم يعدد بعضا من فضائل الإمام وعصمته وعدله ، وأفضليته على سائر الناس . والآيات النازلة بحقه ، وما ورد في تفسير « الصراط المستقيم » و « الأذن الواعية » . و « أولى الأمر » وغيرها .

ويضم القسم الأخير من الكتاب وصايا أمير المؤمنين (ع) . بعد إصابته واجتماع أهل الكوفة عنده يطلبون مواعظه ونصائحه . وقوله من جملة ما قال : « أنا بالأمس صاحبكم ، وأنا اليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم . . . غداً ترون أيامي ، ويكشف لكم عن سرائري ، وتعرفونني بعد خلوّ مكاني وقيام غيري مقامي »[1] .

ويختتم المصنف الشهيد رحمه الله أبحاثه بخاتمة تصدق عليها الآية الكريمة ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ . على خطى الإمام علي (ع) . وكما قاد حياته الكريمة التي فاز في خاتمتها بالشهادة ؛ حياة ملؤها السمو والفضيلة ومكارم الخلق وسَنِيّ السجايا . فلنعمل ـ ما استطعنا ـ على منواله ، ولنربط قلوبنا برباط الإيمان والعمل الصالح علّنا نفوز برؤيته والاتصال به (ع) .

الإمامة وولاية الفقيه

نشير الآن إلى أمر مهم كان موضع اهتمام شهيدنا الكبير ، وهو موضوع ولاية الفقيه الذي يتفرّع من بحث الإمامة ، وكان الشهيد من مؤيدي تثبيت هذه المسألة في الدستور الأساسي للجمهورية الإسلامية ، وكان لا يكتم غبطته إذ يرى في ولاية الفقيه استمراراً لخط الإمامة في زمان الغيبة .

وإن من وظائف الإمام ـ كما سيمر في أبحاث هذا الكتاب ـ التعليم والتزكية ، وهذا مرتبط بشرطين أساسيين لا بد من توفرهما في قائد الأمة في

---

(١) نهج البلاغة ـ الصالح ـ ص ٢٠٧ .

زمان غيبة الإمام وهما الفقاهة والعدالة . ذلك كي يكون بمقدوره إرشاد الناس وتعليمهم ، كما يكون لهم قدوة بعلمه ، بزهده وابتعاده عن الماديات ، وتحلّيه بالفضائل والصفات الكمالية ، إذ لا يكفي العلم وحده ، بل لا بد أن يرافقه العمل .

ولاية الفقيه وسيلة ونعمة إلهية

يأتي المصنف الشهيد في قسم من أقسام هذا الكتاب على ذكر الآية الكريمة :

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا** ﴾[1] . أي أنه لا بد من ركيزة ثابتة للمجتمع تكون كالعمود للخيمة ، وهذه الركيزة هي حبل الله وهو الإسلام ،فكما ترتبط حبال الخيمة بالركيزة العمود ، كذلك ترتبط حبال حياتنا بالإسلام ، وتمسك بها جميعاً القيادة الرشيدة للمجتمع .

وبعد التمسك بحبل الله يجب نبذ التفرق « ولا تفرقوا » والحذر منه في كل وجه ، ومن وجوه التفرق تعدد القيادات في المجتمع ، الذي يستتبع حكماً تعدد الآراء والتوجيهات وتوهين أساس القيادة .

مفاسد الفرقة في المجتمع

إذا سادت الفرقة في مجتمع سادت فيه الفوضى ودب الفساد ، وأصبح عرضة للاستعمار وتسلط الأجانب على مقدراته .

ولنا في المجتمع الإيراني قبل الثورة مثال على ذلك ، إذ فقد الناس الثقة بأنفسهم ، ورسخ في أذهانهم ما لُقّنوه من أن الخلاص من الاستعمار والتسلط محال ، وأنه لا بد من الاتكاء على قوة كبرى كي نستطيع الاستمرار ، وتبع هذا ما تبعه من فساد أخلاقي نتيجة الارتباط بالأجنبي . وساد اليأس والاستسلام .

ثم شمل الله الأمة ببركات الثورة التي عمت جميع نواحي الحياة ، وأدخلت

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

تحولات عظيمة طالت أفكار الناس وأعمالهم ، وساد التوجه الإلهي الإيماني بدلاً من التوجه المادي الدنيوي ، فسمت الأهداف والأغراض بعد انحطاط .

وكما قال المصنف الشهيد ؛ فإن الله عز وجل قد استبقى قادتنا الكبار لمثل هذه الأيام ، نسأل الله أن يطيل أعمارهم ويرزقنا نعمة شكره على آلائه .

ولاية الفقيه من مختصات المذهب

ومن الأمور المسلمة أن مسألة قيادة ولاية الفقيه هي من مختصات المذهب الشيعي من بين سائر المذاهب الإسلامية الأخرى ، وهي تستند على الأدلة القطعية من الكتاب والسنة التي تنص على استمرار وثبات مسألة الإمامة في زمان غيبة ولي العصر ، وذلك بوضع أمور المسلمين بين يدي الولي الفقيه الجامع للشرائط المعتبرة ، بصفته نائباً عاماً للإمام .

ولا شك في أن الإحاطة بالعلوم الإسلامية والفقاهة من الأمور الضرورية للقائد في كل زمان ، إذ كيف يمكن للجاهل بالأحكام الإلهية أن يقيم الحدود الإسلامية في المجتمع ، علاوة على ما يجب أن يتصف به من بعد نظر سياسي وإلمام بالإدارة الداخلية والأوضاع الخارجية بين الأمم .

ومن شرائط القيادة المستفادة من عبارات نهج البلاغة أنه لا خوف إلا من الله . فالقائد لا يخشى تهديدات الدول المستكبرة الظالمة ، ولا يؤدي به خوفه إلى بيع بلده للأجنبي بثمن بخس . بل أن يتكل على الله المتعال ، ويقف أمام التحديات ويجهز الأمة للجهاد[1] ، معتقداً يقيناً بأن النصر من الله عز وجل[2] .

عبادة الفقيه لهواه أكثر مجلبة للمضرّة

ومن الشروط الأساسية الأخرى ـ ولعلّه أهمها ـ هو أن يتحلّى الفقيه

(١) ﴿ **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ . سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢) ﴿ **وما النصر إلاّ من عند الله** ﴾ . سورة آل عمران : الآية ١٢٦ .

بـالأخلاق والتهـذيب ، وأن يكون . متحـرراً من القيود المـادية وإلاّ أضـاع دينه ودنيـاه وكان سببـاً في انحراف المجتمـع . وعلى عـامّة النـاس في هذه الحـالة أن يتجّنبوه .

وقد وردت روايات عديدة في هذا الصدد ، نكتفي بواحدة منها :

فعن الإمام الصادق (ع) من حديث طويل :

« . . . وكـذلك عـوامّ أمتنا إذا عـرفوا من فقهـائهم الفسق الـظاهـر ، والعصبيـة الشديدة ، والتكالب على حطام الدنيا وحرامها ، (وإهلاك من يتعصبون عليـه وإن كان لإصلاح أمره مستحقاً ؛ وبالترفرف بالبر والإحسان على من تعصبوا له وإن كان لـلإذلال والإهانة مستحقاً) فمن قلد من عوامنـا مثل هؤلاء الفقهـاء فهم مثل اليهـود والذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم . فـأما من كـان من الفقهاء صـائناً لنفسـه ، حافـظاً لدينـه ، مخالفاً على هواه ، مطيعـاً لأمر مـولاه ، فللعوام أن يقلدوه ؛ وذلـك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم »[1] .

السيد محمد هاشم دستغيب

---

(١) عن (الاحتجاج) للطبرسي ـ احتجاجات العسكري (ع) .

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمامة والفرق بينهـا وبين النبوة

الإمامة : هي الرئاسة العامة الإلهية خـلافةً عن رسـول الله (ص) في أمور الـدنيا والدين ، بحيث يجب على كافة الخلق طاعة الإمام .

والفرق بين النبي والإمام : هو أن النبي حاكم بالأصل على الناس في أمور دينهم ودنياهم . مباشرة دون واسطة ، بينما الإمام هو الحاكم عليهم بواسطة النبي .

هل يجب على الرسول (ص) تعيين خليفة له ؟

لنَرَ بداية : هل فارق الرسـول (ص) الدنيـا دون أن يعيّن خليفة من بعـده ؟ وإن كان قد فعل ، فهل يكون الاعتقاد بهذا الخليفة واجباً ، أم لا ؟

إن لم يعيّن النبي خليفته من بعده ، فهذا يستلزم القبح العقلي ؛ ذلـك أن رئيس قـوم أو كبيرهم إذا عـزم على سفر فـإن عقلاء القـوم يرون أن عليـه ألّا يترك قـومه دون رئيس ، فكيف إذا كان السفر سفر الآخرة ، ولا عودة للرئيس إلى قومه بعده ؟

فلو كان الرئيس يهتم حقاً بقومه فلا بد أن يعين من ينوب عنه كيلا تتـوقف أعمال الناس في غيابه .

فأي رئيس أكثر اهتمـاماً بقـومه من خـاتم الأنبياء محمـد (ص) وهو من كـان في

منتهى الرأفة والرحمة بالمسلمين ، وكانت تلك صفة بارزة لديه ، نوّه بها القرآن المجيد بقوله تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنّتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[1] .

الرسول (ص) يعين خليفة عند أسفاره القصيرة

كان رسول الله (ص) يولي أشد الاهتمام لهذا الأمر ، وكان من شدة اهتمامه وعطفه على أمته لا يتركها ـ حتى في أسفاره القصيرة ـ دون أن يعين لها من ينوب عنه . فقد شارك (ص) في غزوة تبوك ، وحين عزم على الخروج من المدينة والالتحاق بالجيش ، عيّن مكانه عليّ بن أبي طالب (ع) ، حيث لم يسلم من لسان المنافقين وادعائهم بأن رسول الله (ص) ترك علياً (ع) عامداً ليبعده عنه ، فما كان منه (ص) إلا أن أظهر فضل الإمام (ع) في حديث المنزلة بقوله :

« أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي »[2] .

وفي هذه الظروف من تجهيز الجيش بقيادة الرسول (ص) ، وغيابه عن المدينة ، وهي عاصمة المسلمين ، يجب ألاّ تترك دون نائب له ، لأن حفظ حوزة المسلمين واجب .

لا بدّ من وجود مبيّن للأحكام الشرعية

أضف إلى ذلك أنه لو كانت لدى أحدهم مسألة شرعية فمن يسأل عنها ؟ فهذا يوجب وجود من يُعتمد عليه في ذلك .

ولو حضر إلى المدينة أحدٌ من أتباع الديانات الأخرى يريد الاستفسار عن الإسلام ، وعندما يسأل عن محمد (ص) ويقال له إنه مسافر ، فممّن يستفسر ، وكيف يمكن إرشاده ؟ إذاً ، لا بد من وجود من ينوب عن الرسول (ص) .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٨

(٢) الغدير ، ومصادر أخرى .

التصدّي للمؤامرات الداخلية

علاوة على ذلك ، فلا بد من وجود قائد للناس ، يتصدى لمؤامرات أعداء الداخل . في الوقت الذي يتم التصدي لأعداء الخارج ، وقد تناهى إليكم أن موسى (ع) حين ذهب إلى ميقات ربه لمدة أربعين يوماً قد نصب أخاه هارون خليفة له ونائباً عنه[1] ، وكذلك فعل رسول الله (ص) في غزوة تبوك .

إذاً ، فمن الواجب عقلاً أن يعيّن الرسول (ص) خليفة له بعد موته .

الاعتقاد بالإمام بعد الرسول واجب

وحيث إن النبي (ص) لم يدع حكماً من الأحكام الإلهية إلا وبيّنه ، فلن يترك حكماً على هذا القدر من الأهمية ، وحيث يعتبر تركه قبيحاً عقلاً ، بل لا بدّ من أنه (ص) قد بيّنه حتماً ، وإن الاعتقاد به واجب كذلك .

يجب على كل مسلم أن يعتقد بأن نبي الإسلام (ص) لم يفارق الدنيا بدون أن يعيّن خليفة له ، وإلاّ فيلزم من ذلك كونه (ص) قد أهمل أهم الأمور الدينية ، وهو منزّه عن فعل ذلك .

يجب أن يكون الإمام معيّناً من قبل الله أيضاً

والإمام يجب أن يكون معيناً من قبل الله تعالى ، كما هو الأمر مع النبي ، لأنه سبحانه هو العالم بمن يصلح لإمامة الناس ، ويكون مماثلاً للنبي تماماً ونسخة عنه : معدن علم الله ومحل ظهور أسماء الله وصفاته ، أي شبيهاً له من كل ناحية .

فلو أراد خبّاز ـ مثلاً ـ أن يسافر ، وحرص على إبقاء مخبزه مفتوحاً في غيابه فماذا يفعل ؟ هل يقول للنجار : تعال اعمل في مخبزي ؟ وكيف يمكن للنجار أن يكون نائباً ووكيلاً عن الخباز ، وأن يعمل عمله ، ويضمن له استمراره ؟!

---

(١) ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي ﴾ . سورة الأعراف : الآية ١٤٢ .

أو لو عزم معلّم على السفر ، فهل يحلّ مكانه شخصاً أمياً لتعليم التلاميذ ؟!

يجب أن يكون الإمام مماثلاً للنبي تماماً

فنائب أي شخص يجب أن يكون مماثلاً لذلك الشخص ، وخليفة النبي يجب أن يماثل النبي كذلك من حيث العلم والعمل ، بحيث لو رآه شخص فكأنما رأى النبي ؛ وكما يجب على النبي أن يكون عالماً بكل ما يسأل عنه ، فعلى الإمام كذلك يجب أن يعلم ما يسأل عنه ، وإلا فسيكون مورداً للاعتراض ، كما سبق وحصل مثيل لذلك في تاريخ الإسلام .

اعتراض امرأة على الخليفة

قيل إنّ أحد الخلفاء أمر من فوق المنبر ألاّ يُغالى في مهور النساء ، وإلاّ استرد الزيادة بالسوط وأودعها بيت المال . فقامت إليه إمرأة وقالت : لقد أحلّ الله لنا المهر مهما بلغ فكيف تحرّمه الآن ، والله يقول :

﴿ وآتيتم إحداهنّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾[1] .

فقال : « ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت ، وناضلت إمامكم فنضلته »[2] ؟

فمن الأمور التي أحلها القرآن الكريم مهور النساء ؛ إذ يقول :

﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾[3] .

وخطر لي بهذه المناسبة حديث ورد في بحار الأنوار ، وهو مفيد من نواحي عدة :

مرض أحد الأشخاص ، ولم ينفع معه دواء ، فجاء إلى الإمام الصادق (ع) فأرشده إلى ما يفعل وقال ما مؤدّاه :

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٠

(٢) عن الزمخشري في (الكشاف) وابن أبي الحديد في شرح النهج ج ١٢ ص ٢٠٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ٤ . كما عن الغدير .

اسأل زوجتك أن تهبك مقداراً من المهر الذي قدّمته لها ، واشتر به عسلاً ، ثم امزج العسل بماء المطر واشربه ، فإن فيه شفاءك إن شاء الله .

عمل الرجل بما أوصاه به الإمام (ع) ، فمنحه الله تعالى الشفاء من مرضه ، غير أن الحيرة ملكته من طريقة العلاج التي أوصاه الإمام باتّباعها ، فعاد إليه يسأل عن السر فيها ، فأجابه (ع) .

أشرت عليك بقسم من مهر زوجتك لأن الله تعالى قال :

﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ .

أما العسل ، فقد أشرت عليك به لقوله تعالى :

﴿ فيه شفاء للناس ﴾[1] .

فهو طعام مبارك ذو فوائد عديدة ، وخصوصاً لبعض أوجاع القلب الناتجة عن الرطوبة الزائدة . فإنه ـ بحرارته القوية ـ يدفع تلك الرطوبة ، ويجب طبعاً تشخيص المرض بصورة صحيحة قبل العلاج به . ولنستكمل الآن حديث الإمام (ع) إذ أردف يقول :

أما عن مزجه بماء المطر ، فلأن ماء المطر موصوف بالبركة بقوله تعالى :

﴿ ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً ﴾[2] .

ومن المعلوم أن الماء عندما يكون طاهراً وحلالاً ، فإن الطعام الذي يمزج به سيؤدي إلى الشفاء ببركته .

الإحاطة الكاملة بعلوم القرآن

يجب على نائب النبي أن ينطوي صدره على علوم القرآن ، لقوله تعالى :

﴿ بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾[3] .

فلا تكون لديه آيات متشابهة وأخرى مجملة ، ويكون محيطاً إحاطة تامة بمطلقه

---

(١) سورة النحل : الآية ٦٩ .

(٢) سورة ق : الآية ٩ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٤٩ .

ومقيّده ، وخاصّه وعامّه ، وموارد نزول آياته وشؤونها ومصاديقها ، وكافة أمور القرآن ومواضيعه .

الحكم بين اليهود والنصارى والمسلمين

أجمع المؤرخون من الشيعة والسنة ، على أن أعلم الناس بعد النبي (ص) هو عليّ (ع) . ويروي ابن أبي الحديد عن المدائني قال : خطب عليّ (ع) فقال :

« ولو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ؛ وما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلاّ وأنا عالم متى أنزلت ، وفيمن أنزلت »[١] .

فلا شك أن علياً (ع) أعلم من جميع الصحابة ، وقد أودع الله تعالى صدره كل العلوم .

ويقول (ع) في الخطبة الشقشقية[٢] :

« ينحدر عنّي السيل ، ولا يرقى إليّ الطير » .

فسيل العلم ينحدر عن صدره (ع) ، ولا يمكن لطيور الأوهام والخيالات أن ترقى إلى حدود علمه أو تدركها .

وكان يكرر دائماً من فوق المنبر عبارته الشهيرة : « سلوني قبل أن تفقدوني »[٣] .

وفي قول آخر للإمام (ع) :

« سلوني عن طرق السموات (الملكوت والعالم الأعلى) ، فإني أعلم بها من طرق الأرض (الملك والعالم السفلي) » .

---

(١) كشف المحجة لابن طاوس ، والإرشاد للشيخ المفيد .

(٢) الخطبة الثالثة في نهج البلاغة .

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٨٦ .

الإمامة بالتعيين وليست بالانتخاب

فقد وجب ـ إذاً ـ بحكم العقل ، أن يكون نائب النبي مماثلاً لنفس النبي ، من حيث العلم والعمل ، والعصمة والتقوى . هذا من جهة . .

ومن جهة أخرى : فصاحب المرتبة والمقام الأدنى ، لا يمكنه الإحاطة بالمقام الأعلى ، فمن لم يكن مجتهداً لا يستطيع معرفة المجتهد إلا بتأييد ممن هو أعلم منه أو مساوٍ له في المرتبة .

لذا فلا يمكن للناس أن يدركوا مقام الإمام ، ويغدو ـ إذ ذاك ـ تعيين الخليفة كحاكم على الأمة من الأمور الخاصة بالله تعالى ، وبواسطة رسوله (ص) ، حيث إن الله ورسوله أعرف وأعلم بذلك ، وليست للأمر علاقة بالآخرين .

الإمامة ليست كرئاسة الجمهورية

يقال إنّ تعيين الإمام يجب أن يتم من قبل الناس ، حيث يجتمعون وينتخبون أحداً منهم ، حتى ولو تمّ الانتخاب بالقوّة أو بالمدفع والدبّابة ، فالمنتخب إمام ، أيّاً كان ذلك المنتخب !! .

فلو كان الأمر كذلك ، فهو ليس خلافة ونيابة من قبل الله الرسول ، وإنما هو مجرد شخص انتخبه الناس وسلموه مقاليد الحكم والرئاسة ، تماماً كما ينتخب الناس رئيساً للجمهورية ؛ وإذ ذاك فلا يمكن أن يدعى بخليفة رسول الله .

هل تعيين الخليفة بيد الناس ؟

خليفة النبي يجب أن يكون بتعيين من الله . أمّا ما يقال من أنّ رسول الله (ص) قد أوكل تعيين الخليفة إلى أهل الحلّ والعقد ، وأن اتفاقهم وإجماعهم حجّة ، فإن ذلك لا يتلاءم مع الموازين التي بين أيدينا ، كما أنّه يؤدّي إلى الإخلال بالنظام العام .

فهل يمكن القبول بالقول إن رسول الله (ص) لم يعين خليفته ، وإنما قال لكم :

اجتمعوا وانتخبوا رئيساً لكم ، فيكون الرسول بنفسه سبباً للنزاع والخلاف ؟

إن كل هذه الفتن والاختلافات ، وضروب الفساد والقتل والسباب إنما كانت بدايتها مسألة الإمامة ، وهي لا تزال مستمرة حتى الآن ، ولو أن أحداً تصوّر أن تعيين الإمام موكول إلى الناس فقد أنكر العدالة الإلهية ، واتهم الله سبحانه وتعالى .

لذا فالعقل يحكم بأن يكون تعيين الإمام من قبل الله وليس من قبل الناس أنفسهم .

هل عينّ النبي وصيّاً أم لا ؟

اتضح معنا حتى الآن أن تعيين الإمام يجب أن يكون من قبل الله ورسوله . وهنا يثار السؤال التالي : هل عين الرسول أحداً أم لم يعيّن ؟

الأدلة على تعيين الأوصياء بلغت حد التواتر ، ليس من طرق الشيعة فحسب ، بل إن أكثرها ورد عن طرق السنة ، وتقول بأن الرسول (ص) عيّن اثني عشر وصياً أولهم علي بن أبي طالب (ع) ، وآخرهم الحجة بن الحسن العسكري (ع) .

وقد ورد في كتب الروايات أحاديث في تعيين الوصي ، ونذكر كمثال مضمون حديث واحد منها :

خلفاء الرسول (ص) اثنا عشر

قال رسول الله (ص)[1] : « لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة من قريش » .

وفي رواية ، أخرى أكثر صراحة قال :

« أولهم علي بن أبي طالب ، وآخرهم القائم » .

هذا القبيل من الروايات فاق حدّ التواتر ، ومضمونه أن الخلفاء اثنا عشر نفراً من قريش ، ومن ذرية فاطمة الزهراء (ع) .

---

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ٨٩ . كما ذكره مسلم في أول كتاب الإمارة .

ويحسن الرجوع إلى كتاب (غاية المرام) وسائر الكتب الأخرى ، ومنها مجلدات الغدير ، وما أكثر الأحاديث والروايات التي صدرت عن رسول الله (ص) من بداية البعثة حتى رحيل خاتم الأنبياء (ص) ، وهي تشير إلى أوصيائه (ص) ، وخصوصاً إلى الإمام علي (ع) .

وكنموذج منها نذكر لكم روايتين ، إحداهما في بداية البعثة ، والثانية في أواخر عمره الشريف .

مأدبة لأربعين نفراً من زعماء قريش

دعا رسول الله (ص) أربعين نفراً من زعماء قريش ، وذلك في بداية البعثة في مكة المكرمة ، إلى مأدبة قدم لهم فيها ذراع خروف واحدة مع صاع من الخبز ، فأشبعهم جميعاً ، وبقيت الذراع على حالها . فقال أبو لهب عند ذلك : إنه لسحر عجيب قام به محمد . فسكت رسول الله (ص) على مضض ، وتفرق القوم .

قال (ص) لعلي (ع) فيما بعد : لقد جمعتهم لأدعوهم إلى الله ، لكنهم لم يستجيبوا ، بل أنكروا أعظم نعم الله . فادعهم إليّ مرة ثانية .

وتكرر الأمر للمرة الثانية ، ويسكت الرسول (ص) أيضاً . أما في المرة الثالثة فقد بقي أبو لهب ساكتاً ولم يقل شئياً . وعندها شرع الرسول (ص) في حديثه إليهم .

أول معين لي هو الوصي من بعدي

وتفيد الروايات المتعددة التي وردت عن هذا الموضوع من طرق السنة والشيعة أن رسول الله (ص) قال :

« يا بني عبد المطلب ، إن الله بعثني إلى الخلق كافّة ، وبعثني إليكم خاصّة ، فقال : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان ، تملكون بهما العرب والعجم ، وتنقاد لكم بهما الأمم ، وتدخلون بهما الجنة ، وتنجون بهما من النار ، شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؛ فمن

يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه يكن أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي مر بعدي » .

فسكت الجميع ولم ينطق أحد بكلمة ، إلا واحد كان جالساً في زاوية المجلس ، وهو الوجود المقدّس أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (ع) فقال : « أنا ي رسول الله » .

وكان علي (ع) أصغر الجميع سناً ، شاباً لم يبلغ الخامسة عشرة ، فقال له رسول الله (ص) : « اجلس يا علي » .

وللمرة الثانية يكرر الرسول (ص) دعوته إليهم ، ويطلب منهم الناصر فلا يجيبه إلا علي (ع) ، وعندما كانت المرة الثالثة ولم يلبّ طلبه سوى علي (ع) قال الرسول (ص) :

« أنت أخي ووصيّي ووارثي ووزيري » .

وفي بعض النسخ ورد أيضاً « وقاضي ديني » ، يعني من يدفع الدَّين الذي عَليَّ ، أو من يتحمل مسؤولية الدين الإسلامي ، أو من يكون القاضي والحاكم في ديني .

ثم تفرّق الضيوف وهم يهزأون بما قال ، ويقولون لأبي طالب : ليهنئك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك ، فقد جعل ابنك أميراً عليك .

ولاية علي (ع) هي ولاية الرسول (ص)

ونذكر الآن آخر ما أوصى به الرسول (ص) :

فقبل شهرين من وفاته (ص) جمع الناس في غدير خم ، ورفع يد علي (ع) (وقد سمعتم جميعاً بذلك ، وإنما أكتفي بالتذكير به فحسب) وقال :

« ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ؟ (أي في التصرف بأنفسهم وأموالهم) فقالوا : بلى يا رسول الله .

فقال (ص) : « من كنت مولاه فعليّ مولاه (فقد جعل ما له من الولاية على

النـاس لعليّ (ع)) اللهم وال من والاه ، وعاد من عـاداه ، وانصر من نصـره ، واخذل من خذله »[1] .

قصة الدواة والقلم المؤسفة

رجع رسول الله (ص) من سفره إلى المدينة ، ومرض هناك واشتد به المرض ، فوقع طـريح فـراش الموت . وقبـل وفاتـه (روحي فداه) بيـوم أو يـومين ، وبينمـا كان أصحابه مجتمعين حوله قال :

« إيتوني بدواة وكتف ، لأكتب لكم كتاباً ، لن تضلّوا بعدي أبداً » .

أراد (ص) أن يثبت مـا قالـه في غديـر خم على الورق ، كي لا يبقي حجـة أو عذراً لأحد في هذا الأمر ، وهو ممكن الوقوع ، كما فعل أنس فيما بعـد إذ قال : لقـد كبرت في السن ، ونسيت !![2] .

وعندما طلب رسول الله (ص) الدواة والكتف ، قصد أن يملي على الحاضـرين من الصحابة فيكتبون ما يمليه ، وفي ذلك لا يتنافى قوله : «لأكتب» مع كونه أمياً ، ذلك أنه لم يقصد أن يمسك القلم بيده ، ويكتب ، بل قصد الإملاء عليهم ما يكتبون كي لا يقع نزاع في هذا الأمر بعد وفاته .

لكنّه أجيب : لا حاجة بنا إلى ذلك ، يكفينا كتاب الله .

كـان ذلك نتيجـة لثلاث وعشـرين سنة من الجهـد في تبليغ الـرسالـة ، إذ يمنع رسول الله (ص) من الوصية لأمته بما فيه خيرها وصلاحها !!

لـو أن مسلماً التفت إليـك ـ وهـو على فـراش المـوت ـ وقـال لـك : أحب أن

---

(١) ورد حديث الغدير بطرق متعددة ومتواتـرة ، وليس هناك حـديث بهذه الصحـة والإسناد المحكم . ولمـزيد من الاطّلاع يُرجع إلى مجلدات الغدير .

(٢) أنس من مشـاهير الصحابة ، وقد قال قولته عندما طلب منه أمير المؤمنين (ع) فيما بعد أن يشهد بما رأى وسمع في مـوضوع الغـدير ، فـاعتذر بـأنه طعن في السنّ ونسي مـا جرى حيـنذاك !! كما ورد في كتب التـاريخ والحديث .

أوصي ، فلم تعره اهتماماً ، فكم تكون ملوماً على فعلتك ؟! ألا يرقّ القلب ويعطف على المريض ، وخاصة إذا كان مرضه مرض الموت ، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر ؟ .

ثم ، ما هو المبرر للإهانة ؟! وهل هذا جزاء الإحسان والتقدير لشخص الرسول (ص) ؟!

الفصل الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

صون روحية الإسلام من مسؤولية الخليفة

كان الكلام في ضرورة أن يكون لرسول الله (ص) خليفة بعده، يدور حول أنّه يتوجب ـ حتماً ـ أن يعيّن من يقوم مقامه بعد وفاته ، بحيث يتمتع باللياقة الكاملة ، ويكون مثيلاً له تماماً ، حتى يتمكن من معالجة أمور دينه ، فيحفظ للإسلام روحيّته ومعنويته ، إضافة إلى إدارة شؤون الأمة الدنيوية والاجتماعية ، الأمر الذي يقتضي أن يكون هذا الخليفة قد بلغ الكمال من حيث العلم والمعرفة فلا يعجزه أمر ، وأن يكون في جميع الشؤون ونواحي الكمال الأخرى نسخة ثانية عن محمد (ص) .

فلو اختار الناس إنساناً جاهلاً لخلافة رسول الله (ص) ، لعُدّ هذا الاختيار قبيحاً في نظر العقلاء ، لأنه سيعجز عن إجابتهم إلى كل ما يسألونه عنه ، ويحيله على الآخرين ؛ فكيف يكون خليفة إذ ذاك ؟!

وقد نقل إخواننا السنة في موارد عديدة ، وفي أكثر من سبعين موضعاً مختلفاً ، أن الخليفة الثاني كان يقول : « لولا عليّ لهلك عمر » ، وذلك عندما كانت تواجهه أمور ليس له بها معرفة أو إلمام ، فيسارع علي (ع) إلى نجدته وحل ما يصادفه من إشكال .

فخليفة رسول الله (ص) يجب أن يكون ملمّاً بالعلم إلماماً تامّاً ، فلا يعجز عن الإجابة إن سئل عن أي حكم أو مسألة .

أفضلية علي (ع) على جميع الأنبياء

يشير الإمام الفخر الرازي ـ وهو من كبار أهل السنة ـ في تفسيره الكبير في ذيل آية المباهلة إلى أمر مهم ـ تحدثنا عنه قبلاً ـ وهو أنه استناداً إلى الآية الكريمة ﴿ **وأنفسنا وأنفسكم** ﴾[1] فبإمكان الشيعة القول بأفضلية علي بن أبي طالب على جميع الأنبياء ، بمن فيهم أولو العزم ، ذلك لأنّ الله تعالى عبّر عن عليّ (ع) بنفس محمد (ص) في هذه الآية ؛ وحيث إنّ محمداً (ص) هو أشرف من جميع الأنبياء ، فيقتضي أن يكون علي (ع) ـ وهو نفس محمد (ص) ـ كذلك [2] .

أفضلية علي (ع) على آدم أبي البشر

عندما كان الإمام (ع) على فراش الموت ، سأله الأصبغ بن نباتة عدة أسئلة أجابه عنها (ع) ، ومن المناسب إيرادها هنا .

سأله الأصبغ : من الأفضل ؟ أنت أم آدم أبو البشر ؟

أجاب (ع) بما مؤدّاه : إنه وإن كان من غير اللائق بالإنسان أن يذكر محاسن نفسه ، لكني أجيبك عما سألت ، إظهاراً للحق :

إن آدم حين كان في الجنة أحلّ الله تعالى له كل نعمها سوى شجرة واحدة ، لكنه مع ذلك قارب تلك الشجرة . بينما أحلّ الله عز وجل لي أشياء كثيرة ومع ذلك لم أتناولها .

فخبز القمح كان حلالاً لعلي (ع) لكنه كان يأكل خبز الشعير . كان (ع) يضع

---

(١) ايه المباهلة : ﴿ **فمن حاجّك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ . سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٢) (التفسير الكبير) للإمام الفخر الرازي ، تفسير آية المباهلة .

صبعه في الحلوى ويقول : ما أجمل لـونك ، لكنّ علياً لا يأكـل منك . وحين كـان بإمكانه أن يلبس أفخر الثياب كان يقول عن ثيابه :

« والله ما زلت أرقعها حتى استحييت من راقعها » .

دعاء نوح وابنه الكافر

سأله الأصبغ : أأنت أفضل أم نوح ؟

فقال (ع) : إن نوحاً دعا على قومه وأهلكهم لأنهم آذوه ؛ أما أنـا فـرغم كثرة مـا آذاني قومي فإني لم أدع عليهم .

أجل ، فقد قضى الإمام (ع) خمساً وعشرين سنة في معزل عن الناس ومع ذلك فلم تتحرك شفتاه بـدعوة عليهم ، حتى في أيـام حكمه لم ينجـح من أذيتهم ولم يعرف هدوءاً أو راحة ، لكنه لم يدع عليهم كذلك .

كما أنّ نوحاً كان أباً لولد كافر غير صالح ، ولم تنفعه شفاعة أبيه[1] ، أمّـا أنا فقد رزقني الله ولدين هما سيّدا شباب أهل الجنة .

علي (ع) لم يخف من أداء أمر الله

سأله الأصبغ : أأنت أفضل أم موسى بن عمران (ع) ؟

فقال (ع) : عندما بعث الله عز وجل موسى (ع) بالرسـالة ، وأرسله إلى فـرعون قـال : ﴿ ربِّ إني قتلت منهم نفساً فـأخاف أن يقتلونِ ﴾[2] . فـوعـده الله عـز وجـل بالعون والحماية ، وأرسـل معه أخـاه هرون لمسـاعدتـه . أما أنـا فقد نمت ليلة المبيت (ليلة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة) في فـراش الرسـول (ص) دون خوف ، في حين كان المشركون يطوّقون البيت .

---

(١) ﴿ **قال يا نوح إنه ليس من أهلك ؛ إنه عمل غير صالح** ﴾ . سورة هود : الآية ٤٦ .

(٢) سورة القصص : الآية ٣٣ .

كما أني تلوت سورة البراءة على المشركين بأمر من الرسول (ص) دون أن يعتريني خوف أو وجل .

فاطمة بنت أسد تدعى إلى داخل الكعبة

سأله الأصبغ : أأنت أفضل أم عيسى بن مريم (ع) ؟

فقال (ع) : كانت مريم أم عيسى المسيح تتعبد في بيت المقدس (غرفة بناها زكريا (ع) لمريم ، ولم يكن الوصول إليها ممكناً إلا عن طريق سلم ينصبه زكريا إذا أراد الدخول عليها) ، وكانت تقضي هناك وقتها في العبادة ، ولما دنت ولادتها نوديت : « هذا بيت العبادة لا بيت الولادة » ؛ فخرجت مريم من معبدها هذا ، ودنت من شجرة نخيل وضعت تحتها وليدها .

أما أمي فإنها لما رأت في نفسها آثار دنو الوضع في المسجد الحرام أمسكت بأستار الكعبة وقالت : إلهي أسألك بحق هذا المولود الذي في بطني إلاّ ما سهّلت ولادتي . فكان أن انشق لها حائط الكعبة فدخلت ، والتحم الحائط . وبقيت في الكعبة ثلاثة أيام ، واشتهر ذلك بين الناس وذكروه في مجالسهم[1] .

وبعد ثلاثة أيام خرجت فاطمة من الكعبة وهي تنادي :

من منكم مثلي ؟ فقد بقيت ثلاثة أيام في الكعبة ، في ضيافة الله تعالى آكل من طعام الجنة !

يكفي في أحقيّة محمد (ص) أن يكون له تابع كعليّ (ع)

سأله الأصبغ : أأنت أفضل أم محمد (ص) ؟

فقال (ع) : أنا عبد من عبيد محمد (ص) .

وقد كتب بعض المحققين الأجانب يقول : بأنه يكفي في أحقّية محمد أن يكون له تابع مثل علي .

---

(١) قصة ولادة علي (ع) في جوف الكعبة . ذكره الحاكم في المستدرك ٣/٤٨٣ ، وغيره كثير من علماء أهل السنة ، وهو من المتواترات .

وقال (ع) : قال لي رسول الله يوماً : يا علي ، اصعد المنبر وقل :

« لعن الله من عقّ والديه ، لعن الله من أبق عن مولاه ، لعن الله من ظلم أجيره » .

فصعدت المنبر وقلت ما أمرني به رسول الله (ص) .

فلما نزلت سألني رجل عن معنى هذه الجمل الثلاث . فسألت عنها رسول الله (ص) فقال :

« يا علي ، أنا وأنت أبوا هذه الأمة ، أنا وأنت موليا هذه الأمة ، أنا وأنت أجيرا هذه الأمة » .

أجل ، عندما كان (ع) يتحدث عن كيفية وقوعه مورداً للظلم والأذى ، يقول الأصبغ : كان اصفرار وجهه بتأثير السم الذي سمّم به السيف الذي نزل على مفرقه أشدّ من اصفرار المنديل الذي عصّبوا به رأسه الشريف .

« أنت أول مظلوم ، وأول من غصب حقّه » .

صلى الله عليك يا أمير المؤمنين .

الفصل الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يُتّبع أمّن لا يهِدّي إلاّ أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾[1] .

علي (ع) معصوم بإجماع الأمة

هناك طرق متعددة لإثبات أحقية علي بن أبي طالب مع أولاده الأحد عشر بخلافة رسول الله (ص) ، ومن تلك الطرق : العصمة . فالإمام يجب أن يكون ـ كالنبي تماماً ـ معصوماً عن الذنب والخطأ ، إن عمداً وإن سهواً .

وإن الشخص الذي لم يصدر عنه أي خطأ ، سهواً أكان الخطأ أم غفلة أم عن عمد ، هو علي بن أبي طالب ، وذلك بإجماع المسلمين .

أعلميّة علي (ع) أمر مسلّم

ومن الطرق في إثبات أحقية علي (ع) بالخلافة هو علمه . وقد سبق منا القول بأن وصي النبي يجب أن يتصف بالإحاطة التامة بجميع علوم الدين ، بل وأن يكون

(١) سورة يونس : الآية ٣٥ .

أعلم الجميع كي يتمكن من القيام مقام النبي (ص) .

وهناك حديث مشهور متفق عليه عند الشيعة والسنة ، وكلكم قد سمعتم به ، وهو قول رسول الله (ص) :

« أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها »[١] .

وقوله في حق علي (ع) أيضاً : « أقضاكم عليّ »[٢] .

كما أن الآية الكريمة : ﴿ **وتعيها أذن واعية** ﴾ ، قد نزلت بحق علي (ع)[٣] .

ومن أراد المزيد من الإطلاع فليراجع كتاب (حق اليقين) و (كفاية الموحدين) وغيرهما ، يجد أن مسألة الإمامة هي ذات وضوح خاص بين المسائل الاعتقادية الأخرى .

تقديم المفضول على الفاضل قبيح

العقل يحكم بقبح تقديم الأقل في العلم على من هو أوفر منه علماً ، كتقديم الجاهل على العالم ، بل العقل يحكم بوجوب تقديم الأفضل على الفاضل .

وأفضلية علي (ع) أمر لا يحتمل الشك ولا التردد عند المحققين . ويجدر أن أذكر لكم ما قاله أخطب خوارزم ـ وهو من كبار المحدثين عند العامة ـ عن رسول الله (ص) :

« لو كانت البحار مداداً ، والأشجار أقلاماً ، والماء والأرض ألواحاً ، والجن والإنس كتاباً ، لما استطاعوا إحصاء فضائل علي (ع) » .

وقال (ص) :

« من كتب فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب (ع) لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم ؛ ومن استمع إلى فضيلة من فضائله غفر الله له الذنوب التي

---

(١) المستدرك للحاكم ١٢٦/٣ .

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر ، الحديث ٩٤ . والمستدرك ٥٥٣/٣ .

(٣) سورة الحاقة : الآية ١٢ . يراجع كنز العمال ٣٩٨/٣ .

اكتسبها بالاستماع »[1] .

(لذلك كان العلماء يتبركون بكتابة فضيلة من فضائل علي (ع) على الوجه الخلفي من أغلفة كتبهم) .

جهنم لأعداء الإمام علي (ع)

وقال (ص) : « لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لما خلق الله النار »[2] .

نعم ، فإن جهنم هي لأعداء علي (ع) .

ولعلكم تتساءلون : فما مصير الموالين لعلي ممن ماتوا مذنبين ؟

وجوابه :

أولاً : إن الموالين لعلي يموتون وهم تائبون ، لأن حبهم لعلي (ع) في حد ذاته يوجب عليهم الرحيل عن هذه الدنيا مع التوبة .

ثانياً : لو افترضنا أن أحدهم مات متلوثاً بالمعصية ، فإنه سوف يتطهّر من ذنوبه في عالم البرزخ . ولا بأس في أن أروي لكم ـ في هذا الصدد ـ قصة السيد إسماعيل الحِمْيَري .

إشراق وجه الحميري عند الوفاة

كان إسماعيل الحميري شاعراً لأهل البيت (ع) ، وكان لا يفتأ يذكر فضائل الإمام علي (ع) غاية طاقته . وكان إلى ذلك من أصحاب الذنوب ؛ وقد ذكر بعضهم بأنه كان يشرب الخمرة أيضاً أحياناً ، أو بحكم العادة التي كان مبتلى بها . أما بقية أعماله ، فيبدو حسب الظاهر أنها كانت صحيحة .

كان الحميري رجلاً وسيماً ، وعند الموت ـ وقد أحاط بفراشه لفيف من محبيه

(١) حلية الأبرار ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) مسند أحمد ، باب مناقب علي .

ومبغضيه ـ انقلب وجهه إلى السواد ، وقد سرت ظلمات باطنه إلى ظاهره ، فشرع أعداؤه يشمتون به ، في حين بكاه أحباؤه بكاء الحسرة والأسف .

مرت لحظات وهو على هذه الحال ، فما كان منه إلا أن توجّه إلى جهة النجف وقال : أتتركني يا علي وحيداً وأنا في هذه الشدة ؟!

وفجأة . . ظهرت على وجهه نقطة بيضاء أمام أنظار الجميع ، أخذت تتّسع إلى أن غمر النور والإشراق وجهه بكامله ، كما البدر في الليلة الرابعة عشرة .

فقال إلى من حوله : أجلسوني . فاجلسوه وأنشد هذين البيتين :

كذب الزاعمون أن علياً ... لن ينجيّ مَحبّه من هنات

قد ـ وربّي ـ دخلت جنة عدنٍ ... وعفا الإله لي عن سيئاتي

أجل ، فعلي (ع) وفيّ لمحبّيه ، وها هو أحدهم وقد اسودّ وجهه من الذنوب ، لكن محبة علي (ع) أنقذته وبيّضت وجهه .وهذا مصداق قول رسول الله (ص) :

« لو اجتمع الناس على حبّ علي بن أبي طالب ، لما خلق الله النار » .

الحسنة المطلقة هي في حب علي (ع)

لقد سمعتم بالرواية الشهيرة التي تقول :

« حبّ علي حسنة لا تضرّ معها سيّئة ؛ وبغض علي سيئة لا تنفع معها حسنة »[1] .

وقد ذكرت وجوه متعددة في معنى هذا الحديث الشريف ، تعرّض لها المحقق القمي في كتابه (جامع الشتات)، فعلى من أراد الاطلاع الرجوع إليه .

فحب علي (ع) نعمة لو سكنت أي قلب لما أضرت به سيئة بعدها ، كما أن بغض علي (ع) بلاء ومصيبة لا تنفع معه أي حسنة يأتيها ذلك المبغض .

محبة علي توجب الطهارة من الذنوب ، ومهما كانت الذنوب كثيرة ، فمحبوبه سوف يحجب عنه مقداراً منها في عالم البرزخ ، مهما بلغت . ولو فرض أنها وصلت

---

(١) جامع الشتات .

به إلى جهنم يوم القيامة ، فيد علي (ع) لا شك ستمتدّ إليه أخيراً لتنقذه .

محبّ علي (ع) لن يخلد في جهنم

يقول المحقق القمّي بأن الخلود في جهنم والبقاء فيها إلى الأبد ليس لمن يوالي علياً (ع) ، ولعل هذا هو المراد بالحديث القائل بأن المحب لعلي لا يخلده أي ذنب في النار ، إذ لا خوف عليه من الخلود في النار ، حتى وإن طال عذابه فيها ثلاثمئة عام .

حديث هرون الرشيد مع علماء العامة

ذكر صاحب كتاب (المناقب) ، وهو واحد من كبار أبناء العامة ، أن هرون الرشيد جمع يوماً ما يقارب السبعين من علماء العامة ، ممن لهم حق إصدار الفتاوى .

التفت الرشيد إلى الشافعي ـ وكان أحد الحضور ـ وسأله :

ـ كم تحفظ من الأحاديث في فضائل علي (ع) ؟

فقال : كثيراً .

قال هرون : وكم هي ؟

قال : أخاف من ذكر عددها .

قال هرون : وممّن تخاف ؟

قال : منك !

قال هرون : قل ولا تخف .

قال : ما بين أربعمئة إلى خمسمئة .

سأل هرون عالماً أخر فأجاب بأنه يحفظ ألفاً من الأحاديث .

التفت هرون إلى أبي يوسف وسأله فقال :

ـ أحفظ منها ما لا يحصى : خمسة عشر ألف حديث مسند ، وخمسة عشر ألف حديث مرسل : وكلها في فضائل علي (ع) .

فالتفت إلى الواقديّ الذي قال بأنه يحفظ منها قدر ما عند أبي يوسف .

قال الرشيد : إن ما عندكم هي فضائل سمعتم بها ، أما أنا فقد رأيت له (ع) فضيلة بأمّ عيني .

نظر الجميع إليه وكلهم شوق لسماع ما يقول .

الخطيب الدمشقي ، كلب في السجن

قال الرشيد :

أرسل إليّ يوسف بن الحجاج والي دمشق ، بأنّ خطيباً معادياً لعلي (ع) ، كان يشتمه دائماً في خطبه ، وكان مهما نصحته أو حتى هددته ، لا يفيد معه شيئاً .

قال هرون : فكتبت إليه أن ابعث به إلى بغداد . فلما جاؤوا به إلي قمت أنصحه وأسأله عن سبب عدائه لعلى ، فأجابني : إن علياً قتل آبائي وأجدادي .

قلت له : إنه إنما قتلهم بأمر من الله ورسوله . لكنه أخيراً أصر على عدائه لعلي (ع) ، فأمرت بجلده وحبسه .

وبينما كنت نائماً في الليل رأيت كأن السماء قد انشقّت ، ونزل منها خاتم الأنبياء محمد (ص) ، وتبعه علي بن أبي طالب (ع) ، ثم الزهراء والحسن والحسين (ع) ، ثم رأيت جبرائيل وقد تبعهم ، وجاء الجميع إلى قصري ، وبيد جبرائيل كؤوس من ماء معين .

شرع الرسول يدعو شيعة علي بأسمائهم فرداً فرداً ممن كانوا في أنحاء قصري ، وكان عددهم أربعين رجلاً من بين خمسة آلاف شخص كانوا متواجدين في القصر ، فسقاهم من ذلك الماء .

إذ ذاك قال علي (ع) مخاطباً الرسول (ص) : هلا سألت هذا الخطيب الدمشقي عما فعلته معه ؟

فجاؤوا بالخطيب فقال له الرسول (ص) : ألا تخجل من فعلتك يا هذا ؟! اللهم اجعله ممسوخاً .

تحول الخطيب فوراً إلى شكل كلب. فاستيقظت من نـومي مرعـوباً ، ونـاديت مسروراً الخادم وطلبت منه إحضار الخطيب إليّ ، فقد أردت أن أنصحه وأقص عليه ما رأيتـه في الحلم لعله يرتـدع . غير أن الخـادم عاد يخبـرني بـأنـه لا أثـر للخـطيب في السجن ، وليس هناك سوى كلب قلت : هو ذاك . ائتني به .

فإذا بجميع أعضاء الخطيب قد مسخت على شكـل كلب ، إلاّ أذنيه فقـد بقيتا على حالهما عبرة للآخرين .

صاعقة تنقضّ على الخطيب الممسوخ

أمر هرون الرشيد بـإحضار الخـطيب الممسوخ أمـام العلماء ، فـأتوا بـه يجرّونـه بسلسلة في رقبته وقد نكس رأسه .

قال له الرشيد : أرأيت سخط الله ؟ ما شأنك وعليّ ؟ !

ثم التفت إلى الحضـور وقال : لقـد جمعتكم اليوم أيهـا العلمـاء لتـروا بـأعينكم فضيلة من فضائل علي (ع) .

قال الشافعيّ : لقد وقع هذا الخطيب مورداً لغضب الله فمسخ ، ولن يعيش أكثر من ثلاثة أيام ، فأخرجوه عنا حالاً قبل أن نبتلى نحن بما أصابه .

فأرجعوا ذلك الخطيب التعس إلى محبسـه ، ولم يطل الـوقت بهم حتى سمعوا صوتاً مرعباً من ناحية السجن ، وإذ هي صاعقة انقضت على السجن فهدمته على رأس الخطيب المنكود وأحرقت جسده .

علي (ع) نقمة الله على الفجّار

أجل ، « السلام على نعمة الله على الأبرار ونقمته على الفجّار » ؛ إنه يد لـطف الله في كرمه وعونه ، كما أنه يد نقمة الله التي يضرب بها من يستحق النقمة . إنه اليـد المباركة التي أهلكت مرة بن قيس وأرسلته إلى جهنم بإشارة من إصبع . ومن المفيد أن أسرد هذه القصة ، فهي تبيان لمعجزة علي (ع) وعظمة قبره الطاهر ، إلى ما في سردها من تنوّع في الحديث .

هلاك الكافر مُرّة بن قيس

مجمل قصة هذا الرجل كما أوردها المرحوم الحاج نوري ، هو أنه كان رجلاً من أعيان العرب وأشرافهم ، وكان زعيم قبيلة كبيرة يستطيع أن يحشد منها مئة ألف مسلح ؛ وكان يتصف خاصّة ببغضه لعلي (ع) ونصبه العداء الشديد له .

علم يوماً أن الناس يتوافدون من مختلف الأنحاء لزيارة قبر الإمام (ع) ، والتبرك وتأدية فروض التعظيم والولاء لصاحبه العظيم .

غضب مُرّة غضباً شديداً ، وصمم ألا يسمح ببقاء هذا القبر الشريف ، وعزم على هدمه ومحوه عن سطح الأرض . واتجه بجيش كبير نحو النجف الأشرف ، فخاف أهالي النجف ، ولم يتجرأ أحد منهم على الوقوف بوجهه .

دخل مرة إلى الحرم المطهر متعلاً حذاءه ، واقترب من الضريح ، ثم التفت يأمر رجاله بهدمه ، وما كاد يفعل حتى امتدت من الضريح إصبع هي إصبع الإمام (ع) ، بعد أن خرقت الجدار ، وبإشارة منها شطرت جسد مرة شطرين متساويين فهلك .

وقد تغنّى شعراء العرب والعجم بهذه الواقعة المعجزة ، ونظموا فيها قصائد عديدة .

وقيل بأن جسد مُرّة بن قيس أصبح كقطعة من الصخر ، فأخرج من الحرم وألقي عند مدخل النجف . وبقي هناك مدة معرّضاً لبول الحيوانات وقذاراتها ، حتى حضر بعض أقاربه فحملوا نصفي جسده ودفنوهما .

أجل ، فعلي (ع) نعمة على الأبرار ، لكنه كذلك نقمة على الفجّار .

القسم الكاذب عند قبر أبي الفضل العباس (ع)

يروي أحد الأخيار ممن يوثق بهم كمال الثقة ـ وقد زار كربلاء هذه السنة ـ عدّة حوادث عجيبة ، من جملتها أنّه قال :

كنت جالساً يوماً عند الحرم الشريف لأبي الفضل (ع) ، وكان الجو حاراً جداً ،

لذلك لم يبق في الحرم في ذلك اليوم أحد[1] .

ثم رأيت رجلين يدخلان الحرم . كان أحدهما شاباً ، والآخر شيخاً مسناً ، وكانا يتحدثان ، فيقول الشيخ للشاب : أقسم بهذا الرجل أنك لم تأخذ مني شيئاً .

اقتربت منهما أستفسر عن الموضوع . فقال الشيخ : لقد أخذ مني هذا الشاب مئة تومان ، ولم يرّدها إلي ، وهو ينكر ذلك ، فعليه أن يقسم بالعباس أنه لم يأخذ مني شيئاً .

قلت للشاب : إياك أن تقسم إن كنت حقاً قد أخذت منه ماله .

لكن الشاب اعترض على قولي قائلاً بأنه لم يأخذ منه شيئاً ، وأنه مستعد للقسم على ذلك . ثم قال : أقسم بحق قمر بني هاشم هذا بأني لم آخذ منه مالاً . وفجأة سمع صوت مروع ، كما لو صفع شيء وجه الشاب الذي سقط على الأرض .

وهرب الشيخ ، بينما اجتمع الخدم وسحبوا الشاب إلى الخارج .

نعم ، فنقمة أبي الفضل نموذج من نقمة الله .

وأختم كلامي بذكر حديث شريف عن فضائل علي (ع) .

مفاتيح الجنة والنار بيد علي (ع)

ذكر أخطب خوارزم والثعلبي أن رسول الله (ص) قال :

« ينصب لي يوم القيامة منبر له مئة درجة ، وأكون أنا في أولها ، وفي الثانية علي (ع) ، ويقف دون ذلك اثنان ، يقول أولهما : يا أهالي المحشر ، أنا رضوان خازن الجنة وعندي مفتاحها ، وقد أمرني الله تعالى أن أسلم مفتاح الجنة إلى محمد (ص) . ويقول الثاني : أنا مالك خازن النار ، وقد أمرت بتسليم مفتاحها إلى محمد (ص) .

فأستلم تلك المفاتيح وأقدمها إلى علي بن أبي طالب (ع) . وهو معنى قوله

---

(١) لا شك أن القراء الكرام يدركون أن هذه القصة حدثت قبل ربع قرن على الأقل ، حيث لم تكن وسائل التهوية متوفرة آنذاك .

تعالى ﴿ ألقيا في جهنّم كل كفّار عنيد ﴾[1] .

يعني : ألقيا يا محمد ويا علي في جهنّم . . .

علي (ع) على الصراط

أجل ، فعلي « قسيم الجنة والنار » حيث يقف أول الصراط ، وكل من يمر به ويظهر على وجهه أنّه من محبّيه ، فإنّه يجوز الصراط بسلام ، أما من يظهر أنّه من أعدائه فسوف تؤمر النار بأن تتلقّفه .

وقد ورد في تفسير الآية الشريفة :﴿ **وقفوهم إنّهم مسؤولون** ﴾[2] ، أنهم يُسألون عن ولاية علي بن أبي طالب (ع) .

السقي من ماء الكوثر هو من قبل الله

ليس الله سبحانه وتعالى بجسم ، فهو منزه عما لا يليق بجلاله ؛ لذلك فعندما يُراد سقي عباد الله من ماء الكوثر كما في الآية : ﴿ **وسقاهم ربّهم شراباً طهورا** ﴾[3] ، فإنّ الإمام عليّاً (ع) ـ ذلك العبد الخالص لله عزّ وجل ـ هو من يسقي العباد بأمر من الله .

وقد جعل الله تعالى هذا الأمر المهم بيد الولاية العلوية .

فيا من صمتم سبعين سنة في شهر رمضان المبارك ، وتجنبتم المحرمات وتوجهتم إلى طلب الخيرات ، اعلموا أن جزاء ذلك بيد علي (ع) .

قال (ص) : لا يخرج أحد من شيعة علي من هذه الدنيا إلّا وسقي من ماء الكوثر ريّاً رويّاً سائغاً لا ظمأ بعده أبداً .

إنه الماء العذب الذي لا عطش بعده .

---

(١) سورة ق : الآية ٢٤ .

(٢) سورة الصافات : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الدهر : الآية ٢١ .

الفصل الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الأئمة كلّهم من قريش

من الطرق في إثبات الإمامة ، ما نقل عن رسول الله (ص) بالتـواتر ، والتـواتر لا يعني الخبر الواحد أو العشرة ، بل يعني المئات .

وقد نقل عنه (ص) أنه قال :

« لا يزال أمر الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش »[١] .

وورد في الكثير من هذه الروايات التصريح بأسمائهم أيضاً[٢] .

وقال (ص) للحسين (ع) :

« أنت سيد ابن سيد . أنت إمام ، ابن إمام ، أبو الأئمة »[٣] .

إنه أبو أئمة تسعة ، تـاسعهم القائم (ع) ، نعم ، فـالتاسـع من ولد الحسين هـو القائم بالحق والعدل .

أنوار الأئمة في ليلة المعراج

وورد في أحاديث أخرى عن رسول الله (ص) أنه قال :

---

(١) صحيح مسلم ، وأبي داود ، والبخاري ، ودلائل الصدق للمظفر ٣١٤/٢ .

(٢) و (٣) إكمال الدين للشيخ الصدوق .

« لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش »[1] .

وفي رواية أخرى أنه (ص) قال :

« لما عرج بي إلى السماء ، اجتمعت الملائكة وقالت : كيف تركت أخاك ؟ فقلت لهم : وتعرفونه ؟ قالوا : نعرفه وشيعته ، وهم نور حول عرش الله ، وإن في البيت المعمور لرقّاً من نور ، فيه اسم محمد وعلي والحسن والحسين ، والأئمة (ع) ، وشيعتهم إلى يوم القيامة ؛ لا يزيد فيهم رجل ولا ينقص منهم رجل ، وإنه لميثاقنا ، وإنه ليُقرأ علينا كل يوم جمعة »[2] .

وقد ورد في مضامين الكثير من الأحاديث المروية عن رسول الله (ص) بأنّ إمامة الثاني عشر من أوصيائه متصلة بالقيامة ؛ فالنبوة اختتمت بمحمد (ص) ، وهو خاتم الأنبياء ، والإمامة تختتم بالمهدي (ع) وهو خاتم الأوصياء ، وأحد ألقابه الشريفة هو : « خاتم الأوصياء » .

العترة لا تفترق عن القرآن

من جملة الأخبار المتواترة بين السنة والشيعة حديث الثقلين الذي قاله رسول الله (ص) في أواخر عمره الشريف ، في جماعة من المهاجرين والأنصار . قال (ص) :

« إنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ؛ لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »[3] .

وقد ورد في الروايات أنهم سألوه :

ـ ومن هم عترتك يا رسول الله ؟

---

(١) صحيح مسلم ، وأبي دواد ، والبخاري .

(٢) حلية الأبرار ج ٢ .

(٣) الغدير .

فأشار (ص) إلى علي ، ووضع يده المباركة على رأس الحسن والحسين ثم قال :

« ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً »[1] .

أجر الرسالة مودّة أهل البيت (ع)

وقد ذكروا في شأن نزول آية المودّة ، أن الأغنياء من المسلمين اجتمعوا وقالوا : إن لرسول الله (ص) حقاً عظيماً في رقابنا ، وقد كبرت سنه ، وكثر الوافدون عليه ، وازدادت نفقاته ؛ فلو جمعنا بعض المال واشترينا له بيتاً يستفيد منه . فنزلت آية المودة :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى ﴾[2] .

فإنه لو أعطي جميع ما في الدنيا لما وفّي واحداً من الألف من أتعابه في سبيل الدعوة ، فإن أردتم أداء حقه فعليكم بمحبته ومحبة أهل بيته (ع) .

محبة أهل البيت لمصلحتكم

يقول تعالى في آية أخرى :

﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم . إن أجري إلاّ على الله ﴾[3] .

فما أوصيتكم به من مودة أهل بيتي فهو لكم . لو كنت تحب علياً (ع) فإن نوره سيسعفك في غياهب القبر ، وإلاّ فستحرم من ذلك .

فكم من المساكين ممّن زلّت بهم الأقدام على الصراط فأنقذهم نور علي (ع) ، وحفظهم بجاذب لطفه جرّاء محبتهم لأهل البيت (ع) .

وقد ورد في الخبر المشهور من طرق السنة والشيعة ، كما في المجلد التاسع من بحار الأنوار ، أن رسول الله (ص) قال :

---

(١) الغدير .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٣) سورة سبأ : الآية ٤٧ .

« يا علي ، حبّك إيمان ، وبغضك كفر » .

فالإيمان موجود في كل قلب عامر بحب علي (ع) ، كما أنـه لا أثر لـلإيمان في كل قلب ينطوي على بغض علي (ع) .

كما ورد عن رسول الله (ص) قوله :

« يا علي ، لا يبالي من مات وهو يبغضك ، مات يهودياً أو نصرانياً »[١] .

أفضل الخلق يشارك رسول الله (ص) طعامه

وإليكم هذا الخبر المتواتر عند علماء السنة والشيعة .

قال أنس بن مالك ، خادم الرسول (ص) :

بينما كنت قائماً بخدمة رسول الله (ص) ، وقد حضر وقت الطعام ، وكان يومها طائراً مشويّاً ، فما أن أراد النبي (ص) الشروع في الأكل حتى رفع يديه بالدعاء قائلاً :

« إلهي ، ابعث أحب العباد لديك ليأكل معي من هذا الطعام » .

يقول أنس بأنه لم تنقض فترة حتى سمعت صوت الباب ، فذهبت ورأيت علي بن أبي طالب على الباب .

ويقول : لم أكن أحب أن يكون كذلك (أي أن يكون علي ـ بصفته أحب الخلائق عند الله ـ هو الآكل مع رسول الله) فسألته : ماذا تريد ؟ .

قال : أريد الدخول على رسول الله (ص) .

فقلت : إنه الآن مشغول ، فاحضر فيما بعد . فذهب .

وللمرة الثانية يرفع النبي يديه بالدعاء ويقول :

« إلهي ، ابعث أحب عبادك إليك ليأكل معي من هذا الطعام » .

فلم تمض مدّة حتّى سمع أنس صوت الباب ، وكما جرى في المرة الأولى ، كان هو من حال دون دخول الإمام (ع) .

وبعد أن دعا الرسول (ص) للمرة الثالثة ، كان صوت الطرقات على الباب

---

(١) المناقب للخوارزمي .

أعلى ، بحيث سمعها رسول الله (ص) أيضاً . فلم يجرؤ أنس على تكرار فعلته ، ودخل الإمام (ع) .

سأله رسول الله (ص) : ما سبب إبطائك يا علي ؟

قال (ع) : إنها المرة الثالثة التي أحضر فيها يارسول الله .

فسأل الرسول أنساً : لماذا منعت علياً من الدخول ؟

قال : كنت أحب أن يكون هذا الفضل لأحد أقاربي ، ويكون أحدهم هو الآكل معك[1] .

إن كتب العلامة المجلسي ، العربية منها والفارسية ، مليئة بالأخبار الواردة في فضائل أئمة الهدى (ع) ، وهناك كتاب (كفاية الموحّدين) بالفارسية في الوصية لعلي وأحد عشر من أبنائه ، وهو كتاب جيد ، كما أن هناك كتاباً بالعربية هو (غاية المرام) من طريق أهل السنة .

آية التطهير تكشف عن المختار الإلهي

يقول تعالى في كتابه المجيد :

﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[2] .

وقد كثر البحث حول آية التطهير هذه ، وذكروا في سبب نزولها أن رسول الله (ص) كان قد غطّى نفسه برداء ، فجاء الحسن والحسين وعليّ والزهراء (ع) ، فاستأذنوه ودخلوا معه تحت الرداء ، وإذ ذاك نزل جبرئيل بهذه الآية على النبي (ص) .

إن ما ذكرناه من الفضائل كان نموذجاً ومثالاً فحسب ، لأن الواقع هو أن فضائل الإمام وأولاده الطاهرين لا تعد ولا تحصى ، وقد وصلتنا متواترة ، لذا فبمقدورنا أن نثبت من نصوص أحاديث النبي نفسها ، ومن الفضائل المنقطعة النظير للإمام علي (ع) ، بأنه المختار الخاص للخلافة .

---

(١) بحار الأنوار ج ٣٨ ، كما وردت قصة (الطائر المشوي) في المستدرك ٣/١٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

عصمة أئمتنا من المسلّمات

قلنا في البحوث السابقة بأن الإمام يجب أن يكون معصوماً كالرسول (ص) ، وإن عصمة الأئمة الاثني عشر هي من المسلّمات عند الشيعة ، إذ لا يستطيع أحد أن يأخذ عليهم أي خطأ أو سهو أو ذنب أو شبهة .

حتى أن المشهورين من صحابة النبي (ص) ، كانوا يعبدون الأصنام لسنوات ، لكن علياً هو أول رجل أسلم وعمره عشر سنوات ، وعلى قول بعض التواريخ فقد كان في سن الثانية عشرة عندما آمن برسول الله (ص) .

بعث رسول الله (ص) بالرسالة يوم الإثنين، وبايعه علي (ع) يوم الثلاثاء ؛ وكان أسبق الجميع إلى الإيمان الذي هو أساس الدين والعصمة ، وكان في العمل كذلك . وإليكم مثالاً عن عدله (ع) .

نموذج عن عدل علي (ع)

عن علي بن أبي رافع قال :

كنت على بيت مال علي بن أبي طالب (ع) وكاتبه ، وكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إليّ بنت علي بن أبي طالب (ع) (أم كلثوم) فقالت لي : بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين (ع) عقد لؤلؤ وهو في يدك ، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمّل به في أيام عيد الأضحى . فقال لها : عارية مضمونة مردودة يا بنت أمير المؤمنين ؟ فقالت : نعم ، عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . فدفعه إليها ، وإن أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه ، فقال لها : من أين صار هذا العقد إليك ؟ فقالت : استعرته من علي بن أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين (ع) ،لأتزيّن به في العيد ثم أردّه .

فبعث إليّ أمير المؤمنين (ع) ، فجئته فقال لي : أتخون المسلمين يا بن أبي رافع ؟! فقلت له : معاذ الله أن أخون المسلمين . فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّها ابنتك ، وإنها سألتني أن أعيرها إيّاه تتزيّن به ،

فأعرتها إيّاه عارية مضمونة مردودة ، فضمنته في مالي وعليّ أن أردّه سليماً إلى موضعه . قال : فردّه من يومك ، وإيّاك أن تعود لمثل هذا فتنالك عقوبتي ؛ ثم إنّ ابنتي لو كانت قد أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذاً أو هاشمية قطعت يدها في سرقة .

قال : فبلغ مقالته ابنته فقالت له : يا أمير المؤمنين ، أنا ابنتك وبضعة منك ، فمن أحقّ بلبسه مني ؟ فقال لها أمير المؤمنين (ع) : يا بنت علي بن أبي طالب ، لا تذهبنّ بنفسك عن الحقّ ؛ أكلّ نساء المهاجرين تتزين في هذا العيد بمثل هذا ؟

قال : فقبضته منها ورددته إلى موضعه[1] .

عقيل والحديدة المحمّاة

عقيل بن أبي طالب أخو الإمام (ع) . وكان يريد من الإمام زيادة عطائه من بيت المال ، فدعا الإمام (ع) يوماً إلى بيته لضيافته ، وهيأ له طعاماً بسيطاً ، وأخذ يشرح للإمام حالته وفقره ، وقال : إنّ هذه الأموال التي آخذها من بيت المال قليلة ولا تكفي لسدّ نفقاتي .

فقال له الإمام (ع) : يبدو أن لديك وفراً عن حاجتك ، وها أنت تضيّفني !!

ثم قام في مجلسه ذاك ، فوضع حديدة في النار حتى احمرّت ، ثم قرّبها من عقيل ، فتراجع عقيل مذعوراً ، وقال : ما الذي تفعله يا أخي ؟

فقال له : « أتئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرّني إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه ؟ ! أتئنّ من الأذى ، ولا أئنّ من لظى »[2] ؟!

وانتهى الأمر بعقيل إلى أن توجّه إلى الشام ، إذ لم يستطع العيش على نصيبه من بيت المال ، فراح يعيش على أموال معاوية .

---

(١) حلية الأبرار ج ١ ، بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٣٣٨ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٦٣ .

أجـل ، فعصمة الإمـام (ع) بـاديـة من عـدلـه . فهـو ليس من طـلاب ملك أو رئاسة ، ويتساوى عنده التبر والتراب .

فهل هناك من يستطيع تعداد فضائل علي (ع) ؟

رعاية الأيتـام دين عند الإمام (ع)

رأى أمير المؤمنين (ع) امرأة تحمل على كتفها قـربة مـاء ، وبعد أن استـأذنها في مساعدتها حمل عنها القربة ، وفي الطريق سألها عن أحوالها فقالت :

بعث علي بن أبي طالب صاحبي (زوجهـا) إلى بعض الثغور فقتـل ، وترك لي صبياناً يتامى ، وليس عندي شيء ، وقد ألجأتني الحاجة إلى خدمة النـاس ، وهو عني غافل .

نصـرف عنها (ع) وبـات ليلته قلقـاً . فلما أصبح حمل زنبيـلاً فيه تمـر ولحم ودقيق ، فقال له بعضهم : أعطنا نحمله عنك يا أمير المؤمنين ، فقال ، من يحمل عني وزري يوم القيامة ؟

أتى موضع المرأة فقرع الباب . قالت : من هـذا ؟ قال : أنـا ذلك العبـد الذي حمل عنك القربة ، فـافتحي ، فإن معي شيئـاً للصبيان . فقـالت : رضي الله عنك ، وحكم بيني وبين علي بن أبي طالب .

فدخل وقال : إما أن تعجني وتخبزي ، وإما أن تعلّلي الصبيان فأخبز أنا .

قالت : أنا بالخبر أبصر وعليه أقدر ، ولكن شأنك والصبيان فعلّلهم .

وعمدت إلى الدقيق فعجنته، وعمد علي (ع) إلى اللحم فطبخه ، وجعـل يلقم الصبيان من اللحم والتمر وغيره ، وكان كلما ناول صبياً من ذلك شيئاً قال له :

ـ يا بني ، اجعل علي بن أبي طالب في حلّ مما أمر في أمرك .

ولما اختمر العجين قالت المرأة : يا عبدالله ، أسجر التنور .

فبادر لسجره ، فلما أشعله ولفح لهيب النار وجهه جعل يقول :

ـ ذق يا علي ؛ هذا جزاء من ضيّع الأرامل واليتامى .

ومرّت امرأة تعرفه فقالت : ويحك ! هذا أمير المؤمنين .

قالت : واحيائي منك يا أمير المؤمنين .

فقال : بل واحيائي منك يا أمة الله فيما قصّرت في أمرك[1] .

يعطي الرمانتين للمريض

لعلكم سمعتم بما جرى عندما كانت الزهراء (ع) طريحة فراش المرض . فقد سألها أمير المؤمنين (ع) إن كانت نفسها تطلب شيئاً ، لكنها سكتت ولم تجب . وعندما ألح عليها الإمام (ع) بالسؤال ، قالت :

إن أبي أوصاني ألا أطلب من زوجي شيئاً ، فلعله لا يقدر عليه ، فيخجل منك .

فأقسم عليها فقالت : أمّا وقد أقسمت عليّ فإنّي أريد رمّاناً .

خرج (ع) في طلب الرمان ، رغم أن الفصل لم يكن موسماً للرمان ، لكنه بعد جهد تمكن من الحصول على رمانتين اثنتين .

وعند عودته ، لقي رجلاً مريضاً وقد اقتعد ركناً من الطريق ، فتقدم إليه يواسيه ويسأله عن حاله ، وفيما إذ كان يريد شيئاً .

قال المريض : أجل ، أريد رمّاناً .

أسقط في يد الإمام (ع) ، فماذا يصنع ؟ وهذا المريض عبد من عباد الله أيضاً .

فقال في نفسه : أعطيه رمانة ، وأستبقي الأخرى للزهراء (ع) .

قدّم للمريض رمانة فأكلها ، ثم طلب المزيد .

والآن ماذا يصنع علي (ع) ؟ إذ يصعب عليه أن يرد طلبه . فقال في نفسه : أعطيه الأخرى ، فإنّ ربّ الزهراء كريم .

ورجع إلى البيت بيد خالية .

نظر (ع) من خلل الباب ، ليرى إن كانت الزهراء (ع) نائمة أم مستيقظة ، فرآها

---

(١) بحار الأنوار .

جالسة وأمامها طبق فيه رمان . فدخل إلى البيت ، فقالت له الزهراء :

ـ هذا هو الرمان الذي بعثت به ، فقد جاء به أحدهم إلى الباب قائلاً :

ـ إليك ما بعث به أمير المؤمنين .

عيادة المرضى الفقراء والإحسان إليهم

كان الحسن والحسين عائدين من دفن والدهما (ع) ، فمرّا بخربة يرتفع منها صوت أنين . وإذا برجل يبكي .

سأله الحسن (ع) عن سبب بكائه ، فقال :

مضى علي هنا زمن ، وكان رجل يأتيني كل يوم فيطمئن عن حالي ويحسن إليّ ، غير أني لم أعرف اسمه ؛ وها قد مضت أيام ثلاثة لم يأتني فيها .

سأله الحسن (ع) عن أوصافه فأجاب :

ـ كان يسبّح الله ويذكره ، فتسبّح معه الجدران والأحجار والتراب .

فبكى الحسن (ع) وقال : إنه أبونا علي بن أبي طالب (ع) . ونحن الآن عائدان من دفنه .

الفصل الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾[1] .

قلنا إن هناك طرقاً ثلاثة لإثبات إمامة الأئمة الاثني عشر ، بدءاً من علي بن أبي طالب ووصولاً إلى الحجة بن الحسن (ع) .

أولها : النص والتصريح بذلك في القرآن والسنة المروية بالتواتر عن الرسول (ص) ، من طرق الشيعة والسنة . وقد تقدم الحديث عما نقل عن الرسول (ص) متواتراً من أنّ الأئمة من بعده اثنا عشر ، كلهم من قريش ، مع ذكر أسمائهم أيضاً .

الإمام كالرسول لا بدّ له من معجزة

وثانيها : هو الإعجاز . فمن يدّعي الإمامة لا بد له من معجزة يثبت فيها ادّعاءه ؛ تماماً كما كانت للرسول (ص) معجزات أتت مصداقاً لمدّعاه .

ولا شك بأن علياً وأولاده (ع) ادّعوا الإمامة ، وظهرت على أيديهم معجزات

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

كثيرة ، مما دعا علماء العامة إلى أن يصدروا كتباً مستقلة في هذا الصدد ، نظير محمد بن طلحة الشافعي ، وابن الجوزي ، وابن الصباغ المالكي وغيرهم .

ضرورة أفضلية الإمام

وثالثها : الأفضلية . وهي وجوب أن يكون الإمام أفضل من المأموم ، فلا يجوز أن يكون أقلّ فضلاً ممّن هو دونه مرتبة ، لذا يجب أن يكون الأئمة أفضل الخلق على الإطلاق .

فهذه خلاصة طرق ثلاثة لإثبات الإمامة ، وحيث لا يتّسع المجال للتبسّط في الشرح ، سأورد بمقدار ما يسمح الوقت بعض النصوص الواردة في القرآن المجيد[1] ، وما ورد في السنة النبوية الشريفة ، عن طريق العامة .

تصدّق علي (ع) بخاتمه فخر لا نظير له

فمن جملة الآيات النازلة في ذلك آية الولاية :

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾[2] .

وقد نزلت في حق علي (ع) بإجماع السنة والشيعة .

وسبب نزولها أن علياً (ع) كان يصلي في المسجد ، فدخل فقير يطلب من الناس صدقة ، فلم يستجب له أحد ، وكان الإمام إذ ذاك راكعاً ، فمدّ إصبعه التي تحمل خاتمه إلى الفقير . فأنزل الله تعالى هذه الآية في شأنه .

وقد ذكر المفسّرون من العامة أن هذه الآية هي من خصوصيّات علي بن أبي طالب (ع) .

---

(١) يراجع كتاب دلائل الصدق للمظفر ، ففيه مئة آية في حق علي وأهل البيت (ع) .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

ذكر الوصف بدل التصريح بالاسم

تعليق الحكم على الوصف أبلغ في الاصطلاح من التصريح بالاسم . ومعنى هذا ببساطة أن الإشارة إلى موضوع الحديث بشكل كامل أبلغ وأشد تأثيراً من ذكر الاسم بصراحة ، إذ بدلاً من ذكر الاسم ، تذكر الخصائص والصفات التي يعرف بها صاحبه .

ففي هذه الآية الكريمة يعدّد الله تعالى صفات علي (ع) واحدة إثر الأخرى ، حتى ينحصر الأمر بشخصه ، وهذا الأسلوب من الحديث أبلغ في التعبير ممّا لو قال مثلاً : « إنّما وليّكم الله ورسوله وعليّ » .

التأكيد على إسناد الولاية لعلي (ع)

من جملة الآيات الواردة في شأن علي (ع) : آية التبليغ :

﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾[1] .

وقد صرح كثير من مفسري العامّة بأن هذه الآية إنما نزلت في غدير خم ، وهي بأسلوبها التحذيري توضح مدى أهمية مسألة ولاية أمير المؤمنين (ع) ، فإن عدم قيام الرسول بإبلاغها إنما هو بمثابة كونه لم يفعل شيئاً .

وقع فيما سأله من العذاب

كما ذكر الكثير من مفسري العامة أيضاً ، وخصوصاً الثعلبي ، بأن الآيات الأولى من سورة المعارج نزلت في غدير خم كذلك ، وهي :

﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع . . ﴾[2] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) سورة المعارج : الآيات ١-٢ .

فبعد أن نصب رسول الله (ص) علياً (ع) على أنه ولي للمسلمين ، وذلك بشكل رسمي في غدير خم ، جاء الحارث بن النعمان إلى رسول الله (ص) وقال :

ـ لقد قلت لنا بأن آمنوا فقبلنا ذلك ، قلت : صلّوا فصلّينا ، وقلت : صوموا فصمنا ، وجاهدوا فجاهدنا ، وحجّوا فحججنا ، أما هذا الذي فعلته من تسليط ابن عمك علينا ، هل كان هذا منك أو من الله ؟ .

فأجابه رسول الله (ص) :

ـ أعوذ بالله أن أكون فعلته عن أمري ، إنما هو أمر من الله .

فرفع هذا التعيس رأسه إلى السماء وقال :

﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو أئتنا بعذاب أليم ﴾[1] .

يا للحقد والحسد ! لقد ترك للحقد على علي (ع) أن يملأ قلبه ، حتى أنه فضّل الموت على رؤية علي (ع) وقد فاز بولاية المسلمين !! .

وقد استجيب سؤاله ، ونزل عليه حجر من السماء على الفور ، وخرقه من رأسه حتى أسفله ، والتحق بجهنم ، فنزلت الآيات الشريفة :

﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع . . ﴾ .

الصراط المستقيم هو طريق علي (ع)

ومن الآيات النازلة في حق علي (ع) ، آيات الصراط المستقيم .

فقد صرّح العديد من مفسّري العامة أن الصراط المستقيم في القرآن ، يقصد به صراط علي (ع) .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٢ .

وقد ذكر الفرّاء ، وهو من كبار المفسّرين والقرّاء السنة ، أن معنى الآية : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ في سورة الحمد ، هو صراط علي بن أبي طالب وذريّته (عليهم السلام) .

وقد ورد في سورة الحجر :

﴿ **قال هذا صراطٌ عَلَيَّ مستقيم** ﴾ بعد أن أبى الشيطان السجود لآدم (ع) ، وطرد من الحضرة الإلهية المقدسة ، فقال :

﴿ **ربّ بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط عليّ مستقيم** ﴾[1] .

أي أن الله سبحانه وتعالى أجابه بأن « هذا صراط علي (ع) مستقيم » . فقد وردت قراءة بهذا الشكل ، وتعني إذ ذاك أنه صراط علي (ع) .

أما في المصاحف المتداولة فتقرأ باللام والياء المفتوحتين ، وتعني إذ ذاك أن الله كتب على نفسه بأن هذا صراط مستقيم .

وبما أن الأئمة (ع) أمروا بأن تكون القراءة بما هو متداوَل بين المسلمين ، لذلك فهذه القراءة صحيحة أيضاً ، وإنما أوردنا ذلك للاطّلاع .

إذ أن الطريق الذي يكون الشيطان بعيداً عنه ، وليس فيه إغواء أو إضلال ، فهو طريق علي (ع) .

علي (ع) هو الشاهد وهو الأذن الواعية

وهناك العديد من الآيات الأخرى النازلة في هذا الموضوع ، منها :

﴿ **وتعيها أذن واعية** ﴾[2] .

---

(١) سورة الحجر : الآيات ٣٩ ـ ٤١ .

(٢) سورة الحاقّة : الآية ١٢ .

أي أن أذن علي (ع) تعي القرآن وتعاليم السماء وتحفظها .

ومنها : ﴿ **أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه** ﴾[1] .

فالشاهد هو علي بن أبي طالب (ع) .

أولو الأمر هم عليّ وأبناؤه (ع)

ورد في الآية الشريفة :

﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[2] .

أي أطيعوا ولاة الأمر وأصحاب الحكم المأذون لهم بالأمر والنهي .

فمن هم أولو الأمر الذين تكون طاعتهم طاعة لله ولرسوله ؟ .

الروايات في هذا كثيرة . ونقتصر على نقل رواية ذكرها الشيخ أبو الفتوح الرازي مدّعياً تواترها :

فقد روى الحمويني من علماء السنة ، أنه لما نزلت هذه الآية الشريفة قام جابر وقال : يا رسول الله ، عرفنا الله وعرفنا الرسول ، فمن هم أُولو الأمر الذين أوجب الله طاعتهم ؟ .

فقال رسول الله (ص) :

- إنهم خلفائي من بعدي ؛ وأولهم أخي ووصيي علي بن أبي طالب (ع) ، ثم الحسن والحسين ، وبعده علي بن الحسين إلى الحجة بن الحسن (ع) .

وقد ذكر رسول الله (ص) اثني عشر شخصاً بأسمائهم وصفاتهم الخاصة .

---

(١) سورة هود : الآية ١٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٩ .

لا يمكن للسلطان الجائر أن يكون من أُولي الأمر

فبناء على هذا ظهر أن أولي الأمر هم الذين عرّفهم رسول الله (ص) وصرّح بأسمائهم ، وليس لكل من تسلّط على الحكم بالقوّة أن يكون وليّاً للأمر .

فلو أن سلطاناً أو حاكماً قال بجواز شرب الخمر ، فهل تجب إطاعته ؟ .

فكم من السلاطين والرؤساء قد حكموا بالباطل ، وظلموا ، أو نهبوا الأموال ، وسفكوا الدماء بغير حق ، فهل تجب إطاعة هذه الأحكام المخالفة لأوامر الله ؟ وهل أوجب الله تعالى على الناس تنفيذ الأحكام الصادرة عن أشخاص كهؤلاء ؟ .

هذا هو التناقض ، فهل يطيع الإنسان أوامر الله ويجتنب المعاصي ، أم يطيع حاكماً أمر بما يخالف حكم الله ؟ إن إطاعة أمثال هؤلاء الظالمين منافية للعقل .

إذاً ، فأولو الأمر يجب أن يكونوا ممن تطابق أحكامهم حكم الله ، وأولئك هم الأوصياء الاثنا عشر الذين عرّفهم رسول الله (ص) للناس .

وقد أورد السيد المرتضى شروحاً لهذه الآيات في كتاب (الشافي) ، وكتابي (كفاية الموحدين) و (حق اليقين) . كما ورد ذلك أيضاً في سائر مؤلفات المرحوم المجلسي .

الكناية أبلغ من التصريح

ورد التعبير عن أهل بيت محمد (ص) في القرآن المجيد بأبلغ العبارات وأشرف الأسماء والأوصاف ، مما لا يخفى على أحد .

وقد عبّر عن علي (ع) في آية المباهلة بـ « وأنفسنا » كناية عن أنه (ع)

نفس الرسول (ص) . وليس أبلغ ولا أعظم من أن يعبر عن علي (ع) بأنه روح ونفس محمد (ص) ، وهذا أبلغ وأعظم من التصريح بالاسم .

فلو ذكر اسم الحسن والحسين صريحاً في القرآن المجيد لأمكن تأويله لمن أراد ذلك ، كأن يقال إن كلمة « حسن » تعني الوصف أو تعني الحُسْنَ ، كما قرىء اسم عليّ بفتح اللام والياء مع التشديد في سورة الحجر . لذلك فقد ورد التعبير عن الحسن والحسين في آية المباهلة بـ « أبناءنا » بدل التصريح باسميهما ، وهذا يعني أنهما ابنا رسول الله (ص) .

وكذلك التعظيم الذي ورد في حق الإمام في سورة « هل أتى » إذ وفّى بالنذر ، وأعطى مع الزهراء وولديهما الحسن والحسين خبزهم لثلاث ليال متوالية للمسكين واليتيم والأسير ، وأفطروا بالماء القراح ، فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في هذه السورة عظيم الثناء[1] .

---

١) ورد شرح كاف لهذه السورة في كتاب (حياة الزهراء (ع)) للمصنف الشهيد .

الفصل السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ﴾[1] .

الولاية موضع اتّفاق الأمة

إن مودة أهل البيت من أهم الواجبات الإلهية ، ومن ضروريات الدين الإسلامي . وهي بنص القرآن المجيد واتفاق جميع الفرق الإسلامية كذلك ، باستثناء النواصب . وقد وردت أخبار متواترة في هذا الصدد ، وخصوصاً في تفسير العامة لآية المودة .

فقد ذكر الزمخشري في تفسيره (الكشاف) وكذلك الفخر الرازي في (تفسيره الكبير) ، وفي غيرهما من الكتب أمثال تفسير روح البيان ، وتفسير الثعلبي وغيره ، ذكروا أن الرسول (ص) سئل عمّن هم ذوو القربى ، فقال (ص) : علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) .

وكتب الفخر الرازي يقول : إن ما هو متفق عليه بين الأصحاب ، هو أن

---

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

رسول الله (ص) قد عرّف هؤلاء بأنهم ذوو القربى ، أي أولئك الذين جعلت محبّتهم أجراً للرسالة .

فأولئك هم أولياء الله ، ومعدن العلم ، ومهبط الملائكة ، ومنزل الوحي ، فقد اختارهم الله وأوجب محبّتهم .

بغض علي (ع) نفاق

ورد في المجلد التاسع من بحار الأنوار ، باب (إن حب علي إيمان وبغضه كفر) روايات مفصلة في حدود الخمسين ورقة ، وبأسناد مختلفة من طرق العامة عن رسول الله (ص) قوله :

« يا علي حبّك إيمان وبغضك كفر » .

وقوله : « يا علي ، لا يحبّك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا كافر أو منافق » .

وهذا القسم من الروايات ورد أكثرها من طرق أبناء العامة .

الصلاة على آل محمد في التشهّد

يرى أكثر الفرق الإسلامية أن ذكر آل محمد حال التشهد في الصلاة واجب ، وخصوصاً ما عليه فتوى الشافعي من بطلان الصلاة عند ترك الصلوات على آل محمد عمداً في حال التشهد . أما المالكية فتقول باستحباب ذلك .

الغرض هو أنّ محمداً وآل محمد صلوات الله عليهم لا يفصل بينهم شيء ، حتى أنّه ورد النهي عن الصلوات عليهم مع ذكر فاصلة (على) بينهما ، كأن يقال : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، بل يقال : اللهم صل على محمد وآل محمد .

الحب الخالص لا يشوبه حب آخر

نعم ، فالمقصود هو أن يمتلىء القلب بحب محمد وآل محمد ، وقد ذكرنا ـ فيما سبق ـ الآثار العظيمة لمودة أهل البيت (ع) ، فيجب أن يحتل حبهم في القلب

كل مكان دون أن ينقص أو يحول ، حتى يصحبه المرء معه إلى قبره إن شاء الله .

فلو كان القلب يميل إلى الملك والمال والنساء والمنصب والمقام والشهرة ، وغيرها من الأمور الجزئية ، فكيف يمكن أن يبقى فيه متسع لمحبة علي (ع)؟! إن قلباً كهذا قد ناله الفساد والتلف ، فكيف يكون محلاً لضيف عزيز ؟! .

كثرة الشركاء توجب قلّة السهام

هناك أمر مسلّم وهو أن كثرة الشركاء توجب قلة السهام ، فمثلاً لو قسمت غرفة مساحتها عشرة أمتار مربّعة بين شخصين ، لكان سهم كلٍّ منهما خمسة أمتار ، أمّا لو قسمت بين مئة شخص لجاء نصيب كل منهم محدوداً جداً لا يذكر .

فالقلوب الفاسدة التي توزعتها الميول إلى رغائب جزئية مختلفة ، ماذا يبقى فيها من متّسع لمحبة آل محمد (ص) ؟ إذ تبقى محبتهم أحياناً باللسان فقط ، بينما يكون القلب مشغولاً برغائب أخرى .

فمن كان حب علي (ع) على لسانه فقد حاز من الإيمان الثلث ، ومن كان حبّ علي في قلبه فله من الإيمان الثلثان ، ومن كان حبّ عليّ في قلبه وعلى لسانه فله الإيمان كله . وهذا هو مضمون الرواية .

ابن ملجم يلتحق بعلي (ع) قادماً من اليمن

قصة عبد الرحمن بن ملجم المرادي تبعث على الاعتبار ، ومنها تتضح حقيقة الحب اللساني والحب القلبي . والقصة طويلة متشعبة ، وقد أوردها العلاّمة المجلسي مع شرحها في المجلد التاسع من بحار الأنوار ، وسنقتصر هنا على محل الشاهد من هذه القصة .

فبعد أن أصبح الحكم الظاهري بيد علي (ع) أرسل كتاباً إلى عامله على اليمن

يأمره فيه بالعدل والإنصاف بين الرعية ؛ وطلب منه في ختام الكتاب أن يبعث إليه بعشرة أشخاص ممن يتوسم فيهم الثقة لاستطلاع آرائهم .

وصل كتاب أمير المؤمنين إلى عامله على اليمن ، فانتخب مئة شخص من الموثوقين ، ثم اختار من بينهم عشرة أشخاص ، كان أحدهم ابن ملجم . فهو بحسب الظاهر منتخب من النخبة ، كما أنه كان المتكلم باسمهم عند مثولهم بين يدي الإمام (ع) ، فقد كان مثالاً في البلاغة والفصاحة ، كما كان في الشجاعة كذلك .

حديث الإمام (ع) مع ابن ملجم

قال ابن ملجم في معرض الحديث مع الإمام (ع) في لقائهما الأول : إنه لفخر عظيم لنا أن نكون تحت إمرتك ، فنحن في خدمتك ، وسيوفنا مشرعة للقضاء على أعدائك .

فدعاه الإمام أن يدنو منه ، وسأله عن اسمه فقال : عبد الرحمن ؛ قال : فما اسم أبيك ؟ قال : ملجم ؛ قال ممّن من القبائل ؟ قال : مراد .

إذ ذاك صار يكرّر عليه سؤاله : « فأنت المرادي » ؟ وهو يجيبه : نعم . فقال (ع) : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » !! .

ثم سأله الإمام (ع) : أكانت مرضعتك يهودية ؟ قال : نعم ، مرضعتي كانت يهودية .

سأله الإمام (ع) : أليست حين كنت تبكي كانت تدعوك : يا أسوأ من عاقر ناقة صالح ؟ قال نعم :

فسكت الإمام (ع) . وأمر بخدمتهم واستضافتهم .

ومرض ابن ملجم بعدها ، فكان الإمام (ع) يقوم بتمريضه حتى شفي . فقال له ابن ملجم : سأبقى لك خادماً ، ولن أبرح . فقال الإمام (ع) : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » !!

فسأله : لماذا استرجعت يا أمير المؤمنين .

فأجابه : لأنك أنت قاتلي !!

محبة علي (ع) أم محبة الشهوات

تعجّب ابن ملجم كثيراً ، فهو يتوهم أنه من الموالين للإمـام (ع) ، لكنه لم يكن يعلم أنه محب للشهوات ، فإذا حلّ الامتحان ، علم إن كان يحب الـدين أم الدنيـا . وإن هي إلا أيام وتنقضي ، حتى يحلّ هـذا الامتحان ، ليعلم عنـدها بم يتعلق ، وإلام تميل نفسه .

ضـرب ابن ملجم على رأسه وقـال : اقتلني الآن يا مـولاي ، فـلا يقـع الأمر الذي تقول .

قال (ع) : أنت لم تفعل شيئاً ، فكيف أقتصّ منك دون جناية منك ؟!

ووقعت حـرب صفين ، وكـان ابن ملجم في ركـاب علي (ع) ؛ وفي واقعـة النهروان ، كان مع الإمام (ع) كذلك . فلم يئن أوان كشف بواطن الأمور .

يزفّ البشرى إلى أهل الكوفة بفوز الإمام (ع)

وبعـد واقعة النهـروان ، طلب ابن ملجم الإذن من الإمـام (ع) كي يتقـدمـه إلى الكوفة ويزف إلى أهلها خبر مقدم الإمام (ع) منتصراً .

فسـأله الإمـام عن غرضـه من ذلك ، فـأجاب : إنـه ابتغاء مـرضاة الله ، لعـل السرور يدخل إلى قلوب أهل الكوفة بانتصاركم .

فأذن له ا لإمام (ع) ؛ فتناول علماً رفعه بيده ، وسارع نحو الكوفة ، فدخلها وهو يصيح : البشارة ، البشارة ، فقد فتح الله على أمير المؤمنين (ع)

واقتـرب في مسيره من قصـر (قطامـة) وهي امرأة جميلة وثـريّة جـداً ، وذات شهرة واسعة ، وكان الحديث عن جمالها قد بلغ مسامعه .

لم يكن ابن ملجم محبّاً لعلي (ع) ، وإنما كان محباً لشهواته ، وتلك مسألة ينبغي جلاؤها .

الامتحان الصعب والمصيري

تجاوز ابن ملجم قصر قطامة ، وقد كانت تبغض الإمام (ع) ، بغضاً شديداً ، ذلك أن أباها وأخاها قتلا في موقعة النهروان على أيدي جنود الإمام (ع) .

فلما سمعت ابن ملجم وقد جاء بأخبار الفتح قالت :

ـ ادعوه إليّ ، أسأله خبر أبي وأخي .

فدعوه إلى القصر ، وقاموا بالترحيب به وإكرامه . ثم قدمت قطامة ، فما أن وقع بصر التعيس ابن ملجم عليها حتى سقط في هواها ، فوهبها قلبه ، وأضاع إيمانه .

سألته قطامة إن كان يعرف أباها وأخاها ، فقال :

ـ أجل ، وقد قتلا في المعركة .

بكت قطامة ، فتأثر ابن ملجم لحزنها ، وندم على ما قال .

غادرت قطامة المجلس (ولعلها أضمرت أمراً) ثم عادت وقد زادت من زينتها ، وجلست إليه تبادله نظرات العشق والغرام .

نعم ، من هنا يبدأ الامتحان الصعب ، ويبدأ تقرير المصير ، ويعلم ابن ملجم لمن يتّسع قلبه ، ألحبّ علي (ع) ، أم لشهوة الجسد ؟!

فليس كل من أسلم صار سلمان ؛ فعليه أن يكون (سلمان) أولاً وبعدها يصبح مسلماً .

أجل ، عليه أولاً أن يخلّي القلب من حب الآخرين ، حتى يستطيع أن يحظى بمحبة أهل بيت محمد (ص) .

ووصل الأمر بابن ملجم إلى أن فقد إرادته ، أمام إغراء قطامة وأراد أن يمد يده إليها ! .

فقالت قطامة : إذا كنت تريدني فإن مهري ثقيل .

قال : مهما بلغ ، فأنا به قابل .

قالت : إنه كثير ، فإلى المال والمسك والعنبر هناك . .

قال : وماذا بعد ؟

قالت : إنه ثقيل !! ثم نهضت وخرجت ، ولما عادت ، عادت بشكل جديد من الزينة والإغراء ، الأمر الذي سلبه ما تبقّى من إرادته .

فبادرها بالسؤال ثانية : وماذا بعد ؟

عندها قالت : قتل علي !!

أجل ، فمهر العاهرة هو دم الإمام (ع) ! أفٍّ ، ما أحقرك أيتها الدنيا .

وكأن عبد الرحمن صحا ، فقال : إنه لأمر عسير حقاً ، فأمهليني أفكر .

وفي صباح اليوم التالي ، تلقى ابن ملجم خبراً من اليمن ينبئه بموت أبيه وعمّه ، وأنه أصبح الوارث لهما ، وأن أموالهما محفوظة له لحين عودته .

فرح ابن ملجم ، وفكّر بأنه سيأتي بهذا المال ، ويرمي به تحت قدمي قطامة . فقصد الإمام (ع) ، ينقل إليه الخبر ، ويطلب منه الإذن للتوجه إلى اليمن لاستلام ميراثه ، وطلب إليه أن يكتب إلى عامله على اليمن ، كي يسهل له ذلك . فأجابه الإمام (ع) إلى ما أراد .

توجه ابن ملجم بالكتاب إلى اليمن ، وفي الطريق ، وكان الليل في أوله ، رأى شعلة نار والدخان يتصاعد منها ، وسمع أصواتاً تصيح : جاء قاتل أسد الله . فأخذ يرتجف خوفاً ، وأحسّ أنها أصوات الجن .

أجل ، فهناك طائفة من الجن المؤمنين والمحبين لعلي (ع) ، ثم أخذوا يرجمونه بالحجارة حتى استحال عليه البقاء للاستراحة في ذلك المكان ، ففر هارباً ، وبعد لأي وصعوبة وصل إلى اليمن .

وهناك سلم الكتاب إلى عامل اليمن ، فقبّله ووضعه على عينه ، وقضى له

حاجته في أسرع وقت . فاستلم ابن ملجم أمواله ، وعاد وهو يمني النفس بسعادة العيش مع قطامة .

وفي الطريق ، اعترضه قطّاع للطرق ، وسلبوه كل ما معه باستثناء لباسه ودابته ، ثم التقى بقافلة فانضم إليها .

الرفاق الثلاثة والخطة العجيبة

أحس ابن ملجم بالأمان مع القافلة ، وتعرف من بين رجالها على شخصين وجد أنهما يتفقان معه في آرائه ، وصمم ثلاثتهم ـ بعد تبادل الرأي فيما بينهم ـ على قتل ثلاثة أشخاص كانوا يعتقدون أنهم السبب الكامن وراء اختلاف الأمة الإسلامية ؛ فتعهد الرجلان بقتل معاوية وعَمراً بن العاص ، وتعهد ابن ملجم بقتل علي (ع) .

ولما وصل إلى قصر قطامة ، جلس معها يشاركها شرب الخمرة أمّ المفاسد ، حتى استلبت إرادته ، فراح يلتمسها إلى نفسه ، لكن الخبيثة تمنعت وقالت : لن تنالني ما لم تنفذ ما طلبته بشأن علي ! .

أجاب عبد الرحمن : إني ذاهب من فوري لقتله .

لقد أضاع التعيس رشده ، واضطرمت نيران الشهوة في قلبه ، فخيّل إليه أن قتل علي (ع) على قدر من السهولة .

إعداد العدّة لقتل علي (ع)

قالت قطامة : الأمر لا يكون على هذه الصورة . ثم أخذت منه سيفه ، ودفعت ألف درهم لقاء صقله كي يصبح سريع الفعالية ، كما دفعت ألفاً آخر لقاء سقيه بالسم . حتى إذا لم تفعل الضربة فعلها ، تكفّل السم بذلك .

ومن الذين شاركوا ابن ملجم في قتل الإمام (ع) ، الأشعث بن قيس ، عديم الرجولة ، الذي قتلت ابنته (جعدة) الإمام الحسن (ع) بالتعاون مع معاوية ، كما اشترك ابنه محمد مع ابن زياد بقتل الحسين (ع) .

هذا وقد طال بنا الحديث ، والحق أن قصة عبد الرحمن بن ملجم إنما هي عبرة لمن يدعي محبة علي (ع) ، وعلينا أن نزن أمورنا كي لا تكون محبتنا لأشياء أخرى تفوق محبتنا لعلي (ع) .

جعل الله محبتكم ومحبتنا خالصتين لعلي (ع) ، وثبت عليها أقدامنا .

الفصل السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

كونوا مع الصادقين

من الطرق المستفادة في إثبات إمامة الأئمة من القرآن الكريم والسنة الشريفة هو الأمر باتّباعهم .

وكمثال على هذا ، نذكر آية من القرآن وحديثاً من السنة .

فالقرآن المجيد يقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[1] .

ومن البديهي أن معنى « كونوا مع الصادقين » ليس المعيّة الجسمانية ، كما لا يعني أن يدع المؤمنون بيوتهم وأسباب معاشهم ويلازموا الصادقين ليل نهار ، فالمراد ليس ذلك قطعاً ، بل المراد هو المعيّة المعنوية ، أي أن تنظروا أيها المؤمنون في العمل المستمر ، وفي الحركات والسكنات ، وفي الأفعال والأقوال إلى سيرة الصادقين ، فتقتدوا بهم وتعملوا طبق ما يعملون .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

وبتعبير آخر : فإن المعية المعنوية هي الاتّباع .

والمهم في هذه الآية الكريمة معرفة من هم الصادقون ، وعلى من تطلق هذه التسمية وما هو المراد بها .

الصادق المطلق وليس النسبي

المراد بالصادق في هذه الآية هو الصادق المطلق، وليس الصادق النسبي، بمعنى أن الإنسان قد يكون صادقاً مع الناس ، وليس كذلك مع الله ، أو يكون عكس ذلك ، فهذا هو الصادق النسبي .

أما أن يكون المرء في جميع حالاته ، وفي ليله ونهاره من أهل الصدق ، سواء مع الخالق أو مع الخلق ، وسواء في علنه وفي سره ، فهذا أمر عظيم الأهمية ، وهو ينحصر في المعصوم الذي لا ينحرف عن صراط الحق بأي وجه من الوجوه ، فهو صادق مع الله والناس .

والصادق المطلق هو من لا يخامر الهوى نفسه أصلاً ، وأولئك هم أهل بيت محمد (ص) .

قلّبوا صفحات التاريخ ، فهل تجدون فيها مثيلاً لعلي أو الحسن أو الحسين (ع) ؟

وهذا رسول الله (ص) يقول : « علي صدّيق هذه الأمة » .

وينقل الإمام الرازي في تفسيره الكبير عن الرسول (ص) قوله :

ـ الصّدّيقون ثلاثة : اثنان من الأمم السالفة ، وواحد من أمتي ، وهو علي بن أبي طالب (ع) .

سفينة نوح والثقل الأصغر

أنقل أيضاً من السنة النبوية حديثاً حول اتّباع أهل البيت ، متفقاً عليه عند الشيعة والسنة ومسلّم به ، وهو قول رسول الله (ص) :

« إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق »[1]

وكذلك بإجماع الفريقين على أنه (ص) قال :

« أيها الناس ، إني مخلّف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ؛ ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً » .

حتى لقد ورد في بعض الروايات في ذيل الحديث المتقدم أنه (ص) قرّب بين إبهاميه وقال : « كهاتين » ، ويعني أن كتاب الله والعترة هما بمقدار واحد ، ولم يشبّههما بإصبع الإبهام والسبابة مثلاً ، لأنّ إصبع الإبهام أقصر من السبابة قليلاً .

فلا تفاوت بين القرآن والعترة ، فالقرآن معنى ، وأهل البيت حقيقته والمبينين والشارحين له .

الصادقون هم الأئمة الاثنا عشر

وسئل رسول الله (ص) عمن يراد بالصادقين في هذه الآية فقال :

ـ علي والحسن والحسين . . حتى المهدي(ع) ، فهؤلاء الاثنا عشر هم الصادقون ، يعني هم الذين أمر الله تعالى باتّباعهم إذ قال ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ ، وعبر عن اتّباعهم بالكون معهم .

الاعتصام بالحبل الإلهي

ومن الآيات الواردة في اتباع أهل البيت(ع) قوله تعالى :

﴿ **واعتصموا بحَبل الله جميعاً ولا تفرّقوا** ﴾[2] .

فحبل الله هو الوسيلة التي جعلها الله بينه وبين الناس ليتمسكوا بها ويفوزوا بالنجاة ، وتلك الوسيلة هي علي والأحد عشر من بنيه (ع) ، ونقرأ في زيارته (ع) : « السلام على حبل الله المتين » .

---

(١) الغدير ، ومصادر أخرى .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

المعجزة عند ادّعاء الإمامة

ومن الطرق لإثبات الإمامة الإتيان بمعجزة كما في ادّعاء النبوة ، أي كما يُطلب ممن يّدعي النبوة الإتيان بمعجزة تشهد على صحّة ادعائه ، كذلك على مدّعي الإمامة الإتيان بمعجزة .

ولا شك أن أمير المؤمنين علياً (ع) والأحد عشر من بنيه قد ادّعوا الإمامة بأجمعهم ؛ فلكم ارتقى علي (ع) المنبر، وشكا اغتصاب حقه من قبل الغير ، ولكم عتب عليهم في خطبته (الشقشقية) وفي غيرها . وعلى أي حال فقد ادّعى (ع) الإمامة ، وكذلك فعل بنوه الأحد عشر إلى الحجة بن الحسن (ع) ؛ ثم قاموا بإتيان المعجزة بل المعاجز الكثيرة على ادّعائهم ، مما هو مثبت في الكتب . حتى أن كثيراً من علماء العامة ـ كمحمد بن طلحة الشافعي ، وابن الصباغ المالكي ـ أفردوا كتباً في معاجز أهل البيت (ع) ، وكذلك ما كتبه مؤخراً الحاج الشيخ عباس القمّي في كتابه (منتهى الآمال) من شروح موجزة لحياة ومعاجز المعصومين الأربعة عشر ، وكذلك عما يرتبط بهم من أحوال .

ردّ الشمس في صفّين

إن معاجز الإمام والأئمة من بنيه (ع) لا يحصيها عدّ ولا حساب ، غير أننا نورد بعضاً منها كمثال :

فكما أن رسول الله (ص) شق القمر إلى نصفين بإشارة من إصبعه المباركة ، كذلك فعل وصيّه وأخوه علي (ع) فرد الشمس بإشارة من إصبعه بعد أن غربت في صفّين .

وقد ارتدى هذا الموضوع ، أي (ردّ الشمس) من الأهمية ما دعا المرحوم السيد مير حامد إلى تأليف كتاب في إثباته ، وأورد الأشعار التي قيلت فيه من قبل الشعراء في كل قرن .

ويعود أصل هذا الموضوع إلى أن عدداً من أنصار الإمام (ع) ، جاؤوه في حرب صفين يشكون إليه أن صلاة العصر قد فاتتهم ، وذلك لأنها غربت خلال انشغالهم

بالقتال ، فما كان منه (ع) إلا أن أشار بإصبعه إلى الشمس فردّها .

وقد نقل المرحوم الأميني في كتابه (الغدير)[1] ما ورد عن هذه المعجزة بالتفصيل مع الأسناد المختلفة من طرق العامة .

ارتداد الشمس لمادح علي (ع)

ينقل العلامة الحلي أن أحد العلماء الأفاضل كان مشغولاً بمدح الإمام علي (ع) في أحد المجالس ، ويرجّح أنه أحمد بن فهد الحلّي ، وطال بهم المجلس حتى غربت الشمس .

فإذ ذاك ، وجه هذ المخلص المحب لعلي (ع) خطابه إلى الشمس قائلاً :

أيتها الشمس التي رجعت إلى مولاي في صفين بأمر منه ، هل يليق أن تغربي بهذه السرعة ، وهلا رجعت حتى أكمل مديحي ؟

فما أن أطلق هذا التمني حتى رجعت الشمس .

وقد وردت هذه الحكاية بعينها في المجلد التاسع من بحار الأنوار .

معجزات لا تحصى

من المحقق أن المعاجز التي أتى بها أهل البيت (ع) لا يحصرها عدّ ولا حساب ، وما ذكر منها في الكتب فكثير . ففي كتاب (مدينة المعاجز) ذكرت خمسمئة وخمسون معجزة للإمام علي (ع) ، وثلاثمئة وخمسون للإمام الحسين (ع) ، وهي من المعاجز التي تم ضبطها وتحقيقها خلال حياتهما (ع) ثم انتقلت إلى الآخرين . أما بعد موتهما ، فلا تكاد تمر سنة إلا وتشاهد لهما معجزة في نواح ومناطق مختلفة .

قبور الأئمة مواطن للرحمة الإلهية

إن بعضاً من هذه المعاجز تجري عند قبورهم الشريفة ، التي هي مواطن للرحمة

---

(١) المجلد الثالث / ٢٦ ، والخامس / ٢٣ .

الإلهية وأنوار الحق ، ومحل لهبوط الملائكة وصعودها .

فكم من أصحاب الحوائج قضيت حاجاتهم بزيارتها ؛ وكم من مرضى نالوا الشفاء بعد أن فقدوا الأمل بشفائهم ؛ وكم من عميان عادوا مبصرين ولم تصلنا أخبارهم ؛ وكم من أدعية استجيبت عند قبر الحسين (ع) ؛ وكم من آيسين نالوا مطالبهم ولم نعلم بهم !! .

ما كتبه ابن بطوطة عن قبر علي (ع)

كان لابن بطوطة ـ وهو من مؤرخي السنة ـ أسفار بعيدة إلى مناطق مختلفة ، وذلك قبل ستمئة سنة . وقد ألّف كتاباً عما كان يصادفه من أمور طريفة في المدن التي يمر بها .

يقول ابن بطوطة : عندما وصلت إلى النجف الأشرف ، توجهت إلى قبر الإمام (ع) ، فرأيت عنده أشخاصاً ثلاثة : كان أحدهم أعمى ، والآخر مقعداً ، والثالث مريضاً . قال أحدهم إنه من خراسان ، وقال الآخر إنه من إصفهان ، بينما كان الثالث من بابل .

ولما سألتهم عن شأنهم وسبب قدومهم إلى النجف أجابوا بأنهم أتوا يطلبون الشفاء من عللهم من الإمام علي (ع) ، وأنهم في انتظار ليلة البعثة في السابع والعشرين من رجب ، وذلك لما للإمام علي (ع) من ألطاف خاصة في هذه الليلة ، ونظراً لوصولهم متأخرين في هذا العام ، فهم مقيمون بانتظار حلول تلك الليلة .

يقول ابن بطوطة : إن حصول أشخاص كثيرين على الشفاء بعد توسلهم بقبر أمير المؤمنين (ع) هو من الأمور المشهورة .

لتربة الحسين (ع) أثر كيميائي حقيقي

أما تربة الحسين (ع) فهي معجزة حقاً ، فللذرّة منها أثر كيميائي عجيب . وهي ـ لو لم تدنّسها أيدي المذنبين ـ حرية بشفاء كل داء ، لكن الأيدي القذرة وصلت إليها فقللت من أثرها أو أعدمته .

ويفيد مضمون رواية عن الإمام الصادق (ع) أن أحد الأمور التي خص بها الحسين (ع) جزاء استشهاده ، هي أنه جعل الشفاء في تربته (ع) .

هذا وإن للحيوانات نصيباً في الانتفاع من قبورهم (ع) ، فكيف بالإنسان عامة ، أو بشيعتهم خاصة ؟!

أمّا ما يعود لقبر الإمام علي (ع) فقد سمعتم عنه ـ ولا بدّ ـ قليلاً أو كثيراً ، غير أنّي سأذكر لكم بعضه بإيجاز .

بحر النجف مكان لإخفاء قبر الإمام (ع)

لقد تم دفن الإمام علي (ع) بسرّية دون أن يطلع على مكانه أحد سوى أهل البيت (ع) ، وذلك كي لا يصل إليه الخوارج والنواصب فينبشوه ويهتكوا حرمة جسده الشريف ، وخاصّة فيما يأتي من الأيام ، أيام الحكم الأموي والعباسي .

كان النجف الأشرف في البدء هوراً تغطيه المياه ، ثم جف ماؤه فيما بعد فسمي بالنجف ، وهو مأخوذ من كلمة (ني جف) وتعني القصب اليابس .

وكانت مقبرة الكوفة قريبة من النجف ، وكان القسم الذي يضم القبر الشريف منها مرتفعاً ومصوناً .

وكان الحسن والحسين (ع) يأتيان بين الفينة والأخرى لزيارة قبر أبيهما ، وكذلك كان يفعل باقي أبنائه كالإمام السجاد والباقر والصادق (ع) ؛ وشيئاً فشيئاً تعرف على القبر لفيف من أصحاب الأئمة (ع) كمحمد بن مسلم .

هرون الرشيد والصيد في النجف

وفي عهد هرون الرشيد ؛ حضر إلى الكوفة ، وأبدى ميله إلى الصيد ، فهيّئت له كلاب الصيد والصقور المدرّبة ، وتحرك موكب الصيد ، فتراءى لهم غزال من بعيد ، فأرسلوا خلفه كلابهم وصقورهم تطارده .

انطلق الغزال هارباً حتى إذا بلغ تلة مرتفعة توقف ، فما كان من الكلاب والصقور إلا أن تخلت عن مطاردته ورجعت .

أخذ العجب هرون الرشيد لذلك ، ثم إذا به يرى الغزال وقد انحـدر عن التلة ، فأمر بإطلاق الكـلاب خلفه مجـدداً ، فما كـان من الغزال إلاّ أن عـاد إلى التلة ، فتوقفت ولم تجرؤ على الدنوّ منه .

زاد عجب هـرون لما رأى ، وأدرك أن في الأمـر سراً ، فـأمر بـالبحث في تلك الأنحاء عمّن يجلو لهم هذا الأمر من أهل الاطلاع والمعرفة .

وبعد البحث عثروا على شيخ مسنّ يسكن تلك الأنحاء ، فـراحوا يسـألونـه عن جلية الأمر . خاف الشيخ في البداية ولم يفه بشيء ، غير أنه اطمأن أخيراً وقال :

ـ لقد زرت هذه البقعة مع والـدي ، فأخبـرني بأن الإمـام الصادق (ع) أفـاد بأن هذا المكان هو قبر الإمام علي (ع) .

أبدى هرون الرشيد كل احترام ، وأمر ببناء ضريح للمرقد المبارك ، فكان بـذلك أول شخص يقدم على هذا العمل . ومع مرور الأيام أقدم آخرون على إعادة بناء القبـر الشريف ، وخاصة أيام حكم الديالمة ، فقد سعى عضد الدولة الديلمي سعيـاً كبيراً في بناء القبر وترميمه ، كما تمّ تذهيبه أيام حكم نادر شاه .

ومن المناسب هنا أن نذكر معجزة ترتبط بقبر الإمام علي (ع) نختم بها حديثنا .

تحذيره (ع) لمن يتعرض لزائريه بسوء

وردت في المجلد التاسع من بحار الأنوار قصة مطولة ، سأوجزها لكم .

قال زيد النسّاج : كان لي جـار مسنّ وقلّما كنت أراه . ذهب أحـد أيام الجمعـة إلى الحمام ليغتسل غسل الجمعة ، ولما نزع ثيابه رأيت في ظهره جرحاً متعفّناً يقـارب طوله الشبر

اقتربت منه أسأله عن سبب ذلك الجرح ، فلم يجب في البداية ، غيـر أنه بعـد إلحاحي عليه قص علي [illegible] قال :

[illegible] في شبـابي منصـرفـاً إلى [illegible]

التباب . وكانت لنا جلسة كل ليلة في بيت أحدنـا ، ولما حانت نوبتي ولم يكن لـدي شيء في البيت أقدّمه للأصحاب ، أخذت سيفي وقصدت ظاهر الكـوفة ، لعـل أحداً

يمرّ بي فأسلبه ما معه . غير أني لم أصادف أحداً .

كان الجو غائماً مكفهراً ، وفجأة لمع البرق فرأيت على ضوئه إمرأتين ، فأسرعت إليهما ونهرتهما طالباً أن تعطياني كل ما لديهما ، وإلاّ قتلتهما . فقدمتا لي كل ما معهما من حلي .

وعندما لمع البرق ثانية ، اتّضح لي أن إحداهما كانت شابة جميلة ، والأخرى عجوزاً ؛ اضطرمت في نفسي نار الشهوة واندفعت أريد نوال تلك الشابة ، لكن العجوز أمسكت بي وقالت :

أبعد يديك عن هذه البنت ، فهي يتيمة وأنا خالتها ، وقد خطبها ابن عمها وغداً زفافها . وقد طلبت منّي أن أرافقها لزيارة قبر أمير المؤمنين (ع) ، فقد لا تتمكن من زيارته بعد زواجها ، وقد لا يسمح لها زوجها بذلك . لذا أرجوك بحق علي (ع) إلاّ ما ابتعدت عنها .

لكني لم آبه لما قالت ومددت يدي إليها ، لكن الشابة صاحت فجأة متوسلة : أغثني يا علي . .

فسمعت من ورائي صوتاً ، وإذا بفارس يصيح بي : قم .

فأجبته بكل غرور : يبدو أنك بدورك لن تنجو مني ، ومع ذلك تشفع لهذه المرأة ؟!

وما أن قلت ذلك حتى أشار الفارس بذؤابة سيفه إلى ظهري (دون أن يضرب) فوقعت على الأرض مغشياً علي . وسمعت المرأتين تشكران للفارس أن أنقذهما من يدي هذا الظالم ، وترجوانه أن يرافقهما إلى قبر علي (ع) .

فأجابهما الفارس بكل عطف : إن زيارتكما مقبوله ، فأنا علي بن أبي طالب .

فواتتني الجرأة لدى سماعي ذلك ، وتوسلت إليه أن يعفو عني معلناً له توبتي .

فأجابني : إن كنت عازماً على التوبة صادقاً ، فإن الله سيتوب عليك .

قلت : إن هذا الجرح يؤلمني يا مولاي .

فرفع (ع) قبضة من تراب نثره على ظهري فبرؤ الجرح ، وما تراه الآن إنما هو الأثر الباقي من ذلك الجرح بعد شفائه .

الفصل الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

وصايا علي (ع) في يومه الأخير

أوصى أمير المؤمنين (ع) بوصايا عديلة في اليوم الأخير من حياته ، منها ما كان إلى بنيه ومنها إلى أصحابه . ونشير اليوم إلى بعض وصاياه إلى أصحابه (ع) طبقاً لما ورد في كتاب (أصول الكافي) .

فبعد ضربة ابن ملجم له . لزم الفراش ، وأخذ الناس يتوافدون لعيادته أفواجاً ، بعد أن انتشر خبر السوء الذي استهدف حياته الشريفة في الكوفة وأطرافها . وفي البداية كان الأمل يخامر النفوس بشفائه ، غير أن فحوصات الطبيب أوضحت أن أيامه شارفت على الانتهاء .

لذا رغب الناس إليه أن يعظهم ويوصيهم ، ومع أنه كان على شفا الموت فلم يتلكأ عن وعظهم ونصحهم بما عهد عنه من كلام بديع بليغ . ومما قال :

« كلّ امرىء لاقٍ في فراره ما يفرّ منه »[١] .

فكل امرىء يسعى إلى الفرار من الموت ، ولكن عبثاً ، فعاقبة الحياة الموت ،

---

(١) أصول الكافي .

وأنتم ترون كيف يسارع أحدنا إلى الطبيب والعلاج إذا مرض، غير أن يد الأجل تكون في انتظاره لتنهي فراره وصراعه .

وصية علي (ع) : لا تشركوا .

« وأما وصيّتي إليكم : فالله ، لا تشركوا به شيئاً »[1] .

فلتعبدوا الله وحده ، لأن الحياة والموت من الله ، والرزق من الله ، وكل شيء من الله ، وليس لغير الله أن يفعل شيئاً ، فلمَ الشرك به إذاً ؟ وليكن خضوعكم وخشوعكم لله وحده ، لا تعبدون غيره ، ابتعدوا عن ميول النفس ولا تطيعوا أهواءها ، بل كونوا كما كان علي (ع) .

تعلموا الإخلاص في العمل من علي (ع)

سمعتم مراراً أن علياً (ع) ، حين ضرب عَمْراً بن عبد ودّ العامري فقطّ ساقه ووقع على الأرض ، ثم جثم على صدره كي يحتز رأسه ، ما كان من عمرو إلا أن بصق في وجه الإمام (ع) .

نهض الإمام وابتعد قليلاً ، ثم عاد إليه واحتزّ رأسه .

وحين سألوه ـ فيما بعد ـ عن سبب ابتعاده عنه ثم عودته أجاب :

ـ لقد أثار غضبي بما فعل ، فخشيت أن أقطع رأسه في تلك الحال فيكون قتله غضباً لنفسي وليس غضباً لله ، فأمسكت حتى هدأت ثائرتي ، ثم عدت إليه !

أجل ، فهذا هو علي رجل الإخلاص ، وهو إلى هذا الحد يحذر من الشرك ، فلا دخل لميول نفسه مع عبادته .

لو أن شخصاً قام بعمل يريد به أن يراه الناس ويسمعوه ويمتدحوه ، فعمله هو الشرك ، لأنه قام به رياءً وسمعة .

---

(١) أصول الكافي .

لا تضيّعوا سنّة محمد (ص)

« ومحمداً فلا تضيّعوا سنّته »[1] .

الوصية الأخرى لأمير المؤمنين (ع) هي أن يرعى المسلمون ويحفظوا سنة وسيرة رسول الله (ص) ، فلا يضيّعوها ، فيقوموا بما عيّن لهم من الواجبات والمستحبات ، ويبتعدوا عما نهاهم عنه من المحرمات والمكروهات ، فإنها الأحكام التي تنظم الحياة وتهيىء للإنسان السعادة والراحة في الدنيا والآخرة .

فلو شاؤوا أن يكونوا سعداء في هذه الدنيا فعليهم التمسك بالدين ، لأن الإنسان إذا التزم بأحكام الله تعالى فقد ضمن عيشه وسعادته ، الأمر الذي هو ثابت بالتجربة .

موعظة ناريّة لأمير المؤمنين (ع)

« أنا بالأمس صاحبكم ، واليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم »[2] .

يقول (ع) : كنت بالأمس معكم ، فأحضر إلى المسجد كما تحضرون ، وأصلي كما تصلون ، أما اليوم فأنا لكم عبرة ، فاعتبروا يا أصحاب الأبدان السليمة ، وها أنذا أمامكم طريح الفراش ، انظروا إلى مفرق رأسي واعتبروا ، انظروا إلى يدي العاجزة عن الحركة من أثر السم ، هذه اليد التي قلعت باب خيبر ، تلك الباب التي كانت تفتح وتغلق بأربعين رجلاً ؛ ثم جعلت منها جسراً يعبر عليه جند الإسلام إلى الحصن ، تلك اليد التي قتلت مرحباً وعَمْراً بن عبد ودّ ، فلتكن لكم عبرة .

أما في غدي فإني مفارقكم وذاهب عنكم ، وسيضم هاتين اليدين والرجلين الكفن ، وسيواري التراب هذا الجسد ، فاعتبروا .

إذاً ، فلا تعتدوا . .

أيتها الأيدي السليمة ، إياك أن تسلبي أحداً ماله ، أو تظلمي أحداً حقه . فالإمام قال يوماً من فوق المنبر :

(١، ٢) أصول الكافي .

« والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة على أن أسلب نملةً جلب شعيرة ما فعلت » .

وأنتم أيضاً يا محبيّ علي (ع) ، كونوا عوناً للناس ولا تكونوا عليهم ، قدموا فعل الخير قبل أن تشلّ منكم الأعضاء والجوارح .

ألم يقل (ع) إنه كان بالأمس صاحبكم ، وغداً ستلتحق روحه الشريفة بالملأ الأعلى ؟ وسيترك بينكم جسداً فاقداً للروح ، هو لكم موعظة وعبرة ، فموته إيذان بأنكم لاحقون به غداً ، فاعتبروا يا أولي الألباب .

وداع من ينتظر اللقاء

ثم قال (ع) : « أستودعكم الله وداع من ينتظر اللقاء » . فاليوم يوم الفراق ، وغداً في القيامة « يوم التلاق » ، فإنكم سترون علياً ويراكم غداً ، بل في هذه الساعة ، ساعة الموت ، كما في عالم البرزخ أيضاً ، حيث الروح تتعلق بالبدن المثالي .

ستدركون غداً حقيقة علي (ع)

« وسترون أيامي غداً ، وتنكشف سريرتي لكم » .

سترون في المقبل من الأيام حقيقته وباطنه (ع) ، كما كنتم ترون هنا صورته وظاهره .

وقد فسر بعض الشرّاح هذه الجملة بأنها تعني أنكم سترون علياً (ع) في ساعة موتكم . ويؤيد هذا المعنى ما أوردته الروايات من أنه (ع) يحضر وفاة كل إنسان ، مؤمناً كان أو كافراً .

نور الشمس يضيء كل مكان

فكما أن نور الشمس يدخل أماكن لا تحصى ، كذلك فعلي (ع) سيكون حاضراً ، ويراه الجميع ، كما تعكس آلاف المرايا نور الشمس دفعة واحدة .

فنوره (ع) يشرق في كل مكان ، وينير قلوب أهل الإيمان ، كما يعمي قلوب أهل الكفر والعصيان .

وقد جرت من ذلك نماذج خلال حياته (ع) ، نشير إلى بعضها .

علي (ع) يهزم جيشاً لوحده

في حرب صفين ، جهز معاوية فرقة خاصة قوامها اثنا عشر ألفاً من الرجال المدججين بالسلاح والدروع ، لا تنكشف منهم إلا أعينهم ، فلا تؤثر بهم السهام والسيوف .

وما أن ظهر هذا الجيش لأصحاب الإمام (ع) حتى خافوا وانهارت معنوياتهم .

تحدث علي (ع) إلى جنوده في البداية ، وحثهم على القتال ، ثم لم يجد بداً من أن يهجم بمفرده على هذا الجيش ، فخلط حابله بنابله ، وقتل من قتل ، وجرح من جرح ، ولاذ الباقون بالفرار .

وصل بعض الفارّين إلى خيمة معاوية ، فاستنكر فرارهم وهزيمتهم فأجابوه :

كنّا أينما توجهنا رأينا علي بن أبي طالب يكر علينا بالسيف حيناً وبالرماح والسهام حيناً آخر .

أجل ، فقد كان يكرّ عليهم بجسده المثالي ، ويشتت شملهم .

ضيف في أربعين مكاناً ، وفي ليلة واحدة

لعلكم سمعتم بالرواية التي تقول : إن أربعين شخصاً ضمهم المسجد ، وكل منهم كان يدّعي بأن علياً (ع) كان ضيفاً عليه في الليلة الفائتة .

فقال رسول الله (ص) : علي كان ضيفي في تلك الليلة .

وإذ ذاك نزل جبرائيل وقال : يا رسول الله ، كان علي ضيفي ليلة أمس .

هذا الظهور المتعدد إنما يحصل من البدن المثالي ، بالقوة العلوية ، والروح الكليّة الإلهيّة . فيستطيع التواجد في أربعين مجلساً في آن ، وذلك بالقدرة التي وهبها الله له ، والبدن المثالي هو غير هذا البدن في عالم الملك ، وهو ـ بذلك البدن ـ يحضر وفاة كل محتضر .

يحضر جنازته

ورد في المجلد التاسع من بحار الأنوار أن علياً (ع) أوصى بأن تترك مقدّمة جنازته خالية ، وأن يأخذ كل من الحسين والحسن (ع) بجانب من مؤخرتها ، وأوصى بأن تترك الجنازة في المكان الذي تهبط فيه على الأرض فيتسلمها جبرائيل وميكائيل .

يقول محمد بن الحنفية : لم تبقَ شجرة مررنا عليها في طريقنا إلّا وانحنت تعظيماً للجنازة ، وفجأة ظهر رجل بنقاب أسود ، فسلم على الحسن (ع) وقال : أنتَ الحسن كبير أبناء علي ؟ فقال نعم . ثم التفت إلى الحسين (ع) وقال : أنت الحسين ابن صاحب الجنازة وأبو الأئمة ؟ فقال نعم .

إذ ذاك قال : اتركا الجنازة هنا وارجعوا من حيث أتيتم .

قالا : لكن أبانا أوصانا أن لا نسلمها إلا إلى جبرائيل والخضر (ع) .

فأزاح النقاب عن وجهه ، فإذا أمامهما علي (ع) .

نعم ، فإن ذلك الإنسان الذي يحضر كل جنازة ، قد حضر جنازته كذلك .

الحضور بالبدن المثالي في آلاف الأمكنة

إنّ في مقدوره بهذا البدن المثالي الذي شرح مفصلاً في بحث المعاد ، أن يحضر في آلاف الأمكنة في آن واحد ، إنْ لدى المحتضرين ، وفي الملأ الأعلى ، وفي الملكوت العلوي وفي كل مكان ؛ وأي مانع هناك طالما أن التضارب والتزاحم في العمل لا يكونان إلّا في الأجسام المادية ؟ .

أجل ، فالأمر المهم في الموضوع هو أن علينا أن نعدّ قلوبنا لقدومه المبارك ، فنطهرّها من أي علاقة غير إلهية .

لقاء الإمام (ع) والتعلّق بالماديات

إذا أراد حاكم دنيوي زيارتكم ، وكانت ثيابكم وأجسامكم متسخة ، وأوضاعكم غير لائقة ، فإنكم ولا شك ستخجلون من أنفسكم .

فكيف إن كان زائركم سلطان عالم الوجود علي بن أبي طالب (ع) ؟ وهو إنما يريد زيارة ذواتكم وقلوبكم ، فلا يجوز أن تكون مشغولة بارتباطات مادية كي لا تخجلوا بها أمامه (ع) ، عليكم أن تعطوا لقاءه الأهمية التي يستحقها ، وتكونوا ذوي همم عالية ، ونفوس كلها عزيمة على إصلاح الذات ، وعندها لن تخجلوا من لقائه .

كونوا قبل الموت مستعدّين لحضوره (ع) ، واجهدوا أن تخلو قلوبكم من أي علاقة غير العلاقة الإلهية برب العالمين .

وجوب طاعة الإمام المتأخر للمتقدم

والآن أذكر لكم بعضاً من وصيته لأبنائه ، فهي ذات ارتباط ببحث الإمامة من حيث تعيين الإمام بعده .

يقول محمد بن الحنفية :

دعانا أبونا في الليلة الأخيرة من عمره وقال لنا : عليكم بطاعة أخيكم الحسن ، فهو الإمام عليكم .

ثم التفت إلى الحسن (ع) وقال : وعليك أنت أيضاً أن تعيّن أخاك وصياً لك عند وفاتك .

ثم توجّه إلى الحسين (ع) قائلاً : وعليك أنت بدورك ، إذا وافتك المنية ، أن تجعل هذا الطفل وصيّاً لك ؛ مشيراً إلى الإمام السجاد (ع) وكان جالساً عند قدمي جده قرب الفراش ، وسنه لا تتجاوز السنتين ، أو الأربع على قول .

الوصية الأخيرة لأمير المؤمنين (ع)

كان آخر ما قاله (ع) أنه قرأ التلاوة الشريفة :

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره** ﴾[1] .

فهل تتصور أنك إن شتمت أحداً ، مرت فعلتك بسلام ودون أي أثر ؟

---

(١) سورة الزلزلة : الآيات ٧ ـ ٨ .

لا . فإن ظلمة ذنبك هذا ستبقى مستقرة في ذاتك ، مثبتة في كتاب أعمالك ، وستطالعك صورة عملك القبيحة في عالم الملكوت فتخجل من نفسك .

ثم تلا (ع) آية أخرى :

﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[1] .

فعلى من أراد أن يكون من أهل العمل ، فهذه هي سبيله ، وعلى من أراد الوصول إلى الكمال والمقام العلوي فليسر بسيرة علي (ع) .

الأرواح الطاهرة تكون في استقبال روح المؤمن

كان الإمام (ع) ممدّداً على فراش ، وهو مشرف على الموت ، لفته أن أم كلثوم كانت تبكي بحرقة ، فناداها وقال :

أي بنيّة ، لا تبكي على أبيك ، فلا خوف عليه ، ولو علمت أين سيذهب لفرحت . فهذا رسول الله (ص) قد أقبل ، وهذا عمي حمزة سيد الشهداء قد أقبل ، وهذا أخي جعفر الطيار قد أقبل .

ثم سلّم على أرواح الأنبياء قائلاً :

« السلام عليكم يا رسل ربّي ورحمة الله وبركاته » . ثم قال :

« السلام عليك يا عزرائيل » .

فعلم أن عمله (ع) قد بلغ نهايته ، وأنه بلغ النجاة من هذه الدنيا وويلاتها .

---

(١) سورة الصافات : الآية ٦١ .

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع :

الموضوع الصفحة

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الموضوع | الصفحة

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الموضوع	الصفحة